

صَحِيحُ

نَايِخُ الطَّبْرِيِّ

قِصَصُ الْأَنْبِيَاءِ

وَتَارِيخُ مَا قَبْلَ الْبَعْثَةِ

لِلْإِمَامِ أَبِي جَعْفَرِ بْنِ جَرِيرِ الطَّبْرِيِّ

(٢٩٤ - ٣١٠ هـ)

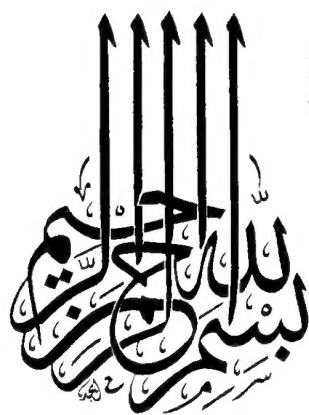
بإشراف ومراجعة المحقق
محمد صبحي حسن حلاق

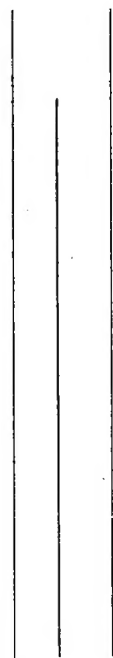
محققه ودرج ردایایه وعلی علیه
محمد بن طاهر البرزنجی

المجلد الأول

دار ابن كثير

دمشق - بيروت





صَحِيحُ

الشيخ الطبري

فَصَحَّحَ الأَئِمَّةُ

وَتَأَخَّرَ مَا قَبْلَ الْفَتْوَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

1428 هـ - 2007 م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من

دار ابن كثير

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - بيروت

الرقم الدولي :

الموضوع : تاريخ

العنوان : صحيح و ضعيف تاريخ الطبري 10\1

التأليف : الإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري

نوع الورق : أبيض

ألوان الطباعة : لوان

عدد الصفحات : 5616

القياس : 24×17

نوع التجليد : فني - كعب لوحة

الوزن : 10 كغ

التنفيذ الطباعي : مطابع المستقبل

التجليد : مؤسسة فؤاد البعينو للتجليد

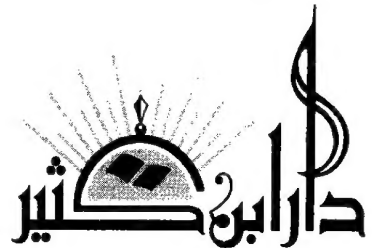
دمشق - حلب - باني - جادة ابن سينا - بناء الجاهي

ص.ب : 311 - هاتف : 2225877 - 2228450 - فاكس : 2243502

بيروت - برج أبي حيدر - خلف ديبوس الأصلي - بناء الحديقة

ص.ب : 113/6318 - تليفاكس : 01/817857 - جوال : 03/204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com



المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله :

أولاً

١ - تعريف التأريخ :

لغة: تعريف الوقت والتاريخ مثله يقال: أرخت وورخت [الجوهري] والأصمعي يفرّق بين لهجتين فبنو تميم يقولون: ورّخت الكتاب تأريخاً وقيس تقول: أرخته تأريخاً هذا ما ذكره السخاوي في كتابه الإعلان بالتويخ [ص ١٩].
التأريخ اصطلاحاً: لعلّ ابن خلدون (٨٠٨ هـ) أوّل من عرّف التأريخ تعريفاً شافياً وسبق بذلك علماء المسلمين وغير المسلمين.

قال ابن خلدون [العلامة المؤرخ] رحمه الله تعالى وهو يعرف التأريخ: [هو في ظاهره: لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول ، والسوابق من القرون الأول تنمو فيها الأقوال وتضرب فيها الأمثال].

وفي باطنه: نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبانيها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق .

ولقد كان ابن خلدون دقيقاً في تقييمه للكم الهائل من الروايات التاريخية فقال وإن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها ، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها أو ابتدعوها وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها [مقدمة ابن خلدون].

أما السخاوي (٩٠٢ هـ) فقد عرف التأريخ اصطلاحاً فقال :

التعريف بالوقت الذي تضبط به الأحوال من مولد الرواة والأئمة ووفاة وصحة وعقل وبدن ورحلة وحج و حفظ وضبط وتوثيق وتخريج وما أشبه هذا مما مرجعه الفحص عن أحوالهم في ابتدائهم وحالهم واستقبالهم ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة من ظهور حكمة وتجديد فرض ، وخليفة ووزير وغزوة وملحمة وحرب وفتح بلد وانتزاعه من متغلب عليه وانتقال دولة [الإعلان بالتوبيخ: ص ٢٠].

الكافي: وأما علم التأريخ فهو علم يبحث عن الزمان وأحواله وعن أحوال ما يتعلق به من حيث تعيين ذلك وتوثيقه وأما موضوعه فالإنسان والزمان [المختصر في علم التأريخ: ٣٢٧].

وأما التأريخ بمعنى التقويم فالصحيح أنه بدأ به في خلافة أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب حين أمر المسلمين أن يجعلوا من مقدم النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة بداية التأريخ الإسلامي فسمي [الهجري]. قال السخاوي والمحفوظ كما قال ابن عساكر أن الأمر به في زمن عمر وكذا صححه الجمهور بل هو الصحيح المشهور أنه كان في خلافة عمر وأنه ابتدأ بالهجرة النبوية وبالمحرم منها [الإعلان بالتوبيخ/ ٩٥].

أسباب اهتمام الأمة المسلمة بكتابة التأريخ:

١ - لاهتمام القرآن الكريم بقصص الأنبياء والأمم السابقة وبيان أحوالهم واستخراج الدروس والعبر من أحوالهم ومآلهم وكذلك قصص الفراعنة وقارون وغير ذلك كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾.

٢ - اهتمام القرآن الكريم بدراسة تبدل الأحوال والأوضاع وحث الناس على تدبر الوقائع واكتشاف سنن الله في الكون ومنها السنن التاريخية كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ لِقَوْمٍ أَعْيُنُهُمْ أَغْمِيَتْ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

٣ - اهتمت السنة النبوية الشريفة بقصص الأنبياء والصالحين من الأمم السابقة واستنباط العظات والعبر - كقوله عليه الصلاة والسلام: «إنه كان فيمن قبلكم... الحديث».

٤ - أوصى الإسلام [كتاباً وسنة] بتتبع سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام فكان ذلك عاملاً آخر من عوامل اهتمام المسلمين بالسير والمغازي كجزء من التأريخ الإسلامي.

يقول الدكتور الدوري: إن القرآن نصّ على أن أقوال الرسول ﷺ موصى بها وأن سيرته مثل للمسلمين يقتدون به وهنا نجد دافعاً مباشراً لدراسة أقوال الرسول وأفعاله [بحث في نشأة علم التأريخ/ ١٨].

٥ - كان العرب أصحاب شعر وحكايات وقصائد تروي بطولات القبيلة ومواقف رموزها المشهودة - يضاف إلى ذلك كله قوة الحافظة عند العرب تعويضاً عن أميتهم كما قال عليه الصلاة والسلام «إنا أمة أمية». يقول الأستاذ محمد فتحي عثمان وهو يتحدث عن خصائص العرب يومها: فهي أمة تميّزت بالحفظ والهداية وبالبلاغة والشعر، وبالحرص على الأنساب والفخر بها وكل هذه الثلاثة معين على ازدهار التأريخ [المدخل إلى التأريخ الإسلامي/ ١١٤].

٦ - اهتمام الخلفاء المتعاقبين على إدارة الحكم بالمغازي والسير وتأريخ من سبقهم من الملوك والخلفاء وحث النسابة والإخباريين على تدوين ما لديهم من الأخبار والأنساب وغير ذلك يقول الأستاذ شاكر مصطفى: فلقد كانت رغبة بعض الأمويين والولاة في المعرفة التاريخية وإن كانت لها أسبابها بالنسبة إليهم مشجعاً لإدخال هذه المعرفة بين المعارف النبيلة المطلوبة في المجتمع الإسلامي. وإذا كان معاوية قد استدعى عبيد بن شربة من صنعاء ليسأله عن ملوك العرب والعجم ويأمر بتسجيل ما يقول ويجلس كل مساء لسماع أخبار التأريخ وكان مروان بن الحكم يذني مجلس حكيم بن حزام لسمع منه أخبار المغازي وعبد الملك يطلب أخبارها من التابعين وكان عروة بن الزبير راوية التأريخ على صلة بعبد الملك وابنه الوليد وبعمربن عبد العزيز فقد عرفنا أيضاً أن هشام بن عبد الملك وضع لابن شهاب الزهري كاتبين يكتبان عنه سنة فلما مات الزهري وجدت له أكوام من الكتب في خزائن الأمويين [التأريخ العربي والمؤرخون/ ص ٦٧].

٧ - إن إنشاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه للدواوين وتسجيل أسماء المجاهدين الفاتحين حسب قبائلهم وأسرههم شجّع ظهور النسابة الخبراء في أنساب القبائل على اختلافها وأضحى الأنساب فيما بعد جزءاً من التأريخ حتى

أن البلاذري قد ألف سफراً عظيماً بترتيب أشهر الأنساب متضمناً الآباء والأبناء ومنهم الخلفاء الراشدون وبقية الخلفاء من بني العباس وبني أمية ويعتبر كتابه مصدراً متقدماً ثميناً.

يقول الأستاذ محمد فتحي عثمان [وقد اشتهر الصديق أبو بكر بحفظ الأنساب وأعان إنشاء عمر (للديوان) على حفظ الأنساب أيضاً وكان من دواعيه تنظيم العطاء... وقد شجع الأمويون على حفظ الأنساب وظهر النسابون الأوائل في عهدهم واشتهر في هذا المجال دغفل بن حنظلة الشيباني سنة ٧٠ هـ]. [المدخل إلى التاريخ الإسلامي/١٣٦].

٨ - كان الخلفاء الأمويون ومن بعدهم العباسيون حريصين كل الحرص على تمييز الأراضي المفتوحة صلحاً أو عنوة وما إلى ذلك إلى أراضي خراجية أو عشرية حرصاً منهم على نظافة بيت المال وعدم السماح لدخول المال الحرام فيه وكان ذلك يعني اهتمامهم وسؤالهم عن الفتوحات الإسلامية الكبرى وأخبارها.

وحتى غير الخلفاء وبالأخص العلماء ومنهم الفقهاء قد اهتموا بهذا الجانب كثيراً حتى أنك ترى إماماً فقيهاً كالقاضي أبي يوسف يؤلف كتاباً في الخراج يروي فيه بالسند الموصول وقائع بعض الفتوحات الإسلامية في العراق وغيره.

٩ - حث الرسول عليه الصلاة والسلام أمته من بعده على احترام الصحابة الكرام وإجلالهم والافتداء بهم وخاصة الخلفاء الراشدين وتبعية سيرتهم وخاصة في أبواب السياسة الشرعية كقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث النبوي الشريف «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ».

وهذا عامل آخر يضاف إلى عوامل أخرى دفعت الأئمة الأعلام إلى الاهتمام بتاريخ الراشدين كجزء من التاريخ الإسلامي وكتاب حلية الأولياء للحافظ الأصفهاني زاخر بسير الصحابة رضوان الله تعالى عليهم.

١٠ - إن ورود نصوص من السنة الشريفة تبين فضل جيل الصحابة وقوتهم على التابعين والتابعين على من بعدهم وكذلك تجمعهم عدد كبير من التابعين حول الصحابة لأخذ العلم الشرعي دفع العلماء إلى تصنيف كتب في الطبقات وخاصة

طبقات الصحابة والتابعين فهذا سابق وهذا مهاجر وذاك أنصاري وهذا بدري وهذا من مسلمة الفتح ثم تأتي طبقات التابعين من بعدهم وكتاب الطبقات الكبرى لابن سعد خير شاهد على ذلك .

نشأة التاريخ عند المسلمين رواية ثم تدويناً وتبويباً أو تصنيفاً :

من الثابت عند أئمة المسلمين جميعاً أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد اتخذ من الصحابة من سمّوا (كتاب الوحي) كسيدنا علي وسيدنا معاوية وسيدنا عثمان وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين .

ومعلوم كذلك أن عدداً من الصحابة قد كتبوا جزءاً من السنة النبوية في صحف خاصة بهم ولكنها اندثرت ولكن حفظها تلامذتهم من التابعين الكرام ونقلوها إلى من بعدهم .

وللجمع بين أقوال العلماء في معرفة أول من دوّن الحديث مصنفاً مبوباً قالوا :
أول من دوّن مصنفاً ومبوباً :

محمد بن إسحاق بالمدينة (توفي ١٥١ هـ) .

وابن جريج بمكة (١٥٠ هـ) .

وحمد بن سلمة (١٦٧ هـ) بالبصرة .

ومعمر بن راشد (١٥٣ هـ) باليمن .

وسفيان الثوري (١٦١ هـ) بالكوفة . . . إلخ .

والإمام الذهبي رحمه الله يحدد سنة ١٤٣ هـ كبداية وانطلاقة لتدوين الحديث والتغيير وغيرهما فيقول : فصنف ابن جريج بمكة ومالك بن أنس الموطأ بالمدينة والأوزاعي بالشام وابن أبي عروبة وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة ومعمر باليمن وسفيان بالكوفة مصنف ابن إسحاق المغازي مصنف أبو حنيفة رحمه الله الفقه والرأي . . إلى أن يقول الذهبي : وقبل هذا العصر كان الأئمة يتكلمون من حفظهم أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة [تذكرة الحفاظ ٢٥٩/١] .

ويعلق الأستاذ شاكر مصطفى على هذا المقطع من كلام الحافظ الذهبي فيقول : ويتنبه الذهبي في هذا النص إلى عدد من الحقائق المتصلة بنشأة العلوم

الإسلامية ولعل أهمها مرورها في القرن الثاني في سنة ١٤٣ هـ كما يقول من مرحلة التسجيل غير المرتب إلى التصنيف المبوب [ص ٩٢] إلى أن يقول شاكر مصطفى وإذا نحن تجاوزنا تحديد سنة ١٤٣ هـ كسنة انقلابية - وهو تحديد ليس بالخاطئ تماماً على أي حال... إلخ) [التأريخ العربي والمؤرخون ص ٩٣] ثم يمضي الأستاذ شاكر في تعقبه على كلام الحافظ الذهبي ويبتن أن من سبق هذا التأريخ بالكتابة في التأريخ كعروة بن الزبير والزهري إنما كتبوا في أبواب متفرقة ولم يكن محاولة للإحاطة بكل الأخبار لكافة المواضيع وأن هذا النشاط في تسجيل مثل هذه الأدوار التاريخية لم يكن بعد قد أخذ انطلاقته الواضحة لأنه بقي رسمياً لحد ما دينياً ولم يصبح تياراً فكرياً ثقافياً واضح التدوين... [التأريخ العربي والمؤرخون ص ٩٥ باختصار وتصرف] وهذا كلام نوزع فيه الأستاذ.

فأما تحديد هذه السنة بالذات (١٤٣ هـ) كحد فاصل بين التدوين المبوب وغير المبوب ففيه نظر لأن عروة بن الزبير رضي الله عنه والمتوفى سنة (٩٣ هـ) معروف بالمغازي والسير ومروياته في السيرة خاصة في حنايا كتاب المغازي صحيح البخاري وكذلك الطبري وغيرهما ويعتبره الدوري مؤسساً لمدرسة المغازي (ص ٢١) ولو اتفقنا مع الأستاذ شاكر في عدم اعتبار كتابات عروة كذلك فإننا لا نستطيع أن نتجاوز مرويات الزهري ذلك الإمام المحدث الفقيه الذي ساهم في تدوين السيرة النبوية الشريفة وشرطاً من تأريخ الخلافة الراشدة وخاصة أيام الفتن وردحاً من بدايات الخلافة في عهد الأمويين حتى أن البعض يعتبره مؤرخاً [انظر ما كتبه الدكتور الدوري - عبد العزيز - في كتابه (بحث في نشأة علم التأريخ) فهو يعتبر الزهري (١٢٤ هـ) مؤرخاً ومختصاً بالمغازي (ص ٢١) وليس الرجل متقولاً في ذلك فللمسألة أصل معتمد فقد قال الطبري رحمه الله: كان الزهري مقدماً في العلم بمغازي رسول الله ﷺ وأخبار قریش والأنصار راوية لأخبار رسول الله ﷺ وأصحابه [المنتخب من كتاب ذيل المذيل/ ٩٧].

ولا بد لنا من دراسة المدارس التاريخية في المدن الإسلامية في القرنين الأول والثاني ومعرفة عدد من رواد ومنشئي هذه المدارس [مدرسة المدينة] [مدرسة الشام] [مدرسة العراق] [مدرسة مصر].

أ - مدرسة المدينة :

١ - عروة بن الزبير : توفي سنة ٩٤ هـ المحدث الفقيه بل أحد الفقهاء السبعة في المدينة يومها قال الحافظ ابن حجر في ترجمته ثقة فقيه مشهور من الثانية مات سنة ٩٤ على الصحيح ومولده في أوائل خلافة عمر الفاروق [تقريب/ تر ٥١٣١]. أول من ألف في المغازي^(١).

٢ - أبان بن عثمان بن عفان : توفي (سنة ١٠٥ هـ) وهو ثقة من الثالثة [تقريب/ تر ١٦٣].

٣ - سعيد بن المسيب : توفي سنة ٩٤ هـ وهو نسابة مؤرخ فقيه^(٢).

٤ - محمد بن مسلم بن شهاب الزهري : (٥٠ - ١٢٤ هـ) ويعتبره بعضهم مؤسساً لمدرسة التاريخ في المدينة والشام^(٣).

وقال آخرون صاحب دراسات وأبحاث في التاريخ والفقه والحديث^(٤).

ومن خلال تخريجنا لروايات الزهري التاريخية عند الطبري وغيره وجدنا اهتمامه بالسيرة والمغازي ثم بأحداث الفتن في عهد الخلفاء الراشدين وصلح سيدنا الحسن مع سيدنا معاوية رضي الله عنهم أجمعين بالإضافة إلى اهتمامه بأعمار الخلفاء من بعدهم وسني حكمهم.

وهؤلاء وغيرهم نواة لمدرسة المدينة وهم متأثرون بشكل أو بآخر بمرويات عبد الله بن عباس (فيما يتعلق بالمغازي) وغيره من الصحابة فعبد الله بن عباس اشتهر بالتدريس فيما يتعلق بكافة العلوم ومنها المغازي والسير وقد ورد ذكره في أسانيد الطبري في أكثر من (٢٨٠) موضعاً. ومن تلاميذه الكبار (سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، ووهب بن منبه . . . إلخ) وكريب بن أبي مسلم مولى ابن عباس الذي كان يحتفظ بصحف ابن عباس وكتبه^(٥).

(١) شاكر مصطفى [التاريخ العربي والمؤرخون/ ١٥٢].

(٢) المصدر السابق [١٥٢].

(٣) المصدر السابق [١٥٧].

(٤) مجلة المجمع العلمي العراقي (١٩٥٤ هـ).

(٥) الطبقات الكبرى (٢١٦/٥).

ب - مدرسة الشام :

١ - الأوزاعي : (عمرو بن عبد الرحمن) توفي سنة ١٠٧ هـ إمام في الحديث والمغازي والسير .

٢ - عوانة بن الحكم الكلبي : (توفي سنة ١٤٧ هـ) عاش العقود الأخيرة من عهد الأمويين ثم ما يقرب من عقدين أيام الخلافة في عهد العباسيين .

ويعتبره الأستاذ شاکر مصطفى صاحب فضل على التأريخ الإسلامي فيقول : ونحن ندين لعوانة هذا بتسمية علم التأريخ فهو صاحب أول كتاب تأريخي يحمل اسم (كتاب التأريخ) في الإسلام وقد كتب كذلك سيرة معاوية وبني أمية ولكن الكتابين فقدوا ولم يبق منهما إلا ما تناثر لدى المدائني وابن الكلبي والطبري وغيرهم^(١) .

وقد أكثر الكلبي والمدائني وابن عدي (الهيثم) من مرويات عوانة ومن كتبهم أخذ الطبري مرويات عوانة .

٣ - عبيد بن شربة الجرهمي : اليماني الأصل ، الشامي المنزل ، وهو مخضرم استدعاه أمير المؤمنين معاوية ليدون ما لديه من الأنساب والأخبار^(٢) .

ومن قبل هؤلاء شارك عروة بن الزبير والزهري في تأسيس مدرسة الشام التاريخية وإن كانا مدنيين فقد ترددا بين الحجاز والشام وإن كان الزهري أكثر تواجداً في الشام بل قضى عقوده الأخيرة هناك حتى توفاه الله تعالى في أواخر خلافة أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك رحمه الله تعالى .

ج - مدرسة مصر في التأريخ :

إن لأهل الحديث فضلاً كبيراً في تدوين التأريخ الإسلامي وبين الأمويين روابط من الإسناد والتراجم وعلم الرجال والطبقات وما إلى ذلك فكما أن المحدث عروة بن الزبير ومن بعده الزهري المحدث قد شاركا في تشكيل نواة مدرسة التأريخ في المدينة . فإن أئمة الحديث في مصر لهم الفضل الكبير في

(١) التأريخ العربي والمؤرخون (١٢٨) .

(٢) الفهرست لابن النديم (٨٩) [مروج الذهب / ٤ / ٩٠] .

إنشاء مدرسة التاريخ هناك: ومنهم الإمام الليث بن سعد المصري وهو ثقة ثبت فقيه إمام مشهور من السابعة ت ١٧٥ هـ أخرج له الستة وله مرويات في التاريخ عند الطبري وغيره ولعل أقدم مصدر من المصادر التاريخية لمصر هو كتاب فتوح مصر لابن عبد الحكم القرشي المصري الذي توفي سنة ٢٧٦ هـ^(١).

د - مدرسة العراق:

١ - لعل الإمام عامر بن شراحيل الشعبي (المتوفى سنة ١٠٣ هـ) الكوفي من مؤسسي مدرسة العراق في التاريخ وشهد أحداثاً جساماً طبعت في ذاكرة التاريخ منها الصلح بين سيدنا الحسن وأمير المؤمنين معاوية رضي الله عنهما وشارك في وقعة دير الجماجم فيما سمي بحركة ابن الأشعث أيام الحجاج ومن قبله شهد الاضطرابات التي وقعت في العراق أيام موت يزيد بن معاوية - في العقد السادس من القرن الهجري الأول -.

وأخرج له الطبري في تاريخه في أكثر من (١٠٠) موضع وتمتد مروياته من قصص الأنبياء وحتى أحداث نهاية القرن الهجري الأول.

٢ - سيف بن عمر التميمي (سنتحدث عنه بعد قليل).

٣ - قحذم بن سليمان (المتوفى سنة ١٥٨ هـ) كان يعمل كاتباً للخراج في ولاية يوسف بن عمر الثقفي على العراق وأكثر عنه خليفة من طريق حفيده (الوليد بن هشام بن قحذم) ونقل عنه الطبري ولكن بروايات قليلة جداً لا تعدو عدد أصابع اليد.

وهناك آخرون بعضهم أكثر أهمية وشهرة من قحذم شاركوا في بناء مدرسة العراق التاريخية في القرن الثاني الهجري سندكرهم بعد قليل عند حديثنا عن الإخباريين.

هـ - مدرسة اليمن:

١ - دغفل بن حنظلة الشيباني النسابة المخضرم - يروي ابن حبيب أنه شارك

(١) المدخل إلى التاريخ الإسلامي ١٧٦.

في تأديب يزيد بن معاوية بن أبي سفيان^(١).

٢- عبيد بن شربة الجرهمي سبقت ترجمته في الحديث عن مدرسة الشام.

٣- وهب بن منبه الذماري توفي سنة ١١٤ هـ.

وقد روى تلاميذه عنه المغازي قصص الأنبياء وتأريخ اليمن القديم^(٢).

الأخباريون [الثقات وغير الثقات]:

الأخباري لفظة دون المؤرخ أو قبله زماناً ومنصباً - فالناس أطلقوا هذه التسمية على من جمع الأخبار في أيام العرب والقصص الغابرة ثم الفتوح وهم طلائع التأليف التاريخي عند المسلمين^(٣) وسُمي من كتب في غزوات النبي ﷺ وسيرته بصاحب المغازي والسير ومن كتب في أنساب العرب بالنسابة ثم تراجع الأخباري عندما بدأ التصنيف والتبويب فأصبح اسماً فقط على راوي القصص والنوادر والحكايات^(٤).

وقد اشتهر في سماء التدوين أئمة أعلام حفظوا لنا التأريخ الإسلامي وأئمة أعلام حفظوا لنا السيرة النبوية الشريفة واشتهر آخرون كذلك كأخباريين ولكن لَطَّخُوا التأريخ الإسلامي وشَوَّهوه كالتالف الهالك أبي مخنف ومنهم من لم ينسب إلى الكذب أو الوضع ولكن إلى الضعف كسيف بن عمر ومنهم من نسب إلى الكذب حتى ترك كالواقدي والهيثم بن عدي والكلبي وسنذكر ترجمة مختصرة لكل واحد منهم وعدد مروياتهم في تأريخ الطبري.

١ - لوط بن يحيى (أبو مخنف) الكوفي:

أخرج له الطبري في أكثر من (٣٠٠) موضع ابتداءً بخبر سقيفة بني ساعدة وانتهاءً بأحداث سنة (١٣٢) هـ ودخول الحسن بن قحطبة إلى الكوفة بعد هرب عاملها ابن هبيرة (من قبل الأمويين).

وبعد سبر لرواياته عميق ومن خلال تخريجنا لروايات الطبري وجدناه بارعاً

(١) المحبر (٤٧٨).

(٢) التأريخ والمؤرخون (١٣٨).

(٣) المدخل إلى التأريخ الإسلامي (١٢٩).

(٤) الإمام الطبري - د. محمد الزحيلي / ٢٠٢ / .

في التلفيق وتزوير الحقائق والطعن في عدالة الصحابة وتشويه سمعتهم ولعل رواية واحدة أو روايتين من مروياته وجدت لها مكاناً في قسم الصحيح من بحثنا هذا وإليك أقوال العلماء فيه: قال ابن عدي شيعي محترق صاحب أخبارهم [الكامل ٦/٩٣/١٦٢١] [وقال الذهبي أخباري تالف لا يوثق به تركه أبو حاتم وغيره وقال ابن معين ليس بشيء] [ميزان مع ذيل الميزان/ تر ٧٤٥١].

٢ - سيف بن عمر التميمي: (توفي سنة ١٨٠ هـ) وهو كوفي أخباري بدأ حياته العلمية بالمدينة ثم سافر إلى العراق واشتهرت مروياته في الردة والفتوحات ووقعة الجمل - ونقل عنه الطبري (٣٠٠) موضع أو يزيد قال ابن حبان يروي الموضوعات عن الأثبات وقال الذهبي في ترجمته: مصنف الفتوح والردة وغير ذلك هو كالواقدي.

وقال ابن عدي: عامة حديثه منكر، وقال أبو حاتم: متروك، وقال أبو داود: ليس بشيء، وقال ابن حجر في التقريب: ضعيف في الحديث عمدة في التأريخ من الثامنة مات في زمن الرشيد.

وعقب المحرران (الشيخ شعيب والدكتور بشار) على قول الحافظ (ضعيف الحديث عمدة في التأريخ) بقولهما: بل متروك فحديثه ضعيف جداً... وحتى أخباره في التأريخ ليست بشيء فقد قال أبو حاتم الرازي متروك يشبه حديثه حديث الواقدي وقال البرقاني والدارقطني متروك [تقريب التهذيب/ تر ٣٠١٥] [المجروحين ١/ ٣٤٥]، [ميزان الاعتدال مع ذيل الميزان/ تر ٣٩٨٩]، [تحرير التقريب/ تر ٢٧٢٤].

٣ - محمد بن إسحاق إمام المغازي: (ت ١٥١ هـ) كتب كتاباً في الخلفاء بالإضافة إلى سيرته المشهورة وقد أكثر الطبري من إخراج رواياته فزادت على (٣٥٠) رواية معظمها في السيرة النبوية الشريفة وهو حسن الحديث إذا صرح بالتحديث والله أعلم.

٤ - محمد بن السائب الكلبي وابنه هـ: أما الأب فقد توفي سنة ١٤٦ هـ وله في تاريخ الطبري (١٦) رواية وهو نسابة متشيع وقد أخذ عنه ابنه هشام الذي

توسع أكثر من أبيه بالأخبار والتأريخ وألف في ذلك كله فقاومة كتبه قرابة (١٥٠) كتاباً^(١).

وقد روى له الطبري في (٢٨٠) موضعاً من تأريخه.

وقال الدكتور جواد علي: لقد كان جلّ اعتماد الطبري في أخبار العرب قبل الإسلام على مؤلفات ابن الكلبي، وقال أيضاً:

أما ابن الكلبي... هو وأبوه في طليعة من عُنوا بجمع أخبار الجاهلية وتدوينها ومن طريقهما عرفنا أموراً عن العرب قبل الإسلام لم يذكرها غيرهما من الأخباريين، بالرغم من نواحي الضعف التي تظهر عليها، وبالرغم مما رميا به من الكذب والتزوير، والحق أننا نجد في رواياتهما، وخاصة روايات هشام. تناقضاً غريباً في بعض الأحيان يُستغرب صدوره من رجل له علم ومعرفة وتميز في الأمور^(٢).

ومحمد بن السائب الكلبي ترجم له أئمة الجرح والتعديل وذكروا مختلف الأقوال فيه وخلاصة القول فيه ما قاله ابن حجر في ترجمته: النسابة المفسر متهم بالكذب ورمي بالرفض من السادسة مات سنة ١٤٦ هـ [تقريب/ تر ٦٦٢٤].

وأما ابنه هشام الكلبي فقد قال الذهبي في ترجمته: الأخباري النسابة العلامة قال الدارقطني وغيره متروك وقال ابن عساكر رافضي ليس بثقة وقال أحمد إنما كان صاحب سمر ونسب ما ظننت أن أحداً يحدث عنه وقال الذهبي في نهاية ترجمته وهشام لا يوثق به وقيل إن تصانيفه أزيد من مئة وخمسين مصنفاً مات سنة (٢٠٤ هـ) [ميزان الاعتدال مع ذيل الميزان/ تر ٩٧٣٧].

٥ - أبو معشر السندي: (توفي سنة ١٧٠ هـ) واسمه نجيع بن عبد الرحمن وأخرج له الطبري في (١٠٩) مواضع من تأريخه وهو ضعيف من الطبقة السادسة أخرج له الأربعة [تقريب/ تر ٧٩٩٤].

وقال أحمد حديثه عندي مضطرب لا يقيم الإسناد ولكن أكتب حديثه أعتبر به [العلل ١/ ١٣٥].

(١) التأريخ والمؤرخون (١٩١).

(٢) مدخل إلى التأريخ الإسلامي / ٦٨٦/ نقلًا عن مجلة المجمع العلمي العراقي ١٩٥٢.

وقد أخذ الواقدي من مغازيه وأخذ ابن سعد ، بينما أخذ الطبري عن التاريخ (يعني تاريخ الخلفاء - على الحوليات) حتى توقف سنة ١٧٠ هـ^(١).

٦ - محمد بن عمر الواقدي : (١٣٠ - ٢٠٧ هـ) نشأ في المدينة وأخذ العلم فيها ثم انتقل إلى العراق حتى توفي فيها.

أخرج الطبري من رواياته فيما يقرب من (٣٠٠) موضع.

وهذه أقوال أئمة الجرح والتعديل فيه :

قال أحمد بن حنبل : هو كذاب يقلب الأحاديث ، وقال البخاري : متروك ، وقال أبو حاتم والنسائي : يضع الحديث ، وقال ابن عدي : أحاديثه غير محفوظة والبلاء منه وقال الذهبي : أحد أوعية العلم على ضعفه ، وقال الذهبي في نهاية ترجمته : واستقر الإجماع على وهن الواقدي ، وقال ابن حجر : متروك مع سعة علمه من التاسعة [تقريب/ تر ٦٩٥١] ، [ميزان الاعتدال مع ذيل الميزان/ تر ٨٤٥٧] ، [الكامل ٦/ ٢٤١/ تر ١٧١٩] ، [التأريخ الصغير ٢/ ٣١١] ، [الجرح والتعديل ٨/ ٢٠].

ثم ظهرت في نهاية القرن الأول الهجري وبداية القرن الثاني الهجري طبقة من الأعلام ما بين أخباري ومؤرخ نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر [المدائني ١٣١ - ٢٢٥ هـ] ، [ابن سعد ١٦٨ - ٢٣٠ هـ] ، [خليفة بن خياط ٢٤٠ هـ] ، [عمر بن شبة النميري ١٧٢ - ٢٦٢ هـ] ، ولقد أدرك الطبري رابعهم وهو عمر بن شبة ومن طريقه أخذ مرويات المدائني ومن طريق شيخه الحارث بن محمد أخذ مرويات ابن سعد في طبقاته الكبرى - وهذه نبذة مختصرة عن ثلاثة من هؤلاء الأعلام ودورهم في تطوير علم التأريخ عند المسلمين الأوائل :

١ - علي بن محمد (أبو الحسن المدائني) (١٣١ - ٢٢٥ هـ) :

اعتبره الأستاذ شاکر مصطفى قمة الطور الأخباري السابق للتأريخ^(٢) وأخرج الطبري من مروياته في أكثر من (٣٠٠) موضع وهذه أقوال العلماء فيه :

(١) التأريخ العربي والمؤرخون (٦٣).

(٢) المصدر السابق (١٨٦).

قال ابن معين: ثقة ثقة ثقة، وقال الطبري: كان عالماً بأيام الناس صدوقاً في ذلك، وقال الذهبي: العلامة الحافظ الصادق الأخباري وقال أيضاً صدوق [سير أعلام النبلاء ١٠/٤٠١]، [ميزان الاعتدال ٣/١٥٣]، [تأريخ بغداد ١٢/٥٥].

وقد كثرت مروياته عند الطبري وخاصة في تاريخ الخلافة على عهد الأمويين ثم العصر العباسي الأول - ولقد حصل الطبري على كتبه من طريق اثنين من شيوخه الثقات [عمر بن شبة وأحمد بن زهير بن حرب]. وهما من تلاميذ المدائني مع غيرهما كالزبير بن بكار وقال أحمد بن أبي خيثمة: كان أبي وابن معين ومصعب الزبيري يجلسون على باب مصعب فمرّ رجل على حمار فاره وبزة حسنة فسلم وخص بسلامه يحيى فقال له يا أبا الحسن إلى أين... إلخ فلما ولى قال يحيى: ثقة ثقة ثقة، فسألت أبي من هذا؟ فقال: هذا المدائني [ميزان الاعتدال/ تر ٦٣٦٧].

وقال شاکر مصطفى [وقد اتبع المدائني في المنهج التاريخي طريقة المحدثين في نقد الروايات وإثبات الإسناد مما أعطاه لونا من الثقة لدى الناس كما نظم المادة الواسعة التي وقعت له تنظيماً متوازناً خدم التأليف التاريخي وكان بذلك كله خطوة هامة في تطور عملية التأريخ ما أضحى المصدر الرئيسي للمؤرخين التاركين]^(١).

وقال الدكتور الدوري: وتصل دراسات الأخباريين قمتها عند المدائني (١٣٥ هـ - ٢٢٥ هـ) وهو بصري استقرّ بعدئذ في بغداد ويظهر أثر الإسناد عليه أقوى ممن سبقه نتيجة للتطورات الثقافية ويظهر عنده الاتجاه نحو جمع أوسع وتنظيم أوفى للروايات التاريخية... ويمثل المدائني درجة أعلى من أسلافه في البحث والدقة [بحث في نشأة علم التأريخ/ ٣٩].

٢ - محمد بن سعد البصري الزهري (كاتب الواقدي) ١٦٨ - ٢٣٠ هـ:

يعتبر الإمام المحدث الثقة ابن سعد رائداً من رواد كتابة التاريخ بنظام الطبقات لا الحوليات وقد بدأ بالسيرة النبوية الشريفة في كتابه الطبقات الكبرى ثم الصحابة ومن تلاهم من التابعين ومن بعد هؤلاء - وكان دقيقاً في كل طبقة فقد

(١) التأريخ العربي والمؤرخون (١٨٨).

ذكر الصحابة حسب أسبقيتهم ثم هجرتهم أو نصرتهم ، ثم شاركهم في معركة بدر... إلخ مما هو معروف من طبقات الصحابة وخصص جزءاً من طبقاته لأعلام النساء [صحابيات وغيرهن].

قلت: وإن كان معاصره خليفة بن خياط قد ألف كتاباً عرف باسم طبقات خليفة^(١) إلا أن ابن سعد رحمه الله فاق خليفة وغيره ممن جاؤوا من بعدهما فقد ميّز خليفة بين تسجيله الحولي لأحداث التأريخ وبين الطبقات بينما استطاع ابن سعد أن يمزج بين الطبقات مميزة الواحدة عن الأخرى وبين تأريخ الأحداث وتفصيلها مسندة بطريقة أهل الحديث ولقد ردّ الأستاذ أكرم ضياء العمري قول من وصف الطبقات بأنها جلّها من طريق الواقدي المتروك ويّين أن ابن سعد أخرج روايات كثيرة من غير طريق الواقدي ، والباحث المنصف يتبين له ذلك .

يقول الأستاذ أكرم ضياء العمري :

ولكن من الإجحاف لابن سعد أن نفتنح بقول ابن النديم عنه أنه صنف كتبه من تصنيفات الواقدي ، لأن ابن سعد استقى من مصادر أخرى كثيرة حتى بلغ عدد شيوخه في الطبقات الكبرى أكثر من ستين شيخاً معظمهم من المحدثين ويزيد ما نقله عن أبي نعيم الفضل بن دكين وعفان بن مسلم وعبيد الله بن موسى العبسي ومعن بن عيسى الأشجعي مجتمعين على ما نقله عن الواقدي فكيف وقد نقل عن غيرهم أيضاً!! وبذلك يتضح ما في اتهام ابن النديم له من مجازفة وبعد عن الحق [عصر الخلافة/ ١٢] ، [وأشار العمري في الحاشية إلى رسالة جامعية بعنوان خلافة أبي بكر الصديق لعبد العزيز بن سليمان المقبل/ ص ١٧].

٣ - خليفة بن خياط العصفري (شباب):

قال الذهبي في ترجمته: الحافظ الإمام أبو عمرو العصفري البصري المعروف بشباب محدث نسابة إخباري علامة صنف التأريخ والطبقات... قال ابن عدي مستقيم الحديث صدوق من متيقظي الرواة [تذكرة الحفاظ ٢/ ٤٣٦].

وقال الذهبي أيضاً ليّنه بعضهم بلا حجة - وقال أيضاً: حدث عنه البخاري

(١) اعتبر شاكر مصطفى خليفة وابن سعد أقدم من قسم رجال الطبقات على أمصارهم المصدر السابق/ ص ٢٣٦.

بسبعة أحاديث أو أزيد في صحيحه وكان صدوقاً نسابه عالماً بالسير والأيام والرجال وثقه بعضهم وقال ابن عدي هو صدوق [سير أعلام النبلاء ١١/ ٤٧٣].

وقال ابن حجر في التهذيب [٣/ ١٦٠]: ذكره ابن حبان في الثقات وقال: كان متقناً عالماً بأيام الناس وأنسابهم... قلت لم يحدث عنه البخاري إلا مقروناً وإذا حدث عنه لمفرده علق أحاديثه وقال مسلمة الأندلسي لا بأس به اهـ.

وقال أبو حاتم لا أحدث عنه هو غير قوي [الجرح والتعديل ٣/ ٣٧٨] وقال ابن حجر في التقريب [تر ١٩٠٩] صدوق ربما أخطأ وكان أخبارياً علامة من العاشرة مات سنة ٢٤٠ هـ/خ/١ هـ.

وقد اعتبره شاكر مصطفى من طليعة المؤرخين الكبار والذي ظهر في وقت مبكر^(١).

وضمن هذه الطبقة التي سبقت ظهور المؤرخين الكبار أئمة آخرون يطول ذكرهم ذكرنا بعضهم ضمن شيوخ الطبري في التأريخ.

النصف الثاني من القرن الهجري الثالث وظهور المؤرخين الكبار أو العمالقة:

قال الأستاذ عبد العزيز الدوري: وقد شهد النصف الثاني للقرن الثالث الهجري ظهور مؤرخين لاتحدهم مدرسة ولا اتجاه سابق بل حاولوا أن يستفيدوا من مواد السيرة ومن كتب الأخباريين والأنساب والمصادر الأخرى المتيسرة وشملت دراستهم الأمة بصورة منظمة وكان عملهم في انتقاء المادة بعد النقد والفهم عاماً أو عالمياً^(٢).

ويقول الأستاذ محمد الزحيلي: وفي القرن الثالث الهجري استوى علم التأريخ على سوقه^(٣).

ويقول الأستاذ شاكر مصطفى: من نسميهم بالمؤرخين الكبار هم طبقة كاملة من مؤرخي النصف الثاني من القرن الثالث كانوا النهاية الطبيعية لخط من التطور

(١) التأريخ العربي والمؤرخون/ ٢٣٤.

(٢) نشأة التأريخ/ الدوري.

(٣) الإمام الطبري/ أعلام المسلمين/ ص ٢٠٣.

المستمر أصاب علم الأخبار وما يتصل به خلال أكثر من قرنين^(١).

وسنذكر ضمن هذه الطبقة على سبيل المثال لا الحصر أربعة من المعاصرين لبعضهم البعض وهم [يعقوب بن سفيان البسوي ٢٧٧ هـ] ، [اليعقوبي أحمد بن إسحاق ٢٩٢ هـ] ، [البلاذري أحمد بن يحيى ٢٧٩ هـ] ، وأخيراً [الطبري (محمد بن جرير) ٣١٠ هـ].

١ - يعقوب بن سفيان البسوي الهمداني الفارسي توفي سنة ٢٧٧ هـ عن بضع وثمانين سنة قال الذهبي في ترجمته: الحافظ الإمام الحجة وقال ابن عماد الحنبلي في ترجمته: أحد أركان الحديث: وقال الحاكم النيسابوري: إمام أهل الحديث بفارس [وقال ابن حجر ثقة حافظ من الحادية عشرة [تقريب/تر ٨٨١٦] ، [تذكرة الحفاظ ٥٨٢/٢] ، [شذرات الذهب ١٧١/٢] ، [البداية والنهاية ٦٠/١١].

وقال الأستاذ العمري في مقدمة تحقيقه لكتاب المعرفة والتاريخ [١٩/١] وتدلّ مؤلفات يعقوب على أنه كان معنياً بالحديث وعلم الرجال والتاريخ والعقائد والرفائق وكان متقناً في علمه واسع الاطلاع حتى ذكر أبو زرعة الدمشقي أن يحيى ابن معين كان ينتخب منه في التاريخ ا هـ.

قلت وكعادة الأئمة الكبار فإن البسوي أكثر من الرحلة في طلب العلم ويكفي دلالة على ذلك ذكر أسماء المدن والبلدان التي زارها طلباً للعلم [دمشق - حمص - فلسطين - مصر - مكة - العراق - ثم مصر وأخيراً العراق].

وقد اشتهر يعقوب بن سفيان البسوي بكتابه الضخم «المعرفة والتاريخ» وقد فقد منه جزء غير يسير والباقي مرتب على السنين ابتداءً من سنة ١٣٦ هـ وإلى حوادث سنة ٢٤٢ هـ ويلحقه قسم يتناول تراجم الصحابة والتابعين.

وقد شرح الأستاذ العمري أهمية الكتاب وموارده التاريخية وثناء العلماء عليه واقتباسهم منه ومنهم الخطيب وابن عساكر والذهبي وغيرهم وانظر لزماً كتاب «المعرفة والتاريخ» تحقيق العمري من ص ٧ وإلى ص ٥٧.

٢ - اليعقوبي: أحمد بن إسحاق ٢٩٢ هـ: من أشهر من كتب في التاريخ الموضوعي لا على الترتيب الحولي - ولكنه لم يعتمد الإسناد في رواياته بل اكتفى بذكر الكتب التي اطلع عليها إجمالاً - وهو ممن يعبر عن فكرة التأريخ العالمي .

والعيب في اليعقوبي أنه مؤرخ منحاز لم يستطع أن يحافظ على الحياد المطلوب كما فعل الطبري رحمه الله وكما سنبين في موضعه وقد كثرت الدراسات الحديثة حول المؤرخين المتقدمين ونذكر هنا رأي أستاذين كبيرين من أساتذة التأريخ في اليعقوبي هذا ، الأول هو الأستاذ عبد العزيز الدوري إذ يقول فيه : [فهو في حديثه عن الراشدين والأمويين يظهر ميولاً علوية أحياناً ويسهب في ذكر أقوال الأئمة وخطبهم ويعطي سيرهم عند ذكر وفياتهم ولعلنا نكون أدق إن قلنا إن وجهة نظره إمامية^(١) .

وأما المؤرخ الثاني الذي خبر رواياته وأبدى رأيه فيها فهو الأستاذ أكرم غياث العمري إذ يقول في اليعقوبي: مؤرخ شيعي إمامي ويقول أيضاً: ويتسم بالانحياز العقدي من ناحية أخرى^(٢) .

٣ - البلاذري (أحمد بن يحيى) ٢٧٩ هـ:

قال عنه الذهبي صاحب التأريخ المشهور من طبقة أبي داود السجستاني حافظ أخباري علامة [تذكرة الحفاظ ٨٩٢/٣] اشتهر بكتابه القيسين فتوح البلدان - وأنساب الأشراف والحق يقال فإن أنساب الأشراف سفر تأريخي عظيم بلبوس الأنساب كما قال الأستاذ الدوري^(٣) :

أما كتاب أنساب الأشراف فهو كتاب عام في التأريخ الإسلامي في إطار الأنساب وهو يمثل مزيجاً فذاً في الخطة والمادة ، فخطة تجمع بين أساليب كتابة كتب الطبقات وكتب الأخبار وكتب الأنساب .

ويقول الأستاذ العمري :

ويُعَدُّ البلاذري أبرز المؤرخين المسلمين بعد الطبري من حيث سعة

(١) نشأة علم التأريخ عند العرب للدوري / ٥٣ .

(٢) عصر الخلافة الراشدة / ١٦ - العمري .

(٣) نشأة علم التأريخ عند العرب للدوري / ٤٩ .

المعلومات التي دَوَّنها والفترات التاريخية التي غَطَّها لكن كتابه (أنساب الأشراف) أحسن انتقاءً للروايات وأنقى للأسانيد وأكثر اتفاقاً مع روايات أهل الثقة والصدق من تاريخ الطبري^(١).

قلت: ويعتبر البلاذري قمة التطور في علم الأنساب بدأ بالنسابة أبي اليقظان ١٩٠ هـ ثم هشام الكلبي (٢٠٤) والهيثم بن عدي (٢٠٦ هـ) ومصعب الزبيري (٢٣٣ هـ) وأخيراً البلاذري (٢٧٩ هـ) وهؤلاء يشكلون المحطات البارزة ولا يعني أن غيرهم لم يكن له دور في سلم التطور التاريخي هذا بل هم كثيرون.

٤ - الإمام المؤرخ المحدث المفسر محمد بن جرير (أبو جعفر) الطبري ٢٢٤ هـ - ٣١٠ هـ:

عصره: عاش الإمام الطبري رحمه الله تعالى في ظل الخلافة الإسلامية على عهد العباسيين ولم يتجاوز السابعة من عمره حتى انتهى عصر القوة العباسي وبدأ ما يسميه المؤرخون العصر العباسي الثاني.

كان عصر الطبري من الناحية السياسية عصر خلاف ونزاع على السلطة المركزية بين اتجاهات مختلفة.

وفي الوقت نفسه كان عصر ازدهار علمي بكل ما تعنيه الكلمة وكان سوق التبويب والتصنيف رائجاً حتى أن الحكام على اختلاف نزعاتهم كانوا يتوددون إلى العلماء ويتنافسون على دعمهم وتقريبهم من مجالسهم.

ولقد عاش الطبري رحمه الله سبعة عقود (أو أقل) من عمره في القرن الثالث الهجري وعقده الأخير في مطلع القرن الرابع.

ويعتبر الباحثون القرن الثالث الهجري قرن المؤرخين الكبار أو العمالقة الذين مثلوا قمة النضج في كتابة التاريخ سواء كان بطريقة الحوليات أو مرتباً حسب الحوادث السياسية أو على شكل طبقات أو أنساب... إلخ.

وهذه أسماء أبرزهم:

١ - ابن قتيبة الدينوري ت ٢١٣ هـ [صاحب كتابي عيون الأخبار والمعارف].

(١) عصر الخلافة الراشدة/ ١٣.

- ٢- ابن سعد صاحب الطبقات الكبرى ت ٢٣٠ هـ.
 - ٣- خليفة بن خياط صاحب التاريخ ت ٢٤٠ هـ.
 - ٤- أحمد بن إسحاق اليعقوبي ت ٢٩٢ هـ.
 - ٥- يعقوب بن سفيان البسوي ت ٢٧٧ هـ.
 - ٦- الطبري صاحب تاريخ الأمم والملوك ت ٣١٠ هـ.
- نشأته وطلبه للعلم ورحلاته :

يقول الطبري رحمه الله : حفظت القرآن ولي سبع سنين وصليت بالناس وأنا ابن ثمانين سنين وكتبت الحديث وأنا ابن تسع سنين^(١) ولقد بدأ الطبري طلب العلم منذ سن مبكرة في مدينة آمل بطبرستان ثم الري حيث شيخه ابن حميد الرازي - وقد أَرخ العلماء بسنة ٣٦ هـ كبداية لطلبه العلم وكان عمره يومها (١٢) عاماً^(٢).

يقول تلميذه ابن كامل : [فأول ما كتب الحديث ببلده ثم الري وما جاورها ، وأكثر من الشيوخ حتى حصل كثيراً من العلم وأكثر عن محمد بن حميد الرازي وعن المثنى بن إبراهيم الأملّي وغيرهما]^(٣).

ويقول الطبري : [كُنّا نمضي إلى أحمد بن حمّاد الدولابي وكان في قرية من قرى الرّي بينها وبين الري قطعة ثم نغدو كالمجانين حتى نصير إلى ابن حميد فنلحق مجلسه]^(٤).

والدولابي مشهور بالمغازي والسير وله كتاب (المبتدأ والمغازي) وهذا يعني أن الاهتمام بالتاريخ قد شغل بال الطبري جنباً إلى جنب مع التفسير والحديث .

وتقول المصادر : إن الطبري قد اشتاق لرؤية الإمام الجليل أحمد بن حنبل في بغداد مدينة العلم ، فشد الرحال ولكن الوفاة عاجلت الإمام أحمد فدخلها الطبري وقد توفي أحمد رحمه الله تعالى وذلك في سنة (٢٤١ هـ).

(١) معجم الأدباء : ٤٣٠ / ٦ .

(٢) لسان الميزان نقلاً عن مسلمة بن القاسم [١١٧/٥ تر ٧١٢٩] .

(٣) معجم الأدباء ٤٩ / ١٨ .

(٤) المصدر السابق ٤٩ / ١٨ .

فجلس الطبري برهة في بغداد يكتب عن شيوخها ثم ارتحل صوب البصرة .
وسمع من أشهر شيوخها ثم إلى الكوفة ثم إلى الشام ثم إلى مصر ثم عاد إلى بلده
(طبرستان سنة ٢٩٠ هـ ثم عاد عندها إلى بغداد ليستقر فيها ويدون فيها أروع
أسفاره (في التفسير ثم التاريخ) ^(١) .

يقول الخطيب البغدادي : استوطن الطبري بغداد وأقام بها إلى حين وفاته
وكان أحد الأئمة الأعلام ^(٢) .

أقوال العلماء فيه وترجمتهم له :

قال الخطيب البغدادي : كان أحد الأئمة الأعلام يحكم بقوله ويرجع إلى رأيه
لمعرفته وفضله وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره
وكان حافظاً لكتاب الله عارفاً بالقراءات بصيراً بالمعاني فقيهاً في أحكام القرآن
عالماً بالسنن وطرقها وصحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها ، عارفاً بأقوال
الصحابة والتابعين إلى أن يقول : عارفاً بأيام الناس وأخبارهم وله الكتاب
المشهور في تأريخ الأمم والملوك وكتاب في التفسير لم يصنف أحد مثله وكتاب
سماه تهذيب الآثار لم أر سواه في معناه إلا أنه لم يتمه ، وله في أصول الفقه
وفروعه كتب كثيرة ^(٣) .

وقال الخطيب : حدثني محمد بن أحمد بن يعقوب قال أنبأنا محمد بن عبد الله
النيسابوري الحافظ قال سمعت أبا بكر بن بالويه يقول : قال لي أبو بكر محمد بن
إسحاق يعني ابن خزيمة - بلغني أنك كتبت التفسير عن محمد بن جرير؟ قلت :
بلى كتبت التفسير عنه إملاءً . قال كله؟ قلت : نعم . قال : في أي سنة؟ قلت : في
سنة ثلاث وثمانين إلى سنة تسعين . قال فاستعاره مني أبو بكر فرده بعد سنتين ثم
قال : نظرت فيه من أوله إلى آخره وما أعلم على أديم الأرض أعلم من محمد بن
جرير ^(٤) .

(١) معجم الأدباء : ٥٦/١٨ .

(٢) تأريخ بغداد (١٦٢/٢) .

(٣) المصدر السابق (١٦٢/٢) .

(٤) المصدر السابق (١٦٤/٢) .

وقال الإمام السبكي الإمام الجليل المجتهد المطلق أبو جعفر الطبري من أهل آمل طبرستان أحد أئمة الدنيا علماً وديناً ومولده سنة أربع أو خمس وعشرين ومئتين طوّف الأقاليم في طلب العلم^(١).

وقال الحافظ الذهبي: الإمام العلم الفرد الحافظ أحد الأعلام وصاحب التصانيف من أهل آمل طبرستان أكثر التطواف^(٢).

وقال عبد الله بن أحمد السمسار قال ابن جرير لأصحابه: هل تنشطون لتأريخ العالم قالوا كم يجيء فذكر نحواً من ثلاثين ألف ورقة فقالوا: هذا مما يفني الأعمار قبل تمامه فقال: إنا لله، ماتت الهمم!! فأمله في نحو ثلاثة آلاف ورقة ولما أراد أن يملي التفسير قال لهم ذلك ثم أملاه على نحو من التأريخ^(٣).

وقال العلامة ابن خلكان: وكان ثقة في نقله وتأريخه أصح التواريخ وأثبتها^(٤).

وقال الحافظ ابن عساكر في ترجمة الطبري: الإمام صاحب التصانيف المشهورة^(٥).

وذكر ابن عساكر بسنده الموصول إلى أبي سعيد بن يونس قوله: محمد بن جرير بن يزيد يكنى أبا جعفر طبري من أهل آمل كان فقيهاً قدم إلى مصر قديماً سنة ثلاث وستين ومئتين وكتب بها ورجع إلى بغداد وصنف تصانيف حسنة تدلّ على سعة علمه وكانت وفاته ببغداد في العشر الأواخر من شوال سنة عشر وثلاثمائة^(٦).

وفاته: سبق أن ذكرنا قول من قال أنه توفي في سنة ٣١٠ هـ في شوال منها وذكر الخطيب البغدادي عن عيسى بن حامد بن بشر القاضي قال: مات محمد بن

(١) طبقات الشافعية الكبرى (٣/ ١٢٢).

(٢) تذكرة الحفاظ (٢/ ٧١٠).

(٣) تأريخ بغداد (٢/ ١٦٣) وتذكرة الحفاظ (٢/ ٧١٢) والذي في تأريخ بغداد أنه سألهم أولاً عن التفسير والله أعلم.

(٤) وفيات الأعيان [٤/ ١٩١/ تر ٥٧٠].

(٥) تأريخ دمشق (٥٢/ ١٨٨/ تر ٦١٦٠).

(٦) تأريخ دمشق (٥٢/ ١٩١).

جزير الطبري يوم السبت بالعشي ودفن يوم الأحد بالغداة في داره لأربع بقين من شوال سنة عشر وثلاثمئة^(١).

وقال الحافظ ابن كثير في ترجمة الطبري: وكانت وفاته وقت المغرب من عشية يوم الأحد ليومين بقيا من شوال من سنة عشر وثلاثمئة وقد جاوز الثمانين سنة بخمس أو ست سنين^(٢).

وكذلك أرخ الحافظ الذهبي لوفاته بسنة (٣١٠) هـ^(٣).

شيوخه في التاريخ [تراجم أهم شيوخه وأشهرهم]:

لقد أخذ الطبري رحمه الله تعالى خلال رحلاته الطويلة والمتعددة من شيوخ أجلاء من البصرة والكوفة وبغداد ودمشق ومصر - وهذه تراجم لبعض شيوخه في التاريخ:

١ - أحمد بن حماد الدولابي:

من أوائل شيوخه في بلده طبرستان قبل أن يبدأ برحلاته البعيدة وهو صاحب كتاب [المبتدأ والمغازي] وهو والد الدولابي صاحب الكنى والأسماء [تذكرة الحفاظ ٢/٢٩١] ، [الجرح والتعديل ١/١/٤٩].

وأحمد بن ثابت الرازي - فرخويه (راجع فرخويه).

٢ - أحمد بن زهير بن حرب (ابن أبي خيثمة) توفي ٢٧٩ هـ:

أخذ الرواية عن أحمد بن حنبل والمدائني - قال الخطيب - كان ثقة عالماً متقناً حافظاً بصيراً بأيام الناس وقال: ولا أعرف أغزر فوائد من تأريخه وقال الفرغاني: له معرفة بأيام الناس وأخبارهم وقال ابن أبي حاتم: كتب إلينا وهو صدوق [لسان الميزان/ تر ٥٦٣/٣٧٩] ، [الجرح والتعديل ٢/تر ٥٧].

قلت: وقد روى عنه الطبري في (٨٠) موضعاً من تأريخه.

(١) تاريخ بغداد (٢/١٦٦).

(٢) البداية والنهاية (٩/١٤).

(٣) ميزان الاعتدال (تر ٧١٩٠).

وهو يشكل حلقة وصل بينه وبين المدائني وكتبه - وأكثر مروياته تبدأ من أيام هشام بن عبد الملك إلى أحداث سنة ١٣٧ هـ - .

٣ - بشر بن معاذ العقدي البصري الضريع :

قال أبو حاتم صالح الحديث صدوق وقال ابن حجر صدوق من العاشرة مات سنة بضع وأربعين [الجرح والتعديل ٣٦٨/٢] ، [تقريب التهذيب/ تر ٧٩٠] .

٤ - الحارث بن محمد بن أبي أسامة التميمي - صاحب المسند - :

قال الدارقطني : قد اختلف فيه أصحابنا وهو عندي صدوق وقال ابن حزم ضعيف وليّنه بعض البغاددة لكونه يأخذ على الرواية ، وذكره ابن حبان في الثقات وقال الذهبي : كان حافظاً عارفاً بالحديث عالي الإسناد تكلم فيه بلا حجة [ميزان الاعتدال ٤٤٢/١ تر ١٦٤٤] ، [الثقات ١٨٣/٨] ، [سؤالات الحاكم للدارقطني ١١٤/١ تر ٩١] ، [لسان الميزان ٢/٢ تر ٢٢٣٤] .

قلت : وقد روى عنه الطبري في أكثر من (١١٠) مواضع وأهميته بالنسبة للطبري أنه حلقة الوصل بينه وبين صاحب الطبقات الكبرى ابن سعد .

٥ - السري بن يحيى التميمي الكوفي (أبو عبيدة) :

وهو ابن أخي الهناد بن السري كان يرأس الطبري وابن أبي حاتم وقد التقى الطبري وأخذ عنه الطبري مشافهة ولكن قليلاً وأغلب ما رواه عنه الطبري بالمراسلة [وكتب إليّ السري قال :] . والسري هذا ترجم له ابن أبي حاتم وقال : لم يُقَضْ لنا السماع منه وكتب إلينا بشيء من حديثه وهو صدوق ، وذكره ابن حبان في الثقات وقال الدارقطني صاحب كتاب الفتوح لسيف بن عمر [الثقات ٣٠٢/٨] ، [المؤتلف والمختلف/ ١٣٦٧] ، [الإكمال ١٠/٥] .

وقد ذكره الأستاذ جواد علي في بحثه القيم [موارد تأريخ الطبري] الذي نشر في أعداد من مجلة المجمع العلمي العراقي قبل نصف قرن من الزمان - ولكنه لم ينصفه فقال : والظاهر من سكوت ابن النديم وصحاب التراجم عن ذكر شعيب بن إبراهيم (شيخ السري بن يحيى) والسريّ أنهم لم يكونا من أصحاب التأليف وإنما كانا من رواة سيف والظاهر أيضاً من تأريخ الطبري أن كتب سيف كانت عند

السري بن يحيى وأن الطبري قرأ أجزاء منها على السري وأخذ قسماً منها كتابة منه] ، [مجلة المجمع العلمي/ ١٩٥٢].

قلت: أما شطر كلامه الأخير فصحيح لا غبار عليه أما قوله [سكوت ابن النديم وأصحاب التراجم عن ذكر السري بن يحيى] فغير صحيح فقد ذكره ابن حبان في الثقات كما ذكرنا قبل قليل وعدّله ابن أبي حاتم (وهو معروف بتشده في الرجال) وقال عنه أنه صدوق وذكره الدارقطني في المؤتلف والمختلف وقال صاحب كتاب الفتوح سيف بن عمر: وقد ذكر أصحاب التراجم أنه أخذ الرواية والحديث من قبيصة وأبي غسان وعثمان بن زفر ثم إن العدد (٢٤١) قليل بالنسبة لمروياته في تأريخ الطبري فقد روى عنه.

٦ - عبيد الله بن سعد الزهري: ثقة من الحادية عشرة توفي سنة ٢٦٠ هـ وله (٧٥) سنة أخرج له البخاري والنسائي والترمذي [تقريب/ تر ٤٨٢٠] وأخرج له الطبري (٤٥) رواية ويمثل عبيد الله هذا حلقة وصل أخرى بين الطبري وبين مرويات سيف بالإضافة إلى السريّ.

٧ - عمر بن شبة النميري [صاحب كتاب تأريخ المدينة]:

الأخباري النحوي - نزيل بغداد - صدوق له تصانيف من كبار الحادية عشرة توفي سنة ٢٦٢ هـ وقد جاوز التسعين [تقريب التهذيب/ تر ٥٥٢٦] وقال الخطيب في ترجمته ثقة [تأريخ بغداد/ ١١/ ٢٠٨].

وقال ابن حبان: مستقيم الحديث وكان صاحب أدب وشعر وأخبار ومعرفة بتأريخ الناس [الثقات ٨/ ٤٤٦].

قلت: ولقد أخرج الطبري عن شيخه هذا (عمر بن شبة) أكثر من مئتي رواية جُلّها عن تأريخ الخلافة الإسلامية في عهد الأمويين وبداية العباسيين - وعمر بن شبة طريق آخر للطبري للوصول إلى مرويات الأخباري المشهور المدائني -.

٨ - عمرو بن علي الفلاس الباهلي البصري:

وثقه النسائي وقال الحافظ ابن حجر: ثقة من العاشرة توفي سنة ٢٤١ هـ [تأريخ بغداد/ ١٢/ ٢٠٧] ، [التقريب/ تر ٥٧١٤].

٩ - فرخويه (أحمد بن ثابت) الرازي :

قال ابن أبي حاتم عن أبي العباس بن عبد الله الطهراني : لا يشكون أنه كذاب [ميزان الاعتدال/ تر ٣١٤] ، [لسان الميزان/ ٤٦١] .

وقد أخرج الطبري عنه في أكثر من (١٠٠) موضع وخاصة فيما يتعلق بحج الخلفاء أو من ينوب عنهم من الأمراء في كل سنة .

الطبري في أكثر من (٤٠٠) موضع والله تعالى أعلم .

١٠ - محمد بن بشار (بندار) البصري : الحافظ أحد أعلام السنة قال أبو حاتم وغيره : صدوق وقال الذهبي : احتج به أصحاب الصحاح كلهم وهو حجة بلا ريب وقال أيضاً : كان من أوعية العلم . . . روى عنه الأئمة الستة وابن خزيمة وابن صاعد والناس وقال العجلي : ثقة كثير الحديث وقال ابن حجر : ثقة من العاشرة توفي ٢٥٢ هـ وله بضع وثمانون سنة [تقريب/ تر ٦٤٥٥] ، [ميزان الاعتدال/ تر ٧٢٦٩] ، [الجرح والتعديل ٧/ ٢١٤] ، [الثقات : ٩/ ١١١] .

أخرج الطبري من مروياته في (٣٦) موضعاً من تأريخه .

١١ - محمد بن حميد الرازي : أكثر عنه الطبري في تأريخه فأخرج له في أكثر من (٤٢٠) موضعاً وهو ضعيف عند جمهور أئمة الحديث وتبدأ مروياته بالحديث عن بدء الخليقة وتكثر بصفة خاصة في السيرة النبوية الشريفة ومن بعد في تأريخ الخلفاء الراشدين .

قال البخاري : فيه نظر وقال يعقوب بن شيبه : كثير المناكير وكذبه أبو زرعة وقال صالح بن جزرة : كان يأخذ أحاديث الناس في قلب بعضه على بعض توفي سنة ٢٤٨ هـ .

١٢ - محمد بن العلاء الهمداني الكوفي الحافظ (أبو كريب) : توفي سنة ٢٤٨ هـ مشهور بكنيته ثقة حافظ من العاشرة مات سنة سبع وأربعين ومئتين وهو ابن سبع وثمانين سنة أخرج له الستة [تقريب/ تر ٦٩٨٥] ، [الجرح والتعديل ٨/ ٥٢] .

أخرج الطبري من طريقه روايات كثيرة متناثرة بين العهود المختلفة .

١٣ - محمد بن المثنى بن عبيد الله بن قيس العنزي البصري: ثقة ثبت من العاشرة وكان هو وبندار فرسي رهان وماتا في سنة واحدة أخرج له الستة [تقريب/ تر ٧٠٥٠] وقال الخطيب: كان ثقة ثبتاً احتج سائر الأئمة بحديثه [تأريخ بغداد ٢٨٣/٣].

قلت: ولم يكثر الطبري عنه في تأريخه فقد بلغت مروياته (٣٥) أو أكثر بقليل وتبدأ مروياته بتأريخ ما قبل البعثة وتنتهي بعهد عمر بن الخطاب.

١٤ - يعقوب بن إبراهيم الدورقي صاحب المسند: ثقة من العاشرة توفي سنة ٢٥٢ هـ وله ست وتسعون سنة وكان من الحفاظ أخرج له الستة وقال الخطيب كان ثقة متقناً [تقريب/ تر ٨٨٠٩] ، [تأريخ بغداد/ ١٤/ ٢٧٧].

وأخرج عنه الطبري في أكثر من ثلاثين (٣٠) موضعاً من تأريخه.

١٥ - يونس بن عبد الأعلى الصدفي المصري: ثقة من صغار العاشرة توفي سنة ٢٦٤ هـ وله ست وتسعون سنة أخرج له مسلم والنسائي وأخرج له الطبري في (٣٢) موضعاً من تأريخه [تقريب التهذيب/ تر ٨٩٢٠].

ولا نريد أن نحصي في هذه المقدمة شيوخ الطبري في تأريخه وإنما ذكرنا أشهر شيوخه ثقات كانوا أو ضعفاء وقد ترجمنا لجميع شيوخه في كتابنا [رجال تأريخ الطبري جرحاً وتعديلاً].

وكثرة شيوخ الطبري في التأريخ تدلّ على غزارة مصادره في التأريخ وتنوع طرقه وذلك سبب من أسباب اشتهار كتابه رحمه الله تعالى واعتماد المؤرخين من بعده عليه.

وأخيراً الطبري مؤرخاً ومنهجه في التأريخ ما له وما عليه:

كان لا بد من المقدمة السابقة حتى نفهم التطور في علم التأريخ الذي أدى بالنتيجة إلى ظهور الإمام المؤرخ الطبري ضمن جيل المؤرخين العمالقة ولقد بلغ به التدوين التاريخي نهاية عمر التكوين والنشأة^(١).

ولكي نفهم الجوانب الإيجابية لتأريخ الطبري والمآخذ التي أخذت عليه نبدأ

(١) التأريخ العربي والمؤرخون/ ٢٥٣/.

بسرده الصفات الإيجابية والسلبية ولكن قبل ذلك نعرض على موارد الطبري في تاريخه.

فنقول:

١ - موارد الطبري متنوعة وغزيرة ومختلفة المشارب.

٢ - ولقد شاركت جميع الكتب والمرويات المحفوظة التي سبقت الطبري في نسج لحمة تاريخ الطبري ومئات الروايات التي رواها الأخباريون من قبله حفظها الطبري من الضياع فاندثرت أصول كتبهم وصحفهم وأبقى الله لهذه الأمة تاريخ الطبري يحوي بين جنباته جلّ تلك الروايات ولقد تحدثنا عن أولئك الأخباريين وذكرنا حلقات الوصل بينهم وبين الطبري من شيوخه الثقات والضعفاء ولقد كتب المعاصرون أبحاثاً حول موارد الطبري في تاريخه وأسانيده إلى رواة الأخبار وفي مقدمتهم الدكتور جواد علي الذي نشر له حلقات بعنوان موارد الطبري في تاريخه في مجلة المجمع العلمي العراقي قبل نصف قرن من الزمان وقبل عقد ونصف أو يزيد كتب الأستاذ عماد الدين خليل فصلاً عن أسانيد الطبري فيما يتعلق ببدايات العباسيين والباحثان قيمان لا يستغني عنهما كل باحث في هذا المجال.

مميزات منهج الطبري في تاريخه:

١ - الترتيب الحولي للحوادث ولعلّه تأثر بسلفه خليفة بن خياط رحمه الله تعالى في ذلك فقد راعى الطبري ترتيب الوقائع والأحداث ترتيباً زمنياً سنة بعد سنة من مبعثه عليه الصلاة والسلام حتى سنة ٣٠٢ هـ.

٢ - اعتماد الإسناد والرواية وذلك من صفات تاريخ الطبري الإيجابية إذ سهّل على النقاد من بعده نقد الرواية داخلياً وخارجياً كما يسميه المؤرخون المعاصرون... وكما يقول أهل الحديث... - نقد السند والمتمن - وقد حرص الطبري على بيان صيغة التلقي فإن كانت مشافهة قال حدثني أو حدثنا أو أخبرنا وإذا كان مراسلة قال كتب إليّ وإذا أخذ من كتاب ذكر اسم مؤلفه (قال المدائني - أو ذكر الواقدي... إلخ).

ولكن الإسناد يختفي تدريجياً كلما اقتربنا من نهاية كتابه.

٣ - تنوع المصادر وغزارتها: إن الدارس لروايات الطبري يستغرب من كثرة

الطرق التي حصل عليها الطبري للوصول إلى تفاصيل الأحداث ولكن هذا الاستغراب يزول إذا ما تذكرنا كثرة أسفاره رحمه الله بين طبرستان وبغداد والكوفة والبصرة ودمشق ومصر والحجاز مما سهّل له الالتقاء بجمع غفير من الشيوخ أصحاب الميول المختلفة والمنتمون إلى مدارس عدة.

٤ - استطاع الطبري رحمه الله أن يحافظ على حياديته كمؤرخ ثقة لا تجتذبه الميول إلى هذا التيار أو ذاك حتى أنه وهو السني في مذهبه نقل كثيراً من روايات الشيعة والرافضة والمعتزلة والقدرية بينما لم يستطع كثيرون من الكبار أن يكونوا حياديين فاليعقوبي إمامي شيعي في تأريخه والمسعودي لم يستطع المحافظة على حياديته كمؤرخ وهكذا يقول شاكر مصطفى لم يمل الطبري مع أي هوى في إيراد الأخبار التاريخية الإسلامية وكان حياده في الغالب عن ورع ودقة علمية^(١).

اعتبر الطبري التاريخ الإسلامي ممتداً من نزول آدم وهبوطه على الأرض ثم مروراً بقصص الأنبياء وتأريخهم إلى مبعث خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام وعروجاً على سيرته وسيرة الخلفاء الراشدين من بعده وتأريخ الخلافة في عهد الأمويين وأخيراً تأريخ الخلافة في عهد العباسيين.

وهذا الصنيع من الطبري تفسير إسلامي للتأريخ نابع من الثوابت المؤكدة في الكتاب والسنة فأدم أبو البشر ونوح أبو الأنبياء والأنبياء كلهم موحدون وإبراهيم عليه السلام هو الذي أطلق كلمة مسلم على الأمة كما قال تعالى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ﴾ والطبري بذلك صاحب نظرة عالمية إلى التاريخ ولذلك لا نتفق مع الأستاذ شاكر مصطفى في كتابه القيم (التأريخ العربي والمؤرخون) حين يقول:

كان فهمه للتأريخ العالمي أضيق من فهم بعض المؤرخين السابقين له كاليعقوبي مثلاً أو ابن قتيبة فتأريخ العالم عنده محدود بالخط الذي يصل ما بين الأنبياء والعهد الجاهلي عبر الساسانيين وتأريخ اليمن ثم يأتي التاريخ الإسلامي تنويجاً ضخماً لكل ذلك التاريخ.

٦ - اختتم الطبري عهد كل خليفة بسيرة موجزة عن حياته بعيداً عن الحوليات مع ذكر شيء من حياته الأسرية ومناقبه أو مثالبه .

٧ - ولأنه رتب التاريخ بنظام الحوليات فقد أعطى مساحة كافية للخلفاء الذين حكموا عقدين من الزمان كما في حالة سيدنا معاوية وهشام بن عبد الملك فكان دقيقاً في هذا التوزيع وإن كان له جانب سلبي فيما يخص مراحل التاريخ بصورة عامة كما سنذكر إلا أنه في هذا الجانب المتعلق بسيرة الخلفاء خاصة أعطى مساحة لكل خليفة يناسب السنين التي حكم فيها بينما نجد مؤرخين كباراً أعطوا مساحة واسعة لخليفة بينما خصصوا مساحة أصغر بكثير لخليفة آخر ولو كان راشداً!!!

فالمسعودي مثلاً وهو صاحب مروج الذهب (ت ٣٤٦) خصص أقل من عشرين صفحة لخلافة سيدنا عثمان محشواً بالطعن في عدالة الصحابة بينما استغرق حديثه عن خلافة سيدنا علي أكثر من ثمانين (٨٠) صفحة ومع ذلك قال في نهاية عهد سيدنا علي: وفضائل علي ومقاماته ومناقبه ووصف زهده ونسكه أكثر من أن يأتي عليه كتابنا هذا أو غيره من الكتب أو يبلغه إسهاب مسهب أو إطناب مطنب^(١).

علماً بأن مدة خلافة أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه كانت اثنتي عشرة (١٢) سنة بينما مدة خلافة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه لا تصل إلى نصف هذه المدة لأنه بويح في سنة ٣٥ هـ واستشهد في سنة ٤٠ هـ أي أقل من نصف المدة التي قضاها في الحكم سيدنا عثمان بينما اختصر المسعودي مدة اثنتي عشرة سنة من حكم خليفة راشد هو عثمان في أقل من عشرين صفحة بينما أعطى مساحة (٨٠) صفحة لعهد سيدنا علي (الخليفة الراشد الرابع) أي أنه اختصر المسافات والسنين ففقد وسطيته وحياده حتى في إعطاء السنين حقها بينما لم يفعل الطبري مثل المسعودي .

٨ - استطاع الطبري أن يحشد قصائد وأبيات شعرية من روائع الشعر العربي تضاف إلى الأدلة الأخرى من الرواية الخبرية تقوية لأدلته رحمه الله تعالى ويعتبر كتابه بذلك توثيقاً لمئات من الأبيات الشعرية لشعراء فحول أي أنه مزج الأدب مع

التأريخ مع علم الإسناد متزامناً مع تنوع المصادر فكان نسيج وحده رحمه الله تعالى واستحق أن يترجع على قمة التطور التأريخي في نهاية القرن الهجري الثالث .

٩ - فيما يتعلق بتاريخ الروم والفرس: حفظ الطبري لتلك الأمم جزءاً كبيراً من تأريخهم وذلك رصيد يضاف إلى الذخيرة التأريخية لديهم فالطبري ناقل أمين نقل التأريخ الروماني والفراسي من مصادرهم بعد الترجمة ولم يغير منها شيئاً بحجة أنهم ليسوا جزءاً من الأمة الإسلامية بل أدى الأمانة كما وصلت إليه امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ ، وقوله تعالى: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ .

بينما ترجم كثير من المستشرقين التأريخ الإسلامي إلى لغتهم وحرفوا كثيراً من الحقائق التأريخية وشوهوها ولكن الله قيض لهذه الأمة رجالاً كابن العربي والذهبي وابن حجر وابن كثير وابن خلدون والعلامة شاعر ومحب الدين الخطيب ومن جاء من بعدهم فحفظوا لنا تأريخ الأمة فجزاهم الله خيراً.

ولقد أثنى الباحثون على تسجيل الطبري للأحداث السياسية الجسام التي حدثت لملة الروم وغيرهم قبل الإسلام:

يقول الأستاذ شاعر: إنه كان دقيقاً في تاريخ الروم دقة تدعو إلى العجب مع قلة المصادر حوله في هذا الموضوع فقد ذكر أباطرة الروم والرومان قبلهم حتى عصر هرقل وهم واحد وستون عداً من اشتركوا مع أبائهم أو غير أبائهم ومدة حكمهم جميعاً ستة قرون وبضع سنوات ويدهش الباحث من صحة المعلومات التي أوردها ومن دقتها وترتيبها^(١).

النقد الموجّه لتأريخ الطبري:

١ - اختفاء النقد إلا في حالات نادرة جداً صحيح أن الطبري يورد الآراء المختلفة والروايات المتضاربة في المسألة الواحدة لكي تسهل المقارنة بينها بغية الوصول إلى حقوقه الواقعة التأريخية وصحيح أنه يشكك أحياناً في أمور معينة فيقول: وزعم الواقدي مثلاً إلا أنه لم يحكم على الأسانيد والمتون إلا في حالات نادرة جداً.

يقول الأستاذ شاكر مصطفى عند تقييمه لمنهج الطبري في تأريخه:

[وأهم ما يؤخذ على الطبري في منهجه: ضمور النقل عنده - كان يقف خارج الأحداث وخارج الرواية نفسها في برود عقلي واضح]^(١).

ويقول الأستاذ أكرم العمري [ويذكر الطبري روايات تأريخه بالإسناد، ورغم أنه ينتقيها من كتب الأخباريين لكنه لم يحاول استخلاص الروايات الموثقة بل ترك للقارئ حرية النقد والترجيح مكتفياً بالعزو إلى مصادره التي نفذ معظمها وبذلك حفظ لنا مادة تأريخية واسعة تحتاج دراستها إلى موازين نقدية واضحة قبل اعتمادها في التدليل والتعليل لأنها تمثل مدارس فكرية وسياسية متنوعة فلا غرابة إذا تضاربت آراؤها ورواياتها في الأحداث]^(٢).

قلنا: إن مجرد وجود الروايات المنكرة (في تأريخ الطبري) أو المستشنة والتي لا أصل لها من الصحة حسب تعبير الطبري نفسه وتراكمها لقرون طويلة دون تمييزها إلى صحيح وضعيف أدى بالنتيجة إلى ترسيخ أباطيل وأوهام وطاقات في أذهان الناس عن أحداث التاريخ الإسلامي ولكن لا حقيقة لها في الأصل أو كما قال الطبري لا أصل لها من الصحة ولا بأس أن نذكر هنا مقولة شيخ من شيوخنا الأجلاء ألا وهو الشيخ صادق المزوري (وهو من أقران الدكتور القرداغي ومن كبار تلاميذ الشيوخين مصطفى البنجويني وطاهر البرزنجي) وكان يتحدث عن روايات الطبري الكبير وما في صفحاته من أخبار غير صحيحة لا بد من بيانها فقال إن الطبري عُرِفَ كإمام ثقة في الفقه والتفسير والحديث فلما أن كتب تأريخه الضخم وانتشر بين الناس بعد وفاته أعطى الناس لمروياته تمام الثقة اهـ.

قلنا: ولم ينتبهوا إلى تحذيره وهو أي الطبري من الأخذ بكل ما جاء في تأريخه فلم يعتد الناس بما في مقدمة تأريخه ولكن أخذوا بعين الاعتبار أنه محدث ثقة حافظ فصدقوا كل ما في تأريخه وتلك مصيبة تركت أثرها في كتابة التاريخ الإسلامي إلى يومنا هذا.

٢ - عدم التركيز أو الاهتمام اللازم بوقائع تأريخية هامة كبناء المسجد النبوي

(١) التاريخ العربي والمؤرخون/٢٥٩.

(٢) عصر الخلافة الراشدة/١٩.

أول مرة وفتح الأندلس والخلافة الأموية في الأندلس . . . وغير ذلك .

وفي المقابل سلّط الطبري الأضواء على تفاصيل وأعطاهما أكثر من اللازم وأورد مرويات بعضها متكررة ومتشابهة .

٣ - تجزئة الأحداث التاريخية وتوزيعها بين السنين لأنه رتب التاريخ ترتيباً حولياً . ولذلك تراه يترك الحديث عن واقعة معينة ثم يعود إليها بعد حين فلا تكتمل الصورة بل تتجزأ بين السنين وذلك العيب تفاداه اليعقوبي والمسعودي لأنهما لم يجزّئا الواقعة بين السنين .

٤ - يقطع الطبري أحياناً رواية أخباري معين كأبي مخنف ليذكر في وسط الرواية مثلاً رواية أخباري آخر روى نفس الواقعة ولكن بشكل مختلف - ولو أنه انتهى من رواية الأخباري الأول مثلاً ثم بدأ برواية الثاني لتكون لدى القارئ صورة متكاملة من الطريق الأول ثم من الثاني وهكذا .

ولقد ذكر الأستاذ شاكر هذين الأمرين فقال [كان (أي الطبري) يقطع الأحداث بالروايات المتعددة وبالسنين على السواء . ويشرد في الحديث إلى أخبار عارضة تقطع الخبر الأصلي مما جعل تأريخه يفتقر إلى الوحدة وارتباط السياق] ^(١) .

والحق يقال فإن ابن الأثير نبه إلى هذا المأخذ فقال رحمه الله في مقدمة الكامل [ورأيتهم يذكرون الحادثة الواحدة في سنين ويذكرون منها في كل شهر أشياء فتأتي الحادثة مقطعة لا يكمل منها غرض ولا تفهم إلا بعد إمعان النظر .

وكذلك النويري في مقدمة كتابه نهاية الأرب في فنون الأدب قد أشار إلى هذا المأخذ وقال : إن تقطيع الحادثة على السنين يقطع على المطالع لذة متابعة الحادثة وإتمام الصورة الكاملة ونحو ذلك .

٥ - الإكثار من الحكايات الخرافية وخاصة عند حديثه عن بدء الخليقة وقصص الأنبياء وتاريخ العرب قبل الإسلام وأخذ كل ذلك من الروايات الإسرائيلية وخالف أحياناً صريح الكتاب والسنة رحمه الله دون أن يشعر فآله سبحانه لم يبين لنبيه وخليله متى تنتهي هذه الدنيا وتقوم الساعة قال تعالى : ﴿ قُلْ

(١) التاريخ العربي والمؤرخون/ ٢٦٠ .

إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ﴿ ولكن الطبري رحمه الله أسرف في ذكره لعشرات الروايات التي تتحدث عن عمر هذه الدنيا ومن سلبيات هذا الإسراف في الاستشهاد بالإسرائيليات أنه ابتعد في أحيان كثيرة عن الأهداف الكبرى من القصص القرآني وخاصة فيما يتعلق بالأنبياء .

الطبري والتفسير الإسلامي للتاريخ :

لقد ذكر بعض الأساتذة المعاصرون ومنهم الأستاذ شاكر ضمن مأخذهم على أن الطبري متأثر بالنظرة الدينية أكثر من تأثره بالنظرة التجارية . . . فهو عنده تعبير عن المشيئة الإلهية أولاً ثم مستودع خبرات عليا للأمة الإسلامية تكشف عن وحدة هذه بقدر ما تبين قيمة تجاربها ووحدة رسالتها التاريخية^(١) .

قلنا وهذا من إيجابية منهجه رحمه الله فهو المفسر المحدث الفقيه ولا بد له من تفسير التاريخ تفسيراً إسلامياً وإن كان الطبري لم يتحدث بالتفصيل عن هذا التفسير إلا أنه أشار إلى ذلك في مقدمة تأريخه ولعله طبق ذلك أثناء سرده لأحداث التاريخ إلا أن أول تصنيف في التفسير الإسلامي في التاريخ بدأ بظهور ابن خلدون وكتابه القيم [المقدمة] كما سنذكر فيما بعد .

٦ - أوجز الحديث عن وقائع عصره وأهمل ذكر أسماء الذين أخبروه بتلك الوقائع لأسباب معينة .

٧ - عدم ذكره لأسماء الكتب التي أخذ منها بعد اطلاعه عليها ودراستها عن طريق شيوخه الذين شكلوا حلقة الوصل بينه وبين أصحاب هذه الكتب كالمدائني وعوانة بن الحكم وابن سعد وغيرهم .

٨ - أكثر من الأخذ عن بعض المتروكين والتالفين ومن اتهموا بالكذب وذلك في وقائع وأحداث خطيرة كالفتن .

نقد الرواية التاريخية ومسألة إعادة كتابة التاريخ الإسلامي :

نستطيع أن نقول: إن الإمام الطبري رحمه الله (وهو المحدث والمؤرخ) فتح الباب على مصراعيه لنقد الرواية التاريخية وذلك لسببين :

(١) التاريخ العربي والمؤرخون/ ٢٦١ .

الأول: استخدم الطبري الإسناد والرواية وبذلك جعل سند الرواية التاريخية ومتنها عرضة للنقد.

الثاني: فتح الطبري باب النقد مرة أخرى عندما نبّه في مقدمته إلى وجود روايات تاريخية غير صحيحة وذلك بقوله:

[فما يكن من كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشعنه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهاً صحيحاً ولا معنى في الحقيقة؛ فليعلم أنه لم يؤت ذلك من قبلنا وإنما أوتي من بعض ناقله إلينا وإنما أدينا ذلك على نحو ما أدّى إلينا]^(١).

ولكن الطبري رحمه الله تعالى مع إقراره هذا بوجود أخبار غير صحيحة في تأريخه لم يستخدم النقد خلال تأريخه الطويل إلا في حالات نادرة جداً (بالنسبة لكثرة الروايات).

وهذا مثل نادر من أمثلة نقد الرواية التاريخية عند الطبري:

ذكر الطبري ضمن أحداث سنة ١٢ هـ فتح ميناء الأبلّة وتمصير البصرة من رواية سيف بن عمر التميمي (الأخباري الضعيف) (٣/ ٣٥٠) ثم علق الطبري نفسه على هذه الرواية فقال: وفي هذه القصة في أمر الأبلّة وفتحها خلاف ما يعرفه أهل السير وخلاف ما جاءت به الآثار الصحاح وإنما كان فتح الأبلّة أيام عمر رضي الله عنه وعلى يد عتبة بن غزوان في سنة أربع عشرة من الهجرة وسنذكر أمرها وقصة فتحها إذا انتهينا إلى ذلك إن شاء الله [تأريخ الطبري ٣/ ٣٥٠].

قلت: وقد تحدث الطبري في موضع آخر (٣/ ٥٩٠) عن فتح ميناء الأبلّة وتمصير مدينة البصرة بسند صحيح.

وفيما عدا حالات نادرة جداً فقد ترك الطبري نقد الرواية التاريخية حتى قال أحد المعاصرين وهو الأستاذ شاكر مصطفى وهو يصف الطبري: [ومما يؤخذ على الطبري في منهجه ضمور النقد عنده وكان يقف خارج الأحداث وخارج الرواية نفسها في برود عقلي واضح]^(٢).

(١) تأريخ الطبري ٧/١.

(٢) التأريخ العربي والمؤرخون ٢٥٩.

وبمرور الزمن ظهر بين المحدثين والمؤرخين وحتى الفقهاء والمفسرين من نادى بضرورة تمحيص الروايات التاريخية ابتداءً بالإمام المالكي القاضي ابن العربي ومروراً بابن تيمية والحافظ الذهبي ثم ابن خلدون والحافظان ابن حجر وابن كثير.

يقول الدكتور محمد السلمي: [ومن أبرز من تصدى لإيضاح المغالط التاريخية وردّ زيوف الروايات المكذوبة، القاضي ابن العربي في كتاب العواصم، والإمام ابن تيمية في كثير من كتبه ورسائله خاصة كتابه القيم منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية وكذا الحافظ الناقد الذهبي في كثير من مؤلفاته التاريخية مثل كتاب سير أعلام النبلاء وتأريخ الإسلام ومشاهير الأعلام وميزان الاعتدال في نقد الرجال وأيضاً الحافظ ابن كثير المفسر المؤرخ في كتابه البداية والنهاية وأيضاً الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتابه فتح الباري وكتاب لسان الميزان وتهذيب التهذيب والإصابة].

قلت: إن نقد الرواية التاريخية والذي تطور أخيراً ليصل إلى فكرة إعادة كتابة التأريخ الإسلامي ثم بلورة منهج واضح المعالم لهذه إعادة هي في الحقيقة عمل تراكمي جماعي وكتاب العواصم من القواصم أنموذج صغير ونادر لإعادة كتابة التأريخ دون أن يكون هذا المصطلح معروفاً يومها ولكن الفكرة والمنهج أفصح عند العلامة المؤرخ ابن خلدون الذي مثل في مقدمته منهج المؤرخ الملتزم والذي يعتبر (باعتراف المستشرقين) مؤسس علم التأريخ.

ولا بد لكل باحث يطرق هذا الباب أن تكون لديه فكرة عن منهج ابن خلدون هذا. يقول العلامة ابن خلدون رحمه الله وهو يتحدث عن علم التأريخ قائلاً: [فهو محتاجٌ إلى مأخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبيت يفضيان بصاحبه إلى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط].

ويقول أيضاً: [وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سيروها بمعيار الحكمة والوقوف

على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار ، فضلوا عن الحق وتاهوا في بقاء الوهم والغلط ولا سيما في إحصاء الأعداد في الأموال والعساكر إذا عرضت في الحكايات إذ هي مظنة الكذب ومطية الهذر ولا بد من ردها إلى الأصول وعرضها على القواعد^(١).

ثم ذكر ابن خلدون بعضاً من الأسباب التي تقتضي الكذب في الأخبار ومنها:

١ - التشيعات للآراء والمذاهب .

٢ - الثقة بالناقلين .

٣ - الذهول عن المقاصد .

٤ - توهم الصدق .

٥ - الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع لأجل ما يداخلها من التليس والضعف .

٦ - التقرب لأصحاب التجلة والمراتب .

ثم ذكر ابن خلدون في مقدمته أمثلة كثيرة من أمثلة النقد التاريخي ابتداءً من قصص بني إسرائيل وانتهاءً بالخلافة في عهد العباسيين ومنها قصة العباسية مع جعفر بن يحيى بن خالد وبيت ابن خلدون زيف القصة التي حاكها الوضعاء في هذه المسألة ومسألة نكبة البرامكة . وسنعود مرة أخرى للحديث عن منهج ابن خلدون عندما نتناول مسألة التفسير الإسلامي للتاريخ .

قلت : ومن بين الذين ذكرهم الأستاذ السلمي الحافظ ابن كثير والحافظ الذهبي والحافظ ابن حجر أما الخبر فتناوله للنقد التاريخي واضح من خلال روايات مناقب الصحابة وبعض الأحاديث النادرة في صحيح البخاري حول أحداث الفتنة في عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم .

وأما الذهبي فقد استخدم النقد على نطاق لا بأس به في كتابيه العظيمين تاريخ الإسلام وسير أعلام النبلاء ولكن الحافظ ابن كثير استعمل النقد أكثر منهما بكثير ولعل كتابه القيم [البداية والنهاية] هي المحاولة الأولى لإعادة كتابة التاريخ

(١) مقدمة ابن خلدون/ ١٧ .

الإسلامي برمته وأثناء دراستنا لروايات الطبري ومقارنتها بما ذكره ابن كثير من روايات الطبري وغيره وجدنا الحافظ ابن كثير ناقداً بصيراً لأنه محدث مشهور له في علم الحديث وتراجم الرجال ولم يكثر قبله أحد في النقد كما أكثر هو من استخدامه ، وتخميناً لا حصراً نقول إنه نقد ما يقرب من (٢٠٪) من أصل الروايات التاريخية ورجح وصحح .

وفي القرن الرابع عشر الهجري ومع ظهور كتابات الأستاذ محب الدين الخطيب ومنها تعليقه وتعقبه على كلام ابن العربي في العواصم تعالت الأصوات الصادقة بضرورة إعادة كتابة التاريخ الإسلامي مع مراعاة شروط منها التفسير الإسلامي للتاريخ .

الخطوط العريضة التي رسمها الأساتذة المعاصرون لإعادة كتابة التاريخ [اعتماداً على معطيات وذخائر تركها لهم أسلافهم]:

مما لا شك فيه لدى الباحثين في مجال التاريخ الإسلامي تزايد اهتمام أساتذتنا الكرام بوضع منهج واضح المعالم لإعادة كتابة التاريخ الإسلامي وخلال هذا الفصل نستعرض الخطط التي رسمها أبرز من بحثوا في هذه المسألة مع الاستشهاد بمقولات من سبقهم أو عاصروهم وانتهاءً بآخر محاولة جادة في هذا الموضوع وأعني بهذه المحاولة الأخيرة رسالة دكتوراه قدمها الشيخ الفاضل إبراهيم الشهرزوري بعنوان [مناهج المحدثين في نقد الرواية التاريخية] عام ١٤٢٢ هـ في المعهد العربي للدراسات التاريخية .

ولبنداً بأبحاث الأستاذ عماد الدين خليل لأنه رسم الخطوط العريضة وأما الأستاذ العمري فقد دخل في التفاصيل وأعطى نماذج عملية إما مباشرة وذلك من خلال كتابه [صحيح السيرة النبوية] و[عصر الخلافة الراشدة] أو بصورة غير مباشرة عن طريق إشرافه على رسائل جامعية عديدة .

ولعلّ الرسالة الجامعية [روايات أبي مخنف في تاريخ الطبري] للأستاذ يحيى إبراهيم اليحيى هي التي فتحت الطريق أمام الرسائل الأخرى التي قاربت العشرين وتناولت جميعاً مرويات الطبري إسناداً ومتناً .

كتب أستاذنا الفاضل عماد الدين خليل فصلاً بعنوان :

الشروط والضوابط المنهجية لكتابة التاريخ الإسلامي

أولاً: التأكيد على ضرورة ملاحظة ملامح التفسير الإسلامي للتاريخ من جهة والقيم الأساسية التي يتمخض عنها تحليل التاريخ الإسلامي نفسه في توجهاته الشمولية من جهة أخرى^(١).

لا أكون مغالياً إذا قلت إن أول من أبان عن معالم التفسير الإسلامي للتاريخ هو العلامة ابن خلدون - وإن لم يستعمل هو هذا المصطلح - وبلغت تلك المعالم أوجهاً في كتابات الأستاذ عماد الدين خليل سواء كان من خلال كتابه القيم التفسير الإسلامي للتاريخ أو من خلال كتابه حول سيرة عمر بن عبد العزيز وعشرات الكتب والمقالات كتبها حول هذه المسألة ولعل الأستاذ عماد الدين خليل أوجز أهمية التفسير الإسلامي للتاريخ بقوله:

من خلال نظرة شمولية إلى التاريخ الإسلامي في مساراته ومصائرهم يبدو ذلك الاتصال الوثيق بين المسببات والأسباب ، ذلك التلاحم المحتوم بين المقدمات والنتائج ، إنها النواميس والسنن التي حدثنا عنها الله سبحانه في كتابه المبين .

ولقد أخطأ كثير من المؤرخين في فهم وحدة هذا التاريخ وطبيعة نسيجه ذي الخيوط الواحدة ، أخطؤوا لأنهم نظروا إلى هذا التاريخ نظرة تتسم بالتجزئية والمباشرة والتقطع حيناً ، وبقياس التحولات بمقاييس التغير الدائم في الأسر الحاكمة حيناً آخر ، دون أن يأخذوا بنظر الاعتبار حركة المجتمع الإسلامي ووحدته وصيرورته التي كانت تجد في قيم الإسلام ومبادئه ومثله مراكز ثقلها وضبطها ، ومؤشرات تمخضها الدائم عن المزيد من الوقائع والأحداث^(٢).

قلنا: ولقد تحدثنا عن بعض أصول التفسير الإسلامي للتاريخ في ثانيا

(١) إسلامية المعرفة/٦٧.

(٢) المصدر السابق (٦٣).

تخريجنا لروايات تأريخ الطبري وعلى سبيل المثال لا الحصر عند حديثنا عن أسباب انتقال إدارة الخلافة من الأمويين إلى العباسيين فليُنظر .

ويكمل الأستاذ عماد الدين شروطه قائلاً :

ثانياً : إن العمل التاريخي الجاد بحاجة إلى البناء الذين يملكون الحس النقدي بطبيعة الحال أكثر من النقاد^(١).

ويشرح الأستاذ عبارته هذه ويقول في آخر شرحه :

باختصار ، فإن التوجّه الأكثر أهمية وجدوى يجب أن يتجاوز الدفاع المتشنج إزاء كل ما طرحه الخصوم حول هذه النقطة أو تلك في مجرى التاريخ الإسلامي صوب أبحاث في تكوين التاريخ والحضارة الإسلامية ، نظاماً وضرورة ، وأعمال بنائية في هذا الجانب أو ذاك ، تقدم بذاتها القناعات الموضوعية التي تنهافت عندها مقولات الخصوم^(٢).

ثالثاً : تحقيق قدر من التوازن بين دراسة الجوانب السياسية العسكرية وبين فحص الجوانب الحضارية وتحليلها ، مع الأخذ بعين الاعتبار ضرورة أن ينظر إلى المعطيات الحضارية باعتبارها أجزاء متفرقة تنتمي إلى كل نظرة أوسع يتضمنها جميعاً ويمنحها معنى وهدفاً^(٣).

ومن الضروري هنا أن ننقل كلاماً قيماً للأستاذ عمر عبيد حسنة إذ يقول وهو يتحدث عن التأريخ الإسلامي [ليس هو تأريخ الدولة بأجهزتها المتعددة وإنما هو تأريخ الأمة بشكل عام وعطائها الحضاري على مختلف الأصعدة الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والعلمية . . . إلخ].

لذلك نقول : إنه من الخطأ المنهجي والموضوعي الاقتصار على تأريخ الحكام والأمراء والخلفاء وتغيب تأريخ المجددين والمصلحين والعلماء العاملين والطوائف التي تحمل الحق وتظهر به وتدافع عنه وتتولى حصة الأمر بالمعروف

(١) إسلامية المعرفة (٦٧).

(٢) المصدر السابق (٦٨).

(٣) المصدر السابق (٦٨).

والنهي عن المنكر وتحقيق الرقابة العامة في الأمة^(١).

ونعود إلى الشروط والضوابط التي ذكرها الدكتور عماد الدين خليل :

رابعاً: الأخذ بأسلوب نقدي رصين في التعامل مع الروايات التي قدمتها مصادرنا (القديمة) وعدم التسليم المطلق بكل ما يطرحه مؤرخنا القديم ، وإحالة الرواية التاريخية ، قبل التسليم النهائي بها على المجرى العام للمرحلة التاريخية لمعرفة هل يمكن أن تتجانس في سداها ولحمتها مع نسيج تلك المرحلة لحمة وسدى؟ هذا فضلاً عن ضرورة اعتماد مقاييس النقيدين الخارجي والباطني ومعاييرهما وصولاً إلى قناعة كافية بصحة الرواية .

ويمكن الإفادة في مجال النقد الخارجي ، إلى حد ما ، من علمي : «مصطلح الحديث» و«الجرح والتعديل» اللذين مورسا على نطاق واسع في عمليات تمحيص الأحاديث النبوية ، ومن كتب التراجم الغنية الخصبة ، فما من أمة في الأرض عنيت بتمحيص مصادر أخبارها وتاريخها كالأمة الإسلامية ، فهناك تراجم لنصف مليون رجل أسهموا جميعاً في تقديم الأحاديث والأخبار والروايات التاريخية التي لا يمكن توثيقها والأخذ بها إلا بعد فحص أولئك الرجال الذين تناقلوها . ومن ثم فإن دراسة التاريخ الإسلامي دراسة جادة تستلزم ، بالضرورة ، دراسة هذا الموضوع الخطير لكي تقوم الأعمال التاريخية معتمدة على أوثق المصادر وأدق الأخبار ومنقحة من الدسائس والسموم وسيل الروايات الموضوعية التي نفتتها القوى المضادة في جسد تاريخنا المتشابك الطويل .

ومن قبله قال محب الدين الخطيب ومن الإنصاف أن نشير إلى أن اتساع صدور أئمة السنة - من أمثال أبي جعفر الطبري - لإيراد أخبار المخالفين من الشيعة وغيرهم - دليل على حريتهم وأمانتهم ورغبتهم في تمكين قرائهم من أن يطلعوا على كل ما في الباب واثقين من أن القارئ الحصيف لا يفوته أن يعلم أن مثل أبي مخنف موضع تهمة - هو ورواته - إلخ .

وقال الخطيب رحمه الله أيضاً: وإنما ينتفع بأخبار الطبري من يرجع إلى تراجم رواته في كتب الجرح والتعديل ، فتراجم شيوخه مباشرة وشيوخهم توجد في

(١) قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي/ ١١ .

الأكثر في مثل : تذكرة الحفاظ للذهبي وتراجم الرواة الذين كانوا إلى أواخر المئة الثانية توجد في خلاصة تذهيب الكمال للصفى الخزرجي وتقريب التهذيب للحافظ ابن حجر والذين تناولهم الجرح من الضعفاء : يترجم لهم الحافظ الذهبي في ميزان الاعتدال والحافظ ابن حجر في لسان الميزان فضلاً مما ورد في طبقات ابن سعد وتاريخ دمشق لابن عساكر وتاريخ الإسلام للذهبي والبداية والنهاية لابن كثير من آلاف الأخبار إلا بالرجوع إلى تراجم رواته في كتب الجرح والتعديل ، وإن كتب مصطلح الحديث تبين الصفات اللازمة للراوي ، ومتى يجوز الأخذ برواية المخالف ، ولا نعرف أمة عني مؤرخوها بتمحيص الأخبار وبيان درجاتها وشروط الانتفاع بها ، كما عني بذلك علماء المسلمين ، وأن العلم بذلك من لوازم الاشتغال بالتاريخ الإسلامي ، أما الذين يحتطبون الأخبار بأهوائهم ، ولا يتعرفون إلى روايتها ، ويكتفون بأن يشيروا في ذيل الخبر إلى الطبري : رواه في صفحة كذا من جزئه الفلاني ، يظنون أن مهمتهم انتهت بذلك ، فهؤلاء من أبعد الناس عن الانتفاع بما حفلت به كتب التاريخ الإسلامي من ألوف الأخبار ، ولو أنهم تمكنوا من علم «مصطلح الحديث» وأنسوا بكتب الجرح والتعديل واهتموا برواة كل خبر ، كاهتمامهم بذلك الخبر ، لاستطاعوا أن يعيشوا في جوّ التاريخ الإسلامي ، ولتمكنوا من التمييز بين غثّ الأخبار وسمينها ، ولعرفوا الأخبار أقدارها على أقدار أصحابها^(١).

ثم نعود إلى الشروط والضوابط كما وضعها الدكتور عماد الدين خليل :

خامساً : يقابل هذا ضرورة الاعتماد في بناء البحث التاريخي على الواقعة نفسها دون الوقوع في مظنة اعتماد هياكل مرسومة مسبقاً ، ووجهات نظر مصنوعة سلفاً ، ومحاولة تطويع الوقائع وإرغامها على الانسجام مع هذه الهياكل والوجهات حتى ولو أدى هذا إلى تشويه ملامح الواقعة التاريخية ، أو إعادة تركيبها ، لكي تنسجم والأطروحات المسبقة ، مما نجده واضحاً ، على سبيل المثال ، في الدراسات التي تنطلق من المفهوم المادي في تفسير التاريخ ، الأمر الذي أوقعها في بحر من الأخطاء والتناقضات .

(١) المدخل إلى التاريخ الإسلامي / (١٦٤ - ١٦٥).

سادساً: كما أنه يتوجب في مقابل هذا وذاك اتخاذ موقف علمي تجاه معطيات المستشرقين ، الغربيين والشرقيين ، على مستوى المنهج والموضوع وعدم التسليم المطلق بها أو تجاوزها كليّة ، لأن هذه المعطيات تتضمن الجيد والرديء... الأبيض والأسود..

ويضيف الأستاذ عماد الدين قائلاً:

إن مناهج البحث الغربية (نصرانية ومادية) لا يمكنها بحال أن تقدم تفسيراً معقولاً شاملاً متماسكاً لتاريخنا الإسلامي ، فهي إن نجحت في تفسير التاريخ الغربي وتقويمه فستخفق حتماً في تفسير التاريخ الإسلامي وتقويمه ، ذلك أنها مناهج لا تقوم على أساس (متوازن) ينظر إلى القيم الروحية والمادية كعوامل فعالة مشتركة في صنع التاريخ ، بل على العكس ، تسعى بدافع من ماديتها أو علمانيتها إلى ترجيح الدافع المادي وتقليل مساحة الدوافع الروحية في حركة التاريخ ، بل طمسها أحياناً ، وإنكارها أساساً في أحيان ثالثة كعوامل في صيرورة التاريخ البشري.

سابعاً: يجب ألا يقع العاملون في حقل المنهج الجديد للتاريخ الإسلامي تحت وطأة المواضعات المعاصرة في كافة مناحي الحياة البشرية: السياسية والاقتصادية والأخلاقية والروحية والاجتماعية ، لأن هذا من شأنه أن يصبغ رؤيتهم للتاريخ الإسلامي بألوان تستمد تركيبها من واقع عصرنا الراهن ، الأمر الذي يفسد موضوعية الرؤية ، وبالتالي يصد المؤرخ عن الوصول إلى كنه الوقائع التاريخية التي قد لا تمت بصلة إلى موضوعات القرن العشرين.

ثامناً: ولا بدّ من الإشارة أخيراً - وليس آخراً - إلى أن الدعوة لإعادة كتابة أو عرض التاريخ الإسلامي وتحليله لا تعني بالضرورة البدء من نقطة الصفر ، أو الرفض المطلق للصبغ التي قدمها بها مؤرخونا القدماء ، ومحاولة قلب معطياتهم رأساً على عقب... ومن يخطر على باله أمر كهذا؟ فهو ليس من العلم في شيء.

[فصل من كتاب إسلامية المعرفة/ ٦٣ - ٧٣/ مخطط مقترح لإسلامية علم التاريخ]

ولقد استمر أستاذنا الفاضل عماد الدين خليل في ذكر شروط وضوابط أخرى إلا أننا لم نذكرها هنا لأنها بحاجة أن تعتمد في حالة كتابة موسوعة للتاريخ.

الإسلامي أوسع بكثير من تأريخ الطبري وأشمل منه كذلك - إلا أننا اكتفينا بذكر الضوابط التي نراها لازماً للباحث في مجال تأريخ الطبري وتخريج رواياته والله أعلم .

ونضيف هنا شروطاً أخرى ذكرها بعض من أساتذتنا الأفاضل :

تاسعاً: يقول الأستاذ عمر عبيد حسنة: كما أن من الخطأ التربوي والثقافي والديني أيضاً الاقتصار على إبراز الجوانب المشرقة وتضعيفها في التأريخ الإسلامي وتصوير مجتمع المسلمين على أنه مجتمع ملائكة معصومين من الخطأ - وتغيب أو إسقاط فترات الانكسار والهزيمة والسقوط التي قد تمثل النقاط السوداء والسلبية في مسيرة الأمة - إذا ما تمت معايرتها بالقيم وإن كانت مساحتها في التأريخ الإسلامي لا تكاد تذكر أمام الإنجازات العظيمة والعطاء الحضاري^(١).

التفاصيل العملية لمنهج إعادة كتابة التأريخ الإسلامي ومنها مسألة نقد المتن والإسناد:

وهنا نركز بالذات على أبحاث أستاذنا الفاضل أكرم ضياء العمري الرائد في مجال تطبيق قواعد المصطلح والجرح والتعديل لنقل وتقييم الرواية التاريخية .

وما سنذكره هنا من شروط وضوابط مأخوذة من عدة أبحاث وكتب لأستاذنا العمري ورأينا في جمعها في فصل واحد فائدة عظيمة والله أعلم .

نظراً لأن المصادر المتعلقة بالحديث والعلوم الشرعية والتاريخ الإسلامي معظمها يسرد الروايات بالأسانيد ، فلا بد من تحكيم قواعد علماء المصطلح في نقد هذه الروايات مع عدم التخلي عن الروايات التي لا تصل إلى مستوى الصحة الحديثية ، ففي الأبحاث التاريخية تعتبر الروايات المسندة من طرق رواة لا يبلغون مستوى الثقات أفضل من الروايات والأخبار غير المسندة ، لأن فيها ما يدل على أصلها ، ويمكن من التحكم بنقدها وفحصها بصورة أفضل من الأخبار الخالية من السند .

أما في الدراسات المتصلة بالعقيدة والشريعة فلا بد من الاعتماد فيها على

(١) قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي / ١١ .

الروايات والأحاديث الصحيحة ونقد وبيان الضعفية منها ، وستسلم في هذا الجانب أحاديث صحيحة على شرط المحدثين تكفي لبيان العقيدة وأحكام الشريعة ، لأن المحدثين أولوا الأحاديث عناية كبيرة وأحاطوا روايتها بدراسة دقيقة واسعة ، واهتموا بطرق تحملها وأدائها ، فإذا طبقت قواعدهم على الأحاديث فهي أهل لذلك لما بلغته من الدقة والإتقان .

ثم يذكر الأستاذ العمري بيت القصيد هنا فيقول :

أولاً: أما اشتراط الصحة الحديثية في قبول الأخبار التاريخية التي لا تمس العقيدة والشريعة ففيه تعسف كثير ، والخطر الناجم عنه كبير ، لأن الروايات التاريخية التي دونها أسلافنا المؤرخون لم تعامل معاملة الأحاديث بل تم التساهل فيها ، وإذا رفضنا منهجهم فإن الحلقات الفارغة في تاريخنا ستشكل هوة سحيقة بيننا وبين ماضينا مما يولد الحيرة والضياح والتمزق والانقطاع .

إن تاريخ الأمم الأخرى مبني على روايات مفردة ومصادر مفردة في كثير من حلقاته ، وهم ينقدون متون الروايات فقط ويحللوننها وفق معايير نقدية تمكنهم من الوصول إلى صورة ماضيهم لعدم استعمال الأسانيد في رواياتهم التاريخية لأن الأسانيد اختصت بها الأمة الإسلامية .

لكن ذلك لا يعني التخلي عن منهج المحدثين في نقد أسانيد الروايات التاريخية فهي وسيلتنا إلى الترجيح بين الروايات المتعارضة ، كما أنها خير معين في قبول أو رفض بعض المتون المضطربة أو الشاذة عن الإطار العام لسير تاريخ أمتنا ، ولكن الإفادة منها ينبغي أن تتم بمرونة آخذين بعين الاعتبار أن الأحاديث غير الروايات التاريخية ، وأن الأولى نالت من العناية ما يمكنها من الصمود أمام قواعد النقد الصارمة .

ويرى أستاذنا العمري علاقة قوية بين التاريخ والحديث فيقول في كتابه القيم «بحوث في السنة المشرفة» :

ولكن بسبب انشغال كثير من المحدثين في التاريخ فإن قواعد النقد هذه استعملت إلى حد ما في التاريخ أيضاً وقد ساعد على ذلك أن الروايات التاريخية كانت تنصدها الأسانيد كما هو شأن الأحاديث كما أن مقاييس المحدثين سرت

إلى علم التاريخ فقد اشترطوا في المؤرخ ما اشترطوه في رواية الحديث من العدالة والضبط^(١).

وبذلك أمكن تطبيق قواعد نقد الحديث في نقد الروايات التاريخية أيضاً ولكن ذلك لم يتم بنفس الدقة بل حدث تساهل كبير. في ميدان التاريخ فالمؤرخون الأوائل مثل خليفة بن خياط والطبري أستقوا كثيراً من مادتهم التاريخية عن رواية ضعفهم أهل الحديث وبذلك لم يتشددوا في نقد رواية الأخبار كما فعلوا بالنسبة لرواية الحديث...

ثانياً: ثم يذكر الأستاذ العمري ببيت القصيد هنا فيقول:

وعندما يقوم المؤرخون اليوم بمحاولة تدقيق مصادرنا التاريخية ونقد متونها فإن بالإمكان الاستفادة من قواعد نقد الحديث وعلم الرجال في ترجيح الروايات التاريخية المتعارضة كأن تكون إحدى الروايتين المتعارضتين بإسناد متصل، رجاله ثقات والأخرى وردت بإسناد منقطع أو عن طريق رواية مجروحين فعندئذ ينبغي ترجيح الرواية الأولى على الثانية.

ومن شروط الأستاذ يحيى إبراهيم اليحيى لإعادة كتابة التاريخ كما قال:

إن من أراد أن يكتب عن عصر من العصور لابد أن يتصور حياة ذلك العصر بأخلاقياته وصفاته وعاداته حتى يستطيع أن يصدر الأحكام عليه وتكون عنده القدرة على نقد الروايات والامتون التي بين يديه من خلال موافقاتها أو معارضاتها لحال ذلك العصر الذي قام بدراسته.

[مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري اعتبارات تهمُّ دارس التاريخ/ ٩].

وكما أن استعمال قواعد المصطلح في نقد الروايات التاريخية ينبغي أن يتشدد على قدر تعلق المادة بالأحداث الخطيرة التي تؤثر فيها الأهواء ويشتط عندها الهراء كأن تكون الروايات لها مساس بالعقائد والفتن التي حدثت في حياة الصحابة أو ذات صلة بالأحكام الشرعية كالسوابق الفقهية، فإن التشدد في قبولها يجعل استعمال قواعد نقد الحديث بدقة أمراً مقبولاً^(٢).

(١) دراسات تاريخية / د. أكرم ضياء العمري / ٢٦ - ٢٧.

(٢) أبحاث في السنة المشرفة (٢١٠ - ٢١١).

قلت : ولعل أحدث رسالة دكتوراه في هذا الباب وهي [مناهج المحدثين في نقد الروايات التاريخية] لأخينا الدكتور إبراهيم الشهرزوري هو أوسع ما كتب فيه . جمع فيه أخونا الشيخ ما ذكره أسلافه وأضاف إضافات قيمة أثرت هذا الموضوع ومن إضافاته أنه يرى الاستعانة بأصول الفقه والفقه نفسه في نقد الرواية التاريخية بالإضافة إلى قواعد الحديث .

ولقد لخص فكرة كتابه القيم بقوله : [إن هذه الرسالة محاولة متواضعة لوضع وجمع وترتيب جميع المناهج وقواعد المحدثين إضافة إلى قواعد الأئمة الفقهاء والمؤرخين وكل ما لا يسع المؤرخ جهله بما يتعلق بالتأريخ الإسلامي] ص ٩٣ .

ومن الأمور القيمة التي فطن إليها الشيخ الشهرزوري في رسالته هو تطبيق القواعد الفقهية على الروايات التاريخية إذ يقول [إن ربط التأريخ الإسلامي بمختلف العلوم الشرعية أمر لا بد منه لأنه تأريخ عقيدة وشرعية يختلف عن تأريخ بقية الأمم ، وأن أي مسألة تاريخية قد ترتبط بمسألة عقدية أو شرعية ، وقد تجد لتلك المسألة أصلاً في العلوم الشرعية الأخرى كعلم العقائد والتوحيد والفقه أو أصول الفقه] ص ٣٥١ .

ومن ثم ذكر إبراهيم الشهرزوري أمثلة عدة لاستخدام القواعد الفقهية على الروايات التاريخية كعامل مساعد في تحقيقها نذكر منها مسألة الخروج على السلطان وموقف أبي حنيفة من الخليفة العباسي ، فبعض المصادر التاريخية تذكر أن أبا حنيفة قد بايع للخليفة العباسي علناً بينما كان يمدّ يد العون للخارجين عليه .

ثم يناقش الدكتور إبراهيم هذه المسألة من وجوه ويراها غير صحيحة للأسباب التالية :

١ - تعارض هذه الروايات مع القواعد الفقهية التي أقرها الإمام أبو حنيفة وبقية الفقهاء .

٢ - تعارض هذه الروايات مع مرويات أخرى صادرة عن هؤلاء الأئمة والتي تفيد تعاونهم مع خلفاء المسلمين وعدم خروجهم عليهم .

٣ - مناقشة أسانيد ومتون هذه الروايات وبيّن أنها غير صحيحة والسند والمتن.

وخلاصة كلام الأستاذ إبراهيم الشهرزوري أن حركة النفس الزكية كانت سنة ١٤٥ وكان عمر الإمام أبي حنيفة يومها (٦٥) عاماً على رأي جمهور المؤرخين وهو عمر الاستقرار العلمي حيث يبلغ الإنسان أشده من النضج العقلي وينظر في كل آرائه السابقة إن احتاجت إلى التغيير أو الترجيح أو غيرهما ، وبما أن كل الآراء الواردة عن هذا الإمام سابقاً ولاحقاً وكذلك إجماع فقهاء مذهبه ضد الخروج على السلطان فإن هذه الروايات باطلة - ثم استشهد الشهرزوري بنقول من كتب الأئمة الأحناف ومنهم الإمام السرخسي إذ يقول : اعلم أن الفتنة إذا وقعت بين المسلمين فالواجب على كل مسلم أن يعتزل الفتنة ، وهذا القول رواه الحسن عن أبي حنيفة ثم ناقش الأستاذ إبراهيم أسانيد هذه الروايات وبيّن أنها ضعيفة لا يعول عليها وتخالف مذهب الإمام أبي حنيفة وفقهاء مذهبه .

ثم بيّن أن بعض طرق القصة جاءت عن أبي الفرج الأصبهاني في كتابه : «مقاتل الطالبين» ، وهو تالف متروك .

وبعضها الآخر من طريق أئمة ثقات ولكنهم من أهل الحديث يومها وأبو حنيفة من أهل الرأي ولا تقبل رواية الأقران في بعضهم البعض إذا كانت بينهم مثل هذه الأمور - كما قالوا : [رواية الأقران تطوى ولا تروى] .

وأخيراً فإن الأستاذ إبراهيم الشهرزوري يرى في متن هذه القصة تناقضاً واضحاً حيث تذكر الرواية أن أبا حنيفة لما جهر بالكلام أيام إبراهيم لم يلبث أن جيء به إلى بغداد وعاش خمسة عشر يوماً ثم سقي سمّاً فمات سنة ١٥٠ هـ ومن المعلوم أن إبراهيم قتل سنة ١٤٥ فكيف جيء بأبي حنيفة أيام إبراهيم مباشرة ولم يعيش إلا (١٥) يوماً ثم مات سنة ١٥٠ هـ؟! [مناهج المحدثين في نقد الروايات التاريخية ٣٥٩ - ٣٦٩ - ٣٧٠] .

وأخيراً منهج هذا التحقيق [تخريج روايات الطبري وتمييزها إلى صحيح وضعيف ومسكوت عنه] .

بعد توفيق الله تعالى لنا وتأييده بدأنا بتخريج روايات تاريخ الطبري [تأريخ

الأمم والملوك] انطلاقاً من القواعد التي ذكرها المتقدمون والمتأخرون والمعاصرون وبالأخص منهما الأستاذان الفاضلان (العمري وعماد الدين) فكان تقسيمنا لتأريخ الطبري كالآتي:

- أولاً: صحيح تأريخ الطبري [قصص الأنبياء وتأريخ ما قبل البعثة].
- ضعيف تأريخ الطبري [قصص الأنبياء وتأريخ ما قبل البعثة].
- ثانياً: صحيح السيرة النبوية [تأريخ الطبري].
- ضعيف السيرة النبوية [تأريخ الطبري].
- ثالثاً: صحيح تأريخ الطبري [تأريخ الخلافة الراشدة].
- ضعيف تأريخ الطبري [تأريخ الخلافة الراشدة].
- رابعاً: صحيح تأريخ الطبري [تتمة القرن الهجري الأول].
- ضعيف تأريخ الطبري [تتمة القرن الهجري الأول].
- خامساً: صحيح تأريخ الطبري [تتمة تأريخ الخلافة في عهد الأمويين].
- الضعيف والمسكوت عنه تأريخ الطبري [تتمة تأريخ الخلافة في عهد الأمويين].
- سادساً: تأريخ الطبري [الصحيح والضعيف والمسكوت عنه].
- تأريخ الخلافة في عهد العباسيين.
- سابعاً: رجال تأريخ الطبري جرحاً وتعديلاً.
- أولاً: فيما يتعلق ببدء الخليفة وقصص الأنبياء.
- حاولنا أن نوضح بكل جلاء عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فنفيها عنهم تشويهات وتخرصات اليهود ومزاعمهم حول الأنبياء ولم نقبل من الروايات إلا ما كان مسنداً موصولاً صحيحاً وتشددنا كتشدد العلماء في قبول أحاديث الأحكام تماماً لأنها تتعلق بمسألة خطيرة ألا وهي عصمة الأنبياء وانظر مقدمتنا لقصص الأنبياء.

ثانياً: فيما يتعلق بالسيرة النبوية الشريفة:

استعنا للمقارنة بالطبقات الكبرى لابن سعد وكمصدر متقدم موثوق به ، وكتب أخرى لأئمة الحديث كدلائل النبوة للبيهقي ، والحافظ أبي نعيم مع الاستعانة بالسيرة التي أخرجها الحافظ ابن كثير لأنها من طريق آخر غير طريق ابن هشام وابن حميد الرازي - [ونفي سيرة ابن إسحاق] .

بالإضافة إلى المعازي والسير في الصحيحين وبقية الصحاح والمسانيد والسنن والمصنفات - وبالأستعانة من تخريجات الذهبي وابن كثير وابن حجر وبما حققه الأساتذة المعاصرون من روايات السيرة كالأستاذ العمري وهمام وأبو صعليك وإبراهيم العلي وقد أشرنا إلى أقوالهم القيمة في مواضعها بالإضافة إلى تعليقات العلامة الألباني رحمه الله على السيرة النبوية للغزالي رحمه الله تعالى .

ولقد تشددنا في تخريج روايات السيرة النبوية الشريفة كالتشدد في الأحكام إلا ما كان متعلقاً بقصص إسلام بعض الصحابة فقبلنا منها ما ورد بأسانيد مرسلة متعددة المخارج صحيحة الإسناد إلى من أرسلها .

ثالثاً: تعاملنا بنفس الأسلوب عند تخريجنا لروايات تأريخ الطبري فيما يتعلق بالخلافة الراشدة وجعلنا نصب أعيننا هنا مسألة عدالة الصحابة التي قال عنها ابن حجر رحمه الله تعالى : [اتفق أهل السنة على أن الجميع عدول ولم يخالف في ذلك إلا شذوذ من المبتدعة] ^(١) .

ولقد فصل الخطيب البغدادي رحمه الله في هذه المسألة في كتابه الكفاية في علم الرواية ونقل إجماع علماء أهل السنة والجماعة إلى عدالتهم ^(٢) .

ولعل الإمام الذهبي رحمه الله خير من أوجز ولخص في هذه المسألة دون إخلال فقال :

كما تقرر الكف عن كثير مما شجر بين الصحابة ، وقتالهم - رضي الله عنهم أجمعين ، وما زال يمر بنا ذلك في الدواوين والكتب والأجزاء ، ولكن أكثر ذلك

(١) الإصابة ١٠/١ .

(٢) الكفاية في علم الرواية/ ٩٥ - ٩٦ .

منقطع وضعيف ، وبعضه كذب ، وهذا فيما بأيدينا ، وبين علمائنا ؛ فينبغي طيه وإخفاؤه ، بل إعدامه لتصفو القلوب ، وتتوفر على حب الصحابة ، والترضي عنهم وكتمان ذلك متعين عن العامة وآحاد العلماء ، وقد يرخص في مطالعة ذلك خلوة للعالم المنصف العربي من الهوى ، بشرط أن يستغفر لهم ، كما علمنا الله تعالى حيث يقول : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فالقوم لهم سوابق ، وأعمال مكفرة لما وقع بينهم ، وجهاد محاء ، وعبادة ممحصة ، ولسنا ممن يغلو في أحد منهم ؛ ولا ندعي فيهم العصمة ، نقطع أن بعضهم أفضل من بعض ، ونقطع بأن أبا بكر وعمر أفضل الأمة ، ثم تنمة العشرة المشهود لهم بالجنة ، وحمزة وجعفر ومعاذ وزيد وأمّهات المؤمنين ، وبنات نبينا ﷺ ، وأهل بدر مع كونهم على مراتب ، ثم الأفضل بعدهم ، مثل أبي الدرداء وسلمان الفارسي ، وابن عمر وسائر أهل بيعة الرضوان الذين رضي الله عنهم بنص آية سورة الفتح ، ثم عموم المهاجرين والأنصار كخالد بن الوليد والعباس وعبد الله بن عمرو وهذه الضُحبة ، ثم سائر من صحب رسول الله ﷺ وجاهد معه ، أو حج معه ، أو سمع منه ، رضي الله عنهم أجمعين وعن جميع صواحب رسول الله ﷺ المهاجرات والمدنيات وأم الفضل وأم هانئ الهاشمية وسائر الصحايات ، فأما ما تنقله الرافضة وأهل البدع في كتبهم من ذلك ، فلا نرج عليه ، ولا كرامة له ، فأكثره باطل وكذب وافتراء فدأب الروافض رواية الأباطيل ، أورّد ما في الصحاح والمسانيد^(١).

ولقد اعتمدنا مصادر المتقدمين سواء منهم من توفي قبل الطبري بسنوات أو من عاصره ومنها بالأخص :

١ - تاريخ خليفة بن خياط ٢٤٠ هـ .

٢ - الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٣٠ هـ .

٣ - فتوح البلدان للبلاذري ٢٧٩ هـ .

٤ - أنساب الأشراف للبلاذري ٢٧٩ هـ .

(١) سير أعلام النبلاء : ٩٣/١٠ .

٥ - فتوح مصر لابن عبد الحكم المصري ٢٧٦ هـ.

٦ - وبلاستعانة بروايات نادرة تتعلق بتاريخ الخلافة الراشدة أخرجها البخاري ومسلم وأصحاب السنن والمسانيد والمصنفات مع الكتب أخرى متخصصة كالخراج لأبي يوسف وغير ذلك مما ذكرنا في مقدمة تاريخ الخلفاء.

رابعا: فيما يتعلق بتاريخ الخلافة في عهد الأمويين والعباسيين.

فقد تشددنا فيما يتعلق بتتمة تاريخ القرن الهجري الأول وخاصة عهد أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه وعهد أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير وحتى نهاية عهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز.

وما يتعلق بتلك الفترة من تاريخ الفتن المشهورة [وقعة الحرة ، وقعة كربلاء].

وفي حال عدم حصولنا على رواية صحيحة الإسناد قبلنا رواية الراوي الذي ذكره ابن حبان في الثقات ولم نعلم فيه جرحاً شريطة خلوّ المتن من نكارة أو طعن في عدالة الصحابة.

ومن ثم بدأنا بإبداء المرونة في مسائل معينة كذكر الوفيات وذكر أمر الفتوح وتولية الأمراء والقضاة وعزلهم فهذه أمور تشتهر ، واكتفينا باتفاق عدة مصادر تاريخية موثوقة في هذه الأمور وإن حصلنا على رواية مسندة فيها ونعمت.

وأما بالنسبة للمصادر التي استخدمنا للمقارنة فهي كالآتي :

١ - الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٣٠ هـ.

٢ - تاريخ خليفة بن خياط ٢٤٠ هـ.

٣ - أنساب الأشراف للبلاذري ٢٧٩ هـ.

٤ - فتوح البلدان للبلاذري ٢٧٩ هـ.

٥ - المعرفة والتاريخ ليعقوب بن سفيان البسوي ٢٧٧ هـ.

٦ - وبلاستعانة بروايات نادرة تتعلق بالفتن في بداية عهد الأمويين ، أخرجها أصحاب الصحاح والمسانيد والسنن والمصنفات.

٧ - مصادر متنوعة أخرى استقينّا منها روايات وإن كانت قليلة كالكتب الآتية

[تأريخ مكة - كتاب المتوارين - المعارف لابن قتيبة - المحن لأبي أيوب التيمي - وغيرها].

٨ - وفي المرحلة الثانية استعنا بكتب الأئمة الذين جاؤوا من بعد الطبري بقرن أو قرنين وهي كتب تاريخية قيمة بل هي موسوعات في الحديث والتأريخ ، أصحابها ثقات وهي ثلاثة على التوالي .

١ - تأريخ بغداد للخطيب البغدادي .

٢ - المنتظم لابن الجوزي .

٣ - تأريخ دمشق لابن عساكر .

وهؤلاء أئمة حفاظ استخدموا الإسناد في رواياتهم التي أخرجوها وقد سهلت لنا مروياتهم التحقق والتأكد من مسائل تاريخية هامة والحمد لله على نعمة الإسناد .

وللمرة الثالثة استوثقنا من تخريجنا بالاستعانة بتخریجات الحفاظ الثلاثة المتأخرين [الذهبي - ابن كثير - ابن حجر] [تأريخ الإسلام والسير للذهبي والبداية والنهاية لابن كثير خاصة] .

الاستفادة من عشرات الرسائل (الجامعية) في مجال تحقيق وتخريج الروايات التاريخية مع كتب قيمة كتبها أساتذتنا الأفاضل في هذا الباب كالخلافة الراشدة وكتب الأستاذ الدوري والعلامة شاکر رحمہ اللہ تعالى في موسوعته التاريخية القيمة والأستاذ يوسف العش رحمہ اللہ وغيرهم كثير ذكرنا كل واحد منهم ، في موضعه - وإذا لم نوافقهم في بعض المسائل بينا ذلك في مواضعه .

ملاحظاتي حول الطبري مؤرخاً ومنهجه في التأريخ مع نقاط أخرى .

بالرغم من كل ما وُجّه إلى منهج الطبري في تأريخه يظل الإمام الطبري عملاقاً يترفع على قمة كتابة التأريخ - ولا يدرك دقة الطبري وأمانته العلمية تماماً إلا من درس تأريخه فقرة فقرة وخرج رواياته رواية رواية ولاحظ عباراته عبارة عبارة فجزاه الله عن المسلمين وتأريخهم خير الجزاء ، وجزى الله من جاء بعده من تلاميذه ومن بعدهم ممن نقلوا إلينا هذا السفر العظيم بكل أمانة .

ثانياً: ما من غرابة أو نكارة في المتن إلا ويقابله ضعف في السند [فيما يتعلق بالرواية التاريخية].

ثالثاً: من علامات الوضع التاريخي ما يأتي: لاحظنا خلال تخريجنا لروايات الطبري أن غلاة المبتدعة والهالكين من أمثال لوط بن يحيى يكثر استخدام الألفاظ البذيئة وينسبوننها إلى السلف وهم منها براء - ولقد شهد الكل بطهارة لسانهم من الشتائم والبذاءات ، ولكن الرواة المتروكين التالفين يصبون جام حقدهم على شكل سيل من الألفاظ الساقطة [يا بن أم كذا - أو يا كذا أو فلان الطاغية... إلخ] من الألفاظ التي كانت الصحابة تتورع حتى عن سماعها ناهيك عن التلفظ بها.

رابعاً: ومن علامات الوضع كذلك كثرة استخدام الأيمان المغلظة لتوكيد تفاصيل حادثة معينة - وعلى ما يبدو فإن الوضع كان يشعر بهشاشة تلفيقه ووضوح كذبه فيستر كذبه وراء هذه الأيمان الغليظة.

خامساً: عادة (وليس دائماً) تكون الروايات الصحيحة قصيرة المتن بينما يغلب على الوضعاين الإطالة في رواياتهم الملققة.

سادساً: ما وجدنا أميراً أو قائداً فاتحاً من قواد السلف الصالح ابتداءً من سيدنا خالد رضي الله عنه ، ووصولاً إلى الجراح بن عبد الله الحكمي وغيرهما إلا وتهافت الوضعاين على كيل الاتهامات نحوه - وخاصة إذا كان شديداً على الخوارج وأهل البدع.

سابعاً: الأعداد المذكورة في الروايات المكذوبة مبالغ فيها جداً فلو كان عدد الجيش ألفاً في الأصل لوجدت الألف صار عشرين ألفاً وهكذا ، وكذلك تبالغ الروايات المكذوبة في إحصاء عدد القتلى وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن الروايات التي لا تصح عن واقعة الحرة تذكر أن أعداد القتلى كان بالآلاف بينما لم يتجاوز عددهم الخمسمئة أضف إلى ذلك فإن في متونها قصوراً وفجوات وهفوات ونكارات فكيف بالآلاف القتلى في المدينة التي عرفت بجوها الحار ولم تكن يومها ثلاثيات حفظ الموتى موجودة أقول فكيف لم تتعفن هذه الجثث علماً بأن هذه الروايات تذكر أن المدينة استبيحت ثلاثة أيام وأن أهلها الباقون قد فروا

إلى خارج المدينة ، وهذا يعني أن آلاف الجثث قد تركت في الطرقات والأزقة ولو كان ذلك صحيحاً لتفسخت الجثث وتفتشت الأمراض وهلك البلاد والعباد وكل ذلك لم يحصل وذلك دليل آخر على كذب تلك المبالغات .

ومثال آخر فيما يتعلق بأمير العراق القسري الذي ولاه هشام بن عبد الملك العراق فالمصادر التاريخية تشير إلى تملكه لبساتين وغلل وأموال ولعلها كانت سبباً لعزله من قبل أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك ولكن الروايات الضعيفة جداً تصور بذخه فوق الخيال حتى أنها تقول بأنه أهدى أحد المقربين إليه ألف جارية وما أشبه ذلك فماذا يفعل هذا المهدي إليه بهذا الجيش الجرار من الجواري ومن أين للقسري بهذا العدد وهو القائد المنشغل بضبط أمور العراق المتأجج حركة وخروجاً ثم لو كان كذلك لذاع الخبر في الآفاق ولسجلته معظم المصادر التاريخية الموثوقة وبالأسانيد المعتمدة ولكن كل ذلك لم يحصل .

ثامناً: إن غلاة المبتدعة الذين أرادوا أن يصوروا كل خليفة أموياً كان أو عباسياً عدواً لآل البيت - وقعوا في تناقض عجيب فهم من جانب يصورون عداء الخليفة لآل علي مثلاً بينما يصفون آل علي بحب الدنيا والطمع والمنافسة فيما بينهم على المال وسب بعضهم البعض والرضا إذا أدى الخليفة إليهم أعطياتهم والخروج بالسيف إذا منعوا المال أو سئلوا عنه - أي أنهم لم يراعوا للخليفة حرمة ولا لآل بيت رسول الله ﷺ حرمة .

ولقد التقينا بعدد من أساتذة التاريخ الإسلامي وشيوخ الحديث وغيرهم من علماء المسلمين وناقشنا معهم هذا المنهج في تخريج روايات الطبري (كالأستاذ أكرم ضياء العمري والأستاذ عماد الدين خليل والأستاذ يحيى إبراهيم يحيى وغيرهم) .

وأفادونا كثيراً بآرائهم وملاحظاتهم القيّمة ولقد استعنا بخبراتهم القيّمة التي أودعوها كتبهم ولقد أشرنا إلى جهودهم تلك في مواضعها ولقد ترك شيوخنا وأساتذتنا بصماتهم على صفحات هذا المشروع العلمي وسندكرهم بأسمائهم إن شاء الله في نهاية المجلد الأخير وجزاهم الله عنا وعن المسلمين والتاريخ الإسلامي خير الجزاء وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

ثانياً

كتاب تاريخ الطبري^(١)

وكتابه «المسمى تاريخ الرسل والملوك»^(٢) ، أو تاريخ الأمم والملوك^(٣) يعدّ أوفى عمل تاريخي بين مصنّفات العرب ، أقامه على منهج مرسوم ، وساقه في طريق استقرائيّ شامل ؛ بلغت فيه الرواية مبلغها من الثقة والأمانة والإتقان أكمل ما قام به المؤرخون قبله ، كاليقوبي والبلاذري والواقدي وابن سعد؛ ومهّد السبيل لمن جاء بعده كالمسعودي وابن مسكويه وابن الأثير وابن خلدون .

وقد كان التاريخ عند العرب في الجاهلية أخباراً متفرقة تتناقلها الشفاه ، وروايات متناثرة تدور حول الأشعار والأمثال والأيام ، وأساطير تكسوها المبالغة ويحوطها التهويل ؛ عدا نقوشاً كتبت بالخط المسند على حوائط المعابد والأديرة وأعمدة الحصون والقصور في الحيرة واليمن . ثم كانت بعثة محمد عليه الصلاة والسلام ، ومضى عهده وعهد الخلفاء الراشدين من بعده ، وإذا المسلمون يخفون لتدوين أخباره عليه الصلاة والسلام ، ويروون أنباء مولده ومبعثه وهجرته ومغازيه ؛ فكان من تدوين تلك السيرة اللبنة الأولى في تاريخ الإسلام ؛ على أنها لم تعد في ذلك الحين أن تكون نوعاً من رواية الحديث . وكان أول من وضع في ذلك كتاباً عروة بن الزبير بن العوام ، ثم تلاه أبان بن عثمان بن عفان ؛ إلى أن بلغ فنّ السيرة أوجه في كتاب ابن إسحاق .

ثم خرج المسلمون للغزو والجهاد ، فهزّوا عروش كسرى وقيصر ، وقوضوا دعائم الملك في بلاد الفرس والشام ومصر والروم ، ودخلوا البلاد فاتحين . ثم

(١) مأخوذة من مقدمة الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم .

(٢) معجم الأدباء ١٨ : ٦٨ .

(٣) تاريخ بغداد ٢ : ١٦٣ ، وكشف الظنون ٢٩٧ .

نبض عرق العصبية والفُبلّة ، وشاعت أخبار الأمم القديمة ، وتاريخ الديانات عند الأمم الأخرى؛ كلّ هذا وذاك دعا إلى إضافة مادة تاريخية جديدة؛ فالعلماء حاولوا أن يفهموا إشارات الكتاب الكريم إلى تلك الأمم ، والخلفاء رغبوا في معرفة أخبار الملوك من الأمم قبلهم؛ كان يفعل ذلك معاوية وعبد الملك بن مروان وأبو العباس السفاح وأبو جعفر المنصور؛ ومست الحاجة إلى معرفة ما فتح من البلاد صلحاً ، وما فتح منها عنوة؛ ليقيموا الجزية والخراج على أساس ما رسمه الإسلام في ذلك من تشريع؛ وأخذت الرواية التاريخية تتخذ لوناً جديداً ، أطلق عليها اسم الأخبار ، ودعي من يرويها بالأخباري ، كما أطلقوا على من يروي الحديث اسم المحدث؛ وظهرت في ذلك مؤلفات ، فصنف محمد بن السائب الكلبي كتاباً في الأنساب ، وعوانة بن الحكم في أخبار بني أمية وأبو مخنف في أخبار الردة والجمال وصفين ، وسيف في أخبار الفتوح ، وابن هشام في ملوك حمير وما إن انقضى القرن الثاني حتى أخذت المادة التاريخية تزيد تبعاً لتطور الحياة العربية ، واستقرت دواوين الإنشاء والجند والبر ، وتنوّعت العهود والوثائق والمراسلات ، ومست الحاجة إلى معرفة المواليد والوفيات ، ومدد ولايات الخلفاء والولاة والقضاة والقواد وأمرء المواسم في الحج؛ ثم ظهرت الكتب المترجمة عن الفرس واليونان والسريان ، وكثرت الرحلة بين البلاد؛ وتعددت المشاهد ، واطلع العرب على ما لم يكونوا رأوه من عجائب البلاد ، وحضارات الأمم؛ عدا ما كان من اتساع الفتوح ، وكثرة الأحداث؛ فوجد العلماء للتاريخ منابع رافدة ، ومناهل متنوعة ، ومصادر كثيرة؛ وأحسّوا أن لعلم التاريخ أثراً في بناء الأمم ، وفهم الثقافات ، وإرساء العلوم على قواعد ثابتة؛ ولم ير الأفاضل منهم بأساً في أن يضعوا أسفاراً في التاريخ؛ فعل ذلك الواقدي في كتب الفتوح ، والبلاذري في كتابيه البلدان وأنساب الأشراف ، وابن قتيبة في المعارف ، وابن حبيب في المجبّر ، والدينوري في الأخبار الطوال ، إلى أن انتهى الأمر إلى الإمام محمد بن جرير الطبري ، فوضع فيه كتابه العتيد^(١).



(١) انظر ترجمة علم التاريخ لهرنشو ، والفصل الذي ألحقه به مترجمه عبد الحميد العبادي عن التاريخ عند العرب .

ولا يُعلم على وجه التحديد التاريخ الذي بدأ فيه أبو جعفر إملاء هذا الكتاب؛ ويظهر أنه ألفه بعد كتاب التفسير، روى الخطيب أن أبا جعفر الطبري قال لأصحابه: أنتشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قدره؟ قال: ثلاثون ألف ورقة، فقالوا: إن هذا مما يفني الأعمار قبل تمامه، فاختره في نحو ثلاثة آلاف ورقة، ثم قال: أنتشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا؟ قالوا: كم قدره؟ فذكر نحواً مما ذكره في التفسير، فأجابوه بمثل ذلك، فقال: إنا لله! ماتت الهمم. فاختره في نحو مما اختصر التفسير^(١).

وجاء في تاريخه: «وقيل أقوال في ذلك قد حكينا منها جملاً في كتابنا المسمى: «جامع البيان عن تأويل آي القرآن»، فكرهنا إطالة الكتاب بذكر ذلك في هذا الموضوع»^(٢).

وذكر ياقوت عن أبي بكر بن بالويه قال: قال لي أبو بكر محمد بن إسحاق - يعني ابن خزيمة -: بلغني أنك كتبت التفسير عن محمد بن جرير؟ قلت: نعم؛ كتبنا التفسير عنه إملاء، قال: كله! قلت: نعم، قال في أي سنة؟ قلت: سنة ثلاث وثمانين إلى ستة وتسعين^(٣).

وإذاً يكون قد أملى التاريخ بعد سنة تسعين وميتين.

أما الانتهاء من هذا التاريخ، فقد ذكر ياقوت أنه فرغ من تصنيفه وعرضه على المستملين له: «في يوم الأربعاء لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثلاثمئة، وقطعه على آخر سنة اثنتين وثلاثمئة»^(٤).

بدأ أبو جعفر تاريخه بذكر الدلالة على حدوث الزمان، وأن أول ما خلق بعد ذلك القلم وما بعد ذلك شيئاً فشيئاً، على ما وردت بذلك الآثار؛ ثم ذكر آدم، وما كان بعده من أخبار الأنبياء والرسل؛ على ترتيب ذكرهم في التوراة؛ متعرضاً للحوادث التي وقعت في زمانهم؛ مفسراً ما ورد في القرآن الكريم بشأنهم،

(١) تاريخ بغداد ٢: ١٦٣.

(٢) تاريخ الطبري ١: ٨٩ (طبعة دار المعارف).

(٣) معجم الأدباء ١٨: ٤٢.

(٤) معجم الأدباء ١٨: ٤٤.

معرجاً على أخبار الملوك الذين عاصروهم ، وملوك الفرس على الخصوص ؛ مع ذكر الأمم التي جاءت بعد الأنبياء حتى مبعث الرسول عليه الصلاة والسلام .

أما القسم الإسلامي فقد رتبّه على الحوادث من عام الهجرة ، حتى سنة ثلاثمئة واثنين ؛ وذكر في كلّ سنة ما وقع فيها من الأحداث المذكورة ؛ والأيام المشهورة ؛ وإذا كانت أخبار الحوادث طويلة جزأها على حسب السنين ، أو يشير إليها بالإجمال ؛ ثم يذكرها في الموضع الملائم .

وترجع قيمة هذا الكتاب إلى أنه قد استطاع أن يجمع بين دفتيه جميع المواد المودعة في كتب الحديث والتفسير واللغة والأدب والسير والمغازي وتاريخ الأحداث والرجال ؛ ونصوص الشعر والخطب والعهود ؛ ونسق بينها تنسيقاً مناسباً ، وعرضها عرضاً رائعاً رائعاً ؛ ناسباً كلّ رواية إلى صاحبها ، وكلّ رأي إلى قائله ؛ كما أنه أودع هذا الكتاب فصلاً صالحة وتنفّاً متنوعة من متون الكتب التي أتت عليها عوادي الأيام ، وأورد من أقوال العلماء ما لا نجده إلا في هذا الكتاب .

مصادر الطبري في هذا التاريخ هي كل ما سبقه من المواد التي عرفها العرب من قبله ، وأخذ من كل متخصص في فنه ، أخذ التفسير عن مجاهد وعكرمة وغيرهما ممن نقل عن ابن عباس ، ونقل السيرة عن أبان بن عثمان وعروة بن الزبير وشرحيل ابن سعد وموسى بن عقبة وابن إسحاق ، وروى أخبار الدرّة والفتوح عن سيف بن عمر الأسدي ، وحوادث يوميّ الجمل وصفين عن أبي مخنف والمدائني ، وتاريخ الأمويين عن عوانة بن الحكم ، وأخبار العباسيين من كتب أحمد بن أبي خيثمة ؛ كما أخذ أخبار العرب قبل الإسلام من عبيد بن شريّة الجهمي ومحمد بن كعب القرظي ووهب بن منبه ، وأخبار الفرس من الترجمات العربية من كتب الفرس ، ولاسيما كتب ابن المقفع وابن الكلبي : وغير هذا مما تراه في مباحث مواد تاريخ الطبري المستفيضة التي نشرها الدكتور جواد علي تباعاً في مجلة المجمع العلمي العراقي ببغداد .

نشر الدكتور جواد علي في مجلة المجمع العلمي بالعراق مقالات ضافية بعنوان « مواد تاريخ الطبري » ، بلغ فيها الغاية في عمق البحث ودقة التحليل وحسن الأداء ، مع الإلمام الكامل بالموضوع من كل نواحيه ، وقد أفدت منه في هذا المقام .

والطريقة التي سار عليها الطبري في كتابه هي طريقة المحدثين؛ بأن يذكر الحوادث مروية بمقدار ما عنده من الطرق، ويذكر السند حتى يتصل بصاحبه، لا يبدي في ذلك رأياً في معظم الأحيان؛ وهذه الطريقة هي التي سلكها في معظم الكتاب، وفيما عدا ذلك ينقل من الكتب؛ فيصرح باسم الكتاب أحياناً، أو ينقل عن المؤلفين من غير تعيين الكتاب الذي نقل عنه أحياناً.

وقد كان اعتماده هذا المنهج مثاراً للنقد عند بعض الباحثين، قالوا: إن سياقة الأخبار دون تمحيصها أمر لا يليق بالمؤرخ الناقد البصير؛ وإذا كانت طريقة رواية الخبر في السند - ورجاله معروفون عند علماء الجرح والتعديل - تضمن صحة الأخبار وتمحيصها في الأخبار التي وقعت في الإسلام؛ فإن هذه الطريقة تقصّر عن ضمان صحة ذلك فيما قبل الإسلام؛ وخاصة وقد وقع في هذا التاريخ كثير من الأخبار الواهية، والقصص الزائفة، كالإسرائيليات وبعض أخبار الفرس؛ كما أورد أيضاً كثيراً من الأحاديث الموضوعة كالأحاديث الواردة في بدء الخلق وسير الأنبياء؛ مما لا يرتضيه المحدثون.

وربما كان عذر الطبري في ذلك هو عذر رواة الحديث؛ فيذكرون الحديث بطرقه ورجاله؛ تاركين الحكم للقارئ؛ أمانة للعلم وإبراء للذمة؛ قال في مقدمة كتابه: «وليعلم الناظر في كتابنا أن اعتمادنا في كل ما أحضرت ذكره فيه؛ مما شرطت أني راسمه فيه؛ إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه، والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها؛ دون ما أدرك بحجج العقول واستنبط بفكر النفوس؛ إلا اليسير القليل منه؛ إذ كان العلم بأخبار الماضين، وما هو كائن من أبناء الحادئين غير واصل إلى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم إلا بأخبار المخبرين ونقل الناقلين، دون الاستخراج بالعقول، والاستنباط بفكر النفوس، فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين؛ مما يستنكره قارئه، أو يستشعنه سامعه؛ من أجل أنه لم يعرف له وجهاً من الصحة ولا معنى في الحقيقة؛ فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قِبلنا؛ وإنما أتى من بعض ناقلينا إلينا؛ وإنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدّى إلينا»^(١).

(١) تاريخ الطبري ١: ٧، ٨ (طبعة المعارف).

وفي هذا النص الصريح؛ ما يشير إلى مذهبه فيما ورد في كتابه من تلك الأخبار.

وأياً ما كان؛ فإن كتاب تاريخ الرسل والملوك سيظلّ بما اشتمل عليه من الروايات الأصيلّة، والنصوص النادرة في أسلوبه الرائع الرصين أشملَ كتاب للتاريخ عند العرب.

* * *

وقد وقع لهذا الكتاب كثير من التكملات والمختصرات والترجمات. ولعلّ أول من ذيل عليه هو الطبري نفسه؛ وإن لم يصل إلينا شيء من ذلك؛ قال السخاوي: «وله على تاريخه المذكور ذيل، بل ذيل على الذيل أيضاً»^(١)، كما أن عبد الله بن أحمد بن جعفر الفرغاني عمل صلة له على ما رواه ياقوت. وقال ابن النديم: وقد ألحق به جماعة من حيث قَطَعَ إلى زماننا هذا لا يعول على إلحاقهم؛ لأنه ليس ممن يختصّ بالدولة ولا بالعلم^(٢)؛ وفي المكتبة الأهلية بباريس نسخة مخطوطة من الجزء الأول من كتاب محمد بن عبد الملك الهمداني؛ المتوفى سنة ٥٢١، الذي جعله تكملة له، يبدأه من الأيام المقتدرية إلى بدء خلافة المستظهر. أما بقية الكتاب؛ فتنتهي بأخبار عضد الدولة أبي شجاع في أول سنة ستين وثلاثمئة.

وقد اختصره كثيرون؛ ذكر ابن النديم منهم محمد بن سليمان الهاشمي وأبا الحسن الشمشاطي من أهل الموصل وأجل يعرف بالسلي بن أحمد^(٣).

ممن اختصره أيضاً مع إيراد زيادات عريب بن سعد القرطبي؛ ونقل ابن عذاري منه ما يختص بتاريخ إفريقية والأندلس، وأودعه كتابه «المغرب»؛ وأما أخبار العراق فطبعت ملحقة بالتاريخ باسم «صلة تاريخ الطبري»، من سنة ٢٩١ إلى سنة ٣٢٠.

أما الترجمة؛ فكان أوّل من قام بها أبو علي محمد بن عبد الله العلقمي،

(١) كتاب الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، للسخاوي ١٤٤.

(٢) معجم الأدباء ١٨ : ٤٤.

(٣) الفهرست : ٢٣٥.

المتوفى في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري إلى الفارسية ، بأمر الأمير أبي صالح منصور بن أحمد بن إسماعيل بن سامان الساماني ؛ وكان مشغولاً به كثيراً لمطالعة ؛ ترجمه ترجمة راعي فيها الاقتصار على إيراد الأخبار دون الأسانيد ؛ وتصرف فيه بعض التصرف^(١) . ثم نقلت هذه الترجمة من الفارسية إلى التركية في عهد أمير الأمراء أحمد باشا ، ثم ترجم مرة ثانية ما بين ٩٢٨ - ٩٣٨ هـ ، وطبعت الترجمة التركية سنة ١٢٦٠ في الآستانة .

كما ترجم أيضاً من الفارسية إلى الفرنسية وطبعت سنة ١٨٧٤ ، في أربع مجلدات قام بها زوتنبرج Zotenberg ؛ ونقلت أيضاً إلى بعض اللغات اللاتينية ، وطبعت في غريفزوالد ١٨٦٣^(٢) .

وذكر سيديو Sedillote في كتابه «تاريخ العرب» أن جرجس النصراني المتوفى سنة ١٢٧٣ م ، والمعروف بالمكين بن العميد لخصه وذيله ؛ وترجم قسم من كتاب^(٣) المكين إلى اللغة اللاتينية ، من قبل إيرينيوس Eroininus وإلى الفرنسية من قبل فاتيه^(٤) Vatter .



ومنذ أن صدر هذا الكتاب عن مؤلفه ، تتابع الوراقون في نسخه ، وتنافس الأمراء والملوك في اقتنائه ؛ وعمرت به خزائن الكتب ودور العلم ؛ ذكر المقرئ أنه كان بخزانة كتب العزيز الفاطمي ما ينيف على عشرين نسخة منه ؛ إحداها بخط المؤلف^(٥) ؛ ومع مرور الزمن وعوادي الأيام ذهبت هذه النسخ شرقاً وغرباً ، وتعرض معظمها للضياع ؛ وحينما شرع في طبعه جماعة المستشرقين سنة ١٨٧٩ م ؛ لم يتيسر لهم الحصول على نسخة كاملة ؛ وكل الذي عثروا عليه - بعد بذل أقصى الجهد وإخلاص النية - أجزاء متفرقة ألفوا منها نسخة ، بها نقص يسير

(١) كشف الظنون ٢٩٨ .

(٢) جواد علي ١٧٧ : ١٧٨ (مجلة المجمع العلمي ببغداد الجزء الأول) ، وتاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ٢ : ١٩٩ ، وكشف الظنون ٢٩٨ .

(٣) من هذا الكتاب نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

(٤) تاريخ العرب لسيديو ٤٧٦ .

(٥) خطط المقرئ ١ : ٤١٨ .

أكملوه من تاريخ ابن الأثير وكتاب المغازي والفتوح لابن حبيش؛^(١) وقد طبعوه طبعة علمية؛ على أكمل ما يكون التحقيق؛ وأدق ما تكون المقابلة؛ وذلك بين سنتي ١٨٧٩ و ١٨٩٨ م في ثلاثة أقسام:

(القسم الأول): حياة ما قبل الإسلام ، ثم حياة محمد عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين من بعده إلى سنة ٤٠ هـ.

(القسم الثاني): من سنة ٤١ إلى سنة ١٣٠ هـ.

(القسم الثالث): من سنة ١٣١ هـ إلى سنة ٣٠٢ هـ؛ وهو نهاية الكتاب ، وألحقوا به الكتاب المسمى بالمنتخب من ذيل المذيل في أسماء الصحابة والتابعين ، وقسماً من مختصر الطبري لعريب بن سعد القرطبي ، أسموه «صلة تاريخ الطبري» ، مع مقدمة لاتينية؛ تشمل على ترجمة المؤلف ووصف نسخ الكتاب؛ وشرح الكلمات اللغوية والاصطلاحية فيه؛ ثم التصويبات والاستدراكات. ثم مجلداً كبيراً بالعربية يشتمل على الفهارس العامة ، ثم أعيد طبعه مرة أخرى في ليدن من سنة ١٧٧٩ إلى سنة ١٩٠١ وقد أشرف على تحقيقه وتصحيحه العلامة دي خويه De Goeje وعاونه من المستشرقين: بارت Barth ، ونولدكه Noeldeke ، ولوت Loth ، وديونج De Jong ، وبريم Primm ، تورديك Thorbecke ، وفراנק Fraenkel وجويدي Guidi ، ومولر Mueller .

أما المخطوطات التي رجعوا إليها فتنتهي إلى المكتبات الآتية:

١ - المكتبة الأهلية بباريس؛ رقم: ١٤٦٦ ، ١٤٦٧ ، ١٤٦٨ ، وقد رمز إليها بالحرف p .

٢ - مكتبة كبريلي بالأستانة رقم ١٠٤٠ إلى ١٠٤٢ ، وقد رمز إليها بالحرف C .

٣ - مكتبة جامعة الزيتونة بتونس ، وقد رمز إليها بالحرف Tn .

٤ - مكتبة الجمعية الآسيوية في كلكتا بالبنغال رقم: ٤٤٣ ، وقد رمز إليها برمز Ca .

٥ - مكتبة برلين برقم: ٩٤١٤ ، ٩٤٣٤ ، ٩٤١٦ ، ٩٤١٧ ، ٩٤١٨ ، ٩٤١٩ ،

٩٤٢٠ ، ٩٤٢١ ، ٩٤٢٢ ، وقد رمز إليها بالحرف B .

(١) هذا النقص يقع في المطبوعة الأوربية ما بين ٢٣٨٣ ، ٢٤١٤ ، من الجزء الأول.

٦ - مكتبة المتحف البريطاني ، رقم : ٢٧١ ، ١٢٠٥ ، ١٦١٨ ؛ وقد أشير إليها برمز BM .

٧ - مكتبة توبنجن ؛ وقد رمز إليها بالحرف T .

٨ - مكتبة بودليان بأكسفورد رقم : ٧٨١ ، ٧٢٢ (أوري) ٦٥٠ (أوري) ٧١١ ، ٧٢٢ ، ٦٧٦ ، وقد أشير إليها بالحرف O .

٩ - مكتبة الجزائر ، رقم : ١٥٧٢ ، ١٥٩٤ وقد أشير إليها بالحرف A ،

١٠ - مكتبة المكتب الهندي ، وقد رمز إليها بحرف M .

١١ - مكتبة جامعة استراسبورج ، وقد رمز إليها بالحرف S .

١٢ - مكتبة ليدن رقم ٤٩٧ ، وقد رمز إليها بالحرف L .

أما كتاب المنتخب من ذيل المذيل فقد رجعوا فيه إلى نسخة مكتبة المتحف البريطاني برقم ٦١٨ ، والجزء المعروف بالصلة رجعوا فيه إلى نسخته المحفوظة بمكتبة غوطة رقم ١٥٥٤ .

وقد بذل هؤلاء العلماء الأفاضل جهداً كبيراً ، في صبر وأناة ، مع دأب ومثابرة ؛ ووشوا حواشيه بمقابلات للنسخ دقيقة ، وتعليقات مستفيضة مفيدة ؛ وستظل هذه النشرة من أمثل المطبوعات العربية وأدقها .

وعن هذه النسخة الأوربية قامت المطبعة الحسينية بطبعه في سنة ١٣٣٩ هـ ، ومطبعة الاستقامة بالقاهرة ؛ بعد حذف التعليقات والفهارس . وإن يكن في هاتين الطبعتين شيء من الخير فهو أنهما قد سدّتا حاجة جمهور العلماء والباحثين من هذا الكتاب ؛ بعد أن عزّت الطبعة الأوربية ، وتعذر على الناس اقتناؤها .

وقد رمزت لمخطوطات باريس بالحرف (ر) ، ولمخطوطات كبريلي بالآستانة بالحرف (س) ، ولمخطوطة تونس بالحرف (ن) ، ولمخطوطة كلكتا بالحرف (ك) ، ولمخطوطات برلين بالحرف (ب) ، ولمخطوطات المتحف البريطاني بالحرف (ح) ، ولمخطوطة توبنجن بالحرف (ت) ، ولمخطوطة ليدن بالحرف (ل) ، ولمخطوطات أكسفورد بالحرف (ف) ، ولمخطوطتي الجزائر بالحرف

(ج) ، ولمخطوطة المكتب الهندي بالحرف (م) ، ولمخطوطة استراسبورج بالحرف (و) .

وأما المخطوطات التي حصلت عليها مما لم يرجع إليه مصححو نسخة أوربا ، فقد أشرت لمخطوطات أحمد الثالث بالحرف (أ) ، وإلى مخطوطة مكتبة بنته بالحرف (هـ) ، ولمخطوطة دار الكتب بالحرف (د) ، ولمخطوطة المكتبة التيمورية بالحرف (ي) .

* * *

وقد وافقت المخطوطة الأولى من نسخة أحمد الثالث من هذا الجزء من أوله إلى ص ٥١١ السطر العاشر؛ وهي جزء ناقص من آخره ، يقع في ٢٣٨ ، كتب على غلافه: «الجزء الول من كتاب التاريخ تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، رواية القائد أبي محمد عبد الله بن أحمد الفرغاني رضي الله عنه» . وعليه وقفية من المقر الأشرف الجمالي محمود الأستاذار لهذا المجلد وما بعده من المجلدات ، وعددها خمسة عشرة مجلداً؛ على مدرسته التي أنشأها بخط الموازينين . بالشارع الأعظم ، وعليها تملك بتاريخ جمادى الأولى سنة إحدى وستمئة؛ ثم في موضع آخر تملك نصه: «أول رمضان سنة ٧٢٦» ، ومسطرتها ١٩ سطراً؛ في كل سطر ١٢ كلمة .

وأما باقي النسخ فسيأتي وصفها عند موضعها في الأجزاء المقبلة .

أرجو حينما يتم طبع بقية الأجزاء - بعونه تعالى وتوفيقه - أن ألحق به كتاب المنتخب من ذيل المذيل ، والمختصر لعريب؛ وتكملة الهمداني؛ ثم الفهارس العامة .

* * *

وأذكر بالفضل والشكر الأساتذة: الدكتور عبد الحليم النجار والأب قنوتي والدكتور هنس إرنس Hans Frnst لما لقيت منهم من عون في الانتفاع بمقدمة الطبعة الأوربية ، وما جاء في تعليقاتها باللاتينية؛ فلهم مني أطيب الشاء والتقدير^(١) .

(١) * مصادر البحث

إنباه الرواة على أنباء النحاة للقفطي ٣ : ٨٩ - ٩٠ .

والله سبحانه الموفق والمعين ؛ ومنه الرضا والتوفيق .

١٩ جمادى الأولى سنة ١٣٨٠ هـ .

٨ نوفمبر سنة ١٩٦٠ م .

-
- = تاريخ ابن الأثير ٦ : ١٧١ - ١٧٢ .
 تاريخ ابن كثير ١١ : ١٤٥ .
 تاريخ بغداد ٢ : ١٦٢ - ١٦٨ .
 الأنساب للسمعاني ٣٦٧ .
 تاريخ التشريع الإسلامي لمحمد الخضري .
 تاريخ ابن عساكر ١٨ : ٣٣٩ - ٣٧٠ .
 (مخطوطة دار الكتب) .
 تذكرة الحفاظ للذهبي ٢ : ٢١ - ٢٥٥ .
 تهذيب الأسماء واللغات للنووي ١ : ٧٨ - ٧٩ .
 ابن خلكان ١ : ٤٥٦ .
 الرجال للنجاشي ٢٢٥ .
 روضات الجنات ٦٧٢ - ٦٧٥ .
 شذرات الذهب ٢ : ٢٦٠ .
 طبقات الشافعية للسبكي ٢ : ١٣٥ - ١٤٠ .
 طبقات القراء لابن الجزري ٢ : ٢٦٠ - ٢٦١ .
 طبقات المفسرين للداودي الورقة ٢٣٠ - ٢٣٤ .
 طبقات المفسرين للسيوطي ٣٠ - ٣١ .
 علم التاريخ لهرنشو ترجمة العبادي ٥١ - ٦٩ . عيون التواريخ لابن شاکر (وفيات سنة ٣١٠) .
 الفهرست لابن النديم ٢٣٤ - ٢٣٥ .
 كشف الظنون ٢٩٨ ، ٢٣٧ ، ٥١٤ ، ١٤٤٩ .
 اللباب لابن الأثير ٢ : ٨١ .
 لسان الميزان ٥ : ١٠٠ - ١٠٣ .
 المحمدون من الشعراء ٦٦ - ٦٧ .
 مرآة الجنان لليافعي ٢ : ٢٦١ .
 معجم الأدباء ١٨ : ٤٠ - ٩٤ .
 المنتظم لابن الجوزي ٦ : ١٧٠ - ١٧٢ .
 مواد تاريخ الطبري للدكتور جواد علي (مجلة المجمع العلمي العربي ببغداد) .
 الوافي بالوفيات ٢ : ٢٦٤ - ٢٨٦ .

ثالثاً

الإمام الطبري مؤرخاً^(١)

المبحث الأول علم التاريخ والطبري

(أولاً): تعريف علم التاريخ :

التاريخ في اللغة تعريف الوقت ، يقال : أَرَحْتُ الكتابَ تاريخاً إذا جعلت له تاريخاً ، وهو بيان انتهاء وقته ، وقيل : وهو معرّب ، وقيل : عربي^(٢) .

والتاريخ في العرف هو تعيين الوقت بإسناده إلى أول حدوث أمر شائع من ظهور ملة أو دولة أو أمر هائل ، أو من الآثار العلوية والحوادث السُفلية مما يندر وقوعه ، ويُجعل ذلك مبدءاً لمعرفة ما بينه وبين أوقات الحوادث والأمور التي يجب ضبط أوقاتها في مستأنف السنين ، وقيل عدد الأيام والليالي بالنظر إلى ما مضى من السنة والشهر^(٣) .

وأول من وضع التاريخ الإسلامي الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما أُتي بصلك مكتوب إلى شُعْبَان ، فقال : أهو شعبان الماضي أو شعبان

(١) هذه المقدمة مأخوذة من كتاب «الإمام الطبري شيخ المفسرين ، وعمدة المؤرخين ، ومقدم

الفقهاء المحدثين ، صاحب المذهب الجريري» (ص ١٩٧ - ٢٤٥) للدكتور : محمد الزحيلي .

(٢) القاموس المحيط ٢٥٦/١ ، المصباح المنير ١٥/١ ، مختار الصحاح ص ١٣ .

(٣) كشف الظنون ٢١٣/١ ، كشاف اصطلاحات الفنون ٥٦/١ ، أبجد العلوم ١٨١/١/٢ .

القابل؟ ثم أمر بوضع التاريخ ، واتفقت الصحابة على ابتداء التاريخ من هجرة النبي ﷺ إلى المدينة ، وجعلوا أول السنة المحرّم^(١) .

أما علم التاريخ فقد عرّفه ويّنه طاش كبري زادة بقوله: «هو معرفة أحوال الطوائف ، وبلدانهم ، ورسومهم ، وعاداتهم ، وصنائع أشخاصهم وأنسابهم ، ووفياتهم... إلى غير ذلك ، وموضوعه: أحوال الأشخاص الماضية ، من الأنبياء والأولياء ، والعلماء والحُكّماء ، والشُعراء ، والملوك والسلاطين... وغيرهم ، والغرض منه: الوقوف على الأحوال الماضية ، وفائدته: العبرة بتلك الأحوال ، والتنصّح بها ، وحصولُ ملكة التجارب بالوقوف على تقلّبات الزمن ، ليُحترز عن أمثال ما نقل من المضارّ ، ويُسْتَجْلَب نظائرها من المنافع ، وهذا العلم كما قيل: عمر آخر للناظرين ، والانتفاع في مضره بمنافع تُحصلُ للمسافرين»^(٢) ، وينحصر حديثنا في علم التاريخ .

(ثانياً): أهمية علم التاريخ ومشروعيته:

يمثل التاريخ أحد مصادر المعرفة الإنسانية التي اهتم بها الناس ، فتدارسوه ، وألفوا مجالسه ، واستمعوا أخباره ، وصنّفوا فيه ، لأنه يفيد تسليّةً ولذّةً ، ويعطي المتعة الكافية ، ويُرْضي غريزة حب الاستطلاع ، ويبعث على العبرة والتفكّر في الأحداث ، فالعاقل من اتعظ بغيره ، والمحتكّ من تخطّى تجارب غيره ، فالتاريخ يعطي القارئ والسامع نماذج من السلوك البشري بما فيه من غرائز ، وعواطف ، وميول ، وسلوك ، وطموحات ، وآمال وآلام ، فرداً وجماعة ، مع بيان النتائج التي تترتب على كل تصرف ، سواء كان صواباً أم خطأً ، عاماً أم خاصاً ، مادياً أم معنوياً ، فردياً أم اجتماعياً ، وهذا يثير الهمم للنهوض ، أو التأسّي بالسّلف ، أو الاقتداء بالأُمم الحية ، أو التحرز والتحفظ من المسالك الوعرة ، والمنزلقات الخطرة التي لا تُحمد عقبائها .

(١) المصباح المنير ١/١٥ - ١٦ ، المختصر في علم التاريخ ص ٣٣٠ المطبوع ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين .

(٢) مفتاح السعادة ١/٢٥١ ، وانظر: أبجد العلوم ١/٢/١٨١ ، والمختصر في علم التاريخ ص ٣٢٥ ، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ص ٣٨٢ وما بعدها .

وقد اهتم العرب بعلم التاريخ، بسبب اهتمامهم بالانتساب إلى الآباء والأجداد، والعشيرة والقبيلة، فحفظوا أنسابهم، وتفاخروا بها حتى وصلوا إلى التعصب والعصبية، فكانوا يهتمون أصلاً بتاريخهم، وتاريخ الأمم قبلهم، ومن حولهم.

وجاء القرآن الكريم يذكر أخبار الأمم السابقة، وقصص النبيين والمرسلين، ولكنه باختصار شديد، مركّزاً على موطن العبرة والعظة، ومكان الإثارة والاستفادة، مع النص القرآني المتكرّر على هذا الهدف، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الْأَمْثَلُ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ هَلْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْنُ بِذِي فَوَادٍ لَكَ فِي هَذِهِ الْحَقِّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]، وخاطب الله رسوله أمراً له بقصّ الأخبار الهادفة، فقال تعالى: ﴿فَأَقْصِبْ قَلْبُكَ لِالْقِصَصِ لَعَلَّكُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وخصّص الله تعالى سورة في القرآن الكريم باسم «سورة القصص».

ومن هنا اتجه كثير من العلماء المسلمين إلى جمع الأخبار، ومعرفة الأماكن والأحوال التي أشارت إليها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، واشتقت نفوسهم إلى التوسع في فهم القصص المذكورة في القرآن، وفي ذات الوقت اعتنوا عناية شديدة بسيرة رسول الله ﷺ، وما يتبعها من المغازي، وكانت هذه المعلومات تصبّ في محورين، الأول: محور الأخبار والقصص التاريخية، وكان صاحبها يسمى أخبارياً، وتنسّم أكثر قصصه بالأوهام والخرافات والأساطير القديمة، والمحور الثاني: علم الحديث والمصطلح، وكان علماء الحديث يذكرون أخبار السيرة النبوية وآثار الصحابة والخلفاء الراشدين مع الحديث برواياته وأخباره وإسناده، ولما دُوّنت كتب السنة النبوية خصّص باب مستقل بعنوان المغازي والسّير، إلى أن استقل علم السيرة النبوية، وخصّصت له المصنّفات والكتب^(١).

(١) ظهر الإسلام ٢/٢٠١، ٢٠٢، التاريخ العربي والمؤرخون ص ٥٧، علم التاريخ عند المسلمين، مقدمة المترجم الدكتور صالح أحمد العلي ص/أ، تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٧٦٣، ضحى الإسلام ٢/٣١٩، مقدمة ابن خلدون ص ٣، ٩، الإعلان ص ٣٨٥، ٤٠٦، ٤١٢.

(ثالثاً): تدوين علم التاريخ:

يذكر مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي أن تدوين العلوم ، وتحديد ذاتيتها ، وظهور كيانها كان من منتصف القرن الهجري الثاني ، فيقول «في سنة ثلاث وأربعين (ومئة) شرع علماء الإسلام في هذا العصر في تدوين الحديث والفقه والتفسير . . . ، وكثر تدوين العلم وتبويبه ، ودُوِّنت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس ، وقبل هذا العصر كان الأئمة يتكلمون من حفظهم ، أو يَرَوُّون العلم من صحف صحيحة غير مرتَّبة»^(١).

وهكذا نشأ علم التاريخ ، واستقل عن علم الحديث ، ولم يعد المؤرخ يسمى أخبارياً ، واقتصر مدلول الأخباري على راوي القصص والنوادر والحكايات ، وأقبل العلماء والفقهاء على دراسة التاريخ والتأليف فيه ، وصار لهم مكانة عالية بين النَّاس ، واعتنى الخلفاء بسماع تواريخ الملوك في الأمم الأخرى لتكون لهم عِظَة ، ويستفيدوا من تجاربهم ، ورأوا أن قراءة التاريخ تفيد الفطنة والحِكمة^(٢) ، ولذلك قال الجاحظ: «علم النسب والخبر علم الملوك»^(٣).

وفي القرن الثالث الهجري استوى علم التاريخ على سوقه ، وتوطدت دعائمه ، وظهرت فيه المؤلفات والكتب التي تجمع المواضيع المتعاقبة ، إما على أساس السنين ، وإما على أساس الطبقات ، وإما على تاريخ المدائن ، وأصبح لعلم التاريخ منهج مرسوم ، وصار له رؤاؤه وأعلامه ، ويقصده طلاب العلم لذاته ، وترجمت تواريخ الأمم الأخرى إلى العربية ، وأصبحت مائدة التاريخ حافلة وشهية ونافعة ، منها «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٢٣٠ هـ) وكتاب «أخبار أو تاريخ مكة المشرفة» لأبي الوليد الأزرقي الحفيد (٢٤٤ هـ) ، كتاب «تاريخ اليعقوبي» (٢٧٨ هـ أو ٢٨٤ هـ) ، وكتاب «الأخبار الطوال» لأبي حنيفة الدِّينَوْرِي (٢٩١ هـ)^(٤).

(١) انظر: تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٦١ ، النجوم الزاهرة ١/٣٥١ ، تذكرة الحفاظ ١/١٦٠ .

(٢) ظهر الإسلام ٢/٢٠١ ، ضحى الإسلام ٢/٣١٩ ، الطبري للحوفي ص ١٨٣ ، تاريخ الطبري ١/٥ ط دار المعارف .

(٣) تاريخ الأدب العربي ٣/٧ .

(٤) انظر: ظهر الإسلام ٢/٢٠٢ ، تاريخ الأدب العربي ٣/٧ وما بعدها ، الطبري للحوفي =

(رابعاً): الطبري يدرس التاريخ:

رأينا سابقاً أن الطبري جمع من علوم الإسلام ما لم يجتمع لأحد ، وكان له حافظة نادرة ، وذكاءً حاداً ، وأنه من كبار علماء الحديث الذين ينقلون الأحاديث والأخبار والأسانيد ، ويجمعون الروايات المتعددة في الموضوع الواحد ، مما كان له صلة بكتب الروايات والتاريخ للأهم الأخرى ، واستفاد منها في تفسيره للقرآن الكريم ، وأورد جانباً منها في كتابه الذي أملاه في ثماني سنوات (٢٨٣ هـ - ٢٩٠ هـ) ، ولما فرغ منه اتجه إلى تصنيف كتابه الثاني في التاريخ حتى انتهى منه يوم الأربعاء ٢٧ ربيع الآخر عام (٣٠٣ هـ) وأرّخ حتى سنة ٣٠٢ هـ الموافق ٩١٥ م^(١).

وكان الطبري رحمه الله تعالى قد اطلع على جميع كتب التاريخ وأجزائه وصُحفه في القرن الثالث الهجري ، كما درس بتوسع كتب السيرة النبوية وما صُنّف فيها ، وأخذ علم التاريخ عن المختصين به ، وهم شيوخ الطبري في ذلك ، وعندهم أخذ مصادره والمواد الأولية لكتابه.

ولما أراد الطبري أن يبدأ في كتابه التاريخ قال لتلاميذه: «تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا؟ فقالوا: كم قدره؟ فذكر نحو ما ذكره في التفسير (أي ثلاثون ألف ورقة) ، فأجابوا: هذا ما يُقني الأعمار قبل تمامه ، فقال الطبري: إنا لله ، ماتت الهمم ، فاختره في نحو مما اختصر به التفسير» (أي في نحو ثلاثة آلاف ورقة)^(٢).

* * *

= ص ١٨٢ ، وانظر أصول علم التاريخ في كتاب «المختصر في علم التاريخ» للكايجي ، ص ٣٣٧ وما بعدها.

(١) انظر: معجم الأدباء ٤٤/١٨ ، الفهرست ص ٣٢٧.

(٢) تذكرة الحفاظ ٧١٢/٢ ، تاريخ بغداد ١٦٣/٢ ، معجم الأدباء ٤٢/١٨ ، سير أعلام النبلاء ٢٧٥/١٤ ، ظهر الإسلام ٢٠٤/٢ ، وفي قول آخر اختصره إلى ألف ورقة ، وفي قول ثالث أنه خمسة آلاف ورقة ، ويمكن الجمع بين هذه الأقوال بسهولة ، وذلك بحسب النسخ التي كتبت ، وحجم الورق الذي استخدم في كل نسخة.

المبحث الثاني

كُتُبُ الطَّبَرِيِّ فِي التَّارِيخِ

إن الألقاب الرفيعة التي أُعْطِيَتْ للطبري المؤرخ لم تكن عِبَاءً ، فقد صَنَّفَ أعظم كتب التاريخ على الإطلاق ، وقَدَّم للبشرية إنتاجاً ثَرَاءً ، وكتباً قيمة ، ومصنفات جليلة ، ومجلدات كبيرة ، مع ما بَنَّه من أخبار تاريخية في سائر كتبه الأخرى .

أما الكتب التاريخية فله اثنان ، الأول : «تاريخ الأمم والملوك» ، والثاني : «ذيل المذيل» ، ونبدأ بتعريف الثاني لصغره ، ثم نعود للكتاب الأول لأهميته .

(أولاً) : ذيل المذيل للطبري :

وهو كتاب في تاريخ الصحابة والتابعين وتابعيهم إلى عصر الطبري ، ويشتمل على تاريخ من قُتِلَ أو مات من أصحاب رسول الله ﷺ في حياته ، وتاريخ من عاشوا بعده من أصحابه وَرَوَوْا عنه على ترتيب الأقرب فالأقرب من رسول الله ﷺ ، أو من قریش من القبائل ، ثم ذكر الطبري تاريخ التابعين وتابعي التابعين من السلف ، ومن بعدهم إلى أن بلغ شيوخه الذين سمع منهم .

وذكر الطبري أخبار هؤلاء ، ومذاهبهم ، وبيان الضعفاء من المحدثين ، والدفاع عن ذوي الفضل منهم ، ممن رُمي بمذهب هو بريء منه ، أو أثم برأي لم يقله ، مثل الحسن البصري وقتادة وعكرمة وغيرهم .

وذكر تاريخ النساء الصحابات اللائي أسلمنَ على عهد رسول الله ﷺ ، ومن مات منهنَّ قبل الهجرة ، ومن مِتْنَ بعدها .

وفي آخر الكتاب أبواب حسان عمن حدّث عنه الإخوة ، أو الرجل وولده ، ومن اشتهر بكنيته دون اسمه ، أو باسمه دون كنيته ^(١) .

قال عنه ياقوت : «هو من محاسن الكتب وأفاضلها ، يرغب فيه طلاب الحديث وأهل التواريخ ، وكان خرج إملاءه بعد سنة ثلاثمئة ، وهو في نحو من ألف ورقة» ^(٢) .

وسماه الذهبي باسم «تاريخ الرجال» من الصحابة والتابعين وإلى شيوخه الذين لقيهم ^(٣) .

وهذا الكتاب مفقود حتى الآن ، ولم يُعثر على نسخة منه ، ولكن عُزِبَ بن سعد الكاتب القرطبي (٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م) الذي اختصر تاريخ الطبري كما سنرى ، اختصر أيضاً ذَيْلَ الْمُذَيَّلَ بعنوان «الْمُتَخَبْ من ذَيْلِ الْمُذَيَّلَ من تاريخ الصحابة والتابعين» وطبع هذا «الْمُتَخَبْ» مع «تاريخ الطبري» في الجزء الأخير في ليدن ، في الطبعة التي أشرف عليها ونشرها دي غويه سنة ١٨٩٧ / ١٩٠١ م ، ثم طبع «المتخب» مع «تاريخ الطبري» في معظم طبعاته ، منها طبعة مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩ م ، وجاء «المتخب» في نهاية الجزء الثامن والأخير من «تاريخ الأمم والملوك» للطبري ، ويقع في ١٦٤ صفحة ، وأربع صفحات للفهرس ^(٤) ، وطبع «المتخب» في الجزء الحادي عشر من «تاريخ الطبري» من طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٠ - ١٩٦٧ م بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم .

أما الكتاب الأصلي فيقع في ألف ورقة ، وإذا قورن هذا الرقم بكتاب «تاريخ الطبري» الذي يقع في ثلاثة آلاف ورقة ، وطبع في ثمانية مجلدات ، فإننا نجد أن كتاب «ذَيْلِ الْمُذَيَّلَ» يساوي ثلث كتاب التاريخ ، وهذا يعني أنّه كتاب كبير في التاريخ وتراجم الصحابة والتابعين وبقية السلف الصالح .

(١) انظر : معجم الأدباء ١٨ / ٧٠ ، الطبري للحوفي ص ٨٩ .

(٢) معجم الأدباء ١٨ / ٧١ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٤ / ٢٧٢ .

(٤) انظر : تاريخ التراث العربي ١ / ٢ / ١٦٣ ، تاريخ الأدب العربي ٣ / ٤٧ .

(ثانياً): تاريخ الأمم والملوك:

ويعرف بتاريخ الطبري ، وبه اشتهر اسمه ، وَلَمَعَ صَيْتُهُ ، وتخلَّد اسمه ، وإذا أطلق على الطبري : المؤرخ ، فإنما بسبب هذا الكتاب .

واسم الكتاب المشهور به هو «تاريخ الأمم والملوك»^(١) وطبع بهذا العنوان ، ولكن ياقوت الحموي ذكر اسماً آخر له وهو «تاريخ الرسل والأنبياء والملوك والخلفاء»^(٢) ، وكلا الاسمين يدلان على موضوع الكتاب ، ويسمى الكتاب أيضاً: «التاريخ الكبير»^(٣) .

قال ياقوت : «وهذا الكتاب من الأفراد في الدنيا ، فضلاً ونباهة ، وهو يجمع كثيراً من علوم الدين والدُّنيا ، وهو في نحو خمسة آلاف ورقة»^(٤) .

ويبين الطبري رحمه الله تعالى خطة كتابه ، وذكر بفائدة علم التاريخ وأهميته في المقدمة ، ويَحْسُن بنا أن نطلع عليها ، ونسجلها هنا .

«قال أبو جعفر : وأنا ذاكرٌ في كتابي هذا : من ملوك كل زمان من ابتداء ربنا جل جلاله خَلَقَ خَلْقَهُ إلى حال قيامهم ، مَنْ انتهى إلينا خبرُهُ ، ممن ابتدأه الله تعالى بآلائه ونعمه ، فشكر نعمه ، من رُسُول له مُرْسَل ، أو مَلِك مُسَلَّط ، أو خليفة مُسْتَخْلَف ، فزاده إلى ما ابتدأه به من نعمه في العاجل نعماً ، وإلى ما تفضل به عليه فضلاً ، ومن آخر ذلك له منهم ، وجعله له عنده دُخْرًا ، ومن كفر منهم نعمه فسلبه ما ابتدأ به عليه إلى حين وفاته وهلاكه ، مقروناً ذكر كل من أنا ذاكره منهم في كتابي بذكر نعمائه وجُمْل ما كان من حوادث الأمور في عصره وأيامه ، إذ كان الاستقصاء في ذلك يقصر عنه العمر ، وتطول به الكتب ، مع ذكرى مع ذلك مَبْلَغ مدة أَكُلِّه ، وحين أَجَلِه ، بعد تقديمي أمام ذلك ما تقديمه بنا

(١) تاريخ بغداد ٢/ ١٦٣ ، كشف الظنون ١/ ٢٢٧ .

(٢) معجم الأدباء ١٨/ ٤٤ ، وطبعت الكتاب دارُ المعارف بمصر باسم «تاريخ الرسل والملوك» ، وسماه فؤاد سزكين «أخبار الرسل والملوك» (تاريخ التراث العربي ١٦٢/ ٢/ ١) ، وطبع بمطبعة خياط باسم «تاريخ الرسل والملوك» .

(٣) معجم الأدباء ١٨/ ٦٨ .

(٤) معجم الأدباء ١٨/ ٧٠ .

أولاً ، والابتداء به قبله أَحَجُّ من البيان عن الزمان ، ما هو؟ وكم قَدُرُ جميعه؟ وابتداء أوله ، وانتهاء آخره ، وهل كان قبل خلق الله تعالى إِيَّاه شيء غيره؟ وهل هو قَانٍ؟ وهل بعد فناءه شيء غير وجه المسيح الخلاق تعالى ذكره؟ وما الذي كان قبل خلق الله إِيَّاه؟ وما هو كائن بعد فناءه وانقضائه؟ وكيف كان ابتداء خلق الله تعالى إِيَّاه؟ وكيف يكون فناؤه؟ والدلالة على أن لا قديم ، إلا الله الواحد القهار الذي له مُلْكُ السموات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، بوجيز من الدلالة غير طويل إذ لم نقصد بكتابنا هذا قصد الاحتجاج لذلك ، بل لما ذكرنا من تاريخ الملوك الماضين ، وجمالاً من أخبارهم وأزمان الرسل والأنبياء ومقادير أعمارهم ، وأيام الخلفاء والسالفين ، وبعض سيرهم ومبالغ ولاياتهم ، والكائن الذي كان من الأحداث في أعصارهم ، ثم أنا متبع آخر ذلك كله ، إن شاء الله ، وأُيِّد منه بعون وقوة ، ذكر صحابة نبينا محمد ﷺ وأسمائهم وكنائهم ، ومبالغ أنسابهم ، ومبالغ أعمارهم ، ووقت وفاة كل إنسان منهم والموضع الذي كانت به وفاته ، ثم متبعهم ذكر من كان بعدهم من التابعين لهم بإحسان على نحو ما شرطنا من ذكرهم ، ثم ملحق بهم من ذكر من كان بعدهم من الخلف لهم كذلك ، وزائد في أمورهم للإبانة عمن حُمِدَت منهم روايته ، ونُقلت أخباره ، ومن رُفِضَت منهم روايته ، ونُبذت أخباره ، ومن وَهَنَ منهم نقله ، وَضَعُفَ خبره ، والسبب الذي من أجله بُذِ من خبره ، والعلة التي من أجلها وَهَنَ من وَهَنَ منهم نقله ، وإلى الله عز وجل أنا راغب في العون على ما أقصده وأنويه ، والتوفيق لما ألتمسه وأبغيه ، فإنه ولي الحول والقوة ، وصلى الله على محمد نبيه ، وآله وسلم تسليماً^(١) .

ثم ذكر الطبري رحمه الله تعالى منهجه في الكتاب ، كما سنوضحه فيما بعد إن شاء الله تعالى .

(ثالثاً): محتويات «تاريخ الأمم والملوك»:

يعتبر «تاريخ الطبري» ذروة التأليف التاريخي عند المسلمين في القرون الثلاثة الأولى ، وهو أوثق مصدر للتاريخ الإسلامي ، ويحتل هذا التاريخ مكانة ممتازة

بين كتب التاريخ الإسلامي ، ويّين لنا ياقوت الحموي محتويات الكتاب ، فقال :

«بدأ فيه بالخطبة المشتملة على معانيه ، ثم ذكر الزمان ما هو؟ ثم مدة الزمان على اختلاف أهل العلم من الصحابة وغيرهم والأمم المخالفة لنا في ذلك ، والسُنَن الدالة على ما اختاره من ذلك ، وهذا باب لا يندر وجوده إلا له . . . ، ثم ذكر أبو جعفر في «التاريخ» الكلام في الدلالة على حَدَث الزمان «الأيام والليالي» ، وعلى أن مُخَدِّهَا هو الله عز وجل وحده ، وذكر أول ما خُلِق ، وهو القلم وما بعد ذلك شيئاً فشيئاً على ما وردت به الآثار ، واختلاف الناس في ذلك ، ثم ذكر آدمَ وحواءَ ، واللعين إبليس وما كان من نزول آدم عليه السلام ، وما كان بعده من أخبار نبيّ نبيّ ، ورسول رسول وملك ملك ، على اختصار منه كذلك إلى نبينا عليه السلام مع ملوك الطوائف ، وملوك الفرس والروم ، ثم ذكر مولد رسول الله ﷺ ونسبه وآبائه وأمهاته ، وأولاده وأزواجه ، ومبعثه ومغازيه ، وسراياه وحال أصحابه رضي الله عنهم ، ثم ذكر الخلفاء الراشدين المهديين بعده ، ثم ذكر ما كان من أخبار بني أمية ، وبني العباس في القُطْعين : المنسوب أحدهما إلى قطع بني أمية ، والثاني إلى قطع بني العباس وما شرحه في كتاب التاريخ ، وإنما خرج ذلك إلى الناس على سبيل الإجازة إلى سنة أربع وتسعين ومئتين ، ووقف على الذي بعد ذلك ، لأنه كان في زمن المقتدر ، وقد كان سُئِل شرح القُطْعين ، فلما سُئِل ذلك شَرَحَه وسماه القُطْعين»^(١).

ومن هذا النص ، ومن الرجوع إلى كتاب «تاريخ الأمم والملوك» نجد أن خطة الكتاب تتضمن تاريخ العالم من بدء الخليقة إلى سنة ٣٠٢ هـ/ ٩١٥ م ، وتشتمل على مايلي :

* الخطبة : وفيها الحمد والثناء على الله تعالى ، والصلاة على رسول الله ﷺ ، ثم بيان خلق الله للناس ، وخطة الطبري في تصنيف الكتاب ، ومنهجه في ذلك (ص ٢ - ٥).

* المقدمة : وتتضمن الحديث عن الزمان في ضوء العقيدة الإسلامية ، والأقوال في قدر جميع الزمان من ابتدائه إلى انتهائه ، وحدث الأوقات

والأزمان ، وأن الله تعالى خلق الزمان والليل والنهار ، وأنه القادر على فنائها ، ولا يبقى غير الله تعالى ، فهو الأول والآخر والمحدث لكل شيء بقدرته ، ثم تحدّث الطبري عن ابتداء الخلق ، وأنّ أول ما خلق القلم ، ثم بين ما ورد في الخلق في الأيام الستة من السموات والأرض ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، وخلق إبليس وأخباره (ص ٥ - ٦٠) .

* القسم الأول: تاريخ العالم قبل الإسلام ، وبدأه بخلق آدم أبي البشر في الجنّة ، وقصته مع إبليس في الجنّة ، وهبوط آدم إلى الأرض ، والروايات الواردة في ذلك ، ثم ذكر الطبري الأحداث التي وقعت في زمن آدم ، وخاصة قصة قتل قابيل لهابيل ، والروايات الواردة في ذلك ، ثم فصل القول في موت آدم وسنّه حينما مات .

ثم عرض الطبري لسيرة الأنبياء من أولاد آدم ، إلى نوح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وأيوب وشعيب ، ويوسف وإلياس ، وموسى واليسع ، وداود وسليمان ، وصالح ويونس وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، وعرض لأخبار أمهم من خلال تاريخ أنبيائهم .

وأرّخ بصفة خاصة لبعض الأمم ، وخاصة ملوك الفرس في العهد السّاساني وعلاقتهم ببلاد العرب ، وكذلك الرّوم وملوكهم منذ المسيحية إلى الإسلام ، وكذا اليهود وأنبيائهم وقصصهم وتاريخهم وملوكهم ودولهم ، وأخيراً عن العرب ، فتحدّث عن عاد وقوتهم وظلمهم وعصيانهم لنبيّهم هُود وإهلاك الله لهم ، وثمود وعُتُوهم وكفرهم ومعصيتهم لنبيهم صالح ، وهلاكهم بسبب ذلك ، ثم ذكر طسم وجديس ، وجُزهم ، وأصهار إسماعيل ، وأخبار العرب في الجاهلية ، وملوك اليمن وعلاقتهم بالحبش ثم بالفرس ، وأشهر حكماء العرب ، ثم تحدّث عن أجداد الرسول ﷺ من عدنان إلى عبد المطلب ، وذكر طرْفاً من أخبار الرسول قبل البعثة ، وحال قريش ومكة ، وذلك تمهيداً لعصر الرسالة (ص ٦٠ - إلى آخر الجزء الأول) ، جاء ذكر نسب رسول الله ﷺ وأخبار أجداده وأنسابه وزواجه في الجزء الثاني حتى (ص ٤٣) .

وأورد الطبري حوادث هذا القسم على أساس المواضيع ، وليس على طريقة الحَوَليات ، ويمثل هذا القسم من تاريخ الطبري عن العالم والعرب قبل الإسلام

حوالي عُشر الكتاب كله ، ومع ذلك يعتبر أطول مصنف كُتِبَ عن الفترة التي سبقت الإسلام في كتب التاريخ العام عند المؤرخين العرب .

* القسم الثاني: تاريخ العالم بعد الإسلام ، ابتداء من نزول الوحي على رسول الله ﷺ ، وابتداء الوقت الذي عُمل فيه التاريخ الإسلامي بالهجرة النبوية ، ويستمر هذا القسم إلى سنة ٣٠٢ هـ / ٩١٥ م ، ويشمل هذا القسم أربعة عهود متميزة:

أ- العهد النبوي ، والبعثة النبوية ، وسيرة الرسول ﷺ ، وغزواته ، حتى سنة ١١ هـ الموافق ٦٢٠ م .

ب - العهد الراشدي ، وتاريخ الخلفاء الراشدين ، والفتوحات التي تمت في عصرهم ، والأحداث التي وقعت حتى سنة ٥٤٠ هـ / ٦٦٠ م .

جـ - العهد الأموي ، وفيه تاريخ الأمويين وخلفائهم وفتوحاتهم ، والأحداث والفتن التي وقعت حتى سقوط الخلافة الأموية سنة ١٣٢ هـ / ٦٤٩ م .

د - العهد العباسي ، وخلفاء بني العباس ، وما جرى في زمانهم ، والحروب الداخلية والفتن والطوائف والفِرَق التي ظهرت في عصرهم حتى سنة ٣٠٢ هـ / ٩١٥ م ، وفرغ الطبري من تأليف تاريخه وتصنيفه سنة ٣٠٣ هـ .

ويغطي هذا القسم بقية تاريخ الطبري من الجزء الثاني حتى الأخير بحسب الطبعات ، هو الجزء الثامن في الطبعة التي نعتمد عليها في مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩ م .

وسار الطبري في القسم الخاص بالتاريخ الإسلامي على ترتيب السنين ، بذكر الأحداث سَنَةً فَسَنَةً ، وهو ما يُدعى بالنَّظَامِ الحَوْلِي ، أو الحَوْلِيَّات^(١) .

(رابعاً): مصادر الطبري في تاريخه:

اعتمد الطبري في كتاب «التاريخ» على مصادر متنوعة ، ولم يأخذ المادة

(١) انظر: معجم الأدباء ٧١/١٨ ، الطبري للحوفي ص ١٨٤ وما بعدها ، الفهرست ص ٣٢٧ ، تاريخ الأدب العربي ٤٦/٣ ، تاريخ الطبري ، المقدمة ٢٣/١ طبعة دار المعارف .

التاريخية من مَزُويَات شفْهية ، أو مصادر مدوَّنة متفرقة ، ولكنَّه اعتمد على كتب مدوَّنة كبيرة ، ومشهورة أُتيح له الاطِّلاع عليها ، وروايتها أو الأخذ منها ، وهي كتب جامعة ، وأُلِّفت في القرنين السابقين ، الثاني والثالث الهجري ، ولم يستمد الطبري شيئاً من كتب معاصريه^(١).

وقد بذلت مساع كثيرة للتعرف على مصادر الطبري من خلال سلاسل الإسناد التي سجَّلها الطبري في كتابه ، وأسماء الرواة الذين صرح بأسمائهم ، لكنه أغفل أسماء كتبهم ، فرجع العلماء إلى مصنفاتهم التي ذكرها ابن النديم في «الفهرست» ورجحوا أقرب الاحتمالات في تحديد اسم الكتاب^(٢).

والطبري استمد تاريخه من المصادر المتعددة التي اطمأن إلى حجَّيتها في الغالب ، واعتبرها مؤثوقة إلى حدٍّ ما ، وهي في حقيقتها متنوَّعة بحسب الموضوع ، ويمكننا الإشارة إلى أهمها :

١ - في تاريخ الرسل والأنبياء اعتمد الطبري على كتب التفسير ، وكتب السيرة النبوية ، وخاصة كتب وَهْب بن منبه ومنها كتابه «المبتدأ والخبر» وسيرة ابن إسحاق ، ومن هنا تسرَّبت الإسرائيليات إلى كتابه .

٢ - في تاريخ الفرس استمد الطبري معلوماته من ترجمات عربية لكتب فارسية ، منها كتب ابن المُقَفَّع ، ومنها كتب هشام الكلبي الذي كان يعتمد في تاريخ ملوك فارس والحيرة على وثائق ومدوَّنان لديه .

٣ - وفي تاريخ الروم رجع الطبري إلى ما كتبه وترجمه نصارى الشَّام عن تاريخ الدولة الرومانية والإمبراطورية البيزنطية .

٤ - وفي تاريخ اليهود وبني إسرائيل نقل الطبري قصصهم وأخبارهم من كتب

(١) انظر: التاريخ العربي والمؤرخون ص ٢٥٤ - ٢٥٦ ، الطبري للحوفي ص ١٨٨ ، تاريخ الطبري ، المقدمة ٢٣/١ طبعة دار المعارف .

(٢) قام الأستاذ جواد علي بجهود طيِّبة لتحديد «موارد تاريخ الطبري» ونشرها في مجلة المجمع العراقي العدد الأول لعام ١٩٥٠ م والعدد الأول لعام ١٩٥٢ م ، والعدد الأول لعام ١٩٥٤ م ، ومجموعها ١٨٤ صفحة . انظر: تاريخ التراث العربي ١/٢/١٦٠ ، التاريخ العربي والمؤرخون ص ٢٥ .

اليهود مباشرة التي كانت متوفرة لديهم ، وما تتضمنه من حكايات إسرائيلية عن أنبيائهم وتاريخهم وأحداثهم .

٥ - وفي تاريخ العرب قبل الإسلام اعتمد على الكتب التي دُوِّنت في هذا الموضوع خلال القرنين الثاني والثالث الهجري ، ومنها كتب عُبيد بن شَرِيَّة الجُرْهُمِي ، ومحمد بن كَعْب القُرْظِي ، ووَهْب بن مُنْبِه ، وهشام الكلبي ، وابن إسحاق .

٦ - وفي السيرة النبوية استند إلى كتب كُتِّبَت السيرة الأوائل ، وهم أَبَان بن عثمان بن عفان ، وعُزْوَةُ بن الرُّبَيْر بن العَوَّام ، وموسى بن عُقْبَة ، وعاصم بن عمر بن قَتَادَة ، وابن شِهَاب الزُّهْرِي ، ومحمد بن إسحاق ، وشَرْحَبِيل بن سعد .

٧ - وفي العهد الراشدي أخذ أخبار ووقائع حروب الردة والفتوح وموقعة الجمل وموقعة صفين من كتب سَيْف بن عمر الأُسْدِي ، والمدائني ، وأبي مَخْنَف .

٨ - وفي العهد الأموي أخذ تاريخ بني أمية من مُدَوِّنَات عَوَانَة بن الحكم الكلبي ، وأبي مَخْنَف ، والمدائني ، والواقدي ، وعُمَر بن شَبَّة ، وهشام الكلبي .

٩ - وإذا انتهى إلى العباس عوّل على كتب أحمد بن أبي خَيْثَمَة ، وأحمد بن زهير ، والمدائني ، وعمر بن راشد ، والهيثم بن عَدِيّ ، والواقدي .

وكان لهؤلاء المؤلفين كتب كثيرة متداولة ، كان الطبري يذكر اسم الكاتب ، دون أن يحدد اسم الكتاب ، فكان لسيف بن عمر كتاب الفتوح الكبير ، وكتاب الردة ، وكتاب في موقعة الجمل ، ومسير عائشة وعلي ، وكان للمدائني (٢١٥ هـ) كتاب في الردة ، وكتاب أمهات النبي ﷺ ، وكتاب صفة النبي ﷺ ، وكتاب أخبار المنافقين ، وكتاب عهود النبي ﷺ ، وكتاب تسمية المنافقين ، وكتاب رسائل النبي ﷺ ، وكتاب المغازي ، وله كتب في أخبار قريش ، وأخبار مناكح الأشراف ، وأخبار النساء ، وأخبار الخلفاء ، وكتب في الأحداث في خلافة عثمان وعلي رضي الله عنهما ، وكتب الفتوح ، وأخبار العرب ، وأخبار الشعراء وغيرها ، ولعمر بن شبة مؤلفات منها كتاب الكوفة ، وكتاب مكة ، وكتاب البصرة ، وكتاب المدينة ، وكتاب أمراء الكوفة ، وأمراء البصرة ، وأمراء

المدينة ، وأمرء مكة ، وكتاب السلطان ، ومقتل عثمان ، وأخبار المنصورة ، وكتاب التاريخ وغيرها^(١).

(خامساً): أهمية «تاريخ الطبري» وقيمه العلمية:

وصل كتاب «تاريخ الأمم والملوك» إلى قمة التأليف التاريخي عند العرب والمسلمين في القرون الثلاثة الأولى ، واحتل ذروة التقدير والاهتمام لدى معاصري الطبري ، وفيما بعد ، وخلال التاريخ الإسلامي ، وحتى وقتنا الحاضر ، وسيبقى تاريخ الطبري في القمة والذروة في المستقبل ، وسيبقى المرجع الأول ، والمصدر الأصيل ، والموئل الموثوق لدى كل باحث وكاتب في التاريخ الإسلامي^(٢).

وتظهر أهمية الكتاب وقيمه العلمية في الأمور التالية:

١ - أول كتاب في التاريخ العام ، جمع فيه الطبري جوانب التاريخ في كتاب واحد ، ونسّقها ، وضمّ بعضها إلى بعض ، وأكمل فيه الجهود التي قام بها العلماء السابقون في التاريخ لجانب منه ، كتاريخ الأقاليم ، أو الطوائف ، أو الرجال ، أو الأحداث العظام التي كُتبت منفردة ، من كبار العلماء في القرن الثاني والثالث الهجريين ، كأمثال ابن سَعْد واليَعْقُوبِي والذَّيْنُورِي والوَاقِدِي والبَلَاذُورِي وابن إسحاق ، ولما صاغ الطبري كتابه الكامل الشامل أقبل الناس عليه ، وأعرضوا عن الكتب الصغيرة الأخرى ، ثم ضاع أكثرها ، فكان فضل الطبري من جديد أنه سجّل لنا ما ضاع ، وحفظ لنا هذا التراث النفيس .

ومما ساعد الطبري على ذلك مؤهلاته الفطرية كحدة الذكاء ، وقوة الحافظة ، ثم جهده الدؤوب على العلم ، وتفَرّغه له ، وسعة اطلاعه وثقافته ،

(١) انظر الفهرست ص ١٣١ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٦٣ ، الطبري للحوفي ص ١٩٠ ، تاريخ التراث العربي ١/٢/١٢٢ ، ١٢٧ ، ١٣٣ ، ١٣٩ ، ظهر الإسلام ٢/٢٠٤ .

(٢) انظر: تاريخ الأدب العربي ٣/٤٥ ، الطبري للحوفي ص ٢٢٦ ، ظهر الإسلام ٢/٢٠٤ ، التاريخ العربي والمؤرخون ص ٢٥٦ .

وكثرة رحلاته ، وجمعه بين العلوم المختلفة التي كان لها الأثر الكبير في تاريخه كعلم التفسير والحديث واللغة والفقه .

٢ - أقدم مصدر كامل للتاريخ العربي وفي اللغة العربية منذ أوائل الزمان إلى أول القرن الرابع الهجري ، العاشر الميلادي ، ولذلك أصبح الأساس لتاريخ العرب ، والمصدر الأصيل لمن جاء بعده ، كالمسعودي ، وابن مسكويه ، وابن الأثير ، وابن خلدون ، وابن كثير ، وكُتَّاب السيرة ، ولا يزال كتاب الطبري قبلة الأنظار حتى اليوم .

٣ - جمع الطبري في تاريخه كثيراً من أخبار العرب في الجاهلية ، وحفظها من الضياع ، كما أرَّخ للقرون الثلاثة الأولى بعد الإسلام ، ودوَّن بعض الروايات التي سمعها شخصياً ، فكان عمله تسجيلاً أميناً للأجيال اللاحقة .

٤ - ذكر الطبري في كتابه تاريخ الفرس ، وابدع في ذكر كثير من الحقائق التي لا توجد عند غيره ، فأصبح كتاب الطبري مرجعاً أيضاً في تاريخ الفرس أيام بني ساسان ومعرفة صلة العرب بهم ، ولذلك أسرع العلماء إلى ترجمته إلى اللغة الفارسية كما سنرى .

٥ - كان الطبري دقيقاً جداً في تاريخ الرومان ، وذكر أسماء الأباطرة إلى نهاية عصر هرقل سنة ٦٤١ م / ٢١ هـ ، وهو تاريخ فتح العرب لمصر ، واعتمد الطبري في ذلك على نصارى الشام والوثائق التي كانوا يحفظونها ، وأدَّوها إلى الطبري بأمانة ، وسجلها بدقة تدعو إلى العجب ، وليكون مصدراً أيضاً لتاريخ الرومان .

٦ - يعتبر كتاب الطبري المنبع الصافي والأصيل للمؤرخين بعده الذين استقَوْا منه الأخبار والمادة التاريخية ، وتفتَّنوا في عرضها ، كابن مسكويه (٤٢١ هـ) وابن الأثير (٦٣٠ هـ) وأبي الفداء (٧٣٢ هـ) وابن كثير (٧٧٤ هـ) وابن خلدون (٨٠٨ هـ) .

٧ - إن تاريخ الطبري حافل بالنصوص الأدبية التي ذكرها في تراجم أصحابها ، سواء كانت شعراً أم خطباً أم رسائل أم محاورات ، ولا توجد في كتاب آخر ، ولولا تدوين الطبري لها لفقد من تراثنا ذخائر قيِّمة يُعتمد عليها في الدراسات الأدبية واللغوية .

٨ - وتؤكد أهمية كتاب الطبري وقيّمته العلمية بإقبال العلماء في العصر الحاضر على جمعه وتحقيقه ونشره ، وحرصهم على وجوده وتوفره في كل مؤسسة علمية ، وتحت أيدي الباحثين والعلماء والطلاب كما سنرى ، كما يتأكد ذلك بثناء المصنفين والمؤرخين له ، وهو ما سنفرده في فقرة خاصة ، وتظهر أهميته بالإقبال على تلخيصه وترجمته ، كما سنرى .

٩ - قال الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم : « وترجع قيمة هذا الكتاب إلى أنه قد استطاع أن يجمع بين دفتيه جميع المواد المودعة في كتب الحديث والتفسير واللغة والأدب والسير والمغازي وتاريخ الأحداث والرجال ، ونصوص الشعر والخطب والعهود ، ونسق بينها تنسيقاً مناسباً ، وعرضها عرضاً رائعاً رائعاً ، ناسباً كل رواية إلى صاحبها ، وكل رأي إلى قائله ، كما أنه أودع هذا الكتاب فصلاً صالحاً ومنتقاً متنوعة من متون الكتب التي أتت عليها عوادي الأيام ، وأورد من أقوال العلماء ما لا نجده إلا في هذا الكتاب »^(١).

(سادساً) : ثناء العلماء على تاريخ الطبري :

تعددت أقوال العلماء في هذا الخصوص اعترافاً منهم بفضل الطبري ومكانته التاريخية وسجلوا ذلك بعبارات مُضيئة ، وأحرف من نور ، نقتبس بعضها :

١ - قال المَسْعُودِيّ (٣٤٦ هـ) : « وأما تاريخ أبي جعفر محمد بن جرير الطبري الزاهي على المؤلفات ، والزائد على الكتب المصنفات ، فقد جمع أنواع الأخبار ، وَحَوَى فنون الآثار ، واشتمل على صنوف العلم ، وهو كتاب تكثر فائدته ، وتَنفَع عائدته ، وكيف لا يكون كذلك ، ومؤلفه فقيه عصره ، وناسِكُ دهره ، إليه انتهت علوم فقهاء الأمصار ، وَحَمَلَةُ السُّنَنِ والآثار »^(٢).

٢ - وقال الخطيب البغدادي (٤٦٣ هـ) في ترجمة الطبري : « وله الكتاب المشهور في تاريخ الأمم والملوك »^(٣).

٣ - وقال ابن الأثير (٦٣٠ هـ) في مقدمة كتابه « الكامل » : « لقد جمعتُ في

(١) تاريخ الطبري ، المقدمة ٢٤ / ١ طبعة دار المعارف .

(٢) مروج الذهب ١٥ / ٣ .

(٣) تاريخ بغداد ١٦٢ / ٢ .

كتابي هذا ما لم يجتمع في كتاب واحد ، فابتدأت بالتاريخ الكبير الذي صنّفه الإمام أبو جعفر الطبري ، إذ هو الكتاب المعوّل عليه عند الكافة ، والرجوع إليه عند الاختلاف ، فأخذت ما فيه من جميع تراجمه ، لم أُخِلْ بترجمة واحدة منها»^(١).

٤ - وقال ياقوت الحموي (٦٢٦ هـ): «وهذا الكتاب من الأفراد في الدنيا فضلاً وبهاة ، وهو يجمع كثيراً من علوم الدين ، وهو في نحو خمسة آلاف ورقة»^(٢) ، وذكر في مكان آخر أنه في نحو ألف ورقة .

٥ - وقال ابن خلكان (٦٨١ هـ) عن الطبري: «صاحب التفسير الكبير ، والتاريخ الشهير . . . ، وتاريخه أصح التواريخ وأثبتها»^(٣).

٦ - وقال ابن كثير (٧٧٤ هـ): «وصفّ التاريخ الحافل»^(٤).

٧ - وقال الحاج خليفة (١٠٦٧ هـ): «تاريخ الطبري . . . ، وهو من التواريخ المشهورة الجامعة لأخبار العالم»^(٥).

٨ - وقال فرانز روزنثال: «أما تاريخ الأمم والملوك للطبري ، فأعظم أهمية من كتاب اليعقوبي الذي نسيه الناس تقريباً ، ولقد أسبغ الطبري على كتابه تدقيق المتكلمين وطول نفّسهم ما للفقهاء العالم من دقّة وحبّ للنظام ، وما للسياسي القانوني العملي من بصيرة في الأمور السياسية ، كل هذه الخصائص أدت إلى إحلاله مكانة مرموقة دائمة ومتزايدة في الأوساط الفكرية السنيّة في الإسلام . . . »^(٦).

٩ - وقال الأستاذ أحمد أمين (١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م): «وقد عني الناس بتاريخه

(١) الكامل في التاريخ ٢/١ .

(٢) معجم الأدباء ٧٠/١٨ .

(٣) وفيات الأعيان ٣/٣٣٢ ، وانظر أبجد العلوم ١٨٢/١/٢ فقد نقل صديق بن حسن خان الفتوحي (١٣٠٧ هـ) نفس عبارة ابن خلكان ، كما فعل غيره ذلك ، وترددت هذه العبارة في الكتب .

(٤) البداية والنهاية ١١/١٤٥ .

(٥) كشف الظنون ١/٢٢٧ .

(٦) علم التاريخ عند المسلمين لروزنثال ص ١٨٦ - ١٨٧ .

كثيراً ، حتى ليكاد أن يكون عماد كل مؤرخ بعده»^(١).

١٠ - وقال الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم عن تاريخ الطبري : «وكتابه يُعدُّ أوفى عمل تاريخي بين مصنفات العرب ، أقامه على منهج مرسوم ، وساقه في طريق استقرائي شامل ، بلغت به الرواية مَبْلَغَهَا من الثقة والمتانة والإتقان ، أكمل ما قام به المؤرخون قبله كاليعقوبيّ والبلاذريّ والواقديّ وابن سعد ، ومهد السبيل لمن جاء بعده كالمسعودي وابن مسكويه وابن الأثير وابن خلدون»^(٢).

١١ - وقال الأستاذ عبد الهادي أبو طالب ، المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة : «وتعددت جوانب المعرفة لدى الطبري ، فكان مؤرخاً عظيماً ، يفهم حركة الأحداث ، ذا قدرة على ربطها وتفسيرها ، لم يحصر تاريخه في زمان خاص أو بلاد واحدة ، فجاء كتابه امتداداً لتاريخ البشرية جغرافياً وزمانياً ، لم يُؤرِّخ للعرب وحدهم ، وإنما أرَّخ للروم واليونان والترك وفارس والهند والصين ، وظل كتابه في التاريخ المرجع الأساسي الذي يعتمد عليه كلُّ باحث في سُنن التاريخ لسعة مادّته وتنوعها ، ولغزارة مضمونه ، وعلوّ نفس مصنفه ، موجز تاريخ الطبري شهرة عالمية ، وسارع المستشرقون إلى ترجمة أجزاء منه إلى اللغة الألمانية واللاتينية ، وترجمه الأتراك إلى التركية ، والفرس إلى الفارسية ، حتى صار مرجعاً عالمياً عظيم القيمة»^(٣).

١٢ - وأخيراً قال الأستاذ شاكر مصطفى عن الطبري : «وهو علّم معروف في التاريخ الإسلامي (وفي التفسير) بلغ به التدوينُ التاريخي نهاية عهد التكوين والنشأة قمة من قمم التاريخ الحقيقي»^(٤).

(سابعاً) : ذيل تاريخ الطبري وتكملاته :

ونظراً لأهمية كتاب تاريخ الطبري ومكانته العلمية فقد اتجهت الأنظار إلى

(١) ظهر الإسلام ٢/ ٢٠٤.

(٢) تاريخ الطبري ، المقدمة ١/ ٢ وهذه شهادة من محقق هذا الكتاب الذي خبر جوهره ، وعاش مع كل حرف فيه .

(٣) من كلمته في افتتاح ندوة الإمام الطبري بالقاهرة ١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٩ م .

(٤) التاريخ العربي والمؤرخون ص ٢٥٣ .

السير على منواله ، وكتابة الذبول عليه ، والتكملات لسنواته ، منها :

١ - ذَيْلُ تاريخ الطبري ، للطبري نفسه الذي كان أول من ذَيْلَ على كتابه ، وله ذَيْلٌ على الذَيْل ، ولم يصل إلينا شيء من ذلك^(١).

واعتبر بروكلمان كتاب الطبري «ذيل المذيل من تاريخ الصحابة والتابعين» الذي أتمه يوم ٢٧ من ربيع الآخر سنة ٣٠٣ هـ/ ١٠ من نوفمبر (تشرين الأول) ٩١٥ م ، ذَيْلاً لتاريخه^(٢).

٢ - أكمل عُرَيْبُ بن سعد تاريخ الطبري إلى سنة ٣٢٠ هـ ، بعنوان «صلة تاريخ الطبري» ويوجد منه نسخة خطية ، وحققه دي خويه في ليدن سنة ١٨٩٧ م ، وأكماله ثابت بن سنان الصَّابِي (٣٦٣ هـ) حتى سنة ٣٦٠ هـ^(٣).

٣ - وأكماله هلال بن المُحْسِن الصَّابِي إلى سنة ٤٤٨ هـ.

٤ - وأكماله ابن هلال المذكور محمد غرس النُّعْمة إلى سنة ٤٧٩ هـ بعنوان «عيون التواريخ».

٥ - وأكماله محمد بن عبد الملك الهَمْدَانِي (ت ٥٢١ هـ/ ١١٢٧ م) إلى سنة ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م ، ويوجد نسخة مخطوطة منه في مكتبة باريس - أول برقم ١٤٦٩ ، وطبع الموجود من الكتاب مستقلاً^(٤) ، كما طبع ضمن ذبول تاريخ الطبري^(٥).

٦ - وأكماله نجم الدين بن الملك الكامل الأيوبي (ت ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٩ م).

(١) قال السخاوي عن الطبري : «وله على تاريخه المذكور ذيل ، بل ذَيْلٌ على الذيل أيضاً» انظر : الإعلان بالتوبيخ لمن ذمَّ أهل التورخ ، ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين لفرانز روزنثال ص ٦٧٠.

(٢) تاريخ الأدب العربي ، بروكلمان ٤٧/٣ ، التاريخ العربي والمؤرخون ص ٢٦٢ ، كشف الظنون ٢٢٨/١.

(٣) تاريخ الأدب العربي ٤٧/٣ ، تاريخ التراث العربي ١٦٤/٢/١ ، الطبري للحوفي ص ٢٣٢.

(٤) تكملة تاريخ الطبري ، تحقيق يوسف كنعان ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، انظر : تاريخ التراث العربي ١٦٥/٢/١.

(٥) ذبول تاريخ الطبري ، طبعة دار المعارف ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

٧ - وأكمله عبد الله بن أحمد الفرغاني (ت ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م) بعنوان «الصلة» ، ثم كتب الفرغاني نفسه «ذيل الصلة» وكلاهما في حكم المفقود .

قال ابن النديم (٤٣٨ هـ) : «وقد ألحق به جماعة من حيث قطع إلى زماننا هذا ، لا يُعوّل على إلحاقهم ، لأنهم ليس ممّن يختص بالدولة ولا بالعلم»^(١) .
(ثامناً) : مختصرات تاريخ الطبري وترجماته :

ولمزيد الأهمية بتاريخ الطبري والعناية به ، والحرص على الانتفاع به على أوسع صعيد ممكن ، فقد قام عدد من العلماء باختصاره لتقريبه إلى القراء ، ومختلف المستويات ، وترجمته إلى لغات أخرى ، فمن ذلك :

١ - ذكر ابن النديم أن تاريخ الطبري قد اختصره وحذف أسانيده جماعة ، منهم محمد بن سليمان الهاشمي ، وأبو الحسن الشَّمشاطي المعلم من أهل الموصل ، وثالث يعرف بالسَّليل ابن أحمد^(٢) .

٢ - مختصر لتاريخ الطبري ، مع ترجمة قسم منه إلى اللغة الفارسية ، أعده أبو علي محمد البلَّعَمي (٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م) وهو من وزراء الدولة السامانية ، ترجمه بأمر منصور بن نوح الساماني^(٣) .

وترجم هذا المختصر من الفارسية إلى الفرنسية في أربعة أجزاء طبعت في باريس .

وقام خضر بن خضر الأمدي (٩٣٥ - ٩٣٧ هـ / ١٥٢٨ - ١٥٣٠ م) بترجمة هذا المختصر أيضاً من الفارسية إلى العربية ، ويوجد منه نسخة في ليدن برقم ٨٢٥ ، وتوجد ترجمة عربية أخرى للمختصر ، وتوجد منه نسخة في ليدن برقم ٨٢٦ .

وترجم هذا المختصر أيضاً إلى اللغة التركية في ثلاثة أجزاء ، طبعت باستنبول سنة ١٢٦٠ هـ ، ثم طبع ثانية ١٢٨٨ هـ ، ١٣٢٧ هـ ، ثم طبع في بولاق مصر

(١) الفهرست ص ٣٢٧ .

(٢) الفهرست ص ٣٢٧ ، والشمشاطي هو أبو الحسن علي بن محمد العدوي (٣٨٠ هـ) انظر : التاريخ العربي والمؤرخون ص ٢٦٢ .

(٣) تاريخ الأدب العربي ٤٨/٣ ، تاريخ التراث العربي ١/٢/١٦٥ .

١٢٧٥ هـ ، ويوجد ترجمات أخرى إلى اللغة التركية أيضاً^(١).

وترجم هذا المختصر المذكور إلى اللغة الجَغَطائية ٩٢٧ هـ / ١٥٢١ م ، بقلم واحدٍ بَلْخِي ، بأمر عبد اللطيف بن كوجكنجي الشَّيباني الذي حكم في سنة (٩١٦ - ٩٣٧ هـ / ١٥١٠ - ١٥٣٠ م) وتوجد منه نسخة في مكتبة بطرسبرج العامة^(٢).

٣ - مختصر تاريخ الطبري مع إيراد زيادات إلى سنة ٣٢٠ هـ لَعَرِيب بن سعد القرطبي (٣٦٦ هـ) مع إصلاحات وزيادات في تاريخ إفريقية والأندلس ، ويوجد منه نسخ خطية في وتا برقم ١٥٥٤ ، ونقل ابن عذاري منه ما يختص بتاريخ إفريقية والأندلس ، وأودعه في كتابه «البيان المُغرب» وطُبعت أخبار العراق ملحقة بالتاريخ باسم «صلة تاريخ الطبري» من سنة ٢٩١ هـ إلى سنة ٣٢٠ هـ^(٣).

٤ - مختصر تاريخ الطبري لمؤلف مجهول ذكره فؤاد سزكين ، ويوجد منه نسخ خطية في الأحمدية بتونس وباريس^(٤).

(تاسعاً): تحقيق تاريخ الطبري وطبعه ونشره:

ولاستمرار أهمية تاريخ الطبري ، والحاجة إليه في الحاضر والمستقبل ، فقد اتجه العلماء إلى تحقيقه وطبعه ونشره ، وطُبِع عدة طبعات في عدد من الدول والبلاد ، فمن ذلك:

١ - طبعة ليدن بين سنتي ١٨٧٩ و ١٨٩٨ م ، أشرف عليها بعض المستشرقين ، وهي طبعة ناقصة لعدم الحصول على نسخة كاملة في ذلك الوقت ، وأُلْحِق بهذه الطبعة كتاب «المنتخب من ذيل المذيل في تاريخ الصحابة والتابعين للطبري» وقسماً من «مختصر تاريخ الطبري» ، وفي هذه الطبعة مجلد للفهارس العامة.

(١) تاريخ التراث العربي ١/٢/١٦٥.

(٢) تاريخ الأدب العربي ٣/٤٨ ، تاريخ التراث العربي ١/٢/١٦٥ ، التاريخ العربي والمؤرخون ص ٢٦٢.

(٣) المراجع السابقة ، كشف الظنون ١/٢٢٧.

(٤) تاريخ التراث العربي ١/٢/١٦٥.

٢ - الطبعة الثانية في ليدن ما بين سنتي ١٨٩٧ و ١٩٠١ م ، وأشرف على التحقيق عدد من المستشرقين بإشراف دي غويه ، ورجعوا إلى عدة مخطوطات من اثني عشرة مكتبة في أوروبا والعالم الإسلامي .

وقال الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم عن هذه الطبعة بأنها من أمثل المطبوعات العربية وأدقها^(١) ، وتقع في خمس عشرة مجلدة ، منها اثنتان للفهارس .

٣ - قامت المطبعة الحسينية بالقاهرة بطبع تاريخ الطبري عن النسخة الأوربية ، وبإشراف يُوسُف بك حنفي ، ومحمد أفندي عبد اللطيف الخطيب سنة ١٣٢٦ هـ ، وجاءت في ثلاثة عشر جزءاً مع ذيله «صلة تاريخ الطبري» لعُريب بن سعد ، و«المنتخب من ذيل المذيل» .

٤ - قامت المكتبة التجارية الكبرى بمصر بنشر تاريخ الطبري ، وطبعه في مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩ م ، في ثمانية مجلدات ، ومعها «صلة تاريخ الطبري» و«المنتخب من ذيل المذيل» ، ثم طبع في نفس المطبعة سنة ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م ، وصوّرت هذه الطبعة مجدّداً في مطبعة الأمير ، قم ، إيران سنة ١٤٠٤ هـ ، وحذف في طبعة المطبعة الحسينية ومطبعة الاستقامة التعليقات والفهارس .

٥ - قامت دار المثنى ببغداد بتصوير تاريخ الطبري بالاعتماد على طبعة دي غويه في أربعة عشر جزءاً .

٦ - وجاءت مكتبة خياط في بيروت وصورت تاريخ الطبري سنة ١٩٦٥ م .

٨ - وأهم طبعة لتاريخ الطبري صدرت عن دار المعارف بمصر ما بين سنتي ١٩٦٠ و ١٩٦٧ م في أحد عشر مجلداً بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ، وخصّص ثلاثة أرباع الجزء العاشر للفهارس ، والجزء الحادي عشر لذيول الكتاب ، وهي «صلة تاريخ الطبري» لعُريب بن سعد ، و«تكملة تاريخ الطبري» لمحمد بن عبد الملك الهمداني ، و«المنتخب من ذيل المذيل للطبري» لعُريب بن سعد .

(١) تاريخ الطبري ، المقدمة ٢٩/١ طبعة دار المعارف .

ورجع المحقق إلى الطبقات السابقة والأصول الخطية التي لم يقف عليها المستشرقون ، كما رجع إلى المصادر ذات الصلة بالكتاب مثل تفسير الطبري وسيرة ابن هشام وكتب التاريخ واللغة والأدب ودواوين الشعر ، وسجل ذلك كله في مقدمته^(١).

ويعتقد الأستاذ شاكر مصطفى أن جميع هذه العناية لم تمنع ضياع بعض تاريخ الطبري ، ولكن ذلك لا يشكل نقصاً هاماً في جملة الكتاب أو يقلل من قيمة النسخ المطبوعة والمتداولة^(٢).

وهكذا تحقق لهذا الكتاب العظيم القيم البقاء والحفظ ، واستفادت منه الأجيال على مر التاريخ ، وانتشر في أيدي الناس في العالم أجمع ، وطبع عدة طبعات ، وتوفرت نسخه في كل البلاد ، وبقي ذكرى غالية وثمينة للإمام الطبري ليتجدد له الثواب والأجر بسبب الانتفاع بعلمه .

قلنا: فلذا اعتمدنا في تحقيقنا وتخريجنا لهذا السفر العظيم على هذه الطبعة الأخيرة.

كما قمنا بتقسيم الكتاب إلى مراحل الخمسة:

١ - قبل البعثة النبوية .

٢ - عصر النبوة .

٣ - الخلفاء الراشدون .

٤ - عصر بني أمية .

٥ - عصر بني العباس .

وكل مرحلة قسمناها إلى صحيح وضعيف .

اللهم اجعل أعمالنا كلها صالحة ولو جهك خالصة ولا تجعل فيها شركاً لأحد .

* * *

(١) تاريخ الطبري ، المقدمة ٣٠/١ طبعة دار المعارف ، وانظر مقدمات بقية الأجزاء ، تاريخ الأدب العربي ٤٧/٣ ، تاريخ التراث العربي ١٦٣/٢/١ .

(٢) التاريخ العربي والمؤرخون ٢٦٣/١ .

المبحث الثالث مَنْهَجُ الطَّبْرِيِّ فِي تَارِيخِهِ

(أولاً): المنهجية عند الطبري:

بدأت تدوين العلوم عامة ، وكتابة التاريخ خاصة في منتصف القرن الثاني الهجري كما سبق ، وكانت بشكل ابتدائي وكيفي ، ثم اتجهت العلوم إلى التدقيق والتنظيم والترتيب في القرن الثالث الهجري .

وكان الطبري رحمه الله يَسمُّ بالْمَوْسُوعِيَّةِ والشمولية من جهة ، والتدقيق والتنظيم والمنهجية من جهة ثانية ، وكان منهجه واضحاً ومنظماً في مختلف العلوم والفنون التي شارك فيها ، وكان يصرِّح بخطته ومنهجه في مقدمات كتبه ومصنفاته .

وبلغ التحقيق والترتيب والمنهجية في كتابة التاريخ قَمَّتَهُ عند الطبري ، فكان أكثر من غيره تنظيماً ، وأمِيل إلى تنسيق الحوادث وترتيبها^(١) ، ولذلك يُعتبر الطبري شيخ مدرسة التاريخ المنقول التي امتدت خلال القرون الثلاثة السابقة ، وكان الطبري يقصد تحريُّ الدقة في نقل الخبر ، دون أن يتحوَّل التاريخ على يديه إلى مجال التحليل والنظر العقلي والاستنتاج .

وصرح الطبري بمنهجه في مقدمة تاريخه ، والتزم بهذا المنهج ، فقال :

«وليعلم الناظرُ في كتابنا هذا أَنَّ المتماذي في كل ما أحضرتُ ذكرَه فيه ، مما أَنِّي راسِئُهُ فيه ، إنما هو على ما رَوَيْتُ من الأخبار التي أنا ذاكرُها فيه ، والآثارِ

(١) وهذا ما دفع بعض الباحثين إلى تشبيه عمل الطبري في التاريخ الإسلامي بما قام به البخاري ومسلم في الحديث . انظر : التاريخ العربي والمؤرخون ص ٢٥٧ .

التي أنا مُسْنِدُهَا إِلَى رُؤَايَافِهَا فِيهِ ، دُونَ مَا أُدْرِكُ بِحُجَجِ الْعُقُولِ ، وَاسْتَنْبِطُ بِفِكْرِ النُّفُوسِ إِلَّا الْيَسِيرَ الْقَلِيلَ مِنْهُ ، إِذْ كَانَ الْعِلْمُ بِمَا كَانَ مِنْ أَخْبَارِ الْمَاضِينَ ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ مِنْ أَنْبَاءِ الْحَادِثِينَ غَيْرَ وَاصِلٍ إِلَى مَنْ لَمْ يَشَاهِدْهُمْ ، وَلَمْ يُدْرِكْ زَمَانَهُمْ ، إِلَّا بِإِخْبَارِ الْمُخْبِرِينَ ، وَنَقْلِ النَّاqِلِينَ ، دُونَ الْإِسْتِخْرَاجِ بِالْعُقُولِ ، وَالْإِسْتِنْبَاطِ بِفِكْرِ النُّفُوسِ ، فَمَا يَكُنْ فِي كِتَابِي هَذَا مِنْ خَبَرٍ ذَكَرْنَاهُ عَنْ بَعْضِ الْمَاضِينَ مِمَّا يَسْتَنْكَرُهُ قَارِئُهُ ، أَوْ يَسْتَشْنَعُهُ سَامِعُهُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ لَهُ وَجْهًا فِي الصَّحَّةِ ، وَلَا مَعْنَى فِي الْحَقِيقَةِ ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ لَمْ يُؤْتَ فِي ذَلِكَ مِنْ قِبَلِنَا ، وَإِنَّمَا أُوتِيَ مِنْ قِبَلِ بَعْضِ نَاقِلِيهِ إِلَيْنَا ، وَإِنَّمَا أَذَيْنَا ذَلِكَ عَلَى نَحْوِ مَا أُذِيَ إِلَيْنَا»^(١).

وبالتأمل في هذه المنهج المحدد ، وبالرجوع إلى نصوص «تاريخ الأمم والملوك» استخرج علماء التاريخ منهج الطبري في التاريخ ، وأبدوا عليه المآخذ والملاحظات .

وسبق البيان أن تاريخ الطبري ينقسم إلى قسمين رئيسين ، تاريخ قبل الإسلام ، وتاريخ بعد الإسلام ، ولكل قسم منهجه وطبيعته ، كما سنبينه إن شاء الله تعالى .

(ثانياً): سمات منهج الطبري في «التاريخ» قبل الإسلام:

ويتضمن هذا القسم مقدمة عن الكون والزمان وخلق إبليس وآدم وتاريخ البشرية منذ هبوط آدم إلى الأرض ، وتاريخ الأنبياء والفرس والروم والعرب قبل البعثة النبوية .

وجعل الطبري في هذا القسم تاريخ الأنبياء هو المنطلق لتاريخ الإنسانية ، فيذكر النبيّ ومن يعاصره من الأمم والملوك ، والمقارنة بين الدول .

ولم يرتّب الطبري الحوادث على حسب وقوعها سنة فسنة ، لأن ذلك غير ممكن له ، وإنما قلّد طريقة علماء التوراة بالبدء بالخلقة ، ثم بذكر تاريخ الأنبياء على حسب ما ورد في التوراة ، وفي أثناء ذلك يتعرّض للحوادث التي وقعت في أيام كل نبيّ ، ويذكر الملوك والحكام الذين كانوا يعارضونهم ، وما جرى بينهم

من حوادث وحروب ، ثم عرض للأمم التي جاءت بعد الأنبياء حتى ظهور الإسلام .

ويُعرف هذا الترتيب من أهل الكتاب ، ويطلق على تدوين التاريخ بهذه الطريقة «التأريخ» تمييزاً له عن «الحَوَليات» أو النظام الحَوَلي أو النظام السَّنوي .

ويتسم هذا القسم من تاريخ الطبري بالقصص الخيالي ، ويكثر فيه الأساطير والخرافات التي تتحدث عن العهود التاريخية القديمة للإنسان ، كما تظهر الحكايات والأخبار الإسرائيلية التي ترجع إلى العهد القديم وكتب اليهود ، ويذكر الطبري أيضاً بعض الأساطير الشعبية الوثنية عن الأمم الأخرى .

واقصر الطبري في هذا القسم على أصول الحوادث ، وأعرض عن التفاصيل إما لخشية الإطالة ، وإما لعدم الثقة بها نظراً لطول العهد ، ودخول التحريف ، وعدم اتصال الأسانيد ، وإما لعدم أهميتها في نظره ، وأنها كانت من نسج الخيال والتسليات ، خلافاً لما ستراه في التاريخ الإسلامي^(١) .

(ثالثاً) : معالم منهج الطبري في التاريخ الإسلامي :

عرض الطبري تاريخ ما بعد الإسلام من خلال منهج محدد ، وأتبع طريقة واضحة في معظم الأحوال^(٢) ، والتزم بهذا المنهج والطريقة التي نذكر معالمها فيما يلي :

١ - نظام الحَوَليات : سلك الطبري في تاريخ القسم الخاص بالتاريخ الإسلامي نظام الحَوَليات ، فراعى ترتيب الحوادث ترتيباً زمنياً ، عاماً بعد عام ، وحَوَلاً بعد حول ، ابتداءً من الهجرة النبوية حتى سنة ٣٠٢ هـ / ٩١٥ م ، وذكر في كل سنة ما وقع فيها من أحداث مهمة ، فإن كانت الحادثة طويلة جزأها ، وأشار إليها مجملة ثم يذكرها مفصلة في الوضع الملائم ، ولذلك يختلف حجم الحَوَليات عنده بحسب كثرة الأحداث وأهميتها في كل حول .

(١) الطبري للحوفي ص ١٩٥ .

(٢) انظر : الطبري للحوفي ص ١٩١ وما بعدها ، تاريخ التراث العربي ١/٢/١٦٠ ، ظهر الإسلام ٢/٢٠٤ ، التاريخ العربي والمؤرخون ص ٢٥٧ وما بعدها ، تاريخ الطبري ، المقدمة ١/٢٤ طبعة دار المعارف .

وطريقة الحوليات انفرد بها المؤرخون المسلمون عن اليونان والرومان وأوروبا في العصور الوسطى ، ولم يبتكر المؤرخون المسلمون عن اليونان والرومان وأوروبا في العصور الوسطى ، ولم يبتكر الطبري هذه الطريقة ، بل سبقه إليها بعض المؤرخين المسلمين مثل الهيثم بن عدي (٢٠٧ هـ) وجعفر بن محمد بن الأزهر (٢٧٦ هـ) وعمار بن وسيمة المصري (٢٨٩ هـ) والواقدي (٢٠٧ هـ) لكن تاريخ الطبري أقدم كتاب وصل إلينا على ترتيب السنين ، ثم سار على هذه الطريقة بعد الطبري كثيرون ، مثل ابن مسكويه (٤٢١ هـ) ، وابن الجوزي (٥٩٧ هـ) وابن الأثير (٦٣٠ هـ) وأبو الفداء (٧٣٢ هـ) ، وخالفهم في ذلك اليعقوبي (٢٨٤ هـ) والذينوري والمسعودي (٣٤٦ هـ) وابن خلدون (٨٠٨ هـ) الذين كتبوا تاريخ الحوادث بشكل كامل ومتصل ولو استغرق سنوات ، إلى أن أدخل مؤرخ الإسلام الذهبي (٧٤٨ هـ) في كتابه «تاريخ الإسلام» تعديلاً عليه بالتقسيم الفرعي للحوادث متبعاً نظام العقود ، أي من السنة الأولى إلى السنة العاشرة ، وهكذا ، وطبق هذا التقسيم إلى عقود على كل أجزاء كتابه (وهو ٢١ جزءاً من بداية التاريخ الإسلامي حتى بداية القرن الثامن الهجري) ، واستمد الذهبي أصول هذا التقسيم من تاريخ السيرة النبوية مع الربط بأدب الطبقات والتراجم .

وطريقة الطبري في سرد أحداث كل حولة ليست على نسق واحد ، فتارة يذكر الحدث التاريخي ، ثم يبدأ بذكر تفاصيله ، والروايات التي فيه ، وتارة يذكر جملة أحداث وقعت في سنة واحدة ، ثم يعود إلى تفصيلها ، ويختتم الحولية غالباً بذكر من توفي فيها من الأعلام المشهورين ، ويذكر باستمرار في ختام كل حولة أسماء عمال الأقاليم وأمراء الحج في تلك السنة ، كما يذكر أخبار المرابطين في الثغور للجهاد ، خاصة مع الروم .

أما الأخبار التي لا ترتبط بسنة معينة فكان الطبري يذكرها كاملة ، فمثلاً كان يختتم الحديث عن كل خليفة واستعراض الأحداث التي وقعت في عهده بذكر سيرته وترجمته .

٢ - نقل الروايات: عوّل الطبري في أكثر كتابه على الرواة ، كما صرح في مقدمته السابقة ، محتجاً أن المؤرخ لا يصحّ له أن يستند إلى المنطق والقياس

والاستنباط وإنما يعتمد على ما ينقل إليه ، ليدوّن الأخبار على عهدة رواتها ، ويعرضها بشكل موضوعي محايد ، مع عزو كل رواية لصاحبها .

وكان الطبري - رحمه الله تعالى - يذكر الروايات المختلفة ، سواء كانت موافقة لفكره ورأيه ، أم مخالفة لذلك ، ولم يعلّق غالباً بترجيح ، أو نقد ، وترك ذلك للقارئ ، لكن كان أحياناً يُلقي برأيه ، ويرجّح بعض الروايات مبيّناً وجه الترجيح ، ومستخدمًا في هذه الطريقة معرفته بالحديث وطرقه .

ويذكر الطبري سند الرواية موصولاً إلى صاحبه على طريقة علم الحديث ، فإذا سمع الرواية من إنسان مشافهة قال : « حدّثني » وإذا اشترك معه آخرون في السماع قال : « حدّثنا » ، وإذا كان بالمراسلة قال : « كتب إلي » ، وإذا أخذ الأخبار عن الكتب أو بطريق الإجازة قدّم لعبارته بقول : « قال » و « ذكر » و « روي » و « حدّث عن فلان » ويهمل اسم المحدث ، كما يذكر اسم مؤلف الكتاب ، ولا يذكر اسم الكتاب ، واستخدم الطبري اصطلاحات الحديث ، التزاماً منه بمنهج المحدثين ، في رواية الحديث النبوي ، لذلك كان رجال الحديث هم واضعو أسس المنهج التاريخي .

ولكنّ الطبري ، وغيره من المؤرخين ، لم يلتزموا بجميع قواعد مصطلح الحديث في كتابة التاريخ للفارق الكبير بينهما ، فالحديث مصدر من مصادر التشريع الإسلامي ، وتؤخذ منه الأحكام الشرعية ، ويمثل التطبيق العملي لأحكام الدين ، وهو مصدر العقيدة ، وهو المنبع لسيرة الرسول ﷺ التي يُعتمد عليها في الاقتداء والتأسي ، ولا يرقى التاريخ إلى هذا المستوى ، لذلك تساهل الطبري رحمه الله في الروايات التاريخية ، ولم يطبّق على رجال السند منهج الجرح والتعديل ، واكتفى بإلقاء العُهد في الخبر على الراوي ، كما ذكر في مقدمته ، واعتمد قيمة الروايات بقوة أسانيدھا من جهة ، وقرب السند إلى الحادثة من جهة أخرى ، ومن هنا يظهر السبب في قبول الطبري لرواية الضعفاء - عند المحدثين ، مثل محمد بن السائب الكلبي ، وابنه هشام بن محمد الكلبي ، وإسماعيل بن عبد الرحمن السّدي الكبير - كما يقبل رواية المجهولين ، والروايات المرسلة إلى ابن عباس وغيره .

وتساهل الطبري أكثر فأكثر في الأجزاء الأخيرة من الكتاب ، فيقول مثلاً :

«ذكر لي بعض أصحابي» و«ذكر لي جماعة من أصحابنا» و«ذكر من رآه وشاهده» و«حدثني جماعة من أهل كذا» ولعل الباعث على زيادة التساهل خوفه على محدّثيه الأحياء من غضب الآخرين الذين تمسّهم الرواية ، ويقل السند أكثر فأكثر في الأجزاء الأخيرة حتى ليندر أحياناً في صفحات متتالية .

وإن استخدام الإسناد والروايات قد شاع في مختلف التصنيفات والعلوم ، وصار هو الصفة الغالبة على منهج تدوين العلوم الإسلامية الأخرى ، واستمر حتى نهاية القرن الخامس الهجري تقريباً ، ثم قلّ الاعتناء به ، وحلّ محله تدريجياً النقل من الكتب والمؤلّفات ، وبقي شيء منه عند علماء الحديث للتبرّك والمحافظة على قدسية الحديث وخاصة الأئمة الإسلامية بالإسناد ومصطلح الحديث .

وكان السبب في استعمال طريقة الإسناد والروايات في التاريخ أن المؤرّخين الأوائل جمعوا بين صفتي المحدث والمؤرخ ، وأن الدراسات التاريخية ظهرت في أحضان علم الحديث ، وما فيه من سيرة رسول الله ﷺ وشماله ومغازيه وهديه ، كما لجأ المؤرخون إلى طريقة الرواية لاختيار الروايات والسلاسل التي تتفق مع ميولهم ورغباتهم وعقائدهم .

وطريقة الإسناد تقابل في زماننا الالتزام بمنهج البحث العلمي في ذكر المصادر والمراجع للمادة المعروضة في مختلف العلوم ، وفي بيان الأجزاء المركّب منها الدواء والجهاز وغير ذلك .

٣ - الاعتماد على المصادر : كان جلّ اعتماد الطبري في الأخبار التاريخية على المصادر التاريخية التي صُنّفت قبله ، وكان الطبري يذكر غالباً الإسناد إلى المصادر عن طريق الرواة الذين يذكر أسماءهم ، دون كتبهم ، ومعظم هؤلاء الرواة صنّفوا المؤلّفات في الموضوعات التي تطرّق إليها الطبري ، ويأخذ من المؤلّف نفسه مباشرة ، أو بالواسطة عن نقل عنهم .

وكان الطبري - رحمه الله تعالى - في اقتباس الروايات التاريخية يخالف منهج المحدثين الذين يحرصون على نقل كل حديث بمفرده ، ثم ضمّه إلى حديث آخر ولو اختلف الموضوع ، أما في التاريخ فكان الطبري وعلماء التاريخ يجمعون بين

الروايات العديدة ، ويمزجون بعضها مع بعض لإخراج الحادثة متكاملة ووافية في المعنى والموضوع وأطراف الحادثة ، وهذا ما يُسمَّى تاريخياً بالإسناد الجمعي ، لحاجة كتب التاريخ والقصص والأخبار إلى السرد الموضوعي ، واستمرار الحوادث في نسق تاريخي متتابع ، فتتکامل الصورة التاريخية في الموضوع ، لكنهم يضطرون إلى ذكر السند لكل رواية لإتاحة الفرصة للتحقق من صحتها ، والتأكد من سندها .

٤ - جمع الأخبار وضبط النصوص : حرص الطبري - رحمه الله - على ذكر أحداث كل سنة بشكل أخبار ، ولكنه يذكر غالباً للحادثة الواحدة روايات مختلفة لاعتقاده بوجود ذكرها ، ويقف غالباً عند هذا الحد ، فلا ينتقد الروايات المختلفة التي ذكرها ، ولا يناقش مضمونها ، ولا يرجع بعضها على بعض ، لذلك أطلق عليه بعض المؤرخين اسم «الجماعة» وأطلقوا على كتابه اسم «مجموع» خلافاً لمنهج الطبري في التفسير ، فإنه يناقش الروايات ، ويبين الراجح ، ويبيد رأيه باستمرار .

وكان الطبري يحرص أيضاً في التاريخ على ضبط النصوص التي يرويها دون تبديل ، حتى ولو كان في النص كلمات أعجمية ، ونصوص أعجمية ، وأشعار فارسية .

٥ - الاستطراد في ذكر الأسباب والتفصيلات المصاحبة : فيذكر الطبري السبب في كل حادث يسجله ، وهذا أمر طيب لإلقاء الضوء عليه ، كما كان يستطرده في عرض التفصيلات المتعلقة بالأحداث ، ويعرض الحواشي المصاحبة لها ، لأنها تتعلق بها ، ثم يعود إلى الموضوع الرئيس الذي بدأ به ، ويذكر القارئ فيه بقوله : «نعود إلى سياق خبر كذا وكذا ، أو سياق خبر فلان أي راوي الخبر ، أو نرجع إلى حديث فلان» .

٦ - وضع العناوين للأحداث : ويمتاز الطبري في منهجه التاريخي بوضع عناوين للأحداث التي يعرضها ، وخاصة للأحداث المهمة التي تحتل المكانة الأولى في السنة التي يؤرخ لها ، ويقدم عناوينه بمقدمة عن الحادث المعين للتأكيد على كلمة «سبب» ، أما الأحداث الصغيرة فإنه يذكرها متعاقبة دون عناوين .

٧ - التوسع في سيرة الخلفاء : يظهر من تاريخ الطبري أنه يعطي الخلفاء أولوية خاصة ، وأهمية متميزة ، وكأنَّ التاريخ محيط بهم ، ويدور في فلكهم ، وأن حياتهم ذات أثر كبير في غيرهم ، للمثل القائل «الناس على دين ملوكهم» ، وانعكاس أعمالهم على فعاليات الأمة ، فكان الطبري إذا ذكر خليفة يبيِّن سبب وفاته ، وساق الروايات في ذلك ، وعرض جانباً من أحواله وأقواله وتصرفاته وسيرته العامة والخاصة ، ويطل أحياناً في الخلفاء المهمَّين كما فعل في سيرة الخلفاء الراشدين ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وعبد الملك بن مروان ، وعمر بن عبد العزيز ، والمنصور ، والمهدي ، والرَّشيد .

٨ - الإكثار من الوثائق التاريخية : أكثر الطبري من إيراد الوثائق التاريخية لمادته العلمية ، لذلك اعتبر تاريخه أوثق مصادر التاريخ الإسلامي ، كما وصفه ابن خلكان سابقاً بأنَّه «أصح التواريخ وأثبتها» وكذلك يُعتبر تاريخ الطبري أوثق ما دُوِّن في السيرة النبوية ، وهذا ينمُّ عن دقة الطبري وتحقيقه وسعة اطلاعه ، وهو ينسجم مع منهج الطبري العلمي والدقيق في مختلف كتبه ومصنفاته .

وعلى سبيل المثال تضمَّن تاريخ الطبري حوالي ثلاثين وثيقة تتعلق بالسيرة النبوية ، أكثرها في العهد المدني ، وتضمَّن حوالي خمسين وثيقة تتعلق بعصر الخلفاء الراشدين ، وذكر الطبري بعض الوثائق للعهد الأموي ، تُعتبر فريدة وهامة ، كما التزم هذه الدقة في تاريخ الروم والفرس والعرب ، بالإضافة إلى الوثائق الأدبية .

٩ - تسجيل التُّصوص الأدبية : وهنا يكثر الطبري من ذكر النصوص الأدبية المرتبطة بالأحداث ، كالشعر والخطابة والرسائل والمحاورات ذات الصلة بالمناسبات التاريخية^(١) .

والطبري في هذه الناحية يتبع منهج المؤرخين في عصره ، ورواة الأخبار قبله ، الذين يحرضون على تدوين الشعر الذي يتصل بالموضوع ، كما كان

(١) يقول أحمد أمين : «وكتابه هذا ، مع أنه تاريخي في أصله ، فالقارئ له يقف على ثروة كبيرة في الأدب ، لأنه في حكايته للروايات المختلفة يقصُّها في لغة رصينة بليغة ، غاية في القوة» (ظهر الإسلام ٢/ ٢٠٤) .

الأدباء يستعينون بالأخبار التاريخية لبيان مناسبات القصائد ، والأحداث التي سبقتها ، والأخبار التي عرضتها ، وأسماء الأشخاص المذكورين فيها ، ولذلك امتزج التاريخ بالأدب ، وصار المؤرّخ غالباً راوية للأدب ، وصار الأديب مؤرّخاً.

من الأمثلة الأدبية التي ذكرها الطبري خُطبة زياد بن أبيه بالبصرة سنة ٤٥ هـ ، (١٢٤/٦) وخطبة الحجاج بالكوفة سنة ٧٥ هـ (٢١٠/٧) وخطبة عبد الملك بن مروان بدمشق (١٧٥/٧) وخطبة خالد القسري بمكة (٨٠/٨) وخطبة الحسين بن علي في أصحابه (٢٢٩/٦) والحوار بين عبد الله بن الزبير وأمه أسماء حينما حاصره الحجاج بمكة (٢٠٢/٧) والحوار بين الخوارج والمهلب بن أبي صفرة (١٩١/٧) ورسالة المختار الثقفي إلى محمد ابن الحنفية (١٢٧/٧) والقصائد الكثيرة التي تظهر جليلة على صفحات «تاريخ الطبري».

١٠ - الحياد والواقعية: كان الطبري ورعاً وتقياً ودقيقاً ، وكان في الوقت نفسه ملتزماً بمذهب أهل السنة والجماعة ، وعقيدة السلف ، ومع ذلك كان يورد الروايات المختلفة في الأحداث ، دون ميل مع أي هوى في إيراد الأخبار التاريخية ، وكان في الغالب حيادياً بتصوير الأحداث ، وترك الحكم عليها للقارئ ، وعدم ممارسة النقد في الروايات وفي المتن ، لأنه يعتقد أن أحاديث التاريخ لا تُبنى عليها أحكام شرعية ، باستثناء الشؤون السياسية ، وخاصة في العصر الراشدي ، فكانت هذه الأحداث ذات انعكاس إيجابي وسلبى على المجتهدين في التطبيق الصحيح للشرع.

والطبري في نفس الوقت جريء في قول الحق ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، وقد تعرض في «تاريخه» لذكر كثير من الأحداث التي لا يرضى عنها العباسيون أنفسهم ، وهم الخلفاء وأصحاب السلطة والنفوذ^(١).

رابعاً: المآخذ على تاريخ الطبري:

قلماً يسلم عمل إنسان من نقص ، أو يصدر بشكل كامل ، فإن الكمال لله وحده ، وكل عمل للبشر معرض للنقص والخطأ ، والنقد والمآخذ ، ولذلك

(١) انظر: ظهر الإسلام ٢/٢٠٤.

سجّل علماء التراجم والتاريخ عدة ملاحظات على تاريخ الطبري والمادة العلمية فيه ، وعلى منهجه الذي سلكه ، ونبدأ الآن بالماخذ التي أوردها العلماء على المادة التاريخية فيه^(١) ، وأهمها .

١ - لم يحفظ الطبري التوازن بين فترات التاريخ قبل الإسلام وبعده ، لأنه عرض تاريخ العالم منذ بدء الخليقة وهبوط آدم وتاريخ الأنبياء والأمم والدول في مجلد واحد يساوي تقريباً عُشر الكتاب ، بينما عرض التاريخ الإسلامي بتوشع ، وأفرد له تسعة أعشار الكتاب .

ولكن هذه الملاحظة لا تَرُدُّ على الطبري رحمه الله ، لأنه لا يريد حقيقة أن يؤرِّخ للعالم ، ليحقِّق التوازن ، ولكنه قصد أن يكتب التاريخ الإسلامي فحسب ، وقَدِّم لكتابه بتمهيد ومدخل للتاريخ السابق ، ولذلك كان تاريخ الطبري أجلاً وأعظم كتاب عن التاريخ الإسلامي في القرون الثلاثة الأولى ، وصار المرجع لكل من جاء بعده .

٢ - أسرف الطبري بذكر الإسرائيليات والخُرافات والأوهام والحكايات فيما يتعلق ببدء الخلق وقصص الأنبياء والتاريخ القديم ، دون أن يُمَحِّص ذلك ويُعرِّضه على النقد والمنطق والعقل وما جاء في القرآن والسنة .

وهذه الملاحظة لم ينفرد بها الطبري ، بل شاركه فيها بقية المؤرخين ، لأن مصدر المعلومات لهم غالباً في ذلك هم أهل الكتاب ، الذين عَرَضُوا هذه المعلومات عن بدء الخليقة ، ولا يوجد مرجع آخر فيها ، فنقل المؤرِّخون ذلك دون تمحيص أو تدقيق أو تعليق^(٢) .

٣ - اقتصر الطبري في تاريخه عما نقله من المصادر والأسناد الماضية ، وهذا صرفه عن النظر في أحداث عصره ، فلم يُسجِّلها في كتابه ، ولم يُورِّخها ، فجاءت

(١) التاريخ العربي والمؤرخون ص ٢٦٠ وما بعدها ، الطبري للحوفي ص ٢٠٤ ، ظهر الإسلام ٢٠٤/٢ .

(٢) قال أحمد أمين : «إن كثيراً من تاريخ الأمم القديمة ليس إلا خرافات وأوهاماً ، ولكن عذر الطبري في ذلك أن هذا هو ما كان معدوداً في وقته ، وليس له من الوثائق ما يستطيع أن يذكر به التاريخ الصحيح» ظهر الإسلام ٢٠٣/٢ .

الأحداث التي عاصرها باهتة ومختصرة جداً ، مع أن الطبري كان على اطلاع واسع بها ، وكانت خبرته جيدة ورحل إلى عدة أقطار في العالم الإسلامي ، وعاش دهنراً طويلاً وقعت فيه أحداث كبيرة وأمور مهمة ، فلم يول اهتمامه بجيله وعصره ، وظهر فيما كتبه عنه الضعف والإيجاز المخل .

ولعل الباعث للطبري على ذلك تصوُّره لدراسة التاريخ وفهمه له بأنه مستودع خبرات الأجيال السابقة فقط ، وأنه يكتب لأبناء جيله الذين يشاركونه في معرفة الأحداث ومجريات الأمور ، فلا يأتيهم بجديد ، وفاته أن الأجيال اللاحقة بحاجة ماسة للمعرفة التفصيلية للجيل الذي عاصر الطبري ، وخاصة أنه شاهد صدق على ما يقول ، وأنه أقرب من غيره لتسجيل هذه الأحداث ، فحرَّم التالين من ذلك ، ولو أَرَّخ لعصره لقدَّم لغيره مادة غزيرة وموثَّقة .

٤ - كان فهم الطبري للتاريخ العالمي أقل وأضيق من فهم بعض المؤرخين السابقين له كاليعقوبي وابن قتيبة مثلاً - في نظرتهم الشمولية ، بينما اقتضت نظرة الطبري إلى تاريخ العالم على الخط الذي يصل بين الأنبياء والعهد الجاهلي كمقدمة للتاريخ الإسلامي .

وقد يكون عذر الطبري في ذلك أنه يريد التاريخ الإسلامي بحد ذاته ، وذكر تاريخ الأمم والملوك الآخرين كمقدمة فقط ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن التاريخ القديم قليل المصادر ، ومصادره غير معتمدة ، والثقة فيها غير متوفرة ، والخيال فيها والخرافة والأساطير من بنات الأفكار أكثر من الحقائق ، فأخذ الطبري جانباً من ذلك ، لأن ما لا يُدرك كله لا يُترك جلّه .

٥ - كان الطبري مهتماً في تاريخه بالأحداث السياسية ، فحصر تاريخه غالباً في المشاكل الداخلية للدولة ، وما يتصل بالسياسة الداخلية ، وأغفل كثيراً الحديث عن الفتوحات الإسلامية كالأندلس وغيرها ، وأعرض عن بيان العلاقات الدولية، وحتى في العلاقات بين الدولة الإسلامية والدول المجاورة لها كالبيزنطية والإفريقية ، وأحوال هذه الدول وأمرائهم ، وفي الأمور الداخلية اهتم

بالحدّث السياسي ، ولم يولِ أمور الإدارة والقضاء والاقتصاد ، والاجتماع أيّ عناية^(١) .

وهذا الأمر يشترك فيه الطبري مع بقية المؤرّخين ، لأنّ التاريخ كان مركزاً على الحكّام والأمراء ، ولم يلتفت إلى الجوانب الحضارية والإدارية والاقتصادية ، إلى أن تطور علم التاريخ ، واتجه إلى بقية عناصر الحياة ، وبلغ أوجه في عهد ابن خلدون وكتبه .

٦ - كان مفهوم التاريخ عند الطبري متأثراً بالنزعة الدينية أكثر من تأثره بالنظرة التجارية ، فأحداث التاريخ تعبير عن المشيئة الإلهية ، والتاريخ مستودع خبرات عليا للأمم ، دون اهتمام بقيمة التجارب التي مرت بها ، ورسالتها التاريخية الواحدة .

وهذه الملاحظة تُعتبر مزية لتاريخ الطبري المحدث والمفسر والمجتهد والعالم والحافظ للقرآن ، والإمام لمذهب فقهي عملي في الحياة ، وأن الطبري المحدث عبّر عن وجهة النظر الدينية الإسلامية عامة ، ووجهة نظر المحدثين في كتابة التاريخ بفكرة تكامل الرسائل السماوية في التاريخ ، وأنه تعبير عن المشيئة الإلهية ، فكان تاريخه قريباً ومكملاً لتفسيره ، فالتفسير لتوضيح إرادة الله في كلامه ، والتاريخ يوضح إرادة الله في مسيرة البشرية^(٢) .

خامساً: المآخذ على منهج الطبري:

تعرض علماء التاريخ لبيان المآخذ على منهج الطبري في تاريخه وقدموا عدة ملاحظات عليه^(٣) ، نذكر أهمها:

١ - ضمور النقد عند الطبري: وذلك أنه اكتفى بسرد الروايات ، ويبيّن في مقدمته أنه يرمي العهدة على الرواة ، ووقف خارج الأحداث ، وملتزم بالرواية ، ولم يعدّل الرواة ، ولم يُجرّحهم ، مع أن الطبري من علماء الحديث ، ويمكنه

(١) ظهر الإسلام ٢/٢٠٤ .

(٢) انظر: ظهر الإسلام ٢/٢٠٦ .

(٣) التاريخ العربي والمؤرخون ص ٢٥٩ ، الطبري للحوفي ص ٢٠٤ ، ظهر الإسلام ٢/٢٠٤ وما بعدها ، تاريخ الطبري ، المقدمة ١/٢٥ طبعة دار المعارف .

الالتزام بطريقة المحدثين في مجرد سرد الرواية دون تعرّض لمتنها ، كما أنه يفعل فعلهم في التعديل والتجريح للرواة ، ولذلك يُعتبر ضمور النقد عند الطبري في التاريخ نقطة ضعف ونقص ، وإن اعتُبرت في الحديث أمانة وميزة ، وقد ذكر الطبري أحياناً روايات غير معقولة ، أخذها عليه المؤرّخون بعده بإيرادها دون نقد وتفكير ، وأنها منافية للعقول ، ولا يجوز أن تُسَطَّر في الكتب ، ولم يشر إلى الروايات المكذوبة .

وهذه النظرة من الطبري إلى التاريخ تحصره في نطاق المعرفة ، وتجرده من العظمة والاعتبار والتأسي من جهة ، خلافاً لابن مسكويه في كتابه «تجارب الأمم» قاصداً بيان التجارب التي مرّت بالسلف ، ويحسن بالخلف أن يطّلع عليها ، ويستفيد منها ، ويتّعظ بها ، كما أبعدت نظرة الطبري للتاريخ المؤرّخ عن التدخل في الأحداث وتحليلها وبيان مدلولاتها ، وهو ما يتجه إليه المؤرّخون المتأخرون .

لكن الطبري رحمه الله أدلى بدلوه أحياناً ، وأبدى رأيه ، ورجّح ما يراه قوياً بقوله «والصحيح عندنا» ، و«أنا أشك في ذلك» وقوله «وقد زعم بعضهم كذا» وهو توجيه نقدي واضح ، كما أنه لم يعتمد من الأصل في النقل على من كان فيه مظنة شبهة ، من أمثال محمد بن السائب الكلبي ، ومقاتل بن سليمان إلا في الثدرة ، واعتمد على المؤلفات التي يثق بها مثل كتب سيف بن عمر في التاريخ ، كما أن رجال الحديث والتاريخ في الأصل لم يتشدّدوا في الرواية التاريخية تشدّدهم في الحديث النبوي الشريف ، وكان عمل الطبري في التاريخ جليلاً ، لأنه حفظ لنا الروايات من الضياع ، ونسّقها تنسيقاً جيداً ، ولولاه لضاع معظمها ، وحُرّمت من معرفتها .

٢ - عدم ذكر الكتب والمؤلفات: كان الطبري يروي التاريخ عن الرواة والمؤرخين ، دون أن يحدّد الكتاب المأخوذ منه ، وكان لكثير منهم عدد من الكتب ، فسيف بن عمر له كتاب الفتوح ، والردة ، وموقعة الجمل ، وغيرها ، والواقدي له كتاب المغازي ، والردة ، والتاريخ الكبير ، وهشام الكلبي له مئة وأربعون كتاباً ذكرها ابن النديم ، واستخرج فرانز روزنثال أسماء الكتب الواردة

في الفهرس لكل واحد من المؤلفين ، ومصنَّفة حسب مواضيعها^(١) .

ولو ذكر الطبري أسماء الكتب لاستطاع الباحثون الرجوع إلى ما بقي منها ، ولعرف الخلف مؤلفات السلف للتتقيب عنها ، وتحقيق ما سلم من الضياع منها ، والمقارنة بين نصوصها ونصوص الطبري .

٣ - كان الطبري يقطع الأحداث بالروايات المتعددة ، وبالسنين المتعاقبة ، فيقطع الرواية الواحدة إذا وقع فيها خلاف ، فيذكر الرواية أو الروايات المخالفة ثم يعود للرواية الأولى ، فتتداخل الروايات وتتشابك ، ويتشتت معها القارئ ، وينشغل بالفروع عن الحادث الأصيل ، مع ما في طريقة الطبري من أمانة ودقة ، وكان يمكنه تحقيق هدفه بعرض كل رواية عرضاً كاملاً ، ثم بالتعقيب عليها بغيرها ، ثم بالموازنة فيما بينها ، وترجيح بعضها على بعض .

وكان منهج الطبري «الحولي» يضطره إلى تجزئة الحادث الذي امتد عدة سنوات ، فتتبعثر صورته ، ويفقد وَحدته وموضوعه ، مما يصعب معه على القارئ أن يُلَمَّ بالحادث الواحد متكاملًا .

٤ - التركيز على الجانب السياسي ، وهو ما فعله أكثر المؤرخين الذين كتبوا في التاريخ العام ، وتأثر الطبري رحمه الله بهم وبروح العصر الذي عاش فيه ، ولذلك قال السخاوي عنه : «وهو جامع لطرق الروايات ، وأخبار العالم ، لكنه مقصور على ما وضعه لأجله من علم التاريخ والحروب والفتوحات»^(٢) ، وحتى في الجانب السياسي يُغفل الطبري أسماء الولاة والموظفين ، ويُغفل أحياناً بعض الحركات المعارضة للسلطة .

وبعد : فإن هذه الملاحظات على تاريخ الطبري ، والمآخذ على منهجه ، لا تقلل من قيمته ، ولا تُنقص من أهميته ، وأنه كتاب جليل القدر ، عظيم القيمة ، وأنه المرجع الأول للتاريخ العربي الإسلامي ، ويحتل الصدارة عند المؤرخين ، ويتبوأ المكانة الأولى بين كتب التاريخ ، وأنه المرجع الأصيل لكل من كتب في التاريخ ، والمصدر الأساسي لمن جاء بعده من المؤرخين ، ويمثل

(١) انظر : الفهرست ص ١٣١ وما بعدها ، علم التاريخ عند المسلمين ص ٢٧٣ .

(٢) الإعلان بالتوبيخ لمن ذمَّ أهل التواريخ ص ٦٦٩ ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين .

صفحة مشرقة ، وصورة ناصعة للثقافة التي جمعها الطبري في ذهنه ، ومثلها لأبناء عصره وجيله ، وبقي تاريخ الطبري ماثلاً في الأذهان طوال الأجيال الماضية ، وسبق بمشيئة الله تعالى أمام العين والقلب ، والعقل والفكر ، في المستقبل ، فجزاه الله خيراً ، وأعطاه ما يستحق من الثواب والأجر .

يقول الأستاذ شاكر مصطفى : «وعلى أي حال ، فإن ما قد يُوجَّه إلى منهج الطبري ، وإلى تاريخه من نقد لا يمكن أن يلغي شيئاً من قيمته كمؤرخ أول ، انتهى به العصر الأول للتدوين التاريخي ، وكمؤلف ظلت أجيال المؤرخين في العصور التالية عيالاً على كتابه في كل ما يتصل بالقرون الثلاثة الأولى من تاريخ الإسلام»^(١) .



رابعاً تاريخ الطبري - قسم الصحيح

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

وبعد :

فلقد وفقنا الله تعالى للقاء أستاذ التاريخ الإسلامي الكبير فضيلة الدكتور / أكرم ضياء العمري / قبل مراجعتنا للمسودة فشجعنا جزاه الله خيراً واطلع على فصول من قسم الصحيح يتعلق بتاريخ الخلافة في عهد الأمويين ، وأبدى ملاحظاته القيمة ومن هذه الملاحظات :

ضرورة كتابة فصل في بداية (كل فترة) نبين فيها أسانيد الطبري ، مع بيان درجاتها من الصحة أو الضعف ، وذلك لأن الطبري رحمه الله يعيد عدداً من الأسانيد ، عشرات بل مئات المرات ، فالأولى أن نحكم على هذه الأسانيد في المقدمة قبل الشروع في تخريج الروايات^(١) .

وهذه ملاحظة قيمة من الأستاذ العمري جديرة بالاعتبار والاهتمام إلا أن الإشكال أننا كنا قد انتهينا من التخريج والتحقيق سنة ١٩٩٩ م بينما كان اللقاء مع فضيلة الأستاذ العمري سنة ٢٠٠١ م الموافق لـ (١٤٢٢ هـ) وذلك في شهر شعبان ، فتداركنا الأمر من باب ما لا يدرك كله لا يترك جُلّه ، فكتبنا فصلاً في مقدمة المجلد المتعلق بتاريخ الخلافة في عهد الأمويين ضمنناه تراجم الرواة وذكرنا الحكم النهائي على كل راوٍ في هذا الفصل ، ومن لم نذكر اسمه هناك ،

(١) اكتفينا ببيان أسانيد الطبري في بداية الصحيح - هنا - خشية التكرار في كل جزء من الصحيح ، ودفعاً للإطالة على القارئ .

اكتفينا بترجمته في كتابنا (رجال تاريخ الطبري جرحاً وتعديلاً) واكتفينا بذلك بتعليق مختصر وحكم موجز على إسناد كل رواية من روايات الطبري .

وهكذا ترك الأستاذ العمري بصماته على صفحات هذا التحقيق والتخريج فجزاه الله عنا وعن المسلمين والتاريخ الإسلامي خير الجزاء ، وهو بحق رائد في مجال تطبيق قواعد الحديث على الروايات التاريخية - ونكتفي بهذا القدر ونعود مرة أخرى إن شاء الله لنكتب مقدمة أخرى قبل البدء بعهد سيدنا معاوية ، وثالثة قبل البدء بعهد يزيد بن معاوية .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المحققان

تراجم رواية أسانيد الطبري

- ١ - أحمد بن ثابت بن عتاب الرازي (فرخويه).
قال ابن أبي حاتم: عن أبي العباس الطهراني كانوا لا يشكون أن فرخويه كذاب. [الجرح والتعديل ٤٤/٢].
- ٢ - أحمد بن زهير بن حرب.
ثقة حافظ ، توفي ٢٢٩ هـ [لسان الميزان ١/١٧٤].
- ٣ - أحمد بن محمد بن ثابت بن شبويه (أبو الحسن).
ثقة من العاشرة توفي ٢٣٠ هـ. [تقريب / ت ٩٤].
- ٤ - أبان بن صالح بن عمير القرشي.
ثقة من الخامسة ، أخرج له الأربعة. ت سنة بضع عشرة ومئة. [تقريب / ت ١٥٩].
- ٥ - إبراهيم بن ميمون بن صائغ.
قال الحافظ مغلطاي: ذكره ابن حبان في الثقات وخرج حديثه هو والحاكم في صحيحيهما ، وقال الحافظ ابن حجر: صدوق من السادسة قتل سنة ١٣١ هـ.
- [إكمال تهذيب الكمال / ت ٣٠٧] [تقريب التهذيب / ت ٢٩١] [الثقات / ١٩/٦].
- ٦ - إبراهيم بن سليمان الحنفي.
لم نجد له ترجمة فيما بين أيدينا من المصادر.
- ٧ - إسحاق بن إبراهيم الثقفي (أبو يعقوب) الكوفي.
وثقه ابن حبان وقال ابن عدي: روى عن الثقات ما لا يتابع عليه ، وروى

الذهبي من مناكيره ، وقال الحافظ : وثقه ابن حبان وفيه ضعف .

[تقريب / ت ٣٣٦] [ميزان الاعتدال / ت ٧١٦] .

٨ - إسحاق بن إدريس الأسواري البصري .

قال يحيى : كذاب يضع الحديث ، وقال النسائي : متروك .

[ميزان الاعتدال / ت ٧٣٤] [لسان الميزان (١/ ٤٤)] .

٩ - إسحاق بن خليلد مولى سعيد بن العاص .

ذكره ابن حبان في الثقات ، وقال : روى عنه وكيع وأبو نعيم .

[الثقات ٤٧/ ٦] .

١٠ - إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة الأموي .

متروك من الرابعة توفي سنة ١٤٤ هـ .

[تقريب التهذيب (ت ٤١٥)] .

١١ - إسحاق بن عيسى الطباع .

صديق من التاسعة . ت ٢١٤ هـ .

[تقريب التهذيب (ت ٤٢٤)] .

١٢ - إسحاق بن يحيى بن طلحة .

قال أبو زرعة : واهي الحديث . وقال أبو داود الطيالسي ، إسحاق بن

يحيى بن طلحة متروك الحديث منكر الحديث ، وضعفه ابن معين وقال :

لا يكتب حديثه .

وقال ابن حبان : فإذا الاجتهاد أدى إلى أن يترك ما لا يتابع عليه ويحتج بما

وافق الثقات بعد أن استخرنا الله فيه .

[ميزان الاعتدال (ت ٨٠٢) ، الجرح والتعديل (٢/ ت ٨٣٥)] .

١٣ - إسماعيل بن إبراهيم (ابن علي) .

ثقة . قال أحمد : ابن علي إليه المنتهى في الثبوت بالبصرة ، وقال أبو حاتم :

ثقة ثبت في الرجال ، توفي ١٩٣ هـ .

[الجرح والتعديل (١/ ١/ ١٥٤) ، التقريب (ت ٤٧٦)] .

١٤ - إسماعيل بن راشد السلمي .

ذكره ابن حبان في الثقات ، وقال أبو حاتم : مجهول . [٣٤/ ٦] .

١٥ - إسماعيل بن يزيد الأزدي .

لم نجد له ترجمة .

١٦ - أسود بن قيس العبدي الكوفي .

ثقة من الرابعة ، أخرج له الستة .

[تقريب (ت ٥١١)] .

١٧ - إياس بن زهير (أبو طلحة) .

عن علي ، وسويد بن هبيرة ، قال أبو حاتم : يعدّ في البصريين وسكت عنه

وذكره ابن حبان في الثقات .

[الجرح والتعديل (٢/ ٢٧٩ ت ١٠٠٤) ، الثقات (٤/ ٣٦)] .

١٨ - أشعث بن عبد الله بن جابر الحداني البصري .

صدوق من الخامسة .

[تقريب (ت ٥٣١)] .

(ب)

١٩ - بسر بن عبيد الله الحضرمي .

ثقة حافظ من الرابعة .

[تقريب (ت ٦٧٣)] .

٢٠ - بشر بن عيسى بن ميمون .

قال مغلطاي : يكنى أبا عمرو ذكره مسلم .

[إكمال التهذيب (ت ٧٤٣)] .

(ج)

٢١ - جارود بن أبي سبرة الهذلي .

صدوق من الثالثة . ت ١٢٠ هـ ، وذكره ابن حبان في الثقات وقال

الدارقطني : بصري ثقة .

[إكمال التهذيب (ت ٩٢٧) ، تقريب (ت ٨٨٩)] .

٢٢ - جبلة بن أبي رواد .

ذكره ابن حبان في الثقات ، وقال : روى عنه ابنه عثمان بن جبلة ، قتله

أبو مسلم بنيسابور سنة ١٣٢ هـ ، وترجم له البخاري وسكت عنه .
[الكبير (١/ ٢/ ٢١٩) ، الثقات (٦/ ١٤٧)].

٢٣ - جرير بن حازم الأزدي .

ثقة ولكن في روايته عن قتادة ضعف ولا يعبأ باختلاطه إذ لم يحدث بعد أن اختلط كما قال ابن مهدي ، وهو من السادسة .

[تقريب (ت ٩١٣) ، تهذيب الكمال (ت ٩١٣) وانظر كتابنا رجال تاريخ الطبري جرحاً وتعديلاً].

٢٤ - جرير بن يزيد بن جرير .

ذكره ابن حبان في الثقات ، وترجم له البخاري وابن أبي حاتم ، وسكتا عنه .
[الثقات (٦/ ٢٤٣) ، الكبير (١/ ٢/ ٢١٢) ، الجرح (١/ ١/ ٥٠٢)].

٢٥ - جعفر بن برقان الكلابي .

صدوق من السابعة ت ١٠٥ هـ ، يهتم في حديث الزهري وقد رأى المحرران [شعيب وبشار] أن لقب (ثقة) أولى به من صدوق ، قلنا: والذي يراجع ما كتبه مغلطي في الإكمال يترجح لديه أنه صدقه كما قال ابن حجر والله أعلم .

[إكمال تهذيب الكمال (ت ٩٨٣) ، تقريب (ت ٩٣٤) وانظر تحرير التقريب].

٢٦ - جعفر بن حذيفة الطائي .

قال أبو حاتم: مجهول . وقال الذهبي: لا يدرى من هو .
[ميزان الاعتدال (١/ ٤٠٥) ، الجرح والتعديل (٢/ ٤٧٦)].

٢٧ - جويرية بن أسماء الضبيعي .

صدوق من السابعة ت ١٧٣ هـ

[تقريب (ت ٩٩٠)].

(ح)

٢٨ - حاتم بن قبيصة البصري .

ترجم له ابن أبي حاتم وسكت عنه .

[الجرح والتعديل (٣/ ٢٦٠)].

- ٢٩- الحارث بن حصيرة الأزدي الكوفي .
 صدوق يخطيء ، ورمي بالرفض من السادسة وله ذكر في مقدمة مسلم .
 [تقريب التهذيب (ت ١٠٢١)] .
- ٣٠- الحارث بن محمد بن أبي أسامة .
 قال الدارقطني : صدوق ووثقه إبراهيم الحربي ، وقال ابن حجر كان حافظاً
 عارفاً بالحديث عالي الإسناد تكلم فيه بلا حجة .
 [لسان الميزان (٢/ت ٢٢٣٤) ، تاريخ بغداد (٨/ت ٤٣٣٢)] .
- ٣١- حبان بن علي العنزي (أبو علي الكوفي) .
 ضعيف من الثامنة .
 [تقريب / ت ١٠٧٩] .
- ٣٢- حبان بن موسى السلمي .
 ثقة من العاشرة خ م ت س .
 [تقريب ت ١٠٨٠] .
- ٣٣- حجاج بن قتيبة .
 لم نجد له ترجمة .
- ٣٤- حرملة بن عمران التجيبي .
 ثقة من السابعة .
 [تقريب / ت ١١٧٨] .
- ٣٥- الحسن بن أبي الحسن البصري .
 ثقة فقيه فاضل مشهور ، وكان يرسل كثيراً ويدلس أخرج له الستة .
 [تقريب (١/ت ١٢٣١)] .
- ٣٦- الحسن بن رشيد .
 من أهل مرو ، يروي عن إبراهيم الصائغ ، ذكره ابن حبان في الثقات أما الذي
 يروي عن ابن جريج وعنه نصر بن حاجب فقد قال أبو حاتم : مجهول ، وقال
 الحافظ : فيه لين والذي في تاريخ الطبري هو الأولى على الأغلب ، والله
 أعلم .
 [لسان الميزان (٢/ت ٩٢١)] ، الثقات (٨/١٧٠) ، الجرح والتعديل
 (٣/١٤)] .

٣٧ - الحسين بن مجاهد الرازي .

لم نجد له ترجمة .

٣٨ - الحسين بن نصر الأملي .

لم ندر من هو؟ والذي في كتب التراجم باسم الحسين بن نصر إنما هو المصري كما ترجم له ابن أبي حاتم وهو صدوق ، والله أعلم .

[الجرح والتعديل (١/ ٢/ ٦٦) وانظر رجال الطبري جرحاً وتعديلاً] .

٣٩ - الحكم بن عثمان .

لم نجد له ترجمة في كتب التراجم ، إلا أن القاضي أبو بكر الدينوري ، قال : حدثنا أحمد بن علي الخزار قال : سمعت أبي يقول : قال الحكم بن عثمان قال : أبو جعفر المنصور . . الخبر[.

(كتاب المجالسة (٢/ ٧٦/ ٢١٠) .

٤٠ - حماد بن سلمة البصري .

ثقة عابد أثبت الناس في ثابت تغير حفظه في آخره من كبار الثامنة .

[تقريب (ت ١٥٠٤) .

٤١ - حمزة بن إبراهيم (شيخ المدائن) .

لم نجد له ترجمة .

٤٢ - حميد بن مسلم الأزدي .

لم نجد له ترجمة ، والذي في كتب التراجم حميد بن مسلم القرشي (أبو عبد الله) ذكره ابن حبان في الثقات (٦/ ١٩٠) .

وانظر [الجرح (١/ ٢/ ٢٢٩) ، الكبير (١/ ٢/ ٣٥٥) .

٤٣ - حنبل بن أبي حريدة .

لم نجد له ترجمة .

٤٤ - حيان النبطي البلخي .

والد مقاتل ومصعب ، يروي عن الحكم بن عمرو الغفاري .

[المؤتلف والمختلف (١/ ١٣٨ ت ٢٤٦) .

(خ)

٤٥ - خارجة بن مصعب السرخسي .

قال ابن معين: عندنا مستقيم الحديث ، وقال مرة: ليس بثقة ، وقال أبو حاتم: مضطرب الحديث ليس بقوي يكتب حديثه ولا يحتج به ، وقال: لم يكن محله الكذب وذكره ابن حبان في الثقات (٣٣/٨) .
[لسان الميزان (٦/٤٣ ت ١٦٦) .]

٤٦ - خالد بن عبد العزيز .

لم نجد له ترجمة .

٤٧ - خالد بن القاسم المدائني .

متروك الحديث .

[ميزان الاعتدال (١/٦٣٧) .]

٤٨ - خالد بن يزيد بن عبد الله المقسري .

قال ابن عدي: وهو عندي ضعيف إلا أن أحاديثه إفرادات ومع ضعفه كان يكتب حديثه ، وقال أيضاً: وأحاديثه كلها لا يتابع عليها .
وقال أبو حاتم: ليس بالقوي ، وذكره ابن حبان في الثقات وسكت عنه الحافظ في التقریب ووافقه المحرران (بشار وشعيب) على سكوته .
قلنا: والأولى أن يقال: ضعيف يكتب حديثه كما قال ابن عدي .
[ميزان الاعتدال (ت ٢٤٧٩) ، الكامل (٨/٥٧٨) .]

٤٩ - خلاد بن يزيد الباهلي (الأرقط) .

صدوق جليل من التاسعة .

[تقريب (ت ١٧٧٩) .]

(د)

٥٠ - داود بن سليمان الجعفي .

الذي يروي عن عمر بن عبد العزيز ، ذكره ابن حبان في الثقات (٦/٢٨٩) .

(ر)

٥١ - روبة بن العجاج .

قال النسائي: ليس بالقوي ، وقال الحافظ: لين الحديث ، وذكره ابن الجوزي في الضعفاء ، وقال: قال يحيى: دع رؤية العجاج .
[الضعفاء لابن الجوزي (١/ ٢٧٧ ت ١١٩٧) ، العقيلي (٢/ ٦٤)].

(ز)

٥٢- زكريا بن أبي زائدة الهمداني .

ثقة وكان يدلس وسماعه من أبي إسحاق بأخرة أخرج له الستة .
[تقريب (ت ٢٠٣٣)].

٥٣- زكريا بن يحيى بن أيوب الضرير .

ترجم له الخطيب وذكر أسماء ثلاثة من الرواة الثقات عنه ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً .
[تاريخ بغداد (٨/ ٤٥٧ ت ٤٥٧١)].

٥٤- زهير بن حرب .

ثقة ثبت روى عنه مسلم أكثر من ألف حديث من العاشرة ت ٢٣٤ هـ .
[تقريب (ت ٢٠٥٣)].

٥٥- زهير بن الهنيد (أبو الذيال) العدوي .

قال ابن حجر ، مقبول ، فعقب المحرران بقولهما: بل صدوق حسن الحديث فقد روى عنه جمع وذكره ابن حبان في الثقات .
قلنا: والذي في المقتنى في سرد الكنى زهير بن هنيذة (ت ٢١٢٢) .
[تحرير التقريب (ت ٢٠٥٣) ، تقريب التهذيب (ت ٢٠٥٨)].

٥٦- زياد بن جبل ، ويقال: ابن جبل .

روى عنه هشام بن يوسف ومعر وغيرهما بشيخ مجهول كما قال أبو حاتم [الجرح والتعديل (٣/ ٥٢٧ ت ٢٣٨٠)].
ترجم له البخاري في التاريخ الكبير (٣/ ٣٤٧) .

وانظر المؤلف والمختلف (١/ ٥١٦) وذكره ابن حبان في الثقات (٤/ ٢٥٣) .

٥٧- زياد بن الربيع (شيخ المدائن) الهمداني البصري (أبو خدش) .

وثقه أبو داود وله في البخاري فرد حديث توفي ١٨٥ هـ .

[خلاصة تهذيب التهذيب للخزرجي . . .

- ووثقه أحمد وابن خلفون [إكمال تهذيب الكمال (ت ١٧١٨)].
 وانظر التقريب حيث قال الحافظ: ثقة من الثامنة [ت ٢٠٧٨] والله أعلم.
 ٥٨ - زياد بن عبد الله البكائي.
 صدوق ثبت في المغازي وفي حديثه من غير ابن إسحاق لين ولم يثبت أن
 وكيعاً كذبه ، وله في البخاري موضع واحد متابعة من الثامنة.
 [تقريب (ت ٢٠٩٦)].

(س)

- ٥٩ - سبرة بن يحيى.
 ذكره ابن حبان في الثقات (٤/ ٣٤١).
 ٦٠ - سعيد بن زيد الأزدي (أبو الحسن) البصري.
 صدوق له أوهام من السابعة. [تقريب (ت ٢٣١٩)].
 ٦١ - سعيد بن عبد العزيز التنوخي.
 ثقة إمام ، ولكنه اختلط في آخر أمره من السابعة. بن م ٤.
 [تقريب التهذيب (ت ٢٣٦٥)].
 ٦٢ - سعيد بن كيسان (ابن أبي سعيد) المقبري.
 ثقة من الثالثة أخرج له الستة.
 [تقريب (ت ٢٣٢٨)].
 ٦٣ - سفيان بن عيينة الهلالي.
 ثقة إمام ربما دلس عن الثقات ع.
 [التقريب (ت ٢٤٥٨)].
 ٦٤ - سكن بن قتادة العريني.
 عن الأحنف وعن مسلمة بن محارب.
 [توضيح المشتبه لابن ناصر الدين (٦/ ٢٤٨)].
 ٦٥ - سلم بن جنادة (أبو السائب) الكوفي.
 قال النسائي: صالح ، وقال أبو بكر البرقاني ثقة حجة لا يشك فيه يصلح
 للصحيح.
 وذكره ابن حبان في الثقات ، وقال الحافظ: ثقة ربما خالف من العاشرة.

[الثقات (٢٩٨/٨) ، تهذيب الكمال (١١/ت ٢٤٢٦) تقريب التهذيب (ت ٢٤٧١)].

٦٦- سلمة بن عثمان.

ترجم له ابن أبي حاتم دون جرح أو تعديل (١٦٧/٤).

٦٧- سليمان بن أرقم البصري.

ضعيف من السابعة [تقريب (ت ٢٥٤٧)].

٦٨- سليمان بن بلال التيمي.

ثقة من الثامنة. [تقريب (ت ٢٥٤٧) ع].

٦٩- سليمان بن أبي سليمان الشيباني.

قال أبو حاتم: أبو إسحاق سليمان بن فيروز الشيباني صدوق ثقة صالح الحديث ، ووثقه العجلي وابن معين ، والنسائي ، وكان من كبار أصحاب الشعبي ، [تهذيب الكمال (ت ٢٥٢٥) ، تاريخ الثقات (٢/٦١٢) ، الجرح والتعديل (٢/١٣٥)].

٧٠- سليمان بن صالح الليثي (أبو صالح المروزي) سلمويه.

ثقة من العاشرة مات قبل ٢١٠ هـ وقد بلغ المئة.

[تقريب (ت ٢٥٨٠)].

٧١- سليمان بن كثير.

الذي في كتب التراجم بهذا الاسم هو العبدى ترجم له ابن أبي حاتم فقال نقلاً عن أبيه: ضعيف يكتب حديثه ، وقال العجلي: جائر الحديث لأبأس به ، وقال العقيلي: هو في غير الزهري أثبت مضطرب الحديث عن ابن شهاب ، وذكره ابن خلفون في الثقات ، وقال ابن عدي: أحاديثه عندي مقدار ما يرويه لأبأس به وضعفه ابن معين ، وقال النسائي: ليس بالقوي إلا في الزهري ، وقال الذهبي: بعد سرده لأقوال العلماء فيه -: خرجوا له في الدواوين الستة مات سنة ١٣٦ هـ ورمز الذهبي أمام ترجمته بعلامة (صح).

والذي في تاريخ الطبري سليمان بن كثير العمي والله أعلم.

[إكمال تهذيب الكمال لمغلطاي (ت ٢٢١٦) ، الجرح والتعديل (٤/١٣٨/٦٣) ، ميزان الاعتدال (ت ٣٥٠٣)].

وقال مغلطاي: خرج الحاكم حديثه في مستدركه ، وأبو عوانة في صحيحه.

- ٧٢ - سليمان بن مسلم النخعي العجلي .
 من أهل الكوفة ذكره ابن حبان في الثقات ، وترجم له البخاري في الكبير روى عنه التبوذكي .
 [الكبير (٢/٢/٣٨) ، الثقات (٦/٣٩٣)] .
- ٧٣ - سليمان بن المغيرة القيسي البصري .
 ثقة ثقة قاله يحيى بن معين من السابعة توفي ١٦٥ هـ .
 [تقريب (ت ٢٦٢٧)] .
- ٧٤ - سويد بن عبد العزيز الدمشقي .
 ضعيف جداً من كبار التاسعة توفي ١٩٤ هـ .
 [تقريب (ت ٢٧٠٧)] .

(ش)

- ٧٥ - شعيب بن عمرو الأموي .
 ترجم له البخاري في الكبير (٢/٢/٢١٩) وابن أبي حاتم (٤/٣٥٠) وسكتا عنه وذكره ابن حبان في الثقات (٤/٣٥٦) .
- ٧٦ - شهاب بن شرنفة [شريعة] المجاشعي .
 المقرئ قال ابن ناصر الدين: بصري أدرك الحسن روى عنه ابن المبارك ، وذكره ابن حبان في الثقات ، وقال أبو حاتم: شيخ صدوق .
 [الجرح والتعديل (٤/٣٦٢) ، الثقات (٦/٤٤٣) ، توضيح المشتبه (٥/٣٢٢) ، المؤلف والمختلف (٣/١٤٢٠)] .

(ص)

- ٧٧ - الصقعب بن زهير الأزدي الكوفي .
 ثقة من السادسة [تقريب (ت ٢٩٦٢)] .

(ع)

- ٧٨ - عامر الشعبي (ابن سراحيل) .

ثقة مشهور فقيه فاضل من الثالثة ، قال مكحول : ما رأيت أفقه منه ، مات بعد المئة وله نحو من ثمانين .

[تقريب (ت ٣١٠٩) .]

٧٩- عامر بن حفص التميمي (أبو اليقظان) .

النسابة ، سحيم وهو عامر بن الأسود من شيوخ المدائن . وخليفة بن خياط : كان عالماً بالأخبار والأنساب والمآثر والمثالب .

ثقة فيما يرويه من الأخبار ، غير ثقة في الحديث . توفي ١٧٠ هـ .

[نزهة الألباب (١/ ٣٦٣ ت ١٤٧١) ، الفهرست لابن النديم (١٠٧) ، موضح أوهام الجمع والتفريق (٢/ ت ٢٤٣) .]

٨٠- عباد بن عبد الله الأسدي الكوفي .

قال البخاري : فيه نظر ، وقال ابن المديني : ضعيف الحديث ، وقال ابن حجر ضعيف من الثالثة .

[التهذيب (٥/ ٨٦ ت ١٦٥) ، التاريخ الكبير (٣/ ٢/ ٣٢ ت ١٥٩٤) ، تقريب (ت ٣١٤٧) .]

وأما عباد بن عبد الله بن الزبير ، فثقة من الثالثة [التقريب (ت ٣١٤٦) .]

٨١- عبد الأعلى بن مسهر الغساني .

ثقة فاضل من كبار العاشرة أخرج له الستة .

[تقريب (ت ٣٧٦٢) .]

٨٢- عبد الأعلى بن منصور .

لم نجد له ترجمة .

٨٣- عبد الأعلى بن ميمون بن مهران .

ذكره ابن حبان في الثقات سمع منه جعفر بن برقان أحاديث مراسيل وروى عنه عمرو بن الحارث .

[الجرح والتعديل (٦/ ت ١٣٦) ، الثقات (٧/ ١٢٩) .]

٨٤- عبد الرحمن بن أبان بن عثمان الأموي المدني .

ثقة عابد مقل من السادسة أخرج له الأربعة .

[تقريب (ت ٣٨١٦) .]

- ٨٥- عبد الرحمن بن جندب الأزدي .
ترجم له البخاري في الكبير (٢٦٨/١/٣) ، وذكره ابن حبان في الثقات ،
يروى عن محمد بن إسحاق (الثقات ٦٩/٧) .
- ٨٦- عبد الرحمن بن صبيح الأزدي .
ذكره ابن حبان في الثقات والذي عند الطبري (ابن صبيح) وهو تصحيف ،
والصحيح (ابن صبيح) .
[الجرح والتعديل (ت ١١٦٧) ، الثقات (٦/٦١٢)] .
- ٨٧- عبد الرحمن بن صالح الأزدي .
قال أبو داود: ألف كتاباً في مثالب الصحابة ، رجل سوء نزيل بغداد صدوق ،
يشيع ، من العاشرة توفي ٢٣٥ هـ .
[تقريب (ت ٣٩٢٣)] .
- ٨٨- عبد الرحمن بن عبد الله بن ذكوان .
صدوق تغير حفظه لما قدم بغداد من السابعة . خت فق ٤ .
[تقريب (ت ٣٨٧٥)] .
- ٨٩- عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي .
ثقة إمام من السابعة توفي ١٥٧ هـ أخرج له الستة .
[تقريب (ت ٣٩٨١)] .
- ٩٠- عبد العزيز بن خالد بن رستم الصنعاني .
سمع زياد بن جيل سمع منه إسحاق بن أبي إسرائيل ، ترجم له ابن أبي حاتم
دون جرح أو تعديل وكذلك البخاري وقال: حديثه في أهل اليمن . وذكره ابن
حبان في الثقات .
[الجرح والتعديل (٥/٣٨٠/ت ١٧٧٨) ، التاريخ الكبير (ت ١٥٢٥) ،
الثقات (٨/٣٩٤ ت ١٤٠٥١)] .
- ٩١- عبد القاهر بن سري .
قال ابن معين: صالح ، وقال مغلطاي: من ولد قيس بن الهيثم السلمي .
ذكره ابن خلفون في الثقات ، وابن شاهين في الثقات ، وقال يعقوب: كان
منكر الحديث .
[إكمال تهذيب الكمال (ت ٣٣٠٨) ، الجرح والتعديل (٦/٢٧ ت ٣٠٤)] .

٩٢- عبد الله بن أحمد بن شويه المروزي (من شيوخ الطبري).

ذكره ابن حبان في ثقافته وقال: مستقيم الحديث.

قلنا: وعند تتبعنا لرواياته عند ابن أبي حاتم وجدنا أكثر من ثلاثة من الرواة الثقات قد رووا عنه، وقال أبو حاتم في ترجمته: روى عنه علي بن الحسين بن الجنيّد حافظ حديث الزهري ومالك، وقال الخطيب البغدادي في ترجمته: من أئمة الحديث سمع أباه و... إلخ. وقال أيضاً: وكان رحل مع أبيه ولقي عدة من شيوخه وقدم بغداد وحدث بها فروى عنه من أهلها أبو بكر بن أبي الدنيا، وأبو يحيى بن زكريا بن يحيى الناقد، وأبو حامد محمد بن هارون الحضرمي، وذكر الخطيب بإسناده إلى يحيى بن محمد الصاعد أن عبد الله بن أحمد بن شويه حدثه سنة ٢٤٥ هـ. ونقل الخطيب عن أبي سعد الإدريسي أنه قال: عبد الله بن أحمد بن شويه المروزي من أفاضل الناس ممن له الرحلة في طلب العلم، توفي سنة ٢٧٥ هـ.

[تاريخ بغداد (٩/٣٧١/ت ٤٩٤٦)، الثقات (٨/٣٦٦)، الجرح والتعديل (٥/٦/ت ٢٧) والجرح (١/٩٦ - ٢٦٤ - ٣١٠).

وعلى ما يبدو فإن الأستاذ الفاضل خالد بن محمد الغيث فاته كلام الخطيب وابن حبان وإخراج ابن أبي حاتم لمروياته من طريقه في مناقب الإمام أحمد ولذلك اكتفى في كتابه القيم [مرويات خلافة معاوية] في ترجمة عبد الله هذا: أورده ابن حبان في ثقافته، ولذلك حكم على أسانيد الطبري في مسألة مبلغ الحسن مع معاوية رضي الله عنهما بأنها ضعيفة لأسباب سنذكرها في حينها بالإضافة إلى ما ذكرناه في عبد الله هذا.

وهذا لا ينقص من قيمة كتابه [مرويات خلافة معاوية] بل يحتوي على أبحاث نفيسة سنذكرها في حينها إن شاء الله وسبحان من لا ينسى ولا يسهو.

٩٣- عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري المدني.

أخرج له الستة، وروى عن أنس بن مالك من الصحابة وقال النسائي: ثقة ثبت، وقال ابن سعد: كان ثقة كثير الحديث عالماً، توفي سنة خمس وثلاثين ووثقه ابن معين وأبو حاتم، وقال أحمد: حديثه شفاء [الجرح والتعديل (٢/١٧)، تهذيب الكمال (١/٣٥١) ت ٣٢٩٠ الطبقات الكبرى (٩/٢٠٦)].

٩٤ - عبد الله بن شوذب الخراساني .

صدوق عابد من السابعة .

[تقريب (ت ٣٤٠٨)] .

٩٥ - عبد الله بن صالح بن محمد الجهني (أبو صالح المصري) .

كاتب الليث ، صدوق كثير الغلط ثبت في كتابه وكانت فيه غفلة من العاشرة

[تقريب (ت ٣٤٠٩)] .

وعقب المحرران (بشار وشعيب) بقولهما: بل صدوق في حفظه شيء ، حسن

الحديث في المتابعات [تحذير (ت ٣٣٨٨)] .

قلنا: وقال الذهبي في الميزان: هو صاحب حديث وعلم وله مناكير .

[ميزان الاعتدال (ت ٤٣٨٢)] .

وقد ذكر الحافظ مغلطاي أقوال العلماء فيه [إكمال (ت ٢٩٩٠)] ومن قبله

شيخه المزي .

وقال ابن عدي: وهو عندي مستقيم الحديث إلا أنه يقع في حديثه في أسانيده

ومتونة غلط ولا يعتمد الكذب ، وقد روى عنه يحيى بن معين كما ذكرت

[الكامل (١٥/٥٨)] .

٩٦ - عبد الله بن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر .

لم نجد له ترجمة .

٩٧ - عبد الله بن عطية (الكوفي) .

ذكره ابن حبان في الثقات وسكت عنه أبو حاتم ، وقال الحافظ في التقريب:

مقبول من الخامسة (ت ٣٤٨٠) .

[الجرح والتعديل (٥/٦١٢) ، الكبير (٣/١٦٣) ، الثقات (٧/٣٥)] .

وفرق البخاري بين عبد الله بن عطية الكوفي ، وعبد الله بن عطية الخطاب ،

والذي ذكره ابن حبان في الثقات هو عبد الله بن عطية بن الخطاب وفي لسان

الميزان عبد الله بن عطية العوفي لا يتابع على حديثه وأخوهما (أي أخو

عبد الله والحسن) يقاربهما في الضعف .

[لسان الميزان (٣/٣١٧ ت - ١٣٠٦)] .

قلنا: والعجب من الحافظ ابن حجر إذ نقل كلام ابن عدي مبتوراً ولم يكمله

وتمام كلام ابن عدي: وهذه الأسماء التي يذكرها البخاري ليس قصده فيه أنه

يضعف هذه الأسامي التي يذكرها وإنما قصده فيه أن يذكر كل من اسمه عبد الله ممن روى المسند أو روى عن التابعين أو عن الصحابة أو روى الحرف أو الحرفين فيعزّ وجود روايات هؤلاء.

[الكامل في ضعفاء الرجال (٤/٢٣٢ ت ١٠٥٤)].

٩٨ - عبد الله بن عون بن أرطبان.

ثقة ثبت فاضل من السادسة ع.

[التقريب (ت ٣٥٣٠)].

٩٩ - عبد الملك بن شيان بن عبد الملك.

لم نجد له ترجمة.

١٠٠ - عبد الملك بن عمير اللخمي.

ثقة من الرابعة تغير حفظه وربما دلّس أخرج له الستة [التقريب (٤٢١٤)].

١٠١ - عبد الملك بن قُريب (الأصمعي).

صدوق سني من التاسعة توفي ٢١٦ هـ وقد قارب التسعين في عهد المأمون وهو نحوي أخباري عاصر الرشيد ، وقال الذهبي في ترجمته: الإمام الحافظ العلامة حجة الأدب لسان العرب أبو سعيد عبد الملك بن قريب.

[سير أعلام النبلاء (١٠/١٧٥ ت ٣٢) [تقريب (٤٢١٩)].

١٠٢ - عبد الملك بن نوفل العامري.

ذكره ابن حبان في الثقات ، وقال الحافظ: مقبول من الثالثة. [تقريب (ت ٤٢٢٦)].

روى عنه ابن عيينة. [الثقات (٧/١٠٧)].

١٠٣ - عبيد الله بن الحر الجعفي.

ترجم له ابن أبي حاتم وسكت عنه وذكره ابن حبان في الثقات ، روى عنه سليمان ابن يسار وعمر بن حبيب.

[الثقات (٥/٦٦) ، الجرح والتعديل (٥/٣١١ ت ١٤٧٩)].

١٠٤ - عثمان بن عبد الرحمن الحراني الطرائفي المؤدب.

روى عنه أبو كريب ، وأحمد بن سليمان الرهاوي وأبو شعيب السوس ، وثق

[الكاشف (٢/١٠ ت ٣٧١٨)].

١٠٥ - عروة بن الزبير .

ثقة فقيه مشهور من الثالثة توفي ٩٤ هـ . ع .

[تقريب (ت ٤٥٧٧)] .

١٠٦ - عفان بن مسلم .

قال أبو حاتم ، ثقة متقن متين . وقال الذهبي : الحافظ الثبت . وقال ابن حجر : ثقة ثبت .

[تقريب (ت ٤٦٤١) ، ميزان (ت ٥٦٧٨) ، الجرح والتعديل (٣/ ٢/ ٣٠)] .

١٠٧ - علي بن رباح اللخمي .

ثقة من كبار الثالثة أخرج له مسلم والأربعة .

[تقريب (ت ٤٧٣٢)] .

١٠٨ - علي بن مجاهد الكابلي .

كذاب متروك من التاسعة .

[تقريب (ت ٤٧٩٠) ، الجرح والتعديل (٦/ ٢٠٥)] .

١٠٩ - علي بن محمد المدائني (أبو الحسن) الأخباري [١٣٢ - ٢٢٥ هـ] .

قال الطبري : كان عالماً بأيام الناس صدوقاً في ذلك ، وقال ابن معين : ثقة ثقة ثقة . وقال الذهبي : العلامة الحافظ الصادق الأخباري . وقال أيضاً : صدوق .

[سير أعلام النبلاء (١٠/ ٤٠١) ، ميزان الاعتدال (٣/ ١٥٣) ، تاريخ بغداد (١٢/ ٥٥)] .

١١٠ - عمر بن بشير الهمداني [أبو هانيء] .

ضعفه يحيى وقال ابن عمار : ضعيف ، وذكره ابن الجوزي في الضعفاء (ت ٢٤٤١) .

[لسان الميزان (٤/ ٢٨٧/ ٨٢٠)] .

وقال أبو حاتم : ليس بالقوي يكتب حديثه وجابر الجعفي أحب إلي منه .

[الجرح والتعديل (٦/ ١٠٠/ ٥١٨)] .

قلنا : والغريب أن الأستاذ الفاضل خالد الغيث اكتفى بقوله : أورده ابن حبان في الثقات [مرويات خلافة معاوية (٥٨/ ٨٠)] ولم يذكر تضعيف الأئمة له ولو ذكره لكان ذلك أقوى حجة له عندما ناقش مسألة استلحاق معاوية نسب زياد بن سمية بأبيه فالأستاذ لم يعلق على سند رواية الطبري هناك .

أحمد بن زهير قال: حدثنا عبد الرحمن بن صالح قال: ثنا عمرو بن هشام عن عمر بن بشير الهمداني عن أبي إسحاق أن زياداً... الخبر [تاريخ الطبري (٢١٥/٥)].

ولكنه قال في صفحة ٣٧٦: أما اتهام معاوية رضي الله عنه باستلحاق نسب زياد فإني لم أقف على رواية صحيحة صريحة العبارة تؤكد ذلك [مرويات خلافة معاوية (ص ٣٧٦)] ، وهذا فصل قيم من كتاب الأستاذ غيث ولكن لو ذكر تضعيف الأئمة لعمر بن بشير الهمداني لكان أفضل وأولى في الحجة والله أعلم.

أضف إلى ذلك فإن في الإسناد عبد الرحمن بن صالح الأزدي الرافضي الذي عرف بوضعه روايات في مثالب الصحابة رضي الله عنهم وهذا ما ذكره الأستاذ غيث في المقدمة في فصل التراجم.

إضافة إلى عمرو بن هاشم وهولين الحديث (كما ذكر الغيث أيضاً).
ورحم الله الحافظ ابن عدي فكم كان دقيقاً إذ قال في ترجمة عمرو بن هاشم هذا: وإذا حدث عن ضعيف كأن يكون فيه بعض الإنكار وهذا يعني أن هذا الإسناد مسلسل بالضعفاء.

ولو ذكر الأستاذ غيث ذلك لكان أقوى في حجته وجزاه الله خيراً.

١١١- عمر بن شبه النميري [أبو زيد]: الأخباري النحوي.
نزيل بغداد صدوق له تصانيف من كبار الحادية عشرة. توفي سنة ٢٦٢ هـ.
وقد جاوز التسعين [تقريب/ت ٤٩١٨] وقال ابن حبان: مستقيم الحديث وكان صاحب أدب وشعر وأخبار ومعرفة بتاريخ الناس [الثقات (٨/٤٤٦)].
١١٢- عمر بن صالح الأزدي (أبو حفص) البصري.

يروى عن أبي حمزة قال النسائي: متروك الحديث ، وقال البخاري: منكر الحديث [الضعفاء والمتروكين للنسائي (١/٨٣ ت ٤٦٥)] ميزان الاعتدال [(٥/٢٤٨ ت ٦١٤٩)].

١١٣- عمر بن قيس بن الماصر الكوفي.
وثقه أبو حاتم وجماعة كما قال الذهبي روى عنه زائدة وابن عون وغيرهما.
وقال ابن حجر: صدوق ربما وهم ورمي بالإرجاء من السادسة.
[تقريب (ت ٤٩٥٨) ، ميزان الاعتدال (٦١٩٥)].

١١٤ عمرو بن هاشم الكوفي (أبو مالك).

لين الحديث أفرط فيه ابن حبان ، قال ابن حجر : وقال ابن عدي : إذا حدث عن ثقة فهو صالح الحديث ، وإذا حدث عن ضعيف كان يكون فيه بعض الإنكار وهو صدوق إن شاء الله .

قلنا : وهو في تاريخ الطبري يروي عن عمر بن بشير الهمداني (ضعيف) .
[تقريب التهذيب (ت ٥١٢٦) ، الكامل (ت ١٣٠٥)] .

١١٥ حوالة بن الحكم الأخباري .

الضرير أحد الفقهاء له كتاب في التاريخ ، وكتاب سير معاوية وبني أمية وغير ذلك ، وكان صدوقاً في نقله [سير أعلام النبلاء (٧/٢٠١/ت ٧٨)] .
وقال ابن حجر : الأخباري المشهور الكوفي ، وقال أيضاً : وهو كثير الرواية عن التابعين وأكثر المدائني عنه ، توفي سنة ١٤٧ هـ أو ١٥٧ هـ .

وقال ابن النديم من علماء الكوفيين راوية للأخبار عالم بالشعر والنسب .
[الفهرست (ص ١٠٣) ، لسان الميزان (٤/٣٨٦/ت ١١٦٧)] .

قلنا : ولقد عدّه شاعر مصطفى (الأستاذ) في كتابه التاريخ العربي والمؤرخون (١٢٦/١) من العلماء الذين شكلوا نواة مدرسة الشام التاريخية من جيل الأوزاعي وغيره .

وقال شاعر : ونحن ندين لحوالة هذا بتسمية علم التاريخ فهو صاحب أول كتاب تاريخي يحمل اسم [كتاب التاريخ] في الإسلام . [التاريخ العربي (١/١٢٨)] .

١١٦ حوف بن أبي جميلة الأعرابي البصري .

ثقة رمي بالقدر وبالتشيع من السادسة توفي سنة ست أو سبع وأربعين وله ست وثمانون أخرج له الستة .
[تقريب/ (ت ٥٢١٥)] .

١١٧ حميس بن عاصم الأسدي الكوفي .

ثقة من السادسة . [تقريب (ت ٥٣٠٢)] .

١١٨ حياش بن عبد الله الهمداني .

عن عمرو بن سلمة ما روى عنه سوى ولده عبد الله المسوف الأخباري الذي عاصر المنصور.

[لسان الميزان (ت ١١٨٤) ، الجرح والتعديل (٧/ ٥/ ٢١)].

(غ)

١١٩ - غالب بن خطاف القطان.

وثقه النسائي وابن معين وابن حبان ، وقال أبو حاتم: صدوق صالح ، وقال ابن حجر: صدوق من السادسة.

[الكاشف (٢/ ٣٢١) ، التقريب (ت ٥٣٦٣)].

١٢٠ - غالب بن سليمان العتكي (أبو صالح) الخراساني.

أصله من البصرة ثقة من السابعة [تقريب (ت ٥٣٤٧)].

١٢١ - غسان بن مضر الأزدي (أبو مضر) البصري.

ثقة من الثامنة توفي ١٨٤ هـ.

[ميزان الاعتدال (ت ٦٦٦٥) ، تحرير التقريب (ت ٥٣٦٠)].

١٢٢ - غيلان بن محمد.

شيخ معمر بن المثنى كما عند الطبري وهو كذلك عند البخاري إذ قال:

حدثني يحيى بن محمد بن أعين حدثني أبو عبيدة معمر بن المثنى ثنا

غيلان بن محمد اليافعي عن عبد الرحمن بن جوش.

[التاريخ الصغير (١/ ٩٣/ ت ٣٧٦)].

(ف)

١٢٣ - الفضل بن سويد.

قال أبو حاتم: ليس بالمشهور ولا أرى بحديثه بأساً وذكره ابن حبان في

الثقات وقال الحافظ: مقبول. وقال في اللسان: قواه أبو حاتم وقال: ليس

بالمشهور ولا أرى بحديثه بأساً.

قلنا: ولو قال الحافظ لابأس به لكان أقرب في حق الفضل بن سويد هذا والله

أعلم.

[اللسان (ت ٤٣٦٩) ، تقريب (ت ٥٤٠٤) ، الجرح والتعديل (٣٠٦/٧) ،
الثقات (٣١٨/٧)].

١٢٤ - الفضل بن عطية بن عمرو المروزي .

صدوق ربما وهم من السادسة .

[التقريب (ت ٥٤٠٩)].

١٢٥ - فضيل بن خديج .

روى عنه أبو مخنف ، وقال أبو حاتم : جهول روى عنه رجل متروك الحديث .

[الجرح والتعديل (٧٢/٧)].

١٢٦ - فليح بن سليمان الأسلمي الخزاعي (أبو يحيى) المدني .

ويقال : فليح لقب واسمه عبد الملك ، صدوق كثير الخطأ من السابعة أخرج

له الستة . وقال ابن عدي : يروي عن سائر الشيوخ من أهل المدينة مثل

أبي النصر وغيره ، أحاديثه مستقيمة وغرائب وقد اعتمده البخاري في صحيحه

وروى عنه الكثير وقد روى عنه زيد بن أبي أنيسة وهو عندي لا بأس به .

[الكامل في الضعفاء (ت ١٥٧٥)].

١٢٧ - فيل مولى زياد بن أبيه .

ترجم له ابن أبي حاتم وذكر عنه راويين (حماد بن زيد ومحمد بن الزبير) .

[الجرح والتعديل (٧٢/٧) (٥٠٩)].

(ق)

١٢٨ - قبيصة بن جابر الأسدي (أبو العلاء) الكوفي .

ثقة من الثانية مخضرم توفي سنة ٦٩ هـ .

[تقريب / (ت ٥٥١٠)].

(ك)

١٢٩ - كثير بن زياد البرساني (أبو سهل) بصري .

نزل بلغ ثقة من السادسة .

[التقريب / (ت ٥٦١٠)].

(ل)

١٣٠ - لبطة بن الفرزدق (أبو غالب المجاشعي).

ذكره ابن حبان في الثقات وقال: روى عنه سفيان بن عيينة والقاسم بن الفضل وقال الحافظ في اللسان في ترجمة أبيه الفرزدق -: ذكر ابن حبان في الثقات ابنه لبطة بن الفرزدق فقال: يروي عن أبيه وترجم له البخاري وسكت عنه [التاريخ الكبير (٢٥١/١/٤) ت ١٠٧٠] ، الثقات (٣٦١/٧) ، لسان الميزان (ت ١٣٢٣).

(م)

١٣١ - مبارك بن فضالة. (خت د ت ق).

صدوق يدلّس ويسوي من السادسة توفي سنة ١٦٦ هـ. ذكره ابن حبان في الثقات وقال: روى عنه ابن المبارك ووكيع وكان يخطيء. [تقريب (ت ٦٤٦٤) ، الثقات (٥٠٢/٧)].

١٣٢ - مجالد بن سعيد الهمداني (أبو عمرو) الكوفي.

ليس بالقوي وقد تغير في آخر عمره روى له مسلم مقروناً بغيره ، وقال في اللسان: ضعفه ابن معين ، وقال النسائي: ليس بالقوي وقال مرة: ثقة ، توفي ١٤٤ هـ أخرج له الأربعة وقال الذهبي: مشهور صاحب حديث على لين فيه ، وقال: الهيثمي في المجمع: تكلم فيه ووثق. [لسان الميزان (ت ٥٢٨٦) ، تحرير التقريب (ت ٦٤٧٨) ، ميزان الاعتدال (ت ٧٠٧٥)].

١٣٣ - محارب الزيايدي (أبو مسلمة بن محارب).

ترجم له ابن أبي حاتم وقال: روى عن معاوية ، روى عنه ابن مسلمة وسكت عنه ، وذكره ابن حبان في الثقات (٤٥٢/٥) [الجرح والتعديل (٤/١٩٠٠)].

١٣٤ - محل بن خليفة الكوفي.

ثقة من الرابعة أخرج له البخاري والنسائي وغيرهما. [تقريب (ت ٦٥٠٨)].

١٣٥ - محمد بن أبان الطحان الواسطي .

صدوق تكلم فيه من العاشرة ، أخرج له البخاري توفي ٢٣٨ هـ وقال أبو حاتم : ليس هو بقوي الحديث يكتب حديثه وضعفه ابن معين ، وقال الذهبي : محدث شهير ، وقال الأزدي : ليس بذاك ، وقال ابن حبان في الثقات : ربما أخطأ وكان أسند من بقي بواسط ، روى عنه أبو يعلى الموصلي والباغندي .

[ميزان الاعتدال (ت ٧١٣٣) ، تقريب التهذيب (ت ٥٦٨٨) ، من روى عنهم البخاري في الصحيح (٢٠٧) ، الثقات (٨٧/٩)] .

١٣٦ - محمد بن إبراهيم بن أبي عدي .

وثقه النسائي وابن سعد وأبو حاتم وابن حبان وروى له الجماعة .
[الجرح والتعديل (٣/١٨٦) ، تهذيب الكمال (ت ٥٦٢٩) ، الثقات (٧/٤٤٠)] .

١٣٧ - محمد بن إسحاق بن يسار .

إمام في المغازي نزيل العراق صدوق يدلّس ورمي بالتشيع والقدر من صغار الخامسة مات سنة ١٥٠ هـ . م ٤ . هذا قول الحافظ ابن حجر .
وخلاصة القول فيه : أنه حسن الحديث إذا صرح بالتحديث ولم يعنعن والله أعلم .

[تقريب التهذيب (٥٧٤٣)] .

١٣٨ - محمد بن حفص التميمي .

ترجم له ابن أبي حاتم ، وسكت عنه ، وذكره ابن حبان في الثقات (٩/٦٢) .
[الجرح والتعديل (٧/٢٣٦) ت (١٢٩٦)] .

١٣٩ - محمد بن حميد الرازي .

شيخ الطبري في التاريخ والتفسير ، وثقه أحمد وابن معين وأبو زرعة في رواية منه ، وقال أحمد : أما حديثه عن المبارك وجريير فهو صحيح ، وأما حديثه عن أهل الري فهو أعلم . . وضعفه جمهور المحدثين كالبخاري والنسائي ويعقوب بن شيبة وقال : كثير المناكير واتهمه النسائي وغيره بالكذب ، وقال الترمذي : كان محمد (أي : البخاري) حسن الرأي فيه ثم ضعفه بعد .
وقال ابن حجر في التقريب : حافظ ضعيف .

[التاريخ الكبير (١٦٧/١) ، الجرح والتعديل (٧/ت ١٢٧٥) ، تهذيب الكمال (٢٥/ت ٦١٦٧) تحرير التقريب (٣/ت ٥٨٣٤) .

١٤٠ - محمد بن الزبير الحنظلي البصري .

متروك من السادسة . [التقريب/ ت ٥٨٨٥] .

١٤١ - محمد بن السائب بن أبي النضر الكوفي الكلبي .

النسابة ، المفسر متهم بالكذب ، ورمي بالرفض من السادسة توفي ١٤٦ هـ . [التقريب (ت ٥٩١)] .

١٤٢ - محمد بن سعد بن رفيع .

نزيل بغداد كاتب الواقدي . قال الخطيب : البغدادي ومحمد بن سعد عندنا من أهل العدالة وحديثه يدل على صدقه فإنه يتحرى في كثير رواياته ، وقال ابن أبي حاتم : سألت أبي عنه فقال : يصدق ، وقال ابن حجر : صدوق فاضل من العاشرة توفي ٢٣٠ هـ وهو ابن اثنتين وستين .

[التقريب (ت ٥٩٠٣) ، تاريخ بغداد (٥/٣٢١) ، الجرح والتعديل (٣/٢/٢٦٢)] .

١٤٣ - محمد بن سلام الجمحي .

شيخ ابن شبة ، من أئمة الأدب ، قال صالح بن جرزة : صدوق ، وقال أبو خيثمة : لا يكتب عنه الحديث إنما يكتب عنه الشعر ، توفي ٢٣١ هـ . [لسان الميزان / ت ٧٤٧٩] .

١٤٤ - محمد بن سليم أبو هلال العبدي البصري .

النازل في راسب ، وثقه أبو داود ، وقال أبو حاتم : محله الصدق ، ليس بذلك المتين ، وقال النسائي : ليس بالقوي ، وقال ابن معين : صدوق يرمى بالقدر ، وقال ابن حبان : والذي أميل إليه في أبي هلال الراسبي : ترك ما انفرد به من الأخبار التي خالف فيها الثقات والاحتجاج بما وافق الثقات وقبول ما انفرد من الروايات التي لم يخالف فيها الأثبات التي ليس فيها مناكير .

وقال الحافظ في التقريب : صدوق فيه لين من السادسة .

قلنا : والقول ما قاله ابن حبان فيه والله أعلم .

[تقريب التهذيب (ت ٥٩٢٣) ، الكامل (٦/ت ١٦٨٥) ، المجروحين (٢/٢٨٣) ، الميزان (ت ٧٦٥٢)] .

١٤٥ - محمد بن طلحة بن مصرف .

ذكره ابن حبان في الثقات ، وقال : كان يخطىء ، توفي ١٧٦ هـ .
[الثقات (٣٨٨/٧)] .

١٤٦ - محمد بن عبد الرحمن بن مغيرة بن أبي ذئب القرشي .
ثقة فقيه فاضل من السابعة توفي ١٥٨ هـ . أخرج له الستة .
[التقريب (ت ٦٠٨٢)] .

١٤٧ - محمد بن عمر الواقدي .

قاضي بغداد ، توفي سنة ٢٠٧ هـ . قال البخاري : سكتوا عنه تركه أحمد وابن نمير وقال أحمد : هو كذاب ، وقال ابن عدي : ومتون أخبار الواقدي غير محفوظة .

وقال النسائي : متروك الحديث . وقال ابن حجر : متروك مع سعة علمه .
[التقريب (ت ٦١٧٥) ، الكبير (١/١/١٧٨) ، الكامل (٦/٢٤١/١٧١٩) ،
تهذيب الكمال (٢٦/ت ٦١٠١) ، الضعفاء والمتروكين (٢١٧/ت ٥٥٧)] .

١٤٨ - محمد بن أبي عيينة .

ذكره ابن حبان في الثقات وقال كان شاعراً هجاءً يروي الحكايات ، ليس من أهل العلم الذي يرجع إلى روايته .
وترجم له ابن أبي حاتم وسكت عنه .
[الثقات (٧/٤١٨) ، الجرح والتعديل (٨/ت ٩٤)] .

١٤٩ - محمد بن الفضل بن عطية العبدي .

نزيل بخاري كذبوه حتى الثامنة توفي ١٨٠ هـ . أخرج له الترمذي وابن ماجه .
[التقريب (ت ٦٢٢٥)] .

١٥٠ - محمد بن المشني أبو موسى .

أخرج له الستة . توفي سنة ٢٥٢ هـ ، وثقه ابن معين ، وقال الذهلي : حجة .
وقال أبو عروبة الحراني : ما رأيت بالبصرة أثبت من أبي موسى ويحيى بن حكيم ، وقال الخطيب : كان ثقة ثبناً احتج سائر الأئمة بحديثه .
[تهذيب الكمال (٢٦/ت ٦١٧٩) ، الجرح والتعديل (٤/٩٥) ، تاريخ بغداد (٣/٢٨٦)] .

- ١٥١ - محمد بن مخنف .
 عن علي رضي الله عنه ، مجهول .
 [لسان الميزان (ت ١٢٢٠)] .
- ١٥٢ - محمد بن مسلم بن شهاب الزهري .
 الحافظ متفق على جلالته وإتقانه وهو من رؤوس الطبقة الرابعة توفي
 ١٢٥ هـ ، وقيل قبل ذلك . أخرج له الستة . [التقريب (ت ٦٢٩٦)] .
- قلنا : ولقد دخل الزهري على الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بعد وفاة
 الخليفة عبد الله بن الزبير ، وعاصر عبد الملك ومن بعده وأشار عليهم
 ونصحهم ، وآخر من جاور من الخلفاء أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك ذلك
 الخليفة الحازم رحمه الله تعالى .
- ١٥٣ - محمد بن يحيى (أبو غسان) المدني الكنعاني .
 ثقة . لم يصب السليمان في تضعيفه من العاشرة خ .
 [التقريب / (ت ٦٣٩٠)] .
- ١٥٤ - مخلد بن الحسين المهلب الأزد .
 ثقة من كبار التاسعة توفي سنة ٢٩١ هـ .
 [التقريب (ت ٦٥٣٠)] .
- ١٥٥ - مزاحم بن زفر بن الحارث .
 الذي قاتل مع قتيبة فيما وراء النهر ، وثقه ابن معين ، وقال ابن حبان : كان من
 خير الرجال كان غازياً مع قتيبة بن مسلم .
 [الثقات (٧/ ٥١١) ، الجرح والتعديل (٨/ ٤٠٥)] .
- ١٥٦ - مسلم بن عبد الرحمن الجرمي .
 ترجم له ابن أبي حاتم وسكت عنه .
 [الجرح والتعديل (٨/ ١٨٨)] .
- ١٥٧ - مسلم العجلي .
 له ترجمة في التاريخ الكبير (٤/ ١/ ٢٦٩) ، وذكره ابن حبان في الثقات
 (٥/ ٣٩٨) .
- ١٥٨ - مسلمة بن محارب الزياتي .
 شيخ المدائن الذي أكثر عنه في تاريخ الخلافة أيام بني أمية ، وترجم له ابن

أبي حاتم وسكت عنه ، وذكره ابن حبان في الثقات .

[الجرح والتعديل (٢٦٦/٨) ، الثقات (٤٩٠/٧)] .

قلت (البرزنجي) : وكان يحزُّ في نفسي أن أرى كثيراً من روايات الطبري وغيره من طريق المدائني عن مسلمة بن محارب هذا ولم أجد من يزكيه فيما بين أيدينا من المصادر ، وحتى الدراسات الجامعية في التاريخ الإسلامي اكتفى أصحابها بقولهم : [ذكره ابن حبان في الثقات] ، حتى فتح الله عليّ في ليلة من ليالي القدر المبارك وأنا أقرأ كلاماً للحافظ الذهبي وهو يتحدث عن أخباري غير ثقة فنقل أثناء ترجمته كلاماً أظنه للحافظ المزي رحمه الله فيه توثيق لروايات مسلمة بن محارب في التاريخ إذ قال الذهبي :

غمزهم الحافظ ثم قال : من أراد الأخبار فليأخذها من مثل قتادة وأبي عمرو بن العلاء - ثم سرد أسماءهم إلى أن قال - : وأبي عبيدة ، ومسلمة بن المحارب ، وخلاد بن زيد . إلخ فإنهم مأمونون .
[ميزان الاعتدال (ت ٦٩٨٨)] .

وهذا الكلام والتوثيق بالنسبة لنا يعدل ذهباً وجزى الله الذهبي عنا خير الجزاء .

١٥٩ - مصعب بن حيان النبطي (أخو مقاتل) البلخي .

ذكره ابن حبان في الثقات ، وقال الحافظ : لين الحديث ، وقال في تهذيب التهذيب : صدوق فاضل أخطأ الأزدي في زعمه أن وكيعاً كذبه وإنما كذب الذي بعده . [تهذيب التهذيب (١٠/١٤٥) ت ٣٠٥] ، التقريب (ت ٦٦٨٧) ، الثقات (٤٧٩/٧)] .

١٦٠ - معاوية بن قرة .

ثقة أخرج له الستة .

[تهذيب الكمال (ت ٦٦٥٧)] .

١٦١ - معبد بن خالد الجدلي .

ثقة عابد من الثالثة توفي سنة ١١٣ هـ .

[التقريب (ت ٦٧٧٤)] .

١٦٢ - معمر بن راشد البصري الأزدي أبو عروة .

نزيل اليمن ثقة ثبت فاضل من كبار السابعة توفي ١٥٤ هـ . ع .

[التقريب (ت ٦٨٠٩)] .

- ١٦٣ - المفضل بن فضالة بن عبيد بن ثمامة القتباني (أبو معاوية).
القاضي المصري. ثقة فاضل أخطأ ابن سعد في تضعيفه من الثامنة توفي
١٨١ هـ. ع.
[التقريب (ت ٦٨٥٨)].
- ١٦٤ - المفضل بن محمد الضبي.
قال أبو حاتم: متروك الحديث والقراءة ، وقال الخطيب: كان أخبارياً كلامه
موثقاً.
[لسان الميزان (٦/ ٨١)].
- ١٦٥ - المفضل بن مهلب الضبي.
تابعي ذكره ابن حبان في الثقات.
[٥/ ٤٣٦ / ت ٥٥٨٥] [لسان الميزان (ت ٨٥٩٧)].
- ١٦٦ - مقاتل بن حيان النبطي.
ضعفه ابن خزيمة ، وقال النسائي: ليس به بأس ، وقال الدارقطني: صالح
الحديث ووثقه أبو داود وابن معين. وقال ابن حجر: صدوق فاضل.
[ميزان الاعتدال (ت ٨٧٤٥) ، إكمال تهذيب الكمال (ت ٤٧٢٢)].
- ١٦٧ - موسى بن عبد الرحمن بن سعيد المسروفي (أبو عيسى) الكوفي.
ثقة من كبار الحادية عشرة. توفي ٢٥٨ هـ.
[التقريب (ت ٦٩٨٧)].
- ١٦٨ - ميمون بن مهران الجزري (أبو أيوب) الكوفي.
نزل الرقة ، ثقة فقيه من الرابعة ، توفي ١١٧ هـ وكان يرسل: [التقريب
(ت ٧٠٩٨)].

(ن)

- ١٦٩ - النضر بن صالح بن حبيب العبسي (أبو زهير).
يروى عن سنان بن مالك ، روى عنه أبو مخنف ، قال أبو حاتم: النضر
وسنان مجهولان.
[الجرح والتعديل (٨/ ٤٧٧)].

١٧٠ - نوح بن قيس بن رباح الأزدي (أبو روح).

صدوق رمي بالتشيع من الثامنة.

[التقريب (ت ٧٢٥٨)].

(هـ)

١٧١ - هارون بن عيسى.

لم يبين الطبري كنيته ولا نسبه ولا لقبه.

والذي في كتب التراجم بهذا الاسم اثنان:

أ - هارون بن عيسى الهاشمي الذي قال فيه الدارقطني: ليس بالقوي. [لسان الميزان (ت ٨٩٤٢)].

ب - والآخر هارون بن عيسى بن هليل له عند الطبراني حديث واحد [المعجم الصغير للطبراني (ح ١٢٢٥)].

[توضيح المشتبه (٨/ ٢٦٦)].

١٧٢ - هشام بن حسان الأزدي (أبو عبد الله البصري).

قال ابن المديني: كان يحيى وكبار أصحابنا يشبتون هشام بن حسان، وكان يحيى يضعف حديثه عن عطاء، وثقه ابن سعد وابن معين. وقال مرة أخرى: لا بأس به، وقال الذهبي: هشام بن قفز القنطرة واستقر توثيقه، واحتج به أصحاب الصحاح. وله أوهام في بحر ما روى.

[سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٦٢)، تهذيب الكمال (٣٠/ ٩٠ ت ٧١٧٢)].

١٧٣ - هشام بن سعد المدني (أبو عباد).

صدوق له أوهام ورمي بالتشيع، من كبار السابعة.

وقال مغلطاي: ذكره العقيلي وأبو العرب وابن الجارود وابن السكن والفسوي وأبو بشر الدولابي في جملة الضعفاء.

وقال ابن معين: ضعيف وحديث مختلط.

قلنا: والذي يراجع أقوال العلماء فيه كما ذكرها العلامة مغلطاي يتبين له أنه إلى الضعف أقرب منه إلى الصدق. والله أعلم.

[إكمال تهذيب الكمال (١٢/ ٤٩٤٧)، تقريب التهذيب (ت ٧٣٢٠)].

١٧٤ - هشام بن محمد بن السائب الكلبي (أبو المنذر).

قال الدارقطني: متروك ، وقال ابن عساكر: رافضي ليس بثقة ، وقال ابن معين: غير ثقة وليس عن مثله يروى الحديث ، وقال ابن حبان: يروي عن أبيه ، ومعروف مولى سليمان ، والعراقيين العجائب والأخبار التي لا أصول لها.

وقال أيضاً: وكان غالباً في التشيع أخباره في الأغلوطات أشهر من أن تحتاج إلى الإغراق في وصفها.

وقال الذهبي: تركوه كأبيه وكانا رافضيين.

[لسان الميزان (١٩٦/٦) ، ميزان الاعتدال (٣٠٤/٤) ، المجروحين (٩١/٣)].

١٧٥ - الهلوات الكلبي المدائني (أبو الربيع).

الذي يروي عن سعيد بن جبير ، وعنه الثوري ، فقد ترجم له ابن أبي حاتم وسكت عنه.

[الجرح والتعديل (١٢٢/٩ ت ٥١٨)].

١٧٦ - همام بن غالب (الفرزدق).

الشاعر التميمي ، ولد في خلافة سيدنا عمر ، وتوفي سنة ١١٠ هـ ضعفه ابن حبان وقال: كان قذاً للمحصنات فيجب مجانبته روايته.

[لسان الميزان (٤٣٣/٤)].

١٧٧ - همام بن منبه الصنعاني.

ثقة من الرابعة ، توفي سنة (١٣٢) هـ على الصحيح.

[التقريب (٧٣٦٧ ت)].

١٧٨ - الهيثم بن عدي الطائي.

قال البخاري: ليس بثقة ، كان يكذب ، وقال كذلك: سكتوا عنه ، وقال أبو حاتم: متروك الحديث محله محل الواقدي ، وقال أبو داود: كذاب ، وكذلك قال العجلي.

[تاريخ الثقات (٤٦٢/ ت ١٧٥٧) ، الجرح والتعديل (٨٥/٢/٤) ، التاريخ الكبير (٢١٨/٢/٤) ، لسان الميزان (٢٩٦/٧ ت ٩٠٥٦)].

(و)

١٧٩ - الوليد بن هشام القحذمي .

ذكره ابن حبان في الثقات كما قال ابن حجر . وقال الذهبي في الميزان : ثقة وفرق بينه وبين الوليد بن هشام بن الوليد المجهول .

[ميزان الاعتدال (ت ٩٤١٥) ، لسان الميزان (٦/ ٨١٠)] .

١٨٠ - وهب بن جرير بن حازم (أبو العباس البصري) الأزدي .

وثقه ابن معين ، وقال أبو حاتم : صدوق ، وقال ابن حجر : ثقة من التاسعة أخرج له الستة ، وقال الذهبي : ثقة حافظ حديثه في الكتب ضعّف في شعبة .

[الرواة الثقات المتكلم فيهم بما لا يوجب الرد (١٨٨/ ت ٨٤)] .

(ي)

١٨١ - يحيى بن زكريا (ابن أبي زائدة) الهمداني .

وثقه أحمد وغيره وقال أبو حاتم : صدوق ثقة توفي ١٨٠ هـ .

وقال ابن حجر : ثقة متقن من كبار التاسعة ع .

[الجرح والتعديل (٩/ ت ٦٠٩) ، التقريب (ت ٧٥٧٥)] .

١٨٢ - يزيد بن أبي حبيب المصري .

ثقة فقيه ، وكان يرسل ، من الخامسة ، توفي ١٢٨ هـ وقد قارب الثمانين . ع .

[التقريب (ت ٧٧٢٩)] .

١٨٣ - يعقوب بن إبراهيم الدورقي .

قال الخطيب : كان حافظاً متقناً صنف المسند ووثقه ابن حبان والنسائي وقال أبو حاتم : صدوق .

[تهذيب الكمال (٣٢/ ٣١٣/ ت ٧٦٨٣) ، ثقات ابن حبان (٩/ ٢٨٦) ،

الجرح والتعديل (٤/ ٢/ ٢٠٢)] .

١٨٤ - يونس بن يزيد بن أبي النجاد الأيلي .

ثقة إلا أن في روايته عن الزهري وهماً قليلاً ، وفي غير الزهري خطأ . من كبار السابعة . ع .

[التقريب (ت ٧٩٤٨)] .

الكنى

(أ)

١٨٥ - أبو إسحاق السبيعي (عمرو بن عبد الله الهمداني).
ثقة مكثّر عابد ، من الثالثة ، اختلط بأخرة ، مات سنة ١٢٩ هـ ، وقيل قبل ذلك . ع . [التقريب (ت ٥٠٦٥)] .

(ب)

١٨٦ - أبو بردة بن أبي موسى الأشعري .
ثقة من الثالثة . توفي ٦٠٤ هـ ، وقد جاوز الثمانين . ع .
[التقريب (ت ٧٩٨١)] .
١٨٧ - أبو بكر بن أبي سبرة .
رموه بالوضع ، وقال مصعب الزبيري : كان عالماً ، من السابعة .
[تحرير التقريب (٧٩٧٣) ، التقريب (ت ٨٠٠٢)] .
١٨٨ - أبو بكر بن عياش الكوفي المقرئ .
ثقة عابد إلا أنه لما كبر ساء حفظه وكتابه صحيح ، من السابعة توفي ١٩٤ هـ .
وقد قارب المئة ، روايته في مقدمة مسلم .
وقال الذهبي : أحد الأئمة الأعلام صدوق ثبت في القراءة لكنه في الحديث يغلط ويهم ، وقد أخرج له البخاري وهو صالح الحديث .
[ميزان الاعتدال (ت ١٠٠١٦) ، التقريب (ت ٨٠٤٢)] .
١٨٩ - أبو بكر الهذلي .
أخباري متروك الحديث من السادسة ، توفي سنة ١٦٧ هـ .
[التقريب (ت ٨٠٣١)] .

(ح)

١٩٠- أبو حفص الأزدي (عمر بن صالح).

الذي حدث عن أبي جمرة نصر بن عمران بموضوعات ، كناه سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي والبخاري .
[إكمال تهذيب الكمال (ت ١٧٥٢)].

(س)

١٩١- أبو السري (الأزدي ، الأودي) ثابت بن زيد .

روى عنه يحيى بن سعيد القطان .

قال أحمد : ليس بشيء ، وقال ابن معين : ليس بالقوي ، وقال النسائي : ليس به بأس ، وذكره ابن حبان في جملة الثقات ، وقال : روى عنه يحيى بن سعيد القطان ، وقال ابن حجر : ضعيف من الثامنة . وقال الذهبي : أبو السري الأزدي لين .

[المقتنى في سرد الكنى (١/٢٩٨/ت ٢٤٨٠) ، إكمال تهذيب الكمال (ت ٨٧١) ، التقريب (ت ٨٣٥)].

وأما أبو السري ؛ الذي هو هناد بن السري فثقة من العاشرة .

[التقريب (ت ٧٣٤٦)].

١٩٢- أبو السوار العدوي البصري (حسان بن حديث) أو حريف .

ثقة من الثانية خ م س .

[التقريب (ت ٨١٨٧)].

(ص)

١٩٣- أبو صادق الأزدي .

قال الحافظ : صدوق ، وحديثه عن علي مرسل ، من الرابعة ، أخرج له النسائي وابن ماجه ، وقال الذهبي في الكاشف : وثق .

[التقريب (ت ٨٢٠٣) ، الكاشف (٣/٣٠٧/ت ٢٢٠)].

١٩٤- أبو صفوان (عبد الله بن سعيد الأموي) .

روى عنه أحمد بن حنبل ، وزهير بن حرب ، وابن المديني ، روى عن سعيد بن عبد الملك بن مروان ، وثقه ابن حبان والدارقطني وابن معين .
[تهذيب الكمال (ت ٣٢٠٦) .]

(ع)

١٩٥ - أبو عبيد (القاسم بن سلام) البغدادي .

الإمام المشهور ثقة فاضل مصنف من العاشرة ، توفي ٢٢٤ هـ .
[التقريب (ت ٥٤٩٧) .]

١٩٦ - أبو عبيدة (معمربن المثنى) .

صدوق أخباري رمي برأي الخوارج ، من السابعة ، توفي سنة ٢٠٨ هـ وقد قارب المئة .

[التقريب (ت ٦٨١٢) .]

١٩٧ - أبو عمرو المدني .

لم ندر من هو .

وقال الأستاذ محمد خالد الغيث: لعله سعيد بن سلمة بن أبي الحسام .
صدوق . صحيح الكتاب يخطئ من حفظه .

[انظر مرويات خلافة معاوية (ص ٥٢/ ت ٤١) والله أعلم .]

١٩٨ - أبو العلاء التيمي .

لعله أيوب بن أبي مسكين ، يروي عن سعيد المقبري ، وعبد الله بن شيبه .
يروى عنه يزيد بن هارون .

وثقه غير واحد (مسلم والنسائي وابن سعد وأحمد) وقال أبو حاتم: لا بأس به
شيخ صالح يكتب حديثه ولا يحتج به .

وقال الحافظ: صدوق له أوهام . والذي عند الطبري أبو العلاء التيمي ، والله أعلم .

[إكمال تهذيب الكمال (ت ٦٢٤) ، تحرير التقريب (ت ٦٢٣) ، التقريب (ت ٦٢٤) .]

- ١٩٩ - أبو عوانة (وضاح بن عبد الله الشكري).
ثقة ثبت من السابعة. ع. وقال الذهبي: مجمع على ثقته.
[التقريب (ت ٧٤٣٤)، الميزان (ت ٩٣٥٠)].

(غ)

- ٢٠٠ - أبو غسان (مالك بن إسماعيل) النهدي.
ثقة صحيح الكتاب من صغار التاسعة. توفي ١٢٧ هـ.
وقال ابن عدي: وهو في نفسه صدوق، وإذا حدث عن صدوق مثله أو حدث
عنه صدوق فلا بأس به وبحديثه.
[الكامل (ت ٢١٣٦)، تحرير التقريب (ت ٦٣٢٤)].

(م)

- ٢٠١ - أبو محمد الأموي.
لم يبين الطبري من هو.
وقال الأستاذ محمد الغيث: لعله إسماعيل بن عمرو بن سعيد بن العاص،
تابعي ثقة توفي في المدينة في أول خلافة بني العباس.
[مرويات خلافة معاوية (ص ٦١)].
- ٢٠٢ - أبو محمد الثقفي.
إن كان هارون بن أبي إبراهيم الذي يروي عن عمر بن عبد العزيز: وعنه وكيع
وأبو نعيم، فقد وثقه أحمد وابن معين وأبو حاتم.
[الجرح والتعديل (٩/٩٦)، تهذيب الكمال (ت ٦٥٣٤)].
- وإلا فلا ندري من هو.
- ٢٠٣ - أبو مخنف (لوط بن يحيى).
قال أبو حاتم: متروك. وقال الدارقطني: أخباري ضعيف، وقال ابن عدي:
شيعي محترق صاحب أخبارهم، وقال الذهبي: ساقط، وقال أيضاً: أخباري
تالف لا يوثق به.
- [الجرح والتعديل (٧/١٨٢)، المغني في الضعفاء (ت ٥١٢١)، لسان

الميزان (٤٩٢/٤) ميزان الاعتدال (٣/٤١٩) ، سير أعلام النبلاء (٧/٣٠١ ت ٩٤).

٢٠٤ - أبو معاوية (محمد بن خازم).

ثقة ، من السابعة أحفظ الناس لحديث الأعمش ، وقد يهمل في غيره ، وقال ابن خراش: صدوق ، وهو في الأعمش ثقة ، وفي غيره اضطراب ، وذكره ابن حبان في الثقات ، وقال: كان حافظاً متقناً.

[الثقات (٧/٢٤١) ، تاريخ الخطيب (٥/٢٤٨) ، العلل ومعرفة الرجال (١/٥٤١ ت ١٢٨١). التقريب (ت ٥٨٥٩)].

٢٠٥ - أبو معشر (نجيع بن عبد الرحمن السندي).

قال ابن أبي حاتم: سمعت أبي - وذكر مغازي أبي معشر فقال -: كان أحمد بن حنبل يرضاه ويقول: كان بصيراً بالمغازي وقد تحدث الناس عن حديثه في المغازي - هشام ونافع وابن المنذر - وقال أبو زرعة: كان حافظاً كيساً وحدث عنه عبد الرحمن بن مهدي.

وقال الحافظ: ضعيف من السادسة أسراً واختلط ، توفي ١٧٠ هـ أخرج له الأربعة.

[التقريب (ت ٧١٢٦) ، تهذيب الكمال (ت ٦٣٨٦)].

(ن)

٢٠٦ - أبو نعام العدوي (عمرو بن عيسى البصري).

قال الحافظ في التقريب: صدوق اختلط.

فعقب الشيخان المحرران (شعيب وبشار) بقولهما (في تحرير التقريب): ضعفه ابن سعد وحده ، ولم يصفه أحد بالاختلاط قبل موته غير أحمد لذا مرّضه الذهبي بقوله: قيل تغير بأخرة. اهـ.

قلنا: والذي في ميزان الاعتدال: وروى الأثرم عن أحمد: ثقة لكنه اختلط قبل موته ولم نجد صيغة التمرّض في الميزان ولا في الكاشف فلعله في موضع آخر. والله أعلم.

وأما التضعيف فهو كما قالوا: لم يضعفه سوى ابن سعد والله أعلم. وقال العلامة مغلطاي: خرج أبو عوانة حديثه في صحيحه وكذلك الدارمي

وابن الجارود والحاكم ، وذكره ابن شاهين وابن خلفون في الثقات ، وضعفه ابن سعد .
ويبدو أن المحررين (شعيب وبشار) استندا إلى شرح مغلطي ، وقولهما أصوب من قول الحافظ في هذه الترجمة ، والله أعلم .
[إكمال تهذيب الكمال (ت ٤١٦٠) ، التقريب (ت ٥١٠٥) ، تحرير التقريب (ت ٥٠٨٩) .

الأبناء

٢٠٧ - ابن جعدبة .
يزيد بن عياض بن جعدبة الليثي أبو الحكم المدني ، انتقل إلى البصرة ومات بها في زمن المهدي .
وقال أبو حاتم والبخاري ومسلم : منكر الحديث ، وقال النسائي : كذاب .
[تهذيب الكمال (ت ٧٠٣٥) .

الألقاب

٢٠٨ - الأشجعي (عبيد الله بن عبيد الرحمن)
ثقة مأمون من أثبت الناس كتاباً في الثوري ، من كبار التاسعة .
[التقريب (ت ٤٣٤٧) .
٢٠٩ - الهذلي .
هو أبو بكر الهذلي الأخباري المتروك (انظر رقم ١٨٩) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[مقدمة الطبري]

الحمد لله الأول قبل كل أول ، والآخر بعد كل آخر ، [والدائم بلا زوال] ، والقائم على كل شيء بغير انتقال ، والخالق خلقه من غير أصل ولا مثال ؛ فهو الفرد الواحد من غير عدد ؛ وهو الباقي بعد كل أحد ، إلى غير نهاية ولا أمد . له الكبرياء والعظمة ، والبهاء والعزة ، والسلطان والقدرة ، تعالى عن أن يكون له شريك في سلطانه أو في وحدانيته نديد ، أو في تدبيره معين أو ظهير ، أو أن يكون له ولد ، أو صاحبة أو كُفء أحد ، لا تحيط به الأوهام ، ولا تحويه الأقطار ، ولا تدركه الأبصار ، [وهو يدرك الأبصار] ، وهو اللطيف الخبير .

أحمده على آلائه ، وأشكره على نعمائه ، حمد من أفرد به الحمد ، وشكر من رجا بالشكر منه المزيد ، وأشهد به من القول والعمل لما يقربني منه ويرضيه ، وأومن به إيمان مخلص له التوحيد ، ومفرد له التمجيد .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده النجيب ، ورسوله الأمين ، اصطفاه لرسالته ، وابتعثه بوحيه ، داعياً خلقه إلى عبادته ؛ فصَدَّعَ بأمره ، وجاهد في سبيله ، ونَصَّحَ لأُمته ، وعبده حتى أتاه اليقين من عنده ، غير مقصّر في بلاغ ، ولا وإن في جهاد ؛ صلى الله عليه أفضل صلاة وأزكاها ، وسلّم .

أما بعد ، فإن الله جلّ جلاله ، وتقديست أسماؤه ، خلق خلقه من غير ضرورة كانت به إلى خلقهم ، وأنشأهم من غير حاجة كانت به إلى إنشائهم ، بل خلق من خصّه منهم بأمره ونهيه ، وامتنحه بعبادته ، ليعبدوه [فيجود عليهم بنعمه] ، وليحمدوه على نعمه فيزيدهم من فضله ومِنِّته ، ويُسبِّغَ عليهم فضله وطوله ، كما

قال عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ . فلم يزد خلقه إيتاهم - إذ خلقهم - في سلطانه على ما لم يزل قبل خلقه إيتاهم مثقال ذرة ، ولا هو إن أفناهم وأعدمهم ينقصه إفناؤه إيتاهم ميزان شعرة ، لأنه لا تغيّره الأحوال ، ولا يدخله الملal ، ولا ينقص سلطانه الأيام والليال ؛ لأنه خالق الدهور والأزمان ، فعمّ جميعهم في العاجل فضله وجوده ، وشملهم كرمه وطوله ، فجعل لهم أسماعاً وأبصاراً وأفئدة ، وخصّهم بعقول يصلون بها إلى التمييز بين الحق والباطل ، ويعرفون بها المنافع والمضار ، وجعل لهم الأرض بساطاً ليسلكوا منها سُبلاً فجاجاً ، والسماء سقفاً محفوظاً ، [وبناء مسموكاً] ؛ وأنزل لهم منها الغيث بالإدرار ، والأرزاق بالمقدار ، وأجرى لهم [فيها] قمر الليل وشمس النهار يتعاقبان بمصالحهم دائبين ، فجعل لهم الليل لباساً ، والنهار معاشاً ، وخالف - متاً منه عليهم وتطوّلاً - بين قمر الليل وشمس النهار ، فمحا آية الليل وجعل آية النهار مبصرة ، كما قال جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه: ﴿وَجَعَلْنَا أَلِيلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَاهُ آيَةَ أَلِيلَ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِنَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ .

وليصلوا بذلك إلى العلم بأوقات فروضهم التي فرضها عليهم في ساعات الليل والنهار والشهور والسنين ؛ من الصلوات والزكوات والحج والصيام وغير ذلك من فروضهم ، وحين حلّ ديونهم وحقوقهم ؛ كما قال عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْآيَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ النَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ ، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِنَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ أَلِيلَ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ . إنعاماً منه بكلّ ذلك على خلقه ، وتفصيلاً منه به عليهم وتطوّلاً ، فشكره على نعمه التي أنعمها عليهم من خلقه خلقاً عظيم ، فزاد كثيراً منهم من آلائه وأياديه ، على ما ابتدأهم به من فضله وطوله ، كما وعدهم جلّ جلاله بقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رَجْكُمُ لِيَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ ، وجمع لهم إلى الزيادة التي زادهم في عاجل دنياهم ، الفوز بالنعيم المقيم ، والخلود في جنات النعيم ، في أجل آخرتهم ، وأخر لكثير منهم الزيادة التي وعدهم فمدهم إلى حين مصيرهم [إليه] ، ووقت قدومهم

عليه ، توفيراً منه كرامته عليهم يوم تُبلى السرائر . وكفر نعمه خلق منهم عظيم ، فجدوا آلاءه وعبدوا سواه ، فسلب كثيراً منهم ما ابتدأهم به من الفضل والإحسان ، وأحلّ بهم النعمة المهلكة في العاجل ، وذخر لهم العقوبة المخزية في الآجل ، ومتع كثيراً منهم بنعمة أيام حياتهم استدراجاً منه لهم ، وتوفيراً منه عليهم أوزارهم ؛ ليستحقوا من عقوبته في الآجل ما قد أعدّ لهم .

نعوذ بالله من عمل يقرب من سخطه ، ونسأله التوفيق لما يُدني من رضاه ومحبته .

قال أبو جعفر : وأنا ذاكر في كتابي هذا من ملوك كلّ زمان ، من [لندن] ابتدأ ربُّنا جلّ جلاله خلق خلقه إلى حال فنائهم ، من انتهى إلينا خبره ممن ابتدأه الله تعالى بآلائه ونعمه فشكر نعمه ؛ من رسول له مرسل ، أو ملك مسلط ، أو خليفة مستخلف ، فزاده إلى ما ابتدأه به من نعمه في العاجل نعماً ، وإلى ما تفضل به عليه فضلاً ، ومن آخر ذلك له منهم ، وجعله له عنده ذخراً . ومن كفر منهم نعمه فسلبه ما ابتدأه به من نعمه ، وعجل له نقمه . ومن كفر منهم نعمه فمتعه بما أنعم به عليه إلى حين وفاته وهلاكه ؛ مقروناً ذكر كلّ من أنا ذاكره منهم في كتابي هذا بذكر زمانه ، وجُمِل ما كان من حوادث الأمور في عصره وأيامه ؛ إذ كان الاستقصاء في ذلك يقصر عنه العمر ، وتطول به الكتب ، مع ذكرى مع ذلك مبلغ مدة أكله ، وحين أجله ، بعد تقديمي أمام ذلك ما تقديمه بنا أولى ، والابتداء به قبله أحجى ؛ من البيان عن الزمان : ما هو ؟ وكم قدر جميعه ، وابتداء أوله ، وانتهاء آخره ؟ وهل كان قبل خلق الله تعالى إياه شيء غيره ؟ وهل هو فان ؟ وهل بعد فنائه شيء غير وجه المسيح الخلاق ، تعالى ذكره ؟ وما الذي كان قبل خلق الله إياه ؟ ربما هو كائن بعد فنائه وانقضائه ؟ وكيف كان ابتداء خلق الله تعالى إياه ؟ وكيف يكون فناؤه ؟ والدلالة على أن لا قديم إلا الله الواحد القهار ، الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى بوجيز من الدلالة غير طويل ؛ إذ لم نقصد بكتابنا هذا قصداً لاحتجاج لذلك ، بل لما ذكرنا من تاريخ الملوك الماضين وجمالاً من أخبارهم ، وأزمان الرسل والأنبياء ومقادير أعمارهم ، وأيام الخلفاء السالفين وبعض سيرهم ، ومبالغ ولاياتهم ، والكائن الذي كان من الأحداث في أعصارهم . ثم أنا متبع آخر ذلك كله - إن شاء الله وأيد منه بعون وقوة - ذكر

صحابه نبينا محمد ﷺ وأسمائهم وكنائهم ومبالغ أنسابهم ومبالغ أعمارهم ، ووقت وفاة كل إنسان منهم ، والموضع الذي كانت به وفاته . ثم متبعهم ذكر من كان بعدهم من التابعين لهم بإحسان ، على نحو ما شرطنا من ذكرهم . ثم ملحق بهم ذكر من كان بعدهم من الخلف لهم كذلك ، وزائد في أمورهم للإبانة عن حميت منهم روايته ، وتُقبِلت أخباره ، ومن رفضت منهم روايته ونبتذت أخباره ، ومن وُهن منهم نقله ، وضُغِف خبره . و[ما] السبب الذي من أجله نُبتذ من نُبتذ منهم خبره ، والعلة التي من أجلها وُهن من وُهن منهم نقله .

وإلى الله عز وجل أنا راغب في العون على ما أقصده وأنويه ، والتوفيق لما ألتمسه وأبغيه ؛ فإنه وليُّ الحول والقوة ، وصلى الله على محمد نبيه وآله وسلم تسليماً .

وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادنا في كل ما أحضرت ذكره فيه مما شرطت أني راسمه فيه ؛ إنما هو على ما رويث من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه ، والآثار التي أنا مسندها إلى روايتها فيه ، دون ما أدرك بحجج العقول ، واستنبط بفكر النفوس ، إلا اليسير القليل منه ، إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين ، وما هو كائن من أنباء الحداثين ، غير واصل إلى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم ؛ إلا بإخبار المخبرين ، ونقل الناقلين ، دون الاستخراج بالعقول ، والاستنباط بفكر النفوس . فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه ، أو يستشنع سامعه ، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة ، ولا معنى في الحقيقة ، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا ، وإنما أتى من قبل بعض ناقله إلينا ؛ وإنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدَّى إلينا ^(١) .

(١ : ٣/٤/٥/٦/٧/٨) .

القول في الزمان ما هو

قال أبو جعفر : فالزمان هو ساعات الليل والنهار ، وقد يقال ذلك للطويل من المدة والقصير منها ، والعرب تقول : أتيتك زمان الحجاج أمير ، وزمن الحجاج أمير - تعني به : إذ الحجاج أمير . وتقول : أتيتك زمان الصّرام [وزمن الصّرام] -

تعني به وقت الصرام. ويقولون أيضاً: أتيتك أزمان الحجاج أمير، فيجمعون الزمان، يريدون بذلك أن يجعلوا كل وقت من أوقات إمارته زماناً من الأزمنة، كما قال الراجز:

جاء الشتاء وقميصي أخلاق شراذم يضحك منه التواق
فجعل القميص أخلاقاً، يريد بذلك وصف كل قطعة منه بالإخلاق؛ كما يقولون: أرض سباسب، ونحو ذلك.

ومن قولهم للزمان: «زمن» قول أعشى بني قيس بن ثعلبة:
وكنْتُ امرأً زَمناً بالعراق عَفِيفَ المُنَاخِ طَوِيلَ التَّغْنِ
يريد بقوله: «زمناً» «زماناً»، فالزمان اسم لما ذكرت من ساعات الليل والنهار على ما قد بينت ووصفت^(١). (١: ٩).

القول في كم قدر جميع الزمان من ابتدائه إلى انتهائه وأوله إلى آخره

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك ما دل على صحته الخبر الوارد عن رسول الله ﷺ، وذلك ما حدثنا به محمد بن بشار وعلي بن سهل، قالوا: حدثنا مؤمل، قال: حدثنا سفيان، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أجلكم في أجل من كان قبلكم، من صلاة العصر إلى مغرب الشمس»^(٢). (١: ١١).

حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، قال: حدثني محمد بن إسحاق، عن

(١) صحيح.

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري من طريق سفيان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمرو مرفوعاً ضمن حديث أطول مما عند الطبري ولفظه: «إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم كما بين صلاة العصر ومغرب الشمس، ومثلكم ومثل اليهود والنصارى... الحديث». وكذلك أخرجه أحمد من طريق مؤمل هذا (كما عند الطبري) عن سفيان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر مرفوعاً مختصراً (كما عند الطبري) مع اختلاف في الألفاظ يسير جداً. (مسند أحمد ح/ ٥٩١١). وانظر صحيح البخاري/ فضائل القرآن/ (ح ٥٠٢١).

نافع ، عن ابن عمر ، قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «ألا إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم ، كما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس»^(١) . (١ : ١٠) .

حدثنا الحسن بن عرفة ، قال : حدثني عمار بن محمد ، ابن أخت سفيان الثوري ، أو اليقظان ، عن ليث بن أبي سليم ، عن مغيرة بن حكيم ، عن عبد الله ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : «ما بقي لأمتي من الدنيا إلا كمقدار مغرب الشمس إذا صُلِّيَت العصر»^(٢) . (١ : ١٠) .

حدثني محمد بن عوف ، قال : حدثنا أبو نعيم ، قال : حدثنا شريك ، قال : سمعت سلمة بن كهيل ، عن مجاهد ، عن ابن عمر ، قال : كنا جلوساً عند النبي ﷺ والشمس مرتفعة على قُعَيْقَعَان بعد العصر ، فقال : «ما أعماركم في أعمار من مضى إلا كما بقي من هذا النهار فيما مضى منه»^(٣) . (١ : ١١) .

حدثنا ابن بشار ومحمد بن المثنى - قال ابن بشار : حدثني خلف بن موسى ، وقال ابن المثنى : حدثنا خلف بن موسى - قال : حدثني أبي ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ خطب أصحابه يوماً - وقد كادت الشمس أن تغيب ، ولم يبق منها إلا شِقٌّ يسير - فقال : «والذي نفس محمد بيده ما بقي من

(١) إسناده ضعيف والحديث صحيح لغيره (انظر الرواية السابقة) وانظر كذلك (صحيح البخاري/ ج ٥٥٧ / ح / ٢٥٦٩ ، ح ٧٥٣٣) .

(٢) في إسناده ليث بن سليم ، صدوق اختلط ، والمتن صحيح كما سرق ، ولقد أشرنا سابقاً إلى روايات البخاري لهذا الحديث ورواية لأحمد ، ونشير هنا إلى رواية الترمذي في سننه (كتاب الأمثال/ ح ٢٨٧١) ضمن حديث طويل : وقال الترمذي : حسن صحيح . ولفظه : (إنما أجلكم فيما خلا من الأمم كما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس وإنما مثلكم ومثل اليهود . . . الحديث) .

(٣) في إسناده أبو نعيم ضعفه غير واحد وشريك النخعي ضعيف وكذلك أخرجه أحمد (٥٩٦٦) من طريق شريك : سمعت سلمة بن كهيل يحدث عن مجاهد عن ابن عمر قال : كنا جلوساً عند النبي ﷺ والشمس على قُعَيْقَعَان . . . الحديث (كما عند انطريي) . قلنا : وإن كان إسناده ضعيفاً فالحديث صحيح لغيره أخرجه البخاري وغيره (انظر الروايات السابقة) .

دنياكم فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه ، وما ترؤن من الشمس إلا اليسير»^(١) . (١ : ١١ / ١٢) .

حدثنا هناد بن السري وأبو هشام الرفاعي ، قالا : حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن أبي حصين ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : «بعثت [أنا] والساعة كهاتين» - وأشار بالسبابة والوسطى^(٢) . (١ : ١٢) .

حدثنا أبو كريب ، حدثنا يحيى بن آدم ، عن أبي بكر ، عن أبي حصين ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، عن النبي بنحوه^(٣) . (١ : ١٢) .

حدثنا هناد ، قال : حدثنا أبو الأحوص وأبو معاوية ، عن الأعمش ، عن أبي خالد الوالبي ، عن جابر بن سمرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : «بعثت أنا والساعة كهاتين»^(٤) . (١ : ١٢) .

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا عثام بن علي ، عن الأعمش ، عن أبي خالد الوالبي ، عن جابر بن سمرة ، قال : كأنني أنظر إلى إصبعي رسول الله ﷺ - وأشار

(١) في إسناده موسى بن خلف العمي قال فيه الحافظ : صدوق له أوهام ، وأخرج أحمد في مسنده (ح ٦١٧٣) من طريق كثير بن زيد عن المطلب بن عبد الله عن عبد الله بن عمر أنه كان واقفاً بعرفات فنظر إلى الشمس حتى تدلت مثل الترس للغروب ، فبكى واشتد بكاؤه فقال له رجل عنده : يا أبا عبد الرحمن قد وقفت معي مراراً لم تصنع هذا فقال : ذكرت رسول الله ﷺ وهو واقف بمكاني هذا فقال : (أيها الناس إنه لم يبق من دنياكم فيما مضى إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه) .

وأخرجه الحاكم من طريق غير هذا مع زيادة فقال الحاكم : صحيح الإسناد ، لكن الذهبي لم يوافقه بل قال : كثير ضعفه النسائي ومشاه غيره . (المستدرک مع التلخيص ٤٤٢ / ٢) .

(٢) في إسناده أبو صالح فإن كان هو الأشعري الشامي فالإسناد حسن وإن كان أبا صالح السمان فالإسناد صحيح والحديث صحيح كما سنذكر فيما يلي .

(٣) حديث صحيح وانظر ما بعده .

(٤) في إسناده الأعمش وهو مدلس وقد عنعن ولم يصرح بالتحديث ، وأبو خالد الوالبي ، قال أبو حاتم : صالح الحديث ، وقال الحافظ : مقبول .

وهذا الحديث صحيح تعددت مخارجه كما سنبين بعد روايات وأما من حديث سمرة فكذاك أخرجه الطبراني في الكبير (١٨٤٣) وأحمد (٣٠٩ / ٤) .

وقال الهيثمي : ورجال أحمد رجال الصحيح غير أبي خالد الوالبي وهو ثقة (مجمع الزوائد ح ١٨٢٢٦) .

بالمسبحة والتي تليها - وهو يقول: «بعثت أنا والساعة كهذه من هذه»^(١).

(١ : ١٢) .

حدثنا ابن حُميد ، قال: حدثني يحيى بن واضح ، قال: حدثنا فطر ، عن أبي خالد الوالبي ، عن جابر بن سَمُرَة ، قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت من الساعة كهاتين» - وجمع بين إصبعيه السبابة والوسطى^(٢) . (١ : ١٢) .

حدثنا ابن المثنى ، قال: حدثنا محمد بن جعفر ، قال: حدثنا شعبة ، قال: سمعت قتادة يحدث ، قال: حدثنا أنس بن مالك ، قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين» . قال شعبة: سمعت قتادة يقول في قصصه: كفضل إحداهما على الأخرى، قال: لا أدري أذكره عن أنس أو قاله قتادة^(٣) . (١ : ١٣) .

حدثنا خلاد بن أسلم ، قال: حدثنا النضر بن شُمَيْل ، قال: حدثنا شعبة ، عن قتادة ، قال: حدثنا أنس بن مالك ، قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين»^(٤) . (١ : ١٣) .

حدثنا مجاهد بن موسى ، قال: حدثنا يزيد ، قال: حدثنا شعبة ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك ، عن النبي ﷺ مثله ، وزاد في حديثه: وأشار بالوسطى والسبابة^(٥) . (١ : ١٣) .

حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، قال: حدثنا أيوب بن سويد ، عن الأوزاعي ، قال: حدثنا إسماعيل بن عبيد الله ، قال: قدم أنس بن مالك على

(١) حديث صحيح .

(٢) إسناده ضعيف ، ورواه من طريق فطر (ابن خليفة) هذا الحارث بن أبي أسامة كما ذكر البوصيري في الإتحاف ولفظه: [(بعثت أنا وقيام الساعة) قال: أبو زكريا: ورأى فطر بن خليفة ضمَّ إصبعيه الوسطى والسبابة] وقال البوصيري: رواه الحارث بن أبي أسامة عن يحيى بن هاشم وهو ضعيف ورواه أحمد من وجه آخر (إتحاف الخيرة / ح ١٠٣٤) . قلنا: والحديث صحيح كما سنذكر بعد الآتي .

(٣) حديث صحيح أخرجه البخاري (ح ٦٥٠٤) ومسلم (ح ٢٩٥١) والترمذي (ح ٢٢١٤) من طريق شعبة عن قتادة عن أنس مرفوعاً .

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح .

(٤) هذا إسناده صحيح والحديث صحيح (انظر ما قبله) .

(٥) هذا إسناده صحيح والحديث صحيح (انظر ما قبله) .

الوليد بن عبد الملك ، فقال له الوليد: ماذا سمعت رسول الله ﷺ يذكر به الساعة؟ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «أنتم [و] الساعة كهاتين» ، وأشار بإصبعيه^(١). (١ : ١٣) .

حدثني العباس بن الوليد ، قال: أخبرني أبي ، قال: حدثنا الأوزاعي ، قال: حدثني إسماعيل بن عبيد الله ، قال: قدم أنس بن مالك على الوليد بن عبد الملك ، فقال له الوليد: ماذا سمعت [من] رسول الله ﷺ يذكر به الساعة؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنتم والساعة كتين»^(٢). (١ : ١٣) .

حدثني ابن عبد الرحيم البرقي ، قال: حدثنا عمرو بن أبي سلمة ، عن الأوزاعي ، قال: حدثني إسماعيل بن عبيد الله ، قال: قدم أنس بن مالك على الوليد بن عبد الملك ، فذكر مثله^(٣). (١ : ١٣ / ١٤) .

حدثني محمد بن عبد الأعلى ، قال: حدثنا المعتمر بن سليمان ، عن أبيه ، قال: حدثني معبد ، حدث أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بعثت أنا والساعة كهاتين» ، وقال بإصبعيه: هكذا^(٤). (١ : ١٤) .

حدثنا ابن المثنى قال: حدثنا وهب بن جرير ، قال: حدثنا شعبة ، عن أبي التياح ، عن أنس ، قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين»: السبابة والوسطى. قال أبو موسى: وأشار وهب بالسبابة والوسطى^(٥). (١ : ١٤) .

حدثني عبد الله بن أبي زياد ، قال: حدثنا وهب بن جرير ، قال: حدثنا شعبة ، عن أبي التياح وقتادة ، عن أنس ، قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين» ، وقرن بين إصبعيه^(٦). (١ : ١٤) .

حدثني محمد بن عبد الله بن بزيغ ، قال: حدثنا الفضيل بن سليمان ، حدثنا

(١) في إسناده أيوب بن سويد ، ضعيف ولكن حديث أنس حديث صحيح كما ذكرنا سابقاً.

(٢) هذا إسناده حسن صحيح وحديث أنس حديث صحيح إلا أنَّا لم نجده بهذه اللفظة (كتين).

(٣) انظر ما قبله.

(٤) إسناده صحيح والحديث أخرجه البخاري كما عزونا آنفاً وكما سنبين بعد الحديث الآتي.

(٥) الحديث صحيح ، كما سنبين بعد الآتي.

(٦) حديث أنس هذا حديث صحيح أخرجه البخاري (ح ٦٥٠٤) ومسلم (٢٩٥١ / ١٣٤) من

طريق شعبة عن أبي التياح وقتادة عن أنس مرفوعاً.

أبو حازم ، قال : حدثنا سهل بن سعد ، قال : رأيت رسول الله ﷺ قال بإصبعيه هكذا ، الوسطى والتي تلي الإبهام : «بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين»^(١) . (١ : ١٤) .

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا خالد ، عن محمد بن جعفر ، عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد ، قال : قال رسول الله ﷺ : «بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين» ، وجمع بين إصبعيه^(٢) . (١ : ١٤) .

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا خالد ، قال : حدثنا سليمان بن بلال ، قال : حدثني أبو حازم ، عن سهل بن سعد ، قال : قال رسول الله ﷺ : «بُعِثْتُ أنا والساعة هكذا» ، وقرن بين إصبعيه : الوسطى والتي تلي الإبهام^(٣) . (١ : ١٥) .

حدثني ابن عبد الرحيم البرقي ، قال : حدثنا ابن أبي مريم ، قال : حدثنا محمد بن جعفر ، قال : حدثني أبو حازم ، عن سهل بن سعد ، قال : قال رسول الله ﷺ : «بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين» ، وجمع بين إصبعيه^(٤) . (١ : ١٥) .

حدثني أحمد بن محمد بن حبيب ، قال : حدثنا أبو نصر ، قال : حدثنا المسعودي ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن الشعبي ، عن أبي جيرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : «بُعِثْتُ مع الساعة كهاتين - وأشار بإصبعيه الوسطى والسبابة - كفضل هذه على هذه»^(٥) . (١ : ١٥) .

حدثنا تميم بن المنتصر ، قال : أخبرنا يزيد ، قال : أخبرنا إسماعيل ، عن

(١) في إسناده الفضل بن سليمان ، حديثه في الكتب الستة ضعفه غير واحد منهم إلا أنه متابع ههنا فقد أخرج مسلم في صحيحه من طريق يعقوب بن عبد الرحمن وعبد العزيز بن أبي حازم عن أبي حازم عن سهل بن سعد أنه سمع سهلاً يقول : سمعت النبي ﷺ يشير بإصبعه التي تلي الإبهام والوسطى وهو يقول : (بعثت أنا والساعة هكذا) .

(صحيح مسلم/ كتاب الفتن/ باب قرب الساعة/ ١٣١/ ٢٩٥٠) .

(٢) حديث صحيح من حديث سهل وأنس (وانظر ما سبق) .

(٣) حديث صحيح (انظر ما قبله) .

(٤) ورواه أحمد (٣٤٨/٥) وفيه : (وَضُمَّ إصْبَعِيهِ السَّبَابَةُ وَالْوَسْطَى بَدَلًا مِنْ عِبَارَةِ (وَجَمَعَ بَيْنَ إصْبَعِيهِ) وَقَالَ الْهَيْثَمِيُّ : رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالْبَزَارُ ، وَرَجُلَا أَحْمَدَ رَجُلَا الصَّحِيحِ (ح/ ١٨٢٢٥) .

(٥) أورده الهيثمي في المجمع وفيه (فسبقها ، كما سبقت هذه هذه) .

وقال : رواه الطبراني بإسناد حسن (مجمع الزوائد ح/ ١٨٢٣٠) .

شُبَيْل بن عوف، عن أَبِي جَبْرِ، عن أشياخ من الأنصار، قالوا: سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «جئت أنا والساعة هكذا» - قال الطبري: وأرانا تميم، وضم السبابة والوسطى وقال لنا: أشار يزيد بإصبعيه السبابة والوسطى وضمهما - وقال: «سبقتها كما سبقت هذه هذه في نفس من الساعة»، أو «[في] نفس الساعة»^(١).
(١: ١٥/١٦).

فمعلوم إذ كان اليوم أوله طلوع الفجر وآخره غروب الشمس، وكان صحيحاً عن نبينا ﷺ، ما روينا عنه قبل، أنه قال بعد ما صلى العصر: «ما بقي من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه». وأنه قال لأصحابه: «بُعْتُ أنا والساعة كهاتين» - وجمع بين السبابة والوسطى - «سبقتها بقدر هذه من هذه»، يعني الوسطى من السبابة. وكان قدر ما بين أوسط أوقات صلاة العصر - وذلك إذا صار ظل كل شيء مثليه - على التحري إنما يكون قدر نصف سبع اليوم، يزيد قليلاً أو ينقص قليلاً، وكذلك فضل ما بين الوسطى والسبابة، إنما يكون نحواً من ذلك وقريباً منه^(٢). (١: ١٦).

وكان صحيحاً مع ذلك عن رسول الله ﷺ ما حدثني أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، قال: حدثني عمي عبد الله بن وهب، قال: حدثني معاوية بن صالح، عن عبد الرحمن بن جبيرة بن ثيفر، عن أبيه جبيرة بن ثيفر، أنه سمع أبا ثعلبة الخشني صاحب النبي ﷺ يقول: إن رسول الله ﷺ قال: «لن يُعجز الله هذه الأمة من نصف يوم»، وكان معنى قول النبي ﷺ ذلك أن «لن يعجز الله هذه الأمة من نصف يوم» الذي مقداره ألف سنة^(٣). (١: ١٦).

(١) الحديث من هذا الوجه رواه الطبراني، وقال الهيثمي: رجال هذه الطريق رجال الصحيح غير شبل أو شبيل بن عوف وهو ثقة (مجمع الزوائد ح/ ١٨٢٣٠).
وقال الهيثمي وروى البزار منه (نسم الساعة) فقط (مجمع الزوائد ١٨٢٣١).
والحديث ذكره ابن حجر في المطالب العالية عن مشيخة من الأنصار أنهم سمعوه ﷺ يقول: (بعثت في قسم الساعة: قال سفيان: يعني نفس الساعة).
وقال المحدث الأعظمي: رواه البزار أيضاً ورجاله ثقات (المطالب العالية ٤٥٧٧). والله أعلم.
(٢) صحيح.

(٣) إسناده صحيح وحديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه أخرجه أبو داود مرفوعاً (٤٣٤٩) من طريق حجاج بن إبراهيم عن ابن وهب به (كما عند الطبري) والطبراني في الكبير (٥٧٢/٢٢) -

القول في الدلالة

على حدوث الأوقات والأزمان والليل والنهار

قد قلنا قبلُ إن الزمان إنما هو اسم لساعات الليل والنهار ، وساعات الليل والنهار إنما هي مقادير من جَزَي الشمس والقمر في الفلك ، كما قال الله عز وجل: ﴿وَأَيُّ لَهِمُ اللَّيْلِ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ ٢٧ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ٢٨ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ٢٩ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

فإذا كان الزمان ما ذكرنا من ساعات الليل والنهار ، وكانت ساعات الليل والنهار إنما هي قَطْع الشمس والقمر درجات الفلك ، كان بيقين معلوماً أن الزمان محدث والليل والنهار محدثان ، وأن مُحدث ذلك الله الذي تفرّد بإحداث جميع خلقه ، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

ومن جهل حدوث ذلك من خلق الله فإنه لن يجهل اختلاف أحوال الليل والنهار؛ بأن أحدهما يرد على الخلق - وهو الليل - بسواد وظلمة ، وأن الآخر منهما يرد عليهم بنور وضياء ، ونسخ لسواد الليل وظلمته ، وهو النهار .

فإذا كان ذلك كذلك ، وكان من المحال اجتماعهما مع اختلاف أحوالهما في

وقال: رفعه معاوية مرة ولم يرفعه أخرى ، والحاكم في المستدرک (٤/٤٢٤) وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

وقال الحافظ ابن حجر: رواه ثقات ، ولكن رجح البخاري وقفه (فتح الباري ١١/٣٥١) ، وأخرجه أحمد موقوفاً (ح ١٧٧٣٤) . قلنا: ومعنى نصف يوم هنا خمسمئة سنة من باب قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ .

والمقصود من هذا الحديث والله أعلم أنهم يدركون مقدار نصف اليوم المذكور ، ولا يدل الحديث على نفي ما زاد على ذلك والله أعلم .

والحديث من معجزات النبوة على صاحبها الصلاة والسلام فلم تمت الأمة قبل مضي خمسمئة عام من بعده عليه الصلاة والسلام بل عاشت تلك المدة وعمرت أكثر من ذلك وإلى يومنا هذا والحمد لله على نعمائه وصدق رسوله الصادق الأمين .

وقت واحد في جزء واحد - كان معلوماً يقيناً أنه لا بد [من] أن يكون أحدهما كان قبل الآخر منهما؛ وأَيُّهما كان منهما قبل صاحبه فإن الآخر منهما كان لا شك بعده ، وذلك إبانةٌ ودليل على حدوثهما ، وأنهما خلقان لخالقهما .

ومن الدلالة أيضاً على حدوث الأيام والليالي أنه لا يومٌ إلا وهو بعدَ يوم كان قبله ، وقبل يوم كائن بعده ، فمعلوم أن ما لم يكن ثم كان ، أنه محدث مخلوق ، وأن له خالقاً ومحدثاً .

وأخرى ، أن الأيام والليالي معدودة ، وما عدَّ من الأشياء فغير خارج من أحد العددين : شفع أو وتر؛ فإن يكن شفعاً فإن أولها اثنان ، وذلك تصحيح القول بأن لها ابتداءً وأولاً ، وإن كان وترّاً فإن أولها واحد ، وذلك دليل على أن لها ابتداءً وأولاً ، وما كان له ابتداء فإنه لا بد له من مبدئ ، هو خالقه ^(١) . (١ : ٢٠ / ٢١) .

القول في الإبانة عن فناء الزمان والليل والنهار

وأن لا شيء يبقى غير الله تعالى ذكره

والدلالة على صحة ذلك قول الله تعالى ذكره : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٧﴾ وَبَقِيَ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ .

فإن كان كلُّ شيء هالك غير وجهه - كما قال جلّ وعزّ - وكان الليل والنهار ظلمة أو نوراً خلقهما لمصالح خلقه ، فلا شك أنهما فانيان هالكان ، كما أخبر؛ وكما قال : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ يعني بذلك أنها عُميت فذهب ضوءها ، وذلك عند قيام الساعة ، وهذا ما لا يحتاج إلى الإكثار فيه ؛ إذ كان مما يدين بالإقرار به جميع أهل التوحيد من أهل الإسلام وأهل التوراة والإنجيل والمجوس ، وإنما ينكره قومٌ من غير أهل التوحيد ، لم نقصد بهذا الكتاب قصد الإبانة عن خطأ قولهم . فكل الذين ذكرنا عنهم أنهم مُقرّون بفناء جميع العالم حتى لا يبقى غير القديم الواحد ، مقرّون بأن الله عزّ وجلّ محييهم بعد فنائهم ، وباعثهم بعد هلاكهم ، خلا قومٌ من عبدة الأوثان ، فإنهم يُقرّون بالفناء ، وينكرون البعث ^(٢) . (١ : ٢٧) .

(١) صحيح .

(٢) صحيح .

القول في الدلالة على أن الله عز وجل القديم الأول قبل كل شيء
وأنه هو المحدث كل شيء بقدرته تعالى ذكره

فمن الدلالة على ذلك أنه لا شيء في العالم مشاهد إلا جسم أو قائم بجسم ،
وأنه لا جسم إلا مفترق أو مجتمع ، وأنه لا مفترق منه إلا وهو موهوم فيه
الاثناف إلى غيره من أشكاله ، ولا مجتمع منه إلا وهو موهوم فيه الافتراق ،
وأنه متى عُدِم أحدهما عدم الآخر معه ، وأنه إذا اجتمع الجزءان منه بعد
الافتراق ، فمعلوم أن اجتماعهما حادث فيهما بعد أن لم يكن ، وأن الافتراق إذا
حدث فيهما بعد الاجتماع ، فمعلوم أن الافتراق فيهما حادث بعد أن لم يكن .

وإذا كان الأمر فيما في العالم من شيء كذلك ، وكان حكم ما لم يُشاهد وما هو
من جنس ما شاهدنا في معنى جسم أو قائم بجسم ، وكان ما لم يخلُ من الحدث
لا شك أنه محدث بتأليف مؤلف له إن كان مجتمعاً ، وتفريق مفترق له إن كان
مفترقاً . وكان معلوماً بذلك أن جامع ذلك إن كان مجتمعاً ، ومفترقه إن كان مفترقاً
من لا يشبهه ، ومن لا يجوز عليه الاجتماع والافتراق ، وهو الواحد القادر الجامع
بين المختلفات ، الذي لا يشبهه شيء ، وهو على كل شيء قدير فبينُ بما وصفنا
أن باري الأشياء ومحدثها كان قبل كل شيء ، وأن الليل والنهار والزمان والساعات
محدثات ، وأن محدثها الذي يُدبرها ويُصَرِّفها قبلها ، إذ كان من المحال أن
يكون شيء يُحدث شيئاً إلا ومحدثه قبله ، وأن في قوله تعالى ذكره : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ
إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ ^(١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ^(١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ^(١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ
كَيْفَ سُطِحَتْ ^(٢٠) ، لأبلغ الحجج ، وأدلِّ الدلائل - لمن فكر بعقل ، واعتبر بفهم -
على قِدَم باريها ، وحدوث كل ما جانسها ، وأن لها خالقاً لا يشبهها .

وذلك أن كل ما ذكر ربنا تبارك وتعالى في هذه الآية من الجبال والأرض
والإبل فإن ابن آدم يعالجه ويدبره بتحويل وتصريف وحفر ونحت وهدم ، غير
ممتنع عليه شيء من ذلك . ثم إن ابن آدم مع ذلك غير قادر على إيجاد شيء من
ذلك من غير أصل ؛ فمعلوم أن العاجز عن إيجاد ذلك لم يحدث نفسه ، وأن الذي
هو غير ممتنع ممن أراد تصريفه وتقليبه لم يوجده من هو مثله ، ولا هو أوجد

نفسه ، وأن الذي أنشأه وأوجد عينه هو الذي لا يُعجزه شيء أرادته ، ولا يمتنع عليه إحداث شيء شاء إحداثه ، وهو الله الواحد القهار .

فإن قال قائل : فما تنكر أن تكون الأشياء التي ذكرت من فعل قديمين؟

قيل : أنكرنا ذلك لوجود اتصال التدبير وتمام الخلق ، فقلنا : لو كان المدبّر اثنين ، لم يخلوا من اتفاق أو اختلاف ؛ فإن كانا متفقين فمعناهما واحد ، وإنما جعل الواحد اثنين من قال بالاثنيين . وإن كانا مختلفين كان محالاً وجود الخلق على التمام والتدبير على الاتصال ؛ لأن المختلفين ، فعل كل واحد منهما خلاف فعل صاحبه ؛ بأن أحدهما إذا أحيا أمات الآخر ، وإذا أوجد أحدهما أفنى الآخر ، فكان محالاً وجود شيء من الخلق على ما وُجد عليه من التمام والاتصال . وفي قول الله عز وجل ذكره : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ، وقوله عز وجل ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ ^(٩١) عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يَشْرِكُونَ ﴾ أبلغ حجة ، وأوجز بيان ، وأدّل دليل على بطلان ما قاله المبطلون من أهل الشرك بالله ، وذلك أن السموات والأرض لو كان فيهما إله غير الله ، لم يخل أمرهما مما وصفت من اتفاق واختلاف . وفي القول باتفاقهما فساد القول بالثنائية ، وإقرار بالتوحيد ، وإحالة في الكلام بأن قائله سمى الواحد اثنين . وفي القول باختلافهما ، القول بفساد السموات والأرض ، كما قال ربنا جلّ وعزّ : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ لأن أحدهما كان إذا أحدث شيئاً وخلقه كان من شأن الآخر إعدامه وإبطاله ؛ وذلك أن كلّ مختلفين فأفعالهما مختلفة ، كالنار التي تسخن ، والثلج الذي يبرّد ما أسخنه النار .

وأخرى ، أن ذلك لو كان كما قاله المشركون بالله لم يخل كلّ واحد من الاثنين اللذين أثبتوهما قديمين من أن يكونا قويين أو عاجزين ؛ فإن كانا عاجزين فالعاجز مقهور وغير كائن إلهاً . وإن كانا قويين فإن كلّ واحد منهما بعجزه عن صاحبه عاجز ، والعاجز لا يكون إلهاً . وإن كان كلّ واحد منهما قوياً على صاحبه ؛ فهو بقوة صاحبه عليه عاجز ، تعالى ذكره عما يشرك المشركون !

فتبيّن إذاً أن القديم باري الأشياء وصانعها هو الواحد الذي كان قبل كلّ شيء ، وهو الكائن بعد كلّ شيء ، والأول قبل كلّ شيء ، والآخر بعد كلّ

شيء ، وأنه كان ولا وقت ولا زمان ، ولا ليل ولا نهار ، ولا ظلمة ولا نور ، إلا نور وجهه الكريم . ولا سماء ولا أرض ، ولا شمس ولا قمر ولا نجوم ، وأن كل شيء سواه محدث مدبر مصنوع ، انفرد بخلق جميعه بغير شريك ولا معين ولا ظهير ، سبحانه من قادر قاهر! ^(١) (١ : ٢٨ / ٢٩ / ٣٠) .

وقد حدثني علي بن سهل الرملي ، قال : حدثنا زيد بن أبي الزرقاء ، عن جعفر ، عن يزيد بن الأصم ، عن أبي هريرة ، أن النبي ﷺ قال : «إنكم تُسألون بعدي عن كل شيء ، حتى يقول القائل : هذا الله خلق كل شيء فمن ذا خلقه!» ^(٢) . (١ : ٣٠ / ٣١) .

حدثني علي ، حدثنا زيد ، عن جعفر ، قال : قال يزيد بن الأصم : حدثني نَجْبَة بن صبيغ ، قال : كنت عند أبي هريرة فسأله عن هذا فكبر وقال : ما حدثني خليلي بشيء إلا قد رأيته أو أنا أنتظره . قال جعفر : فبلغني أنه قال : إذا سألكم الناس عن هذا فقولوا : الله خالق كل شيء ، والله كان قبل كل شيء ، والله كائن بعد كل شيء ^(٣) . (١ : ٣١) .

(١) صحيح .

(٢) رجال هذا الإسناد ثقات وجعفر هو ابن برقان وإن كان مضطرب الحديث عن الزهري إلا أنه ثقة في غيره وإسناده صحيح والحديث صحيح أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة .

فقد أخرج البخاري في صحيحه/ كتاب بدء الخلق/ (ح ٣٢٧٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «يأتي الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول : من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته» .

وأخرجه مسلم بروايات عدة منها (١٣٥ / ٢١٦) من طريق جعفر بن زبرقان حدثنا يزيد الأصم قال : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : «ليسألنكم الناس عن كل شيء حتى يقولوا : الله خلق كل شيء فمن خلقه؟» .

(٣) هذا إسناد موقوف على أبي هريرة ونجبة بن صبيغ ترجم له ابن أبي حاتم فلم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً ، إلا أن البخاري أخرجه بصيغة أخرى دون شرطه الأخير .

فقد أخرج من طريق زهير بن حرب ويعقوب الدورقي قالوا : حدثنا إسماعيل وهو ابن علي عن أيوب عن محمد قال : قال أبو هريرة : (لا يزال الناس) بمثل حديث عبد الوارث غير أنه لم يذكر النبي ﷺ في الإسناد ولكن قال في آخر الحديث : صدق الله ورسوله . (١٣٥ / ٢١٥) .

وحدثني عبد الله بن الرومي حدثنا النضر بن محمد حدثنا عكرمة وهو ابن عمار حدثنا =

فإذا كان معلوماً أن خالق الأشياء وبارئها كان ولا شيء غيره ، وأنه أحدث الأشياء فدبرها ، وأنه قد خلق صنوفاً من خلقه قبل خلق الأزمنة والأوقات ، وقبل خلق الشمس والقمر اللذين يُجريهما في أفلاكهما ، وبهما عُرفت الأوقات والساعات ، وأُرخت التأريخات ، وفصل بين الليل والنهار ، فلنقل : فيم ذلك الخلق الذي خُلِق قبل ذلك؟ وما كان أوله^(١)؟ (١ : ٣٢) .

القول في ابتداء الخلق ما كان أوله

صحّ الخبر عن رسول الله ﷺ بما حدثني به يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : حدثني معاوية بن صالح - وحدثني عبيد بن آدم بن أبي إياس العسقلاني ، قال : حدثنا أبي ، قال : حدثنا الليث بن سعد ، عن معاوية بن صالح - عن أيوب بن زياد ، قال : حدثني عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت ، قال : أخبرني أبي ، قال : قال أبي عبادة بن الصامت : يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن أول ما خلق الله القلم فقال له : اكتب ، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن»^(٢) . (١ : ٣٢) .

حدثني أحمد بن محمد بن حبيب ، قال : حدثنا علي بن الحسن بن شقيق ، قال : أخبرنا عبد الله بن المبارك ، قال : أخبرنا رباح بن زيد ، عن عمر بن

= يحيى ، حدثنا أبو سلمة عن أبي هريرة قال : قال لي رسول الله ﷺ : «لا يزالون يسألونك يا أبا هريرة حتى يقولوا هذا الله ، فمن خلق الله؟ قال : فيينا أنا في المسجد إذ جاءني ناس من الأعراب فقالوا : يا أبا هريرة هذا الله ، فمن خلق الله؟ قال : فأخذ حصي بكفه فرماه ، ثم قال : قوموا ، قوموا ، صدق خليلي .
(صحيح مسلم/ كتاب الإيمان ٢١٥/ ١٣٥) .

(١) صحيح .

(٢) حديث عبادة هذا حديث صحيح أخرجه أبو داود مرفوعاً ولفظه : إن أول ما خلق الله القلم فقال له : اكتب قال رب وماذا أكتب قال اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة . يا بني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : من مات على غير هذا فليس مني . والحديث أخرجه أحمد من حديث عبادة (المسند/ ح ٢٢٧٦٨) .

والبيهقي (١٠/ ٢٠٤ ح ٢٠٨٧٥) ولفظه كلفظ أبي داود ، وأبو يعلى عن ابن عباس (٢٣٢٩) . وقال الهيثمي : رجال أبي يعلى ثقات (٧/ ١٩٠) وانظر الحديث الآتي .

حبيب ، عن القاسم بن أبي بزة ، عن سعيد بن جبیر ، عن ابن عباس أنه كان يحدث أن رسول الله ﷺ قال : « إن أول شيء خلق الله القلم ، وأمره أن يكتب كل شيء » .^(١) (١ : ٣٢) .

حدثني موسى بن سهل الرملي ، حدثنا نعيم بن حماد ، حدثنا ابن المبارك ، أخبرنا رباح بن زيد ، عن عمر بن حبيب ، عن القاسم بن أبي بزة ، عن سعيد بن جبیر ، عن ابن عباس ، عن رسول الله ﷺ بنحوه^(٢) . (١ : ٣٢) .

حدثني محمد بن معاوية الأنماطي ، حدثنا عباد بن العوام ، حدثنا عبد الواحد بن سليم ، قال : سمعت عطاء ، قال : سألت الوليد بن عباد الصامت : كيف كانت وصية أبيك حين حضره الموت ؟ قال : دعاني فقال : أي بني ، اتق الله واعلم أنك لن تتقي الله ، ولن تبلغ العلم حتى تؤمن بالله وحده ، والقدر خيرٌ وشَرُّه ، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما خلق الله عز وجل خلق القلم ، فقال له : اكتب ، قال : يارب وما أكتب ؟ قال : اكتب القدر ، قال : فجرى القلم في تلك الساعة بما كان وبما هو كائن إلى الأبد »^(٣) . (١ : ٣٢ / ٣٣) .

وقد اختلف أهل السلف قبلنا في ذلك ، فنذكر أقوالهم ، ثم نتبع البيان عن ذلك إن شاء الله تعالى .

فقال بعضهم في ذلك بنحو الذي روي عن رسول الله ﷺ فيه .

ذكر من قال ذلك :

حدثني واصل بن عبد الأعلى الأسدي ، قال : حدثنا محمد بن فضيل ، عن الأعمش ، عن أبي ظبيان ؛ عن ابن عباس ، قال : أول ما خلق الله من شيء القلم

(١) حديث صحيح وكذلك أخرجه البيهقي من طريق عبد الله بن المبارك به عن ابن عباس مرفوعاً ولفظه : إن أول شيء خلقه الله جل ثناؤه القلم وأمره أن يكتب كل شيء (السنن الكبرى ٩/ ٣/ ح ١٧٧٠٤) .

(٢) في إسناده نعيم بن حماد ضعفه عدد من أئمة الحديث ولكن الحديث صحيح كما سبق .

(٣) إسناده ضعيف والحديث صحيح كما سبق ، وكذلك أخرجه الترمذي من طريق عبد الواحد بن سليم مع تقديم وتأخير في الألفاظ وزيادة .

وقال الترمذي : وهذا حديث غريب من هذا الوجه (سنن الترمذي/ كتاب القدر/ ح ٢١٥٥) .

قلنا : وفي إسناده عبد الواحد بن سليم ضعيف .

فقال له : اكتب ، فقال : وما أكتب يا رب ؟ قال : اكتب القدر ، قال : فجرى القلم بما هو كائن من ذلك إلى قيام الساعة ، ثم رُفع بخار الماء ففتق منه السموات ^(١) . (١ : ٣٣) .

حدثنا واصل بن عبد الأعلى ، قال : حدثنا وكيع ، عن الأعمش ، عن أبي ظبيان ، عن ابن عباس نحوه ^(٢) . (١ : ٣٣) .

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : حدثنا ابن أبي عدي ، عن شعبة ، عن سليمان ، عن أبي ظبيان ، عن ابن عباس ، قال : أول ما خلق الله من شيء القلم ، فجرى بما هو كائن ^(٣) . (١ : ٣٣) .

حدثنا تميم بن المنتصر ، أخبرنا إسحاق ، عن شريك ، عن الأعمش ، عن أبي ظبيان - أو مجاهد - ، عن ابن عباس بنحوه ^(٤) . (١ : ٣٣) .

حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن ثور ، قال : حدثنا معمر ، حدثنا الأعمش أن ابن عباس قال : إن أول شيء خلق القلم ^(٥) . (١ : ٣٤) .

حدثنا ابن حميد ، حدثنا جرير ، عن عطاء ، عن أبي الضحى مسلم بن صبيح ، عن ابن عباس ، قال : إن أول شيء خلق ربي عز وجل القلم ، فقال له : اكتب ، فكتب ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة ^(٦) . (١ : ٣٤) .

قال أبو جعفر : وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قول ابن عباس ،

(١) أخرجه الحاكم من طريق الأعمش هذا ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (المستدرک ٤٩٧/٢) .

قلنا : إلا أن الأعمش مدلس وقد عنعن هنا ولم يصرح بالتحديث وشطره صحيح مرفوعاً كما سبق سوى عبارة (ثم رفع بخار الماء ففتق منه السموات) فلم نجده مرفوعاً بسند صحيح والله أعلم .

(٢) وأخرجه البيهقي من طريق وكيع (٣/٩ ح ١٧٧٠٣) مع زيادة على ما عند الطبري وانظر ما سبق .

(٣) هذا إسناد صحيح إلى ابن عباس وقد صحّ مرفوعاً كما سبق والله أعلم .

(٤) انظر ما قبله .

(٥) انظر ما قبله .

(٦) إسناده ضعيف وقد صحّ الحديث مرفوعاً كما سبق .

للخبر الذي ذكرت عن رسول الله ﷺ [قبل] ، أنه قال: أول شيء خلق الله القلم^(١) . (١ : ٣٤) .

قيل: أما قول ابن عباس: إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء قبل أن يخلق شيئاً ، فكان أول ما خلق الله القلم - إن كان صحيحاً عنه أنه قاله - فهو خبرٌ منه أن الله خلق القلم بعد خلقه عرشه ، وقد رَوَى عن أبي هاشم هذا الخبر شعبةٌ ، ولم يقل فيه ما قال سفيان؛ من أن الله عز وجل كان على عرشه ، فكان أول ما خلق القلم ، بل روى ذلك كالذي رواه سائر من ذكرنا من الرواة عن ابن عباس أنه قال: أول ما خلق الله عز وجل القلم^(٢) . (١ : ٣٥) .

وكذلك قول ابن إسحاق الذي ذكرناه عنه معناه أن الله خلق النور والظلمة بعد خلقه عرشه ، والماء الذي عليه عرشه . وقول رسول الله ﷺ الذي روينا عنه أولى قول في ذلك بالصواب ، لأنه كان أعلم قائل في ذلك قولاً بحقيقته وصحته ، وقد روينا عنه عليه السلام أنه قال: «أول شيء خلقه الله عز وجل القلم» من غير استثناء منه شيئاً من الأشياء أنه تقدّم خلق الله إياه خلق القلم ، بل عمّ بقوله ﷺ : «إن أول شيء خلقه الله القلم» ، كلّ شيء ، وأن القلم مخلوق قبله من غير استثناء من ذلك عرشاً ولا ماء ولا شيئاً غير ذلك .

فالرواية التي رويناها عن أبي ظبيان وأبي الضحى ، عن ابن عباس ، أولى بالصحة عن ابن عباس من خبر مجاهد عنه الذي رواه عنه أبو هاشم؛ إذ كان أبو هاشم قد اختلف في رواية ذلك عنه شعبة وسفيان ، على ما قد ذكرت من اختلافهما فيها .

أما ابن إسحاق فإنه لم يسند قوله الذي قاله في ذلك إلى أحد ، وذلك من الأمور التي لا يدرك علمها إلا بخبر من الله عز وجل ، أو خبر من رسول الله ﷺ ، وقد ذكرت الرواية فيه عن رسول الله ﷺ^(٣) . (١ / ٣٥ - ٣٦) .

(١) هذا ترجيح الطبري وسنذكر ما رجحه ابن كثير وابن حجر وما نسب إلى الجمهور والله أعلم .

(٢) سنناقش رأي الطبري هذا في نهاية الباب .

(٣) صحيح .

القول في الذي ثنى خلق القلم

حدثنا خلاد بن أسلم ، حدثنا النضر بن شميل ، قال : حدثنا المسعودي ، أخبرنا جامع بن شداد ، عن صفوان بن محرز ، عن ابن حصين - وكان من أصحاب رسول الله ﷺ - قال : أتى قوم رسول الله ﷺ فدخلوا عليه ، فجعل يبشرهم ويقولون : أعطينا ، حتى ساء ذلك رسول الله ﷺ ، ثم خرجوا من عنده . وجاء قوم آخرون ، فدخلوا عليه فقالوا : جئنا نسلم على رسول الله ﷺ ، ونتفق في الدين ، ونسأله عن بدء هذا الأمر ، قال : فاقبلوا البشرى إذ لم يقبلها أولئك الذين خرجوا ، قالوا : قَبِلْنَا ، فقال رسول الله ﷺ : « كان الله لا شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر قبل كل شيء ، ثم خلق سبع سموات » . ثم أتاني آت فقال : تلك ناقتك قد ذهبت ، فخرجت ينقطع دونها السراب ، وَلَوَدِدْتُ أَنِّي تَرَكْتُهَا ^(١) . (١ : ٣٨) .

حدثني أبو كريب ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن جامع ابن شداد ،

(١) في إسناده عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي ثقة اختلط في آخر عمره إلا أن النضر بن شميل سمع منه قبل الاختلاط ويتقى حديثه عن عاصم بن بهدلة وسلمة بن كهيل وليس ههنا كذلك فالإسناد صحيح .

وقد توبع عن جامع بن شداد عند الطبري نفسه كما بعد رواية وكما عند البخاري (كتاب بدء الخلق/ ح ٣١٩١) .

عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال : دخلت على النبي ﷺ وعقلت ناقتي بالباب فأناه ناس من بني تميم فقال (اقبلوا البشرى يا بني تميم ، قالوا قد بشرتنا فأعطنا) (مرتين) ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم قالوا : قبلنا يا رسول الله . قالوا : جئنا نسألك عن هذا الأمر قال : (كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض . . . الحديث) .

وفي لفظ آخر للحديث عند البخاري (كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض وكتب في الذكر كل شيء) (صحيح البخاري/ كتاب التوحيد/ ح ٧٤١٨) وأخرج مسلم في صحيحه (نحو حديث عمران بن حصين هذا) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة قال : وعرشه على الماء » .

(صحيح مسلم/ كتاب القدر/ ح ٢٦٥٣) .

عن صفوان بن محرز ، عن عمران بن الحصين ، قال : قال رسول الله ﷺ : « اقبلوا البشرى يا بني تميم » ، فقالوا : قد بشرتنا فأعطنا ، فقال : « اقبلوا البشرى يا أهل اليمن » ، فقالوا : قد قبلنا ، فأخبرنا عن هذا الأمر كيف كان ؟ فقال رسول الله ﷺ : « كان الله عز وجل على العرش ، وكان قبل كل شيء ، وكتب في اللوح كل شيء يكون » . قال : فأتاني آت فقال : يا عمران ، هذه ناقتك قد حلت عقالها ، فقمتم ، فإذا السراب ينقطع بيني وبينها ، فلا أدري ما كان بعد ذلك ^(١) . (١ : ٣٨) .

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري كما بينا قبل قليل .

عود على بدء : والقول الراجح عند الطبري وغيره في هذه المسألة :

لقد ذكر الطبري رأيه في هذه المسألة بعد إخراج له روايات مرفوعة وموقوفة .

وخلاصة رأيه أنه يصحح الحديث النبوي الشريف (أول شيء خلقه الله عز وجل القلم) .

ويقول بأن مفهوم الحديث واضح ودلالته واضحة من غير استثناء شيء من المخلوقات قبل خلقه القلم وأن القلم أول مخلوق من غير استثناء من ذلك عرشاً ولا ماءً ولا شيئاً غير ذلك ، وانظر تاريخ الطبري (١/ ٣٥ - ٣٦) .

قلنا : والمعروف أن أئمة الحديث على جلالة قدرهم قد تفوتهم أحاديث وأحاديث ويروها غيرهم . فقد أخرج البخاري كما أشرنا حديثاً آخر لم يذكره الطبري رحمه الله .

وهو حديث عمران بن حصين السابق وفيه (كان الله ولم يكن شيء غيره . وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض) وفي رواية (ثم خلق السموات والأرض) (صحيح البخاري/ ح ٣١٩١ / و/ ح ٧٤١٨) :

قلنا : أما الحافظ ابن حجر فقد صار إلى الجمع بين المتعارضين ظاهراً إذ قال في الفتح عقب الحديث (٣١٩١) :

وأما أول ما رواه أحمد والترمذي وصححه من حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً (أول ما خلق الله القلم ثم قال : اكتب . فجري بما هو كائن إلى يوم القيامة) .

فجمع بينه وبين ما قبله بأن أوله القلم بالنسبة إلى ما عدا الماء والعرش أو بالنسبة إلى ما منه صور من الكتابة أي أنه قيل له اكتب أول ما خلق .

وحكى أبو العلاء الهمداني أن للعلماء قولين في أيهما خلق أولاً : العرش أو القلم ؟ قال : والأكثر على سبق خلق العرش ، واختار ابن جرير ومن تبعه الثاني (فتح الباري ٦/ ٤٣٠ ط . الفكر) .

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله : والذي عليه الجمهور فيما نقله الحافظ أبو العلاء الهمداني وغيره أن العرش مخلوق قبل ذلك . . . ثم ذكر حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عند مسلم .

وقال رحمه الله : وقد دلّ هنا الحديث أن ذلك بعد خلق العرش فثبت تقديم العرش على القلم =

وقد قيل إن الأيام سبعة لا ستة .

* ذكر من قال ذلك :

حدثني محمد بن سهل بن عسكر ، حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم ، حدثني عبد الصمد بن معقل ، قال : سمعت وهب بن منبه : يقول : الأيام سبعة^(١) . (٤٣/١) .

وكلا القولين - اللذين روينا أحدهما عن الضحاك وعطاء ، من أن الله خلق الأيام الستة ، والآخر منهما عن وهب بن منبه من أن الأيام سبعة - صحيح مؤتلف غير مختلف ، وذلك أن معنى قول عطاء والضحاك في ذلك كان أن الأيام التي خلق الله فيهنّ الخلق من حين ابتدائه في خلق السماء والأرض وما فيهنّ إلى أن فرغ من جميعه ستة أيام ، كما قال جل ثناؤه ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ ، وأن معنى قول وهب بن منبه في ذلك كان أن عدد الأيام التي هي أيام الجمعة سبعة أيام لا ستة^(٢) . (١ : ٤٣) .

وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قول من قال : اليوم الذي ابتداء الله تعالى ذكره فيه خلق السموات والأرض يوم الأحد ؛ لإجماع السلف من أهل العلم على ذلك .

= الذي كتب به المقادير كما ذهب إلى ذلك الجمهور .

ويحمل حديث القلم على أنه أول المخلوقات من هذا العالم ، ويؤيد هذا ما رواه البخاري عن عمران بن حصين قال : قال أهل اليمن لرسول الله ﷺ : جئناك لتتفق في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر فقال : (كان الله ولم يكن شيء قبله) . وفي رواية (معه) وفي رواية (غيره) . (وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض) .

وفي لفظ (ثم خلق السموات والأرض) فسألوه عن ابتداء خلق السموات والأرض ولهذا قالوا :

جئناك نسألك عن أول هذا الأمر فأجابهم عما سألوا فقط ، ولهذا لم يخبرهم بخلق العرش كما أخبر في حديث أبي رزين المتقدم (البداية والنهاية ١/ ٣٢) .

(١) صحيح .

(٢) صحيح .

فأما ما قال ابن إسحاق في ذلك ، فإنه إنما استدل - بزعمه - على أن ذلك كذلك ؛ لأن الله عزّ ذكره فرغ من خلق جميع خلقه يوم الجمعة ، وذلك اليوم السابع ، وفيه استوى على العرش ، وجعل ذلك اليوم عيداً للمسلمين ؛ ودليله على ما زعم أنه استدل به على صحة قوله فيما حكينا عنه من ذلك هو الدليل على خطئه فيه ، وذلك أن الله تعالى أخبر عباده في غير موضع من [محكم] تنزيله ، أنه خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، فقال : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ . وقال تعالى ذكره ﴿ قُلْ أَيُّكُمْ لَنْكَفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [١] وَجَعَلَ فِيهَا رُوسًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لَيْنًا ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الذُّنْيَا بِمَصْنُوعٍ وَحَفَظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ .

ولا خلاف بين جميع أهل العلم أن اليومين اللذين ذكرهما الله تبارك وتعالى في قوله : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ داخلان في الأيام الستة اللاتي ذكرهن قبل ذلك ، فمعلوم إذ كان الله عزّ وجلّ إنما خلق السموات والأرضين وما فيهنّ في ستة أيام ، وكانت الأخبار مع ذلك متظاهرة عن رسول الله ﷺ بأن آخر ما خلق الله من خلقه آدم ، وأن خلقه إياه كان في يوم الجمعة - أن يوم الجمعة الذي فرغ فيه من خلق خلقه داخل في الأيام الستة التي أخبر الله تعالى ذكره أنه خلق خلقه فيهنّ ؛ لأن ذلك لو لم يكن داخلاً في الأيام الستة ، كان إنما خلق خلقه في سبعة أيام ، لا في ستة ، وذلك خلاف ما جاء به التنزيل ؛ فتبين إذاً - إذ كان الأمر كالذي وصفنا في ذلك - أن أوّل الأيام التي ابتداء الله فيها خلق السموات والأرض وما فيهنّ من خلقه يوم الأحد ؛ إذ كان الآخر يوم الجمعة ، وذلك ستة أيام ، كما قال ربنا جل جلاله .

فأما الأخبار الواردة عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه بأن الفراغ من الخلق كان يوم الجمعة ، فسنذكرها في مواضعها إن شاء الله تعالى ^(١) . (١ : ٤٥ / ٤٦) .

القول فيما خلق الله في كل يوم من الأيام الستة التي ذكر الله في كتابه
أنه خلق فيهن السموات والأرض وما بينهما

وقال آخرون: خلق الله عز وجل الأرض قبل السماء بأقواتها من غير أن
يُدْحَوْها ، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات ، ثم دحا الأرض بعد
ذلك .

* ذكر من قال ذلك :

حدثني علي بن داود ، قال: حدثنا أبو صالح ، قال: حدثني معاوية ، عن
علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس: قوله عز وجل حيث ذكر خلق الأرض قبل
السماء ، ثم ذكر السماء قبل الأرض ، وذلك أن الله خلق الأرض بأقواتها من غير
أن يدحوها قبل السماء ، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات ، ثم دحا
الأرض بعد ذلك ، فذلك قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾^(١) . (١ : ٤٨) .

حدثني محمد بن سعد ، قال: حدثني أبي ، قال: حدثني عمي ، قال:
حدثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾^(٢) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا
وَمَرْعَهَا^(٣) وَالْجِبَالَ أَرْسَهَا^(٤) ، يعني أنه خلق السموات والأرض ، فلما فرغ من
السماء قبل أن يخلق أقوات الأرض بثَّ أقوات الأرض فيها بعد خلق السماء؛
وأرسي الجبال - يعني بذلك دحوها - ولم تكن تصلح أقوات الأرض ونباتها إلا
بالليل والنهار ، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ ألم تسمع أنه قال:
﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَهَا﴾^(٥) ؟ (١ : ٤٨) .

وغير مستحيل ما روينا في ذلك عن ابن عباس من القول ، وهو أن يكون الله
تعالى ذكره خلق الأرض ولم يدحها ، ثم خلق السموات فسواهن ، ثم دحا
الأرض بعد ذلك ، فأخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها ، بل ذلك
عندي هو الصواب من القول في ذلك ؛ وذلك أن معنى الدحو غير معنى الخلق ،
وقد قال الله عز وجل: ﴿ءَأَنْتُمْ أَشْدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾^(٦) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا^(٧) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا^(٨)

(١) بين علي وابن عباس انقطاع إلا أن المتن يشهد له ما أخرجه البخاري كما سنذكر .

(٢) إسناده ضعيف إلا أن البخاري أخرج في صحيحه ما يؤيده كما سنذكر بعد الآتي .

وَأَخْرَجَ ضَعْفَهَا ﴿٢٥﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٢٦﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٢٧﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَنَهَا ﴿٢٨﴾ . (١ : ٤٨ / ٤٩) .

فإن قال قائل : فإنك قد علمت أن جماعة من أهل التأويل قد وجهت قول الله : ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ إلى معنى «مع ذلك دحاها» ، فما برهانك على صحة ما قلت ، من أن «ذلك» بمعنى «بعد» التي هي خلاف «قبل» ؟

قيل : المعروف من معنى «بعد» في كلام العرب هو الذي قلنا من أنها بخلاف معنى «قبل» لا بمعنى «مع» ؛ وإنما توجّه معاني الكلام إلى الأغلب عليه من معانيه المعروفة في أهله ، لا إلى غير ذلك ^(٢) . (١ : ٤٩) .

وإذا كان الأمر كذلك كان خلق الأرض قبل خلق السموات ، ودخو الأرض وهو بسطها بأقواتها ومراعيها ونباتها ، بعد خلق السموات ، كما ذكرنا عن ابن عباس ^(٣) . (١ : ٥٠ / ٥١) .

(١) صحيح .

(٢) رجح الطبري هنا أن الأرض خلقت قبل السموات (ولكن بدون دحو) ثم خلق الله سبحانه السموات ثم دحا الأرض واعتمد على المعنى اللغوي واستشهد بروايتين ضعيفتين عن ابن عباس .

(٣) صحيح .

لقد ذكر الطبري رحمه الله آثاراً عن عدد من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم تبين جميعها أن كل يوم من الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض تعادل ألف سنة مما يعد البشر ، وهي أخبار راجحة فيها .

وهي تفاسير متأثرة بروايات أهل الكتاب ، والله سبحانه يقول في محكم التنزيل : ﴿مَّا أَشْهَدُكُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ .

فلا حجة إلا بخبر صحيح عن الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام وتبقى هذه الأقوال والأخبار احتمالات لا دليل لها سواء كانت راجحة عند الطبري أو غير راجحة عند غيره كابن الأثير (١ / ٤١) .

ولقد روى غير واحد من الأئمة عن ابن عباس خبراً لم يذكره الطبري في تأريخه حول هذه الآية :

قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى : أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف والحاكم وصححه عبد الله بن أبي مليكة قال :

(دخلت على عبد الله بن عباس أنا وعبد الله بن فيروز مولى عثمان بن عفان فقال له ابن =

القول في الليل والنهار أيهما خلق قبل صاحبه

وفي بدء خلق الشمس والقمر وصفتهما إذ كانت الأزمنة تعرف

حدثنا القاسم ، قال: حدثني الحسين ، قال: حدثني حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ﴾ ، قال: ليلاً ونهاراً كذلك خلقهما الله عز وجل^(١) . (١ : ٧٧) .

قال ابن جريج: وأخبرنا عبد الله بن كثير ، قال: ﴿فَحَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ ، قال: ظلمة الليل وسَدَفُ النهار^(٢) . (١ : ٧٧) .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال: حدثنا يزيد بن زريع ، قال: حدثنا سعيد عن قتادة ، قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ ، كنا نحدث أن محو آية الليل سوادُ القمر الذي فيه ، ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ ، منيرة ، وخلق الشمس أنورَ من القمر وأعظم^(٣) . (١ : ٧٧) .

حدثنا محمد بن عمرو ، قال: حدثنا أبو عاصم ، قال: حدثنا عيسى . وحدثني الحارث ، قال: حدثنا الحسن ، قال: حدثنا ورقاء جميعاً عن ابن

= فيروز: يا أبا عباس قوله: ﴿يَذِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ . فكان ابن عباس اتهمه فقال:

ما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة؟ قال: إنما سألتك لتخبرني ، فقال ابن عباس: هما يومان ذكرهما الله في كتابه الله أعلم بهما ، وأكره أن أقول في كتاب الله ما لا أعلم ، فضرب الدهر من ضرباته حتى جلست إلى ابن المسيب فسأله عنهما إنسان فلم يخبره ، ولم يدر . فقلت: ألا أخبرك بما حضرت من ابن عباس؟ قال: بلى ، فأخبرته فقال للسائل: هذا ابن عباس قد أبى أن يقول فيها ، وهو أعلم مني (فتح القدير ٣٠٢/٤) .

قلنا: ولو كان في بيان حقيقة الأيام الستة فائدة للمكلفين لذكره سبحانه في كتابه أو بينه على لسان نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام .

(١) صحيح .

(٢) صحيح .

(٣) صحيح .

أبي نَجِيع ، عن مجاهد: ﴿ وَجَعَلْنَا أَيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ﴾ ، قال: ليلاً ونهاراً ، كذلك جعلهما الله عزَّ وجلَّ^(١) . (١ : ٧٧) .

ولو صحَّ سندُ أحد الخبرين اللذين ذكرتهما لقلنا به؛ ولكن في أسانيدهما نظر؛ فلم نستجز قطع القول بتصحيح ما فيهما من الخبر عن سبب اختلاف حال الشمس والقمر؛ غير أنا بيقين نعلم أن الله عزَّ وجلَّ خالف بين صفتيهما في الإضاءة لما كان أعلم به من صلاح خلقه باختلاف أمريهما ، فخالف بينهما ، فجعل أحدهما مضيئاً مبصراً به ، والآخر ممحو الضوء^(٢) . (١ : ٧٨) .

وإنما ذكرنا قدر ما ذكرنا من أمر الشمس والقمر في كتابنا هذا ، وإن كنا قد أعرضنا عن ذكر كثير من أمرهما وأخبارهما ، مع إعراضنا عن ذكر بدء خلق الله السموات والأرض وصفة ذلك ، وسائر ما تركنا ذكره من جميع خلق الله في هذا الكتاب؛ لأنَّ قُصْدنا في كتابنا هذا ذكرُ ما قدمنا الخبر عنه أنَّ ذاكره فيه من ذكر الأزمنة وتأريخ الملوك والأنبياء والرسل ، على ما قد شرطنا في أول هذا الكتاب ، وكانت التأريخات والأزمنة إنما توقَّت بالليالي والأيام التي إنما هي مقادير ساعات جري الشمس والقمر في أفلاكهما على ما قد ذكرنا في الأخبار التي رويناها عن رسول الله ﷺ ، وكان ما كان قبل خلق الله عزَّ ذكره إياهما من خلقه في غير أوقات ولا ساعات ولا ليل ولا نهار^(٣) . (١ : ٧٨ / ٧٩) .

ذكر السبب الذي به هلك عدو الله

وسولت له نفسه من أجله الاستكبار على ربه عز وجل

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾؛ وجائز أن يكون فسوقه عن أمر ربه كان من أجل أنه كان من الجن ، وجائز أن يكون من أجل إعجابه بنفسه لشدة اجتهاده في عبادة ربه ، وكثرة

(١) صحيح .

(٢) صحيح .

(٣) صحيح .

علمه ، وما كان أوتي من مُلك السماء الدنيا والأرض وخَزَن الجنان . وجائز أن يكون لغير ذلك من الأمور ، ولا يُدرك علم ذلك إلاّ بخبر تقوم به الحجة ، ولا خبر في ذلك عندنا كذلك ، والاختلاف في أمره على ما حكيناه ورويناه^(١) . (١ : ٨٨) .

(١) صحيح وانظر تعليقنا بعد قليل .

الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة

الواردة في خلق إبليس وقصته مع آدم عليه السلام

لقد ذكر الإمام الطبري رحمه الله روايات كثيرة في خلق إبليس اللعين وطبيعة عمله قبل طرده من رحمة الله وهل كان من الملائكة أم من الجن وما إلى ذلك ، ولم نجد فيها رواية مرفوعة صحيحة ، بل فيها روايات منكرة مخالفة لما في كتاب الله من آيات صريحة واضحة المعنى ، وسنذكر هنا طرفاً من الآيات القرآنية الكريمة وبعضاً من الأحاديث الصحيحة الواردة في إبليس .

ولكن قبل ذلك نود أن نذكر رأي الطبري نفسه في بعض تلك الروايات ثم رأي الحافظ ابن كثير رحمه الله فيها :

قال الإمام محمد بن جرير الطبري رحمه الله تعالى بعد أن ذكر روايات عدة في أسباب إخراج آدم عليه السلام (وهي أسباب محتملة) . قال الطبري :
ولا يدرك علم ذلك إلاّ بخبر تقوم به الحجة ، ولا خبر في ذلك كذلك والاختلاف في أمره على ما حكيناه ورويناه (تأريخ الطبري ٨٨/١) .

قلنا : وأما الحافظ ابن كثير وهو مؤرخ ومحدث ومفسر فقد ذكر روايات عدة (من روايات الطبري وغيره) تذكر أن إبليس كان صاحب عبادة وأنه كان رئيس الملائكة في السماء الدنيا ، أو أنه كان خازناً من خزنة الجنة وأنه كان يدبر أمر السماء الدنيا . . . إلخ .
ثم عقب الحافظ ابن كثير رحمه الله قائلاً :

وقد روي في هذا آثار كثيرة عن السلف وغالبها من الإسرائيليات التي تنقل لينظر فيها ، والله أعلم بحال كثير منها ، ومنها ما يقطع بكذبه لمخالفته الحق الذي بأيدينا ، وفي القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان وقد وضع فيها أشياء كثيرة وليس لهم (يعني لأهل الكتاب) من الحفاظ المتقنين الذي ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، كما لهذه الأمة من الأئمة العلماء والسادة الأتقياء البررة النجباء .
ومن الجهابذة النقاد والحفاظ الجياد الذين دَوَّنوا الحديث وحرَّروه وبينوا صحيحه من حسنه ومن ضعيفه ، ومن منكروه وموضوعه ومتروكه ومكذوبه .

وعرفوا النواصب والكذابين والمجهولين وغير ذلك من أصناف الرجال ، كل ذلك صيانة للجناب النبوي والمقام المحمدي خاتم الرسل وسيد البشرية عليه أفضل التحيات والصلوات والتسليمات أن ينسب إليه كذب أو يحدث عنه بما ليس منه . فرضي الله عنهم وأرضاهم
(تفسير القرآن العظيم ٢١٧١) .

١ - قال الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه :

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ۖ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ۖ ﴾ [الرحمن: ١٥ - ١٤].

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُورِ ﴾ [الحجر: ٢٧].

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه كتاب الزهد (٢٩٩٦/٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من نار، وخلق آدم مما وصف لكم».

وقال الحق سبحانه في كتابه الكريم: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِ أَنْسَجِدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠].

وأخرج الطبري في تفسيره (٢٦٠/١٥) عن الحسن البصري رحمه الله قال: (ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط... الخبر).

وقال الحافظ ابن كثير: رواه ابن جرير بسند صحيح (تفسير القرآن العظيم ٥/٢١٧٠).

٢ - وقال الحق سبحانه: ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخِّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَآتِيَنَّكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ۖ ﴾ قَالَ أَهَبْ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَنْ قُورًا ۖ وَأَسْتَفْزِرُ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَلَأَبْغِيَنَّكَ وَرَجْلَكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۖ ﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الاسراء: ٦٢ - ٦٥].

المعنى أن إبليس اللعين قال للرب جراءة وكفراً: هذا الذي شرفته وعظمته عليّ لن أخترني (أنظرني) لأحتنك أي لأضلن ذريته إلا قليلاً منهم.

ومعنى (أذهب): أي فقد أنظرتك كما في الآية الأخرى ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۖ ﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۖ ثُمَّ أَوْعَدَهُ وَمَنْ تَبِعَهُ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ جَهَنَّمَ فَقَالَ:

﴿ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَنْ قُورًا ۖ ﴾ أي: على أعمالكم ﴿ جَزَاءُ مَنْ قُورًا ۖ ﴾ أي: وافراً لا ينقص منه، ﴿ وَأَسْتَفْزِرُ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ۖ ﴾ كل داع دعا إلى معصية الله عز وجل ﴿ وَأَسْتَفْزِرُ ۖ ﴾ أي: استخفهم بذلك.

﴿ وَلَأَبْغِيَنَّكَ وَرَجْلَكَ ۖ ﴾ أي: واحمل عليهم بجنودك خيالتهم ورجلتهم فإن الرجل جمع راجل ومعناه تسلط عليهم بكل ما تقدر عليه.

ومنه قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَأْنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تُوْزَعُونَ أَرْسًا ۖ ﴾ أي: ترعجهم إلى المعاصي إزعاجاً وتسوقهم إليها سوقاً، وقال مجاهد: ﴿ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ ۖ ﴾ كل راكب وماشٍ في معصية الله، وقال قتادة: إن له خيلاً ورجلاً من الجن والإنس وهم الذين يطيعونه.

قلنا: وقريباً من هذا المعنى تفسير قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ ۖ ﴾

وَالْحِجَ يُوْحَى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوَلِ غُرُورًا ﴿١٠٨٥﴾. (تفسير ابن كثير بتصرف واختصار وإضافات).

٣ - وأخرج مسلم في صحيحه (كتاب الجنة/٤/٢١٩٧) قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم».

وأخرج البخاري (٦/٣٣٥) ومسلم (٢/١٠٨٥) قال رسول الله ﷺ: «لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال: باسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبدا».

وقد أورد الحافظ ابن كثير هذين الحديثين الشريفين في تفسير قوله تعالى ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ ثم ذكر رأي الطبري في تفسير هذه الآية فقال:

قال ابن جرير: وأولى الأقوال بالصواب أن يقال كل مولود ولدته أنثى عصي الله فيه بتسميته بما يكرهه الله أو بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه الله، أو بالزنى بأمه، أو بقتله ووأده، أو غير ذلك من الأمور التي يعصى الله بفعله به أو فيه، فقد دخل في مشاركة إبليس فيه من ولد ذلك الولد له أو منه، لأن الله لم يخصص بقوله ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ معنى الشركة فيه بمعنى دون معنى فكل ما عصي الله فيه أو به، وأطيع فيه الشيطان أو به فهو مشاركة).

ثم قال الحافظ ابن كثير: وهذا الذي قاله متجه، وكل من السلف رحمهم الله فسر بعض المشاركة ثم ذكر ابن كثير الحديثين الأنفي الذكر (تفسير القرآن العظيم/٥/٢١٠٨).

٤ - وأخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث جابر رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إن الشيطان يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه في الناس فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة، يجيء أحدهم فيقول ما زلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا، فيقول إبليس والله ما صنعت شيئا، ويجيء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله قال فيقربه ويدينه ويلتزمه ويقول نعم أنت». صحيح مسلم (كتاب المناقبين ح ٦٧/٢٨١٣).

٥ - وأخرج الترمذي في سننه (كتاب تفسير القرآن/ح/٢٩٨٨) وابن حبان (كتاب الرقائق/ح ٩٩٧) من حديث ابن مسعود مرفوعا:

«إن للشيطان لَلمَّةَ بآدم، وللملك لَلمَّةَ، فأما لمة الشيطان فإنها بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان ثم قرأ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب وهو حديث أبي الأحوص لا نعلمه مرفوعا إلا من حديث أبي الأحوص.

٦ - وأخرج البخاري في صحيحه (كتاب بدء الخلق/ ح ٣٢٩٢) (قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان فإذا حلم أحدكم حلمًا يخافه فليصق عن يساره وليتعوذ بالله من شرها فإنها لا تضره»).

٧ - وأخرج البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ: «الملائكة تحدث في العنان» والعنان: الغمام (بالأمر يكون في الأرض فتسمع الشياطين الكلمة فتقرها في أذن الكاهن كما تقر القارورة فيزيدون معها مئة كلمة» (صحيح البخاري/ كتاب بدء الخلق/ صفة إبليس وجنوده/ ح ٣٢٨٨).

وفي رواية أخرى «فيخلطون معها مئة كذبة» صحيح البخاري/ كتاب التوحيد/ (ح ٧٥٦١).
٨ - وأخرج الإمام أحمد في مسنده عن سبرة بن أبي فاكه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام فقال له: أتسلم فتذر دينك ودين آبائك وأباء أبيك؟ قال: فعصاه فأسلم ثم قعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك؟ وإنما مثل المهاجر كمثّل الفرس في الطول، قال: فعصاه فهاجر. قال: ثم قعد له بطريق الجهاد فقال: هو جهد النفس والمال فتقاتل فتقتل فتتخضع المرأة ويُقسم المال، قال: فعصاه فجاهد، فقال رسول الله ﷺ: فمن فعل ذلك منهم فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنة أو قتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو وقصته دابته كان حقاً على الله أن يدخله الجنة».

(مسند أحمد/ ح ١٥٩٥٨).

قال العلامة أرناؤوط: إسناده قوي (مسند أحمد ٣١٦/٢٥) والحديث أخرجه ابن حبان (ح ٤٥٩٣) والطبراني في الكبير (ح ٦٥٥٨).

شرح غريب الحديث:

(مثل المهاجر كمثّل الفرس في الطول) أي أن الشيطان يريد أن يصور للإنسان الذي يريد الهجرة بدينه أن المهاجر يصير كالرجل المقيد خارج بلاده، كالفرس في الطول يدور ويرعى بقدر ذلك المكان والمهاجر يصير كذلك مقيداً لا يختلط به الناس لأنه غريب عنهم ومن غير بلادهم.

(والأطرق): جمع طريق. و(جهد المال والنفس): كناية عن إضاعة المال وجلب المشقة على النفس والله أعلم.

٩ - قال الله سبحانه في سورة الأعراف:

﴿يَبْنِيْ اٰدَمَ لَا يَفْنٰىنَّكُمْ الشَّيْطٰنُ كَمَا اَخْرَجَ اٰوٰىكُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ يَزْعُمُ عَنْهُمَا لِاٰسَئِمَّا لِّرِيْهِمَا سَوَءٌ ۚ اِنَّهُٗ يَرٰنَكُمْ هُوَ وَقَبِيْلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرٰوْنَهُمْ ۚ اِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطٰنَ اَوْلٰىءَ لِلَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ﴾ [الأعراف: ٢١].

وسنأتي على تفسير هذه الآية فيما يأتي من قصة آدم إن شاء الله تعالى:

وقال سبحانه وتعالى:

حدثني يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدثنا ابن عُليّة عن عَوْفٍ - وحدثنا محمد بن بَشَّار وعمر بن شَبَّه ، قالوا : حدثنا يحيى بن سعيد ، قال : حدثنا عوف . وحدثنا ابن بَشَّار ، قال : حدثنا ابن أبي عديّ ومحمد بن جعفر وعبد الوهاب الثقفي ، قالوا : حدثنا عوف . وحدثني محمد بن عُمارة الأسديّ ، قال : حدثنا إسماعيل بن أبان ، قال : حدثنا عَنبَسَة عن عوف الأعرابيّ عن قَسَّامة بن زُهَيْر ، عن أبي موسى الأشعريّ ، قال : قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةِ قَبْضِهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدَرِ الْأَرْضِ ؛ جَاءَ مِنْهُمْ الْأَحْمَرُ ، وَالْأَسْوَدُ ، وَالْأَبْيَضُ ، وَبَيْنَ ذَلِكَ ، وَالسَّهْلُ ، وَالْحَزَنُ ، وَالْخَبِيثُ ، وَالطَّيِّبُ ، ثُمَّ بُلِّغْتُ طِينَتَهُ حَتَّى صَارَتْ طِيناً لَازِباً ، ثُمَّ تُرِكَتْ حَتَّى صَارَتْ حَمَاً مَسْنُوناً ، ثُمَّ تَرَكْتُ حَتَّى صَارَتْ صَلْصَالاً كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ ^(١) . (١ : ٩١) .

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ^(٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ^(٣) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ ^(٤) إِنَّ عِبَادِي لَكَلَّ عَلَيْهِنَّ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ آتَيْتَكَ مِنَ الْغَايِبِينَ ^(٥) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر : ٣٩ - ٤٣] .

١٠ - وطبيعة الشيطان العدائية لبني آدم معروفة لمن قرأ كتاب الله كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُرْهُدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ وهو بطبيعته العدوانية هذه يحاول التدخل في كل صغيرة وكبيرة من شؤون الحياة اليومية عسى أن يجبر الإنسان إلى باب من أبواب المعصية كما في صحيح البخاري «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم» . وحتى في أخصص الخصوصيات ولذلك أمرنا الإسلام أن نكون حذرين في كل صغيرة وكبيرة كي لا نقع في معصية أو تلبس إبليس .

وقد ورد في صحيح البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما : (لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال : اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فإن كان بينهما ولد لم يضره الشيطان ولم يسلط عليه) . (صحيح البخاري : كتاب بدء الخلق ح/ ٣٢٨٣) . وفي القرآن الكريم آيات قرآنية كثيرة تتحدث عن طبيعة إبليس اللعين ودوره في إفساد المجتمعات . ولنا في الأحاديث الصحيحة والآيات القرآنية كفاية لله الحمد وله المنة والفضل . وقد جمع الحافظ ابن كثير أحاديث كثيرة عند حديثه عن إبليس في بداية كتابه القيم البداية والنهاية فليراجع .

(١) هذا إسناد مركب صحح مداره على عوف الأعرابي وهو ثقة .
والشطر الأول من الحديث أخرجه الترمذي (ح ٢٩٥٥) وقال : حسن صحيح . وأخرج أحمد شطره الأول كذلك .

وحدثنا ابن بَشَّار ، قال : حدثنا يحيى بن سعيد وعبد الرحمن بن مهدي ، قالوا : حدثنا سفيان عن الأعمش ، عن مسلم البطين ، عن سعيد بن جُبَيْر ، عن ابن عباس ، قال : خُلِقَ آدم من ثلاثة : من صلصال ، ومن حمأ ، ومن طين لازب . فأما اللازب فالجيد ، وأما الحمأ فالحمئة ، وأما الصلصال فالتراب المدقق ، ويعني تعالى ذكره بقوله : ﴿ مِنْ صَلْصَلٍ ﴾ ؛ من طين يابس له صلصلة ، والصلصلة : الصوت^(١) . (١ : ٩١) .

حدثني محمد بن خلف ، قال : حدثنا آدم بن أبي إياس ، قال : حدثنا أبو خالد سليمان بن حيَّان ، قال : حدثني محمد بن عمرو عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، عن النبي عليه الصلاة والسلام . قال أبو خالد : [وحدثني الأعمش عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ] . قال أبو خالد : وحدثني داود بن أبي هند عن الشعبي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ . قال أبو خالد : وحدثني ابن أبي ذباب الدؤسي ، قال : حدثني سعيد المقبري ، ويزيد بن هرمز عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ أنه قال : « خلق الله عز وجل آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا له ، فجلس فعطس فقال : الحمد لله ، فقال له ربُّه : يرحمك ربك ، إيت أولئك الملائكة فقل لهم : السلام عليكم . فأتاهم فقال : السلام عليكم ، فقالوا له : وعليك السلام ورحمة الله ، ثم رجع إلى ربه عز وجل فقال له : هذه تحيتك وتحية ذريتك بينهم^(٢) . (١ : ٩٦) .

- = وقال العلامة أرناؤوط : إسناده صحيح ، رجاله رجال الشيخين غير قسامة فقد روى له أصحاب السنن سوى ابن ماجه وهو ثقة . (المسند/ ح ١١٥٨٢) .
- ولفظه (إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك) .
- من حديث أبي موسى مرفوعاً (المسند/ ح ١٩٥٨٢) وأخرجه أبو داود (٤/٤٦٩٣) وأخرجه البيهقي في السنن (٣/٩) . والله أعلم . (٢/٢٦٢) وقال صحيح الإسناد وأقره الذهبي ، وأخرجه ابن حبان (بدء الخلق/ ح ١١٦٠) والله أعلم .
- (١) هذا إسناده موقوف صحيح إلى ابن عباس والثلاثة التي ذكرها مذكورة في القرآن وهذا الأثر تفسير لغوي لهذه الألفاظ والله أعلم .
- (٢) مدار هذه الرواية على سليمان بن حبان صدوق ، والحديث أخرجه ابن حبان من طريق آخر عن سعيد المقبري عن أبي هريرة مرفوعاً وقال أرناؤوط : إسناده قوي (الموارد ح ٢٠٨٢) . =

فلما أظهر إبليس من نفسه ما كان له مخفياً فيها من الكبر والمعصية لربه ، وكانت الملائكة قد قالت لربها عز وجل حين قال لهم : إني جاعل في الأرض خليفة : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . فقال لهم ربهم : إني أعلم ما لا تعلمون ، تبين لهم ما كان عنهم مستتراً ، وعلموا أن فيهم من منه المعصية لله عز وجل والخلاف لأمره^(١) . (١ : ٩٦) .

ثم علم الله عز وجل آدم الأسماء كلها . واختلف السلف من أهل العلم قبلنا في الأسماء التي علمها آدم : أخصاً من الأسماء علم ، أم عامّاً؟ فقال بعضهم : علم اسم كل شيء^(٢) . (١ : ٩٦) .

* ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عماره عن أبي رَوْق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، قال : علم الله تعالى آدم الأسماء كلها ، وهي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس : إنسان ، ودابة ، وأرض ، وسهل ، وبحر ، وجبل ، وحمار ؛ وأشباه ذلك من الأمم وغيرها^(٣) . (١ : ٩٧) .

حدثني أحمد بن إسحاق الأهوازي ، قال : حدثنا أبو أحمد ، حدثنا شريك عن عاصم بن كليب ، عن الحسن بن سعد ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَعَلَّمَ ﴾

= وأخرجه البيهقي (١٠/ح ٢٠٥٢٠) من طريق المقرئ عن أبي هريرة . وأخرج البخاري في صحيحه (كتاب أحاديث الأنبياء/ ح ٣٣٢٦) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : (خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً ثم قال اذهب فسلم على أولئك النفر من الملائكة واستمع ما يجيبونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك .

فقال السلام عليكم فقالوا : وعليك السلام ورحمة الله ، فزادوه ورحمة الله . فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن) .

(١) قول الطبري هنا في آخر المقطع (وعلموا أن فيهم من منه المعصية لله عز وجل والخلاف لأمره) فيه نظر .

فإن كان يعني به إبليس كان من الملائكة فلا إلا إذا كان يعني أن إبليس وهو جني كان حاضراً مع ذلك الجمع من الملائكة ولكنه كان يخفي في نفسه الكبر والمعصية والله أعلم .

(٢) صحيح .

(٣) صحيح .

ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ، قال : علمه اسم كل شيء ، حتى الفُسُوءَ والفُسَيَّةَ ^(١) . (١) : (٩٧) .

حدثني علي بن الحسن ، حدثنا مسلم الجرمي ، قال : حدثنا محمد بن مصعب عن قيس بن الربيع ، عن عاصم بن كليب ، عن سعيد بن معبد ، عن ابن عباس في قول الله عز وجل : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ قال : علمه اسم كل شيء حتى الهَنَّةَ والهَيْئَةَ ، والفُسُوءَ والضرطة ^(٢) . (١ : ٩٧) .

حدثنا محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبو عاصم ، قال : حدثنا عيسى بن ميمون ، عن ابن أبي نجیح ، عن مجاهد ؛ في قول الله عز وجل : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ قال : ما خلق الله تعالى كله ^(٣) . (١ : ٩٧) .

حدثنا ابن وكيع ، قال : حدثنا أبي عن سفيان ، عن خَصِيف ، عن مجاهد : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ قال : علمه اسم كل شيء ^(٤) . (١ : ٩٧) .

حدثنا سفيان ، قال : حدثنا أبي عن شريك ، عن سالم الأفطس ، عن سعيد بن جُبَيْر ، قال : علمه اسم كل شيء ؛ حتى البعير ، والبقرة ، والشاة ^(٥) . (١ : ٩٨) .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا مَعْمَر ، عن قتادة في قوله عز وجل : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ ، قال : علمه اسم كل شيء : هذا جبل ، وهذا بحر ، وهذا كذا ، وهذا كذا ، لكل شيء ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال : ﴿ أَنْثُوْنِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ^(٦) . (١ : ٩٨) .

حدثنا بشر بن مُعَاذ ، حدثنا يزيد بن زُرَيْع عن سعيد ، عن قَتَادَةَ ، قوله عز وجل : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ حتى بلغ ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ ، قال :

(١) صحيح .

(٢) صحيح .

(٣) صحيح .

(٤) صحيح .

(٥) صحيح .

(٦) صحيح .

يا آدم أنبتهم بأسمائهم ، فأنبأ كلَّ صِنْفٍ من الخلق باسمه ، وألجأه إلى جنسه^(١) .
(١ : ٩٨) .

حدثنا القاسم بن الحسن ، قال : حدثنا الحسين بن داود ؛ قال : حدثنا حجاج عن جرير بن حازم ومبارك ، عن الحسن وأبي بكر ، عن الحسن وقتادة ، قالوا : علّمه اسم كل شيء ؛ هذا الخيل ، وهذه البغال ، والإبل ، والجن ، والوحش ، وجعل يسمّي كلَّ شيء برسمه^(٢) . (١ : ٩٨) .

* ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد بن زُرَيْع ، قال : حدثنا سعيد عن قتادة : قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ ، فاستشار الملائكة في خلق آدم عليه السلام فقالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ ، وقد علمت الملائكة من علم الله أنه لا شيء أكره إلى الله عزّ وجلّ من سفك الدماء والفساد في الأرض ، ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ، فكان في علم الله عزّ وجلّ أنه سيكون من تلك الخليقة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة .

قال : وذكر لنا أن ابن عباس كان يقول : إن الله تعالى لما أخذ في خلق آدم قالت الملائكة : ما الله تعالى بخالق خلقاً أكرم عليه منا ، ولا أعلم منا ، فابتلوا بخلق آدم عليه السلام - وكلّ خلق مبتلى ، كما ابتليت السموات والأرض بالطاعة - فقال الله تعالى : ﴿ أَتَبَيَّطُونَكَ أَوْ كَرِهًا قَالْنَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾^(٣) . (١ : ١٠٠ / ١٠١) .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد بن زُرَيْع ، قال : حدثنا سعيد عن

(١) صحيح .

(٢) صحيح .

قلنا : هذه آثار عن الصحابة والتابعين تؤكد على أنه سبحانه وتعالى علم آدم اسم كل شيء ويؤيد ذلك ما أخرجه البخاري في صحيحه مرفوعاً (فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقتك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء... الحديث) ضمن حديث طويل .

(٣) إسناد مرسل صحيح .

قتادة: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ، يعني: حواء ، خلقت من آدم من ضلع من أضلاعه^(١). (١: ١٠٥).

القول في قدر مكث آدم في الجنة ووقت خلق الله عز وجل إياه ووقت إهباطه إياه من السماء إلى الأرض

* ذكر الأخبار عن رسول الله ﷺ بذلك :

حدثني عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحَكَم ، قال : حدثنا علي بن مَعْبَد ، قال : حَدَّثَنَا عبيد الله بن عمرو عن عبد الله بن محمد بن عَقِيل ، عن عمرو بن شُرْحُبِيل عن سعيد بن سعد بن عُبَادَة ، عن سعد بن عُبَادَة ، عن رسول الله ﷺ ، قال : «إِنَّ فِي الْجُمُعَةِ خَمْسَ خَلَالَ : فِيهِ خُلِقَ آدَمُ ، وَفِيهِ أَهْبِطَ إِلَى الْأَرْضِ ، وَفِيهِ تَوَفَّى اللَّهُ آدَمَ ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يَسْأَلُ الْعَبْدُ فِيهَا رَبَّهُ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ ؛ مَا لَمْ يَسْأَلْ إِثْمًا أَوْ قَطِيعَةً ، وَفِيهِ : تَقُومُ السَّاعَةُ ، وَمَا مِنْ مَلِكٍ مُقَرَّبٍ . وَلَا سَمَاءٌ وَلَا جَبَلٌ وَلَا أَرْضٌ وَلَا رِيحٌ ؛ إِلَّا مَشْفُوقٌ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ»^(٢). (١ : ١١٣).

حدثني محمد بن بشار ومحمد بن مَعْمَر ، قالا : حدثنا أبو عامر ، حدثنا زُهَيْر بن محمد عن عبد الله بن محمد بن عَقِيل ، عن عبد الرحمن بن يزيد الأنصاري ؛ عن أَبِي لُبَابَةَ بن عبد المنذر ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : «سَيِّدُ الْأَيَّامِ يَوْمُ الْجُمُعَةِ وَأَعْظَمُهَا ، وَأَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ يَوْمِ الْفِطْرِ وَيَوْمِ النَّحْرِ ؛ وَفِيهِ خَمْسَ خَلَالَ : خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ آدَمَ ، وَأَهْبِطَهُ فِيهِ إِلَى الْأَرْضِ ، وَفِيهِ تَوَفَّى اللَّهُ تَعَالَى آدَمَ ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يَسْأَلُ اللَّهُ الْعَبْدَ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ مَا لَمْ يَكُنْ حَرَامًا . وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ ؛ مَا مِنْ مَلِكٍ مُقَرَّبٍ وَلَا سَمَاءٍ وَلَا أَرْضٍ وَلَا جِبَالٍ وَلَا رِيَّاحٍ وَلَا بَحْرٍ إِلَّا وَهُوَ مَشْفُوقٌ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ أَنْ تَقُومَ فِيهِ السَّاعَةُ» . وَاللَّفْظُ لِحَدِيثِ ابْنِ بَشَارٍ^(٣). (١ : ١١٣).

(١) صحيح .

(٢) إسناده ضعيف وأخرجه الشافعي من طريق عبد الله بن محمد هذا (المسند ١/ ٣٧٦) وشطر من متنه صحيح كما سيأتي .

(٣) في إسناده زهير بن محمد ضعفه غير واحد وقال أبو حاتم محله الصدق وفي حفظه سوء ، وكان حديثه بالشام أنكر من حديثه بالعراق لسوء حفظه مما حدث من حفظه ففيه أغاليط وما حدث من كتبه فهو صالح (تهذيب الكمال/ ٢٠٠٢) .

حدثنا محمد بن معمر ، قال : حدثنا أبو عامر ، قال : حدثنا زهير بن محمد عن عبد الله بن محمد بن عجيل ، عن عمرو بن شرحبيل بن سعيد بن سعد بن عبادة عن أبيه ، عن جده ، عن سعد بن عبادة ، أن رجلاً أتى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، أخبرنا عن يوم الجمعة ، ماذا فيه من الخير؟ فقال : «فيه خلق آدم ، وفيه أهبط آدم ، وفيه تُوفي آدم ، وفيه ساعة لا يسأل العبد فيها شيئاً إلا أعطاه الله إياه؛ ما لم يسأل مأثماً أو قطيعة ، وفيه تقوم الساعة؛ ما من ملك مقرَّب ولا سماء ولا أرض ولا جبال ولا ريح إلا هنَّ يُسفِقن من يوم الجمعة»^(١) . (١ : ١١٤) .

حدثني عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحَكَم ، قال : حدثنا أبو زُرْعَةَ ، قال : أخبرني يونس ، عن ابن شهاب ، عن عبد الرحمن الأعرج ، أنه سمع أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : «خير يوم طلعت الشمس عليه يوم الجمعة؛ فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة وأُخرج منها»^(٢) . (١ : ١١٤) .

حدثني بحر بن نصر ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرني ابن أبي الزناد عن أبيه ، عن موسى بن أبي عثمان ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : «سيد الأيام يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أُخرج منها ، ولا تقوم الساعة إلا يوم الجمعة»^(٣) . (١ : ١١٤) .

حدثنا الربيع بن سليمان ، قال : حدثنا شعيب بن اللَّيْث ، قال : حدثنا اللَّيْث بن سعد عن جعفر بن ربيعة ، عن عبد الرحمن بن هُرْمَز ، أنه قال : سمعت

(١) إسناده ضعيف والحديث يؤيده ما بعده من حديث أبي هريرة كما سنذكر .

(٢) في إسناده أبو زُرْعَةَ (وهب الله بن راشد) ذكره ابن حبان في الثقات وقال يخطيء . وقال أبو حاتم محله الصدق (لسان الميزان ترجمة ٩١٤١/٩٤٣٧) .

والحديث صحيح أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة (١/ح ١٠٤٦) والحاكم في المستدرک (٢٧٧/١) والترمذي في سننه (١/٤٩٧) وشطر منه عند مسلم (١/٨٥٤) .
(٣) لفظة (سيد الأيام) وردت في رواية الطبري هذه وأخرجه الحاكم في المستدرک (١/٢٧٧) وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم فقد استشهد بعبد الرحمن بن أبي الزناد ولم يخرجوا (سيد الأيام) . اهـ .

قلنا : وعبد الرحمن هذا ضعفه عدد غير قليل من الأئمة وروى له مسلم في مقدمة صحيحه وقال الحافظ : صدوق تغير حفظه لما قدم بغداد .

أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «لم تطلع الشمس على يوم مثل يوم الجمعة؛ فيه خلق آدم، وفيه أخرج من الجنة، وفيه أعيد فيها»^(١). (١: ١١٤).

حدثنا أبو كُرَيْب، قال: حدثنا إسحاق بن منصور عن أبي كُدَيْثَةَ، عن مغيرة، عن زياد، عن إبراهيم، عن علقمة، عن القُرْثَع، عن سلمان، قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدري ما يوم الجمعة؟ هو يوم جَمَعَ فيه أبوك»، أو «أبوكم آدم» عليه السلام^(٢). (١: ١١٥).

حدثنا أبو كُرَيْب، قال: حدثنا حسن بن عطية، قال: حدثنا قيس عن الأعمش، عن إبراهيم. عن القُرْثَع، عن سلمان، قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدري ما الجمعة؟» أو قال: كذا، «فيها جَمَعَ أبوكم آدم»^(٣). (١: ١١٦/١١٥).

حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق، قال: سمعت أبي يقول: أخبرنا أبو حمزة عن منصور، عن إبراهيم، عن القُرْثَع، عن سلمان، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أتدري ما يوم الجمعة؟» قلت: لا، قال: «فيه جمع أبوك»^(٤). (١: ١١٦).

ذكر الوقت الذي فيه خلق آدم عليه السلام من يوم الجمعة والوقت الذي أهبط إلى الأرض

اختلف في ذلك، فروي عن عبد الله بن سلام وغيره في ذلك ما حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا ابن إدريس، قال: أخبرنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أسكن الجنة، وفيه أهبط، وفيه تقوم الساعة، وفيه ساعة - [يقُلُّها] - لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى فيها خيراً إلا

(١) إسناده صحيح والحديث صحيح كما سبق.

(٢) حديث صحيح أخرجه الحاكم كما ذكرنا وابن خزيمة (ح/١٧٣٢) بأطول من هذا وصحح الدكتور الأعظمي إسناده وقال أخرجه الطبراني وأحمد. ا هـ.

(٣) صحيح.

(٤) صحيح.

آتاه الله إياه» ، فقال عبد الله بن سلام : قد علمت أي ساعة هي ، هي آخر ساعات النهار من يوم الجمعة ، قال الله عز وجل : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾^(١) . (١ : ١١٧) .

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا المحاربى وعبد بن سليمان وأسد بن عمرو ؛ عن محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبو سلمة عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ نحوه ، وذكر فيه كلام عبد الله بن سلام بنحوه^(٢) . (١ : ١١٧) .

القول في الموضع الذي أهبط آدم وحواء إليه

من الأرض حين أهبطا إليها

فهذا الذي قاله هؤلاء هو أولى بالصواب ، وأشبه بما دل عليه كتاب ربنا عز وجل ، وذلك أن الله عز ذكره لما تقدم إلى آدم وزوجته حواء بالنهي عن طاعة عدوهما ، قال لآدم : ﴿ يَتَّعِدُمْ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾^(٣) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴾^(٤) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴾ ، فكان معلوماً أن الشقاء الذي أعلمه أنه يكون إن أطاع عدوّه إبليس ، هو مشقة الوصول إلى ما يُزيل الجوع والعُرَى عنه ؛ وتلك هي الأسباب التي بها يصل أولاده إلى الغذاء ، من حراثة وبذر وعلاج وسقي ، وغير ذلك من الأسباب الشاقة المؤلمة . ولو كان جبريل آتاه بالغذاء الذي يصل إليه ببذره دون سائر المؤمن غيره ، لم يكن هناك من الشقاء الذي توعدّه به ربه على طاعة الشيطان ومعصية الرحمن كبير خطب ، ولكن الأمر كان - والله أعلم - على ما روينا عن ابن عباس وغيره^(٥) . (١ : ١٣٠) .

وقد حدثني أحمد بن محمد الطوسي ، قال : حدثنا الحسين بن محمد ، قال : حدثنا جرير بن حازم عن كلثوم بن جبر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ ، قال : أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان - يعني عرفة - فأخرج

(١) وكذلك أخرجه ابن أبي حاتم من طريق يزيد بن هارون عن محمد بن عمرو وإسناده حسن صحيح والله أعلم .

(٢) صحيح .

(٣) صحيح .

من صلبه كلّ ذرية ذرأها ، فنثرهم بين يديه كالذّر ، ثم كلمهم قُبلاً ، وقال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ... ﴾ إلى قوله : ﴿ بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾^(١) . (١ : ١٣٤) .

حدثني عمران بن موسى القزاز ، حدثنا عبد الوارث بن سعيد ، قال : حدثنا كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبّير ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ ، قال : مسح ربنا ظهر آدم ، فخرجت كلّ نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة بنعمان هذه - وأشار بيده - فأخذ موثيقهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألسنت بربكم؟ قالوا : بلى^(٢) . (١ : ١٣٤) .

حدثنا ابن وكيع ، قال : حدثنا عمران بن عيّنة عن عطاء ، عن سعيد بن جبّير ، عن ابن عباس ، قال : أهبط آدم حين أهبط فمسح الله ظهره ، فأخرج منه كلّ نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، ثم قال : ألسنت بربكم؟ قالوا : بلى ، ثم تلى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ ؛ فجفّ القلم من يومئذ بما هو

(١) إن كان شيخ الطبري هنا أحمد بن محمد بن نيزك الطوسي فإسناده حسن صحيح ، وعلى أية حال فإن حديث ابن عباس هنا أخرجه الحاكم في المستدرک من طريق الحسن بن محمد المردودي ثنا جرير بن حازم عن كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبّير عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : «أخذ الله الميثاق من ظهر آدم عليه السلام . . . إلخ الحديث» كما عند الطبري وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (المستدرک ٥٤٣/٢) وأخرجه قبل ذلك في (٢٧/١) من طريق وهب بن جرير بن حازم - ثنا أبي عن كلثوم بن جرير . عن سعيد بن جبّير عن ابن عباس عن النبي ﷺ . . . الحديث . وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقد احتج مسلم بكلثوم بن جبر ووافقه الذهبي (المستدرک مع التلخيص ٢٧/١) قلنا : والحديث أخرجه النسائي في الكبرى (١١١٩١) وقال : كلثوم هذا ليس بالمحفوظ . اهـ .

قلنا : والحديث أخرجه أحمد في مسنده (ح ٢٤٥٥) عن ابن عباس مرفوعاً وذكره الحافظ ابن كثير بسنده عند أحمد ثم قال : فهو إسناد جيد قوي على شرط مسلم (البدایة والنهاية ١/١٤٤ ط . الفكر) .

وسنأتي على كلام العلماء في ترجيح وقفه أو رفعه بعد ذكر الروايات الموقوفة الآتية عند الطبري .

(٢) هذا الخبر أخرجه الطبري هنا مرفوعاً وانظر ما بعده .

كائن إلى يوم القيامة^(١). (١ : ١٣٤ / ١٣٥).

(١) هكذا رواه الطبري موقوفاً وقد رواه قبل مرفوعاً. وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى بعد إيراده للرواية المرفوعة عند أحمد:

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه إلا أنه اختلف فيه على كلثوم بن جبر. فروى عنه مرفوعاً وموقوفاً وكذا روي عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس موقوفاً. وهكذا رواه العوفي والوالي والضحاك وأبو جمرة عن ابن عباس قوله: وهذا أكثر وأثبت والله أعلم.

وهكذا روي عن عبد الله بن عمر موقوفاً ومرفوعاً والموقوف أصح (البداية والنهاية ١/ ١٤٤).

وقال الشوكاني في تفسيره لهذه الآية من سورة الأعراف (١٧٢) وأخرج أحمد والنسائي وابن جرير والحاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعيمات يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنشرها بين يديه ثم كلمهم فقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ إلى قوله: ﴿الْمَبْطُونُ﴾ ثم قال الشوكاني رحمه الله وإسناده لا مطعن فيه، وقد أخرجه ابن أبي حاتم موقوفاً على ابن عباس (فتح القدير/ تفسير سورة الأعراف/ آية ١٧٢). قلنا: وأما من المعاصرين فإن الشيخ عبد الرزاق المهدي رجح وقفه وقال: (وهو أصح من المرفوع) وإن لم ينف الشيخ عبد الرزاق وجود الشواهد الكثيرة وبألفاظ متقاربة.

وأما المحدث الألباني فقد صحح رفعه (انظر السلسلة الصحيحة/ ح ١٦٢٣) قلنا: الحديث صحت روايته موقوفاً وكذلك مرفوعاً ويؤيد المرفوع ما يلي:

١ - الآية نفسها تشهد للحديث المرفوع وإن كان الحافظ ابن كثير ممن رجح الوقف.

٢ - وأخرجه الطبري في تفسيره من طريق أحمد بن أبي طيبة عن سفيان بن سعيد عن الأجلح عن الضحاك عن منصور عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «وَأَذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» قال: أخذ من ظهورهم كما يؤخذ بالمشط من الرأس. فقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ قالت الملائكة: ﴿شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَرِفِينَ﴾.

وقد أخرج الحافظ ابن كثير هذا الحديث ثم عقب قائلاً: أحمد بن أبي طيبة هذا أبو محمد الجرجاني قاضي قوقس، كان أحد الزهاد، أخرج له النسائي في سننه وقال أبو حاتم الرازي يكتب حديثه وقال: ابن عدي حدث بأحاديث كثيرة أكثرها غرائب، وقد روى هذا الحديث عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان الثوري عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قوله (أي موقوفاً) وكذا رواه جرير عن منصور به، وهذا أصح والله أعلم (تفسير القرآن العظيم/ ١٥٠٧).

قلنا: وهذا يعني أن الحافظ ابن كثير يرجح وقف هذه الرواية كذلك، أما الموقوف هنا فضعيف والله أعلم.

٣ - الشاهد الثالث: أخرج البخاري في صحيحه (كتاب أحاديث الأنبياء/ ح ٣٣٣٤) عن أنس =

حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري ، قال : حدثنا روح بن عبادة وسعد بن عبد الحميد بن جعفر ، عن مالك بن أنس ، عن زيد بن أبي أنيسة ، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، عن مسلم بن يسار الجهني ؛ أن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه سئل عن هذه الآية : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ ، فقال عمر : سمعت رسول الله ﷺ قال : «إن الله خلق آدم ثم مسح على ظهره بيمينه واستخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح على ظهره فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون» ، فقال رجل : يا رسول الله ، فقيم العمل ؟ قال : «إن الله تبارك وتعالى إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة ، [حتى يموت على عملٍ من عمل أهل الجنة] فيدخله الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عملٍ من عمل أهل النار فيدخله النار» (١) . (١ : ١٣٥) .

= رضي الله عنه يرفعه : «إن الله يقول لأهون أهل النار عذاباً : لو أن لك ما في الأرض من شيء كنت تتفدي به ؟ قال : نعم . قال : فقد سألتك ما هو أهون من هذا وأنت في صلب آدم : أن لا تشرك بي فأبيت إلا الشرك» .
قلنا : والحديث أخرجه مسلم من حديث أنس مرفوعاً (صحيح مسلم) / كتاب صفات المنافقين / ح (٢٨٠٥) .

٤_الشاهد الرابع : حديث عمر بن الخطاب الآتي عند الطبري وغيره .
(١) هذا إسناده ضعيف والحديث أخرجه الترمذي في سننه (كتاب تفسير القرآن / ح ٣٠٧٥) وأحمد في مسنده (ح ٣١١) وأبو داود (ح ٤٧٠٣) والإمام مالك في الموطأ (ح ١٦٦١) من طريق زيد بن أنيسة عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عن مسلم بن يسار الجهني عن عمر بن الخطاب مرفوعاً وصححه ابن حبان (ح ٦١٦٦) .
وقال الترمذي : هذا حديث حسن . ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر . وقال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

وقال الحافظ ابن كثير : وقد رواه أبو داود عن محمد بن مصفى عن بقية عن عمر بن جعثم عن زيد بن أبي أنيسة عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عن مسلم بن يسار عن نعيم بن ربيعة قال : كنت عند عمر بن الخطاب وقد سئل عن هذه الآية فذكر الحديث .

قلنا : وقد أخرجه أبو داود (٤٧٠٤) وحديث مالك أتم .

وقال الدارقطني : وقد تابع عمر بن جعثم أبو فروة بن يزيد بن سنان الرهاوي عن زيد بن أبي أنيسة قال : وقولهما أولى بالصواب من قول مالك رحمه الله (وهذه الأحاديث كلها دالة =

ذكر الأحداث التي كانت في عهد آدم عليه السلام

بعد أن أهبط إلى الأرض

والصحيح من القول عندنا أن الذي ذكر الله في كتابه أنه قتل أخاه من ابني آدم هو ابن آدم لصلبه ، لِتَقْلِ الْحَجَّةَ أَنْ ذَلِكَ كَذَلِكَ ، وَأَنْ هُنَادُ بْنُ السَّرِيِّ حَدَّثَنَا ، قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو معاوية ووكيع جميعاً عن الأعمش . - وحدَّثنا ابن حميد ، قال : حَدَّثَنَا جرير ، وحدَّثنا ابن وكيع ، قال : حَدَّثَنَا جرير وأبو معاوية عن الأعمش - عن عبد الله بن مرة ، عن مسروق ، عن عبد الله ، قال : قال النبي ﷺ : « ما من نفس تُقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ منها » ، وذلك لأنه أول مَنْ سَنَّ القتل»^(١) . (١ : ١٤٤) .

= على استخراجه تعالى ذرية آدم من ظهره كالذر وقسمهم قسمين أهل اليمين وأهل الشمال (البداية والنهاية ١/ ١٤٤) .

قلنا : والحديث (حديث عمر) ذكره الألباني في الضعيفة (٣٠٧٠) وصححه لغيره في تخريج شرح الطحاوية . انظر المشكاة (٩٦) وانظر السلسلة الضعيفة (٣٠٧١) . وكذلك أرناؤوط : إذ قال صحيح لغيره (وانظر المسند ١/ ٤٠٠) وقال أيضاً : قلنا وفي الباب عن عمران بن حصين وعلي وجابر وعبد الرحمن بن قتادة السلمي وهي مخرجة في (صحيح ابن حبان ٣٣٣ - ٣٣٨) . ومن حديث عمر نفسه عند الآجري في الشريعة (١٧٠ - ١٧١) وانظر التمهيد (٦/ ١٢٠٦) ١ هـ . كلام أرناؤوط (المسند ١/ ٤٠٠) .

قلنا : ونرى هنا جديراً أن نذكر كلام الإمام الحافظ ابن عبد البر في حكمه على الحديث : يقول ابن عبد البر : هذا الحديث منقطع بهذا الإسناد لأن مسلم بن يسار هذا لم يَلْقَ عمر بن الخطاب . . ثم قال : وزيادة من زاد فيه نعيم بن ربيعة ليست حجة . لأن الذي لم يذكره أحفظ ، وإنما تقبل الزيادة من الحافظ المتقن ، وجملة القول في الحديث أنه حديث ليس إسناده بالقائم لأن مسلم بن يسار ونعيم بن ربيعة جميعاً غير معروفين بحمل العلم ، ولكن وخبر هذا الحديث قد صحَّ عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة ثابتة يطول ذكرها (التمهيد ٦/ ٣) والله أعلم .

قلنا : وأخرج ابن أبي عاصم في السنة نحوه من حديث أبي هريرة . وصححه الألباني (٢٠٤ ، ٢٠٥) / ص ٢٧٦ والله أعلم .

(١) حديث ابن مسعود هذا حديث صحيح أخرجه البخاري ولفظه (لا تُقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل) صحيح البخاري / كتاب حديث الأنبياء / ح (٣٣٣٥) وقال الحافظ ابن حجر : وأورده (أي البخاري) هنا ليلمح بقصة ابني آدم =

حدثنا ابن بشار ، قال : حدثنا عبد الرحمن بن مهديّ - وحدثنا ابن وكيع قال : حدثنا أبي - جميعاً عن سفيان ، عن الأعمش ، عن عبد الله بن مرة ، عن مسروق ، عن عبد الله ، عن النبي ﷺ نحوه^(١) . (١ : ١٤٤) .

فقد بين هذا الخبر عن رسول الله ﷺ صحة قول من قال : إن اللذين قصّ الله في كتابه قصتهما من ابني آدم كانا ابنيه لصلبه ؛ لأنه لا شكّ أنهما لو كانا من بني إسرائيل - كما روي عن الحسن - لم يكن الذي وُصف منهما بأنه قتل أخاه أوّل من سنّ القتل ، إذ كان القتل في بني آدم قد كان قبل إسرائيل وولده^(٢) . (١ : ١٤٤) .

فإن قال قائل : فما برهانك على أنهما ولدا آدم لصلبه ، وأن لم يكونا من بني إسرائيل^(٣) ؟ (١ : ١٤٤) .

قيل : لا خلاف بين سلف علماء أمتنا في ذلك ، إذا فسّد قول من قال : كانا من بني إسرائيل^(٤) . (١ : ١٤٥) .

ونرجع الآن إلى الزيادة في الإبانة عن خطأ قول من قال : إن أول ميت كان في أول الأرض آدم ، وإنكاره الذين قصّ الله نبأهما في قوله : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا ﴾ ، أن يكونا من صُلب آدم من أجل ذلك^(٥) . (١ : ١٤٨) .

حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، قال : حدثني محمد بن إسحاق عن جعفر بن الزبير ، عن القاسم بن عبد الرحمن ، عن أبي أمامة ، عن أبي ذرّ قال : قلت ، يا نبي الله ، أنبيأ كان آدم ؟ قال : « نعم ، كان نبياً ، كَلَّمَهُ اللهُ قُبُلًا »^(٦) . (١ : ١٥١) .

= حيث قتل أحدهما الآخر ولم يصح على شرطه شيء من قصتهما وفيما قصه الله علينا في القرآن من ذلك كفاية عن غيره (فتح الباري ١٣/٧) .

(١) صحيح .

(٢) صحيح .

(٣) صحيح .

(٤) صحيح .

(٥) صحيح .

(٦) شيخ الطبري ضعيف إلا أن الحديث صحيح فقد أخرج ابن حبان في صحيحه (ح/ ٦١٩٠) عن أبي أمامة أن رجلاً قال يا رسول الله أنبيأ كان آدم ؟ قال : نعم ، قال : فكم كان بينه وبين نوح ؟ قال : عشرة قرون) وصححه العلامة أرناؤوط (الموارد/ ح ٢٠٨٥) .

ذكر وفاة آدم عليه السلام

اختلف في مدة عمره ، وابن كم كان يوم قبضه الله عز وجل إليه .

فأما الأخبار عن رسول الله ﷺ فإنها واردة بما حدثني محمد بن خلف العسقلاني ، قال : حدثنا آدم بن أبي إياس ، قال : حدثنا أبو خالد سليمان بن حيان ، قال : حدثني محمد بن عمرو عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ - قال أبو خالد : وحدثني الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ . قال أبو خالد : وحدثني داود بن أبي هند عن الشعبي ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ . قال أبو خالد : وحدثني ابن أبي ذباب الدؤسي ، قال : حدثنا سعيد المقبري ويزيد بن هرمز عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ - أنه قال : «خلق الله آدم بيده ونفخ فيه من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا له ، فجلس فعطس فقال : الحمد لله ، فقال له ربه : يرحمك ربك ، إيت أولئك الملائكة فقل لهم : السلام عليكم ، فاتاهم فقال لهم : السلام عليكم . قالوا له : وعليك السلام ورحمة الله ، ثم رجع إلى ربه فقال له : هذه تحيتك وتحية ذريتك بينهم ، ثم قبض له يديه ، فقال له : خذ واختر ، قال : اخترت يمين ربي وكلتا يديه يمين ، ففتحها له ، فإذا فيها صورة آدم وذريته كلهم ، فإذا كل رجل مكتوب عنده أجله ، وإذا آدم قد كتب له عمر ألف سنة ، وإذا قوم عليهم النور ، فقال : يا رب ، من هؤلاء الذين عليهم النور ، فقال : هؤلاء الأنبياء والرسل الذين أرسل إلى عبادي ، وإذا فيهم رجل هو أضوءهم نوراً ، ولم يكتب له من العمر إلا أربعون سنة ، فقال : يا رب ، ما بال هذا ، من أضوءهم نوراً ولم يكتب له من العمر إلا أربعون سنة؟ فقال : ذاك ما كتب له ، فقال : يا رب ، انقص له من عمري ستين سنة . فقال رسول الله ﷺ : «فلما أسكنه الله الجنة ثم أهبط إلى الأرض كان يعد أيامه ، فلما أتاه ملك الموت ليقبضه قال له آدم : عجّل علي يا ملك الموت ! فقال : ما فعلت ، فقال : قد بقي من عمري ستون سنة ، فقال له ملك الموت : ما بقي من عمرك شيء ، قد سألت ربك أن يكتبه لابنك داود ، فقال : ما فعلت . فقال : رسول الله ﷺ : «فنسي آدم ، فنسيت ذريته ، وجحد آدم فجحدت ذريته ، فيومئذ

وَضَعَ اللهُ الْكِتَابَ ، وَأَمَرَ بِالشُّهُودِ^(١) . (١ : ١٥٥) .

(١) في إسناده سليمان بن حيان قال ابن عدي : له أحاديث صالحة وإنما أتى من سوء حفظه فيغلط ويخطئ ولكن يؤيده ما أخرجه ابن حبان في صحيحه (ح ٦١٦٧) دون ذكر سجود الملائكة لآدم من طريق محمد بن إسحاق بن خزيمة حدثنا محمد بن بشار حدثنا صفوان بن عيسى حدثنا الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب ، عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح ، عطس فقال الحمد لله ، فحمد الله بإذن الله ، فقال له ربه يرحمك ربك يا آدم ، اذهب إلى أولئك الملائكة - إلى ملا جلوس - فسلم عليهم ، فقال السلام عليكم فقالوا : وعليك السلام ورحمة الله ثم رجع إلى ربه فقال : هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم . وقال الله جل وعلا ويده مقبوضتان : اختر أيهما شئت ، فقال : اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة ، ثم بسطها ، فإذا فيها آدم وذريته ، فقال : أي رب ما هؤلاء ؟ فقال : هؤلاء ذريتك ، فإذا كل إنسان مكتوب عمره بين عينيه فإذا فيهم رجل أضوؤهم أو من أضوئهم لم يكتب له إلا أربعين سنة قال : يا رب ، ما هذا ؟ قال : هذا ابنك وقد كتبت له عمره أربعين سنة ، قال أي رب زده في عمره ، قال ذاك الذي كتبت له . قال : فإني جعلت له من عمري ستين سنة ، قال : أنت وذاك اسكن الجنة .

فسكن الجنة ما شاء الله ثم أهبط منها وكان آدم يعد لنفسه فاتاه ملك الموت فقال له آدم : عجلت ، قد كتبت لي ألف سنة ، قال : بلى ولكنك قد جعلت لابنك داود منها ستين سنة فجحد ، فجحدت ذريته ونسي فنسيت ذريته ، فمن يومئذ أمر بالكتاب والشهود) . قلنا : وإسناد الحديث هذا من الثقة والصدق .

وقال العلامة أرناؤوط : إسناده قوي (الموارد ٢٨٠٢/١) والحديث أخرجه الترمذي (ح ٣٣٦٨) .

وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ عن أبي صالح عن النبي ﷺ ، والحديث أخرجه الترمذي (سنن الترمذي / كتاب تفسير القرآن / ح ٣٣٦٨) وقال : حسن صحيح .

وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (المستدرک ٢/ ٣٢٤) . قلنا : ورواية الترمذي والحاكم من طريق أبي صالح عن أبي هريرة وفيهما أن عمره كان ستين سنة ثم زيد عليه أربعين سنة من عمر آدم وقد ذكر القاري أوجه الجمع بين الروایتين (المرفقة ١/ ٣٢٤) وتحفة الأخوذي ورجح الرواية (٣٠٧٦) على (٣٣٦٨) / (ح ٤٤٧) إلا أن العلامة المباركفوري لم يقتنع بتلك الاحتمالات وقال : كل ما ذكره القاري من وجوه الجمع مخدوش إلا الوجه الأخير وهو أن الحديث الذي في تفسير سورة الأعراف (ح ٣٠٧٦) أرجح من الحديث الآتي في آخر كتاب التفسير فهو المعتمد - ووجه كون الأول أرجح من الثاني ظاهر من كلام الترمذي فإنه قال بعد رواية الأول : هذا حديث حسن صحيح (ح ٣٠٧٦) وقال بعد رواية الثاني (٣٣٦٨) هذا حديث حسن غريب وأيضاً في سند الثاني سعيد بن أبي سعيد =

حدثني ابن سنان ، قال : حدثنا موسى بن إسماعيل ، قال : حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس ، قال : لما نزلت آية الدِّين قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَوَّلَ مَنْ جحد آدم عليه السلام ثلاث مرات ، وإن الله تبارك وتعالى لما خلقه مسح ظهره فأخرج منه ما هو ذار إلى يوم القيامة ، فجعل يعرضهم على آدم ، فرأى فيهم رجلاً يزهر ، فقال : أي رب ، أي نبي هذا؟ قال : هذا ابنك داود ، قال : أي رب ، كم عمره؟ قال : ستون سنة ، قال : أي رب ، زده في عمره ، قال : لا ، إلا أن تزيد أنت من عمرك ، وكان عمر آدم ألف سنة ، فوهب له من عمره أربعين عاماً ، فكتب الله عليه بذلك كتاباً وأشهد عليه الملائكة ، فلما احتضر آدم أتته الملائكة لتقبض روحه ، قال : إنه قد بقي من عمري أربعون سنة ، قالوا : إنك قد وهبتها لابنك داود ، قال : ما فعلت ولا وهبت له شيئاً ، فأنزل الله عليه الكتاب ، وأقام عليه الملائكة شهوداً ، فأكمل لآدم ألف سنة ، وأكمل لداود مئة سنة^(١) . (١ : ١٥٦) .

= المقبري وكان قد تغير قبل موته بأربع سنين - هذا ما عندي والله أعلم . ١ هـ . (٨ / ٤٤٧) . قلنا : وفي رواية للإمام أحمد من حديث ابن عباس مرفوعاً أنه قال : لما نزلت آية الدِّين قال رسول الله ﷺ : إن أول من جحد آدم ، إن الله عز وجل لما خلق آدم مسح ظهره وأخرج منه ما هو ذار إلى يوم القيامة فجعل يعرض ذريته عليه ، فرأى رجلاً يزهر ، فقال : أي رب من هذا؟ قال : هذا ابنك داود ، قال : أي رب كم عمره؟ قال : ستون عاماً ، قال : رب زد في عمره قال : لا إلا أن أزيده من عمرك وكان عمر آدم ألف عام .

فزاده أربعين عاماً ، فكتب الله عز وجل عليه بذلك كتاباً ، وأشهد عليه الملائكة فلما احتضر آدم ، وأتته الملائكة لتقبضه قال : إنه قد بقي من عمري أربعين عاماً فقبل : إنك وهبتها لابنك داود . قال : ما فعلت وأبرز الله عليه الكتاب وشهدت عليه الملائكة) .

قلنا : وفي إسناده ضعيفان يوسف بن مهران وعلي بن زيد بن جدعان ؛ لذلك قال العلامة أرناؤوط : حسن لغيره وهذا إسناده ضعيف ، علي بن زيد وهو ابن جدعان ضعيف وكذا يوسف بن مهران وقال أرناؤوط بعد عزوه إلى المصادر وله شاهد بإسناده قوي من حديث أبي هريرة صححه ابن حبان (٦١٦٧) والله أعلم . وانظر مسند أحمد (٢٢٧٠ ، ٢٧١٣ ، ٣٥١٩) .

(١) هذا إسناده ضعيف وكذلك أخرجه أحمد بهذا الإسناد الضعيف (لضعف علي بن زيد بن جدعان ويوسف بن مهران) (مسند أحمد ح ٢٢٧) . ويشهد له ما ذكرنا في الحديث السابق والله تعالى أعلم .

حدثنا علي بن حرب ، قال: حدثنا روح بن أسلم ، قال: حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت البناني ، عن الحسن ، عن النبي ﷺ قال: «لما توفي آدم غسلته الملائكة بالماء وتراً ، وألحدوا له ، وقالت: هذه سنة آدم في ولده»^(١) . (١: ١٦٠) .

(١) هذا إسناده ضعيف والحديث حسن بمجموع طرقه ، وأخرج أحمد عن عتي بن ضمرة قال: رأيت شيخاً بالمدينة يتكلم فسألت عنه فقالوا: هذا أبي بن كعب فقال: إن آدم عليه السلام لما حضره الموت قال لبنيه . . . الحديث .

وفي آخره: فقبضوه وغسلوه وكفنوه وحنطوه وحفروا له وألحدوا له وصلوا عليه ثم دخلوا قبره فوضعوه في قبره ووضعوا عليه اللبن ثم خرجوا من القبر ثم حثوا عليه بالتراب ثم قالوا: يا بني آدم هذه سنتكم) .

قلنا: هذا إسناده موقوف وفيه ضعف ، وأخرجه غير واحد موقوفاً ومرفوعاً فقد أخرج البيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٤٠٤) وابن أبي شيبة (٣/ ٢٤٣) وعبد الرزاق (ح ٦٠٨٦) مرفوعاً . والدارقطني (٢/ ٧١) عن أنس موقوفاً . وأخرجه الحاكم في المستدرک مرفوعاً وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وهو من النوع الذي لا يوجد للتابعي إلا الراوي الواحد فإن عتي بن ضمرة السعدي ليس له راوٍ غير الحسن ، وعندي أن الشيخين علاه بعله أخرى وهو أنه روى عن الحسن عن أبي دون ذكر عتي (المستدرک ١/ ٣٤٤) .

وقال العلامة أرناؤوط: ومدار هذا الحديث عليه (أي عتي بن ضمرة) وقد تفرد به ومثله يضعف فيما انفرد به والحديث هنا موقوف (أي في مسند أحمد) (ح ٢١٢٤٠) . وقد اختلف في رفعه ووقفه كما سنبينه . اهـ .

قلنا: وأخرج الطبراني في الأوسط عن أبي بن كعب مرفوعاً (إن آدم غسلته الملائكة بماء وسدر وكفنوه وألحدوا له ودفنوه وقالوا: هذه سنتكم يا بني آدم في موتاكم) . وفي رواية (لما توفي آدم غسلته الملائكة بالماء وتراً ولحدت له وقالت: هذه سنة آدم وولده) .

وقال الهيثمي: رواه كله الطبراني في الأوسط بإسنادين في أحدهما الحسين بن أبي السري وثقه ابن حبان وضعفه الجمهور وكذلك روح بن أسلم في السند الآخر: وثقه ابن حبان وضعفه الجمهور (مجمع الزوائد ح ١٣٧٥٤ / وح ١٣٧٥٥) .

وأخرج الحاكم من طريق مبارك بن فضالة في المستدرک عن أنس قال: (كبرت الملائكة على آدم أربعاً وكبر أبو بكر على النبي ﷺ أربعاً . . . الحديث) .

وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، والمبارك بن فضالة من أهل الزهد والعلم ، بحيث لا يخرج مثله إلا أن الشيخين لم يخرجا له لسوء حفظه (المستدرک ١/ ٣٨٥) .

والحديث أخرجه الدارقطني (٢/ ٧١) وضعف إسناده ، وقال الحاكم: ولهذا الحديث شاهد =

حدثني أحمد بن المقدم ، قال : حدثنا المعتمر بن سليمان ، قال : قال أبي : وزعم قتادة عن صاحب له حدث عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « كان آدم رجلاً طوالاً كأنه نخلة سحوق »^(١) . (١ : ١٦٠) .

ثم أخرج حديثاً عن ابن عباس رضي الله عنه قال : آخر ما كبر رسول الله ﷺ على الجنائز أربعاً . . . الحديث . وفي آخره : وكبرت الملائكة على آدم أربعاً .

ثم قال الحاكم : لست ممن يخفى عليه أن الفرات بن السائب ليس من شرط هذا الكتاب وإنما أخرجه شاهداً (المستدرک ١ / ٣٨٥) .

قلنا : وهذه طرق تتعاضد ببعضها ، ولقد صحح المحدث الألباني الحديث في صحيح الجامع الصغير (لما توفي آدم غسلته الملائكة بالماء وترأ وألحدوا له وقالوا : هذه سنة آدم في ولده) (صحيح الجامع الصغير وزيادته ٥٢٠٧ - ١٦٨٠) .

(١) لقد ذكرنا الرواية (١ / ١٦٠ / ٢٢٢) في قسم الضعيف وهي من طريق ابن حميد الرازي (متهم بالكذب) وقلما وجدنا له حديثاً في تاريخ الطبري لم يزد عليه ما لم يروه الثقات ولو بلفظة منكرة واحدة ، وكذلك نجد روايته (١ / ١٦٠ / ٢٢٢) في متنها ما هو صحيح وما هو منكر فكيف يقول آدم عليه السلام عند موته لزوجه حواء (فإني ما لقيت ما لقيت إلا منك ولا أصابني ما أصابني إلا منك) .

وحديث محاجة آدم لموسى معروض في الصحاح ولفظه عند البخاري في كتاب التفسير / باب ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ / ح ٤٨٣٨ / عن أبي هريرة مرفوعاً : حاج موسى آدم عليهما السلام فقال له : أنت الذي أخرجت الناس بدينك من الجنة وأشقيتهم قال آدم : يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه أتلومني على أمر قد كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني أو قدره عليّ قبل أن يخلقني ، قال رسول الله ﷺ : فحج آدم موسى .
وأما بقية المتن فلها ما يشهد لها :

فقد أورد الحافظ ابن كثير رواية ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسن بن إسكاب حدثنا علي بن عاصم عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله خلق آدم طوالاً كثير شعر الرأس كأنه نخلة سحوق فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه فأول ما بدا منه عورته فلما نظر إلى عورته جعل يشتد في الجنة فأخذت شعره شجرة فنازعها فناداه الرحمن عز وجل : يا آدم مني تفر . فلما سمع كلام الرحمن قال : يا رب : لا ولكن استحياء » . (البداية والنهاية ١ / ١٢٧) . وحسن ابن حجر إسناد ابن أبي حاتم هذا (الفتح ٧ / ١٠) .

ثم ذكر الحافظ ابن كثير رواية ابن عساكر وهي مختصرة بعض الشيء عن رواية ابن أبي حاتم (وانظر مختصر تاريخ دمشق ٤ / ٢٢٢) وهي من طريق محمد بن إسحاق عن الحسن بن ذكوان عن الحسن البصري عن أبي بن كعب مرفوعاً ثم قال ابن كثير :

وكانت وفاته يوم الجمعة ، وقد مضى ذكرنا الرواية بذلك ، فكرهنا إعادته^(١) . (١ : ١٦١) .

ونرجع الآن إلى قصة قابيل وخبره وأخبار ولده وأخبار شيث وخبر ولده إذ كنا قد أتينا من ذكر آدم وعدوه إبليس وذكر أخبارهما ، وما صنع الله بإبليس إذ تجبر وتعظم وطغى على ربه عز وجل فأشر وبطر نعمته التي أنعمها الله عليه ، وتمادى في جهله وغيه ، وسأل ربه النظرة ، فأنظره إلى يوم الوقت المعلوم ، وما صنع الله بآدم صلوات الله عليه إذ خطئ ونسي عهد الله من تعجيل عقوبته له على خطيئته ، ثم تغمدته إياه بفضلله ورحمته ، إذ تاب إليه من زلته فتاب عليه وهده ، وأنقذه من الضلالة والردى حتى نأتى على ذكر من سلك سبيل كل واحد منهما؛ من تباع آدم عليه السلام على منهاجه وشيعة إبليس والمقتدين به في ضلالته ، إن شاء الله ، وما كان من صنع الله تبارك وتعالى بكل فريق منهم^(٢) . (١ : ١٦٢) .

* * *

ثم رواه من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن يحيى بن ضمرة عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ بنحوه وهذا أصح فإن الحسن لم يدرك أياً . (البداءة والنهاية ١/١٢٧) . قلنا : ولكن محمد بن إسحاق مدلس وقد عنعن هنا ولم يصرح بالتحديث والله أعلم . ثم قال ابن كثير :

ثم أورده أيضاً من طريق خيثمة بن سليمان الأطرابلسي عن محمد بن عبد الوهاب أبي قرصافة العسقلاني عن آدم بن أبي إياس عن شيبان عن قتادة عن أنس مرفوعاً نحوه (البداءة والنهاية ١/١٢٧) .

قلنا : فهذه روايات ثلاث تشهد لبعضها والله أعلم . ويشهد لبعض المتن ما أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب حديث الأنبياء/ ح ٣٣٢٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً ثم قال اذهب فسلم على أولئك الملائكة... الحديث» .

(١) صحيح .

(٢) صحيح .

(١/١٦٤) : قلنا : لقد ذكر الطبري رحمه الله في قصص الأنبياء آيات وسوراً في أخبارهم إلا أنه رحمه الله خلط التفسير بعشرات الأقوال المستقاة من الإسرائيليات . =

إلا أن ابن كثير فسر تلك الآيات وقلل من استشهاده بتلك الإسرائيليات ولكنه مع ذلك لم يسلم منها.

ونحن هنا نذكر جانباً من تلك الآيات والسور وكما فسرهما ابن كثير بعد حذف ما في التفسير من الإسرائيليات وبعد اختصار وتعليق أحياناً قليلة مع تخريج الآثار.

نبي الله آدم
عليه السلام

[خلق آدم عليه السلام]:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ فَقَالَ أَنْشِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٧﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٨﴾ قَالَ يَتَادُمُ أُنْثَاهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٤٢﴾ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٤٣﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٤﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٥﴾ [البقرة: ٣٠ - ٣٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١﴾ [آل عمران: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ انْقِرَاءَ رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ [النساء: ١]... وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ [الحجرات: ١٣]. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا... ﴿١٨٩﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٢﴾ قَالَ فَاقْطِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَمْعُتُونَ ﴿٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْدَنَ لِمِ صِرْطِكَ الْمُسْتَقِيمِ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿٧﴾ قَالَ أَخْرَجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا لَمَنِ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨﴾ وَبَتَادُمْ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٩﴾ =

فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا
مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِيَّيَّيْكَمَا لِمَنْ أَلْتَصَّيْحَمِ ﴿٢١﴾ فَقَالَهُمَا يَبْغُورُ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا
سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ
الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَنَا تَغَفُّرٌ لَنَا وَتَرْحَمَةٌ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَا أَهْطَلُوا
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا
تُخْرَجُونَ ﴿الأعراف: ١١ - ٢٥﴾.

كما قال في الآية الأخرى: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ [طه: ٥٥]
وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢١﴾ وَلَكُلَّ خَلْقَةٍ مِنْ قَبْلٍ مِنْ تَارِ السَّمُورِ ﴿٢٢﴾
وَلِإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٣﴾ فِإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي
فَقَعُوا لَهُمْ سَجْدِينَ ﴿٢٤﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنُ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ
يَتَابِلِيسَ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾
قَالَ فَخُذْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِنْ عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٠﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣١﴾
قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٢﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٣﴾ قَالَ رَبِّ يَا أَعْوَجُنِي لِأَرِينَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَاغْوِيَنَّهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٣٤﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٣٥﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ
سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٣٧﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٨﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ
مُقَسَّوْمٌ ﴿الحجر: ٢٦ - ٤٤﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ مَا أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿١٧﴾
قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ كُنْتُ عَلَى لَبَنٍ أُخْرَتِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَبِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ قَالَ
أَذْهَبْ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَنْ قَرَأَ وَأَقْرَأَ ﴿١٩﴾ وَاسْتَفْزِرْ مِنْ أَسْطِغَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ
عَلَيْهِمْ بِحِيلِكَ وَرَجِّلْكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ
عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿الإسراء: ٦١ - ٦٥﴾، وقال تعالى:
﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَلَتَّخِذُوا وَدُرِّيَّتَهُ

أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾، وقال تعالى:
﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَلَمْ يُعِدْ لَهُ عِزْمًا ﴿١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا
إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنُ ﴿١٦﴾ قُلْنَا يَسْجُدْ لِمَنْ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِزْوَلِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْفَى ﴿١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا
تُجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١٨﴾ وَأَنْتَ لَا تَطْمَئِنُّ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴿١٩﴾ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّخِذُ هَلْ
أَدْلَكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَ بَلَى ﴿٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءُ تَيْهَمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ
وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَأَبَى عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿٢٢﴾ قَالَ أَهْطَلَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ
لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَأَمَّا بَأْنَيْتُكُمْ مِنِّي هَدَى فَمَنِ اتَّبَعَ هَدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْفَى ﴿٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي
فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَيُجْزَى يَوْمَ الْفِتْنَةِ أَعْمَى ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿٢٥﴾ قَالَ
كَذَلِكَ أَنْتَ أَتَيْتَنَا فَتَبَايَعْنَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ لِنُنْشِئَنَّ ﴿طه: ١١٥ - ١٢٦﴾.

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ٦٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَمْرًا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَبْنَؤُا مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِدْنِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْغَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتُمُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَخَرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعَرْشِكَ لَا أُغَوِّيهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾ [ص: ٦٧-٨٨]

فهذا ذكر هذه القصة من مواضع متفرقة من القرآن ، وقد تكلمنا على ذلك كله في التفسير ، ولنذكر هاهنا مضمون ما دلت عليه هذه الآيات الكريمات ، وما يتعلق بها من الأحاديث الواردة في ذلك عن رسول الله ﷺ ، والله المستعان . فأخبر تعالى أنه خاطب الملائكة قائلاً لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أعلم بما يريد أن يخلق من آدم وذريته الذين يخلف بعضهم بعضاً كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خُلَافَةَ الْأَرْضِ﴾ ، وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ ، فأخبرهم بذلك على سبيل التنويه بخلق آدم وذريته ، كما يخبر بالآمر العظيم قبل كونه ، فقالت الملائكة سائلين على وجه الاستكشاف والاستعلام عن وجه الحكمة ، لا على وجه الاعتراض والتنقيص لبني آدم والحسد لهم ، كما قد يتوهمه بعض جهلة المفسرين ، قالوا: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي: نعبدك دائماً لا يعصيك منا أحد ، فإن كان المراد بخلق هؤلاء أن يعبدوك ، فهذا نحن أولاء لا نفتر ليلاً ولا نهاراً. ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هؤلاء ما لا تعلمون ، أي سيوجد منهم الأنبياء والمرسلون والصدّيقون والشهداء والصالحون .

ثم بين لهم شرف آدم عليهم في العلم ، فقال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ . قال ابن عباس: هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان ، ودابة ، وأرض ، وسهل ، وبحر ، وجبل ، وجمل ، وحمار . . . وأشباه ذلك من الأمم وغيرها . وقال مجاهد: علّمه اسم الصحيفة ، والقدر ، حتى الفسوة والفسية . وقال مجاهد: علّمه اسم كل دابة ، وكل طير وكل شيء . وكذا قال سعيد بن جبير وقتادة وغير واحد . وقال الربيع: علّمه أسماء الملائكة . وقال عبد الرحمن بن زيد: علّمه أسماء ذريته . والصحيح: أنه علّمه أسماء الذوات وأفعالها مكبرها ومصغرها ، كما أشار إليه ابن عباس رضي الله عنهما .

وذكر البخاري هنا ما رواه هو ومسلم من طريق سعيد وهشام ، عن قتادة ، عن أنس بن

مالك ، عن رسول الله ﷺ قال : «يُجمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا ، فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شيء».. وذكر تمام الحديث (صحيح البخاري / ح ٧٤١٠) ومسلم (٣٢٢ / ٨٤ / ١).

﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْثُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .
﴿ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ أي سبحانك أن يحيط أحد بشيء من علمك من غير تعليمك ، كما قال ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ ﴿ قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنْثِيَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْني أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ أي أعلم السر كما أعلم العلانية .

وقيل: إن المراد بقوله: ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ﴾ ما قالوا: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ وبقوله: ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ المراد بهذا الكلام إبليس حين أسرَّ الكبر والنَّفَاسَةَ على آدم عليه السلام ، قاله سعيد بن جبيرة ومجاهد والسدي والضحاك والثوري واختاره ابن جرير .

وقوله: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ ﴾ هذا إكرام عظيم من الله تعالى لآدم حين خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، كما قال: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ فهذه أربع تشريفات ، خلقه بيده الكريمة ، ونفخ فيه من روحه ، وأمر الملائكة بالسجود له ، وتعليمه أسماء الأشياء .

ولهذا قال له موسى الكليم حين اجتمع هو وإياه في الملأ الأعلى وتناظرا كما سيأتي: «أنت آدم أبو البشر الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شيء» .

وقال في الآية الأخرى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ .

ومعنى هذا أنه نظر نفسه بطريق المقايسة بينه وبين آدم ، فرأى نفسه أشرف من آدم فامتنع من السجود له ، مع وجود الأمر له ولسائر الملائكة بالسجود . والقياس إذا كان مقابلاً بالنص كان فاسد الاعتبار ، ثم هو فاسد في نفسه ، فإن الطين أنفع وخير من النار ، لأن الطين فيه الرزانة والحلم والأناة والنمو ، والنار فيها الطيش والخفة والسرعة والإحراق .

ثم إن آدم شرفه الله بخلق له بيده ونفخه فيه من روحه ، ولهذا أمر الملائكة بالسجود له ، كما قال: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴾ ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَتْمَعُونَ ﴾ ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ ﴿ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴾ ﴿ قَالَ فَخَرَّجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ ﴿ وَإِنْ عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ استحق هذا من الله =

تعالى لأنه استلزم تنقصه لآدم وازدراءه به ، وترفعه عليه ، مخالفة الأمر الإلهي ، ومعاندة الحق في النص على آدم على التعيين .

وشرع في الاعتذار بما لا يجدي عنه شيئاً ، وكان اعتذاره أشد من ذنبه ، كما قال تعالى في سورة سبأ : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۖ قَالَ أَرَأَيْتَ أَزَىٰكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ۖ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ كُلِّ جَزَاءٍ مُّوَفُّوۙرٌ ۖ وَأَسْتَفْزِزُ مَنِ اسْتَعْطَىٰ مِنْهُمْ بَصُوكَ وَيُلِيبُ عَلَيْهِمْ يُجُلِكَ ۖ وَشَارِكُكُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِذُّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۚ إِنَّ عِبَادِي لَشَرٌّ لَّكَ عَلَيْهِمْ سُلُطٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۖ ۝۱۷ ﴾

وقال في سورة الكهف: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَسْتَعْجِلُونَ وَذُرِّيَّتَهُ أُولَئِكَ مِنْ دُونِي﴾ أي خرج عن طاعة الله عمداً وعناداً واستكباراً عن امتثال أمره ، وما ذاك إلا لأنه خان طبعه ، ومادته الخبيثة أحوج ما كان إليه ، فإنه مخلوق من نار كما قال ، وكما جاء في صحيح مسلم عن عائشة عن رسول الله ﷺ قال: «خلقت الملائكة من نور ، وخلقت الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم» .

قال الحسن البصري: لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين قط.

وقال في سورة ص : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ شَرٌّ مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أجمعين ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَعَكَ أَنْ سَجَدَ لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَارْجِعْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنْ عَلَيْكَ لعنتي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُعْعَوْنَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُعَوِّسَهُمْ أَجمعين ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ أَجمعين ﴿٨٥﴾ لَص :

. [Λο-ΥΥ

وقال في سورة الأعراف: ﴿قَالَ يَمَا أَتَوَيْتَنِي لَأَقْدَنَّ لَهْمَ صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ لَأَنبِيَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ أي بسبب إغوائك إياي لأفعدن لهم كل مرصد ، ولأنتينهم من كل جهة منهم ، فالسعيد من خالفه والشقي من اتبعه . وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا أبو عقيل - هو عبد الله بن عقيل الثقفي - حدثنا موسى بن المسيب ، وعن سالم بن أبي الجعد ، عن سيرة بن أبي الفاكه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه» وذكر الحديث المجتبى .

وقد اختلف المفسرون في الملائكة المأمورين بالسجود لآدم: أهم جميع الملائكة كما دل عليه عموم الآيات؟ وهو قول الجمهور. أو أن المراد بهم ملائكة الأرض ، كما رواه ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس؟ وفيه انقطاع ، وفي السياق نكارة ، وإن كان بعض المتأخرين قد رجّحه . ولكن الأظهر من السياقات الأولى ، ويدل عليه الحديث : «وأسجد له»

ملأته» وهذا عموم أيضاً... والله أعلم. وقوله تعالى لإبليس: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ و: ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا﴾ دليل على أنه كان في السماء فأمر بالهبوط منها ، والخروج من المنزل والمكانة التي كان قد نالها بعبادته ، وتشبيهه بالملائكة في الطاعة والعبادة ، ثم سلب ذلك بكبره وحسده ومخالفته لربه ، فأهبط إلى الأرض مذموماً مدحوراً.

وأمر الله آدم عليه السلام أن يسكن هو وزوجته الجنة فقال: ﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. وقال في الأعراف: ﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا لَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ لَأَمَلًا جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١١٧﴾ وَتَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْلُبَا إِلَى الْمَرْكَبَةِ لَأَسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنِ قُلُوبَةٍ يَتَادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا تَخْرُجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْفَقَ﴾ ﴿١١٨﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ ﴿١١٩﴾ وَأَنْتَ لَا تَطْمَئِنُّ فِيهَا وَلَا تَضْحَكُ﴾ [طه: ١١٦ - ١١٩].

وسياق هذه الآيات يقتضي: أن خلق حواء كان قبل دخول آدم إلى الجنة لقوله: ﴿يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ وهذا قد صرح به إسحاق بن يسار ، وهو ظاهر هذه الآيات .

وقد اختلف المفسرون في قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ وقد أبهم الله ذكرها وتعيينها ولو كان في ذكرها مصلحة تعود إلينا كما في غيرها من المحال التي تبهم في القرآن (رحم الله ابن كثير فكم من الدرر في تفسيره).

والجمهور على أنها هي التي في السماء وهي جنة المأوى ، لظاهر الآيات والأحاديث كقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ والألف واللام ليست للعموم ولا لمعهود لفظي ، وإنما تعود على معهود ذهني ، وهو المستقر شرعاً من جنة المأوى. وكقول موسى عليه السلام لآدم عليه السلام: «علام أخرجتنا ونفسك من الجنة...؟» الحديث كما سيأتي الكلام عليه.

وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي مالك الأشجعي - اسمه سعد بن طارق - عن أبي حازم سلمة بن دينار ، عن أبي هريرة ، وأبي مالك عن ربعي ، عن حذيفة قالوا: قال رسول الله ﷺ: «يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حِينَ تَزْلِفُ لَهُمُ الْجَنَّةُ. فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا. . . استفتح لنا الجنة ، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ».

فلما كان منه ما كان من أكله من الشجرة التي نهى عنها ، أهبط إلى أرض الشقاء والتعب ، والنصب والكدر ، والسعي والنكد ، والابتلاء والاختبار والامتحان ، واختلاف السكان ديناً وأخلاقاً وأعمالاً ، وقصوداً وإرادات ، وأقوالاً وأفعالاً ، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمُ فِي الْأَرْضِ مَسَرُّ وَمَمْنَعٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أي عن الجنة ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أي من النعيم والنضرة والسرور ، إلى دار التعب والكد والنكد ، وذلك بما وسوس لهما وزينه في صدورهما ، كما قال تعالى: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا

ذكر الأحداث التي كانت في أيام بني آدم

من لدن ملك شيث بن آدم إلى أيام يرد

قال أبو جعفر: وهذا القول غير بعيد من الحق؛ وذلك أنه قول قد رُوي عن

نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢١٦﴾ يقول: ما نهاكما عن أكل هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، أي لو أكلتما منها لصرتما كذلك .

﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ أي حلف لهما على ذلك ﴿إِنِّي لَكُمَا لَيْنٌ أَنْتَصِحِينَ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَذَكَّرُ هَلْ أَتَاكُمُ هَلْ أَتَاكُمُ عَلَى شَجَرَةٍ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ أي هل أدلك على الشجرة التي إذا أكلت منها حصل لك الخلد فيما أنت فيه من النعيم ، واستمرت في ملك لا يبید ولا يتقضي؟ وهذا من التغيرير والتزوير والإخبار بخلاف الواقع .

والمقصود أن قوله: شجرة الخلد التي إذا أكلت منها خلدت ، وقد تكون هي الشجرة التي قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، حدثنا شعبة ، عن أبي الضحاك ، سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها: شجرة الخلد» ورواه أيضاً عن غندر وحجاج ، عن شعبة ورواه أبو داود والطيالسي في مسنده عن شعبة أيضاً به . قال غندر: قلت لشعبة: هي شجرة الخلد؟ قال: ليس فيها هي . تفرد به أحمد . وقوله: ﴿فَدَلَّنَاهُمَا بِغُرُوبٍ فَلَمَّا دَاخَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ ، كما قال في طه: ﴿فَأَكْثَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ .

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢١٧﴾﴾ قَالَ رَبُّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢١٨﴾﴾ .

وهذا اعتراف ورجوع إلى الإنابة ، وتذلل وخضوع واستكانة ، وافتقار إليه تعالى في الساعة الراهنة ، وهذا السر ما سرى في أحد من ذريته إلا كانت عاقبته إلى خير في دينه وأخراه ﴿قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وهذا خطاب لآدم وحواء وإبليس .

وقوله: ﴿فَلَنَلْقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَيْفَ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ قيل هي قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ روي هذا عن مجاهد ، وسعيد بن جبیر ، وأبي العالية ، والربيع بن أنس ، والحسن ، وقتادة ، ومحمد بن كعب ، وخالد بن معدان ، وعطاء الخراساني ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

والله تعالى أعلم . اهـ . انتهى كلام الحافظ ابن كثير رحمه الله .

جماعة من سلف علماء أمة نبينا ﷺ نحو منه ، وإن لم يكونوا بينوا زماناً من حدث ذلك في ملكه ، سوى ذكرهم أن ذلك كان فيما بين آدم ونوح صلى الله عليهما وسلم^(١) . (١ : ١٦٦) .

* ذكر من روي ذلك عنه :

نبي الله إدريس عليه السلام

لقد ذكر الطبري رحمه الله روايات عدة في خبر إدريس عليه السلام وهي مستقاة من الروايات الإسرائيلية وذكرناها جميعاً في قسم الضعيف . قال الله تعالى في سورة مريم :

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۚ﴾ .

والمراد بالمكان العليّ هنا والله أعلم ما أعطيه من شرف النبوة ، وقيل إنه رفع إلى الجنة (الشوكاني) وفي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ مرّ بإدريس وهو في السماء الرابعة (صحيح البخاري/ كتاب الأنبياء/ ح ٣٣٤٢) من حديث أنس مرفوعاً في حادثة الإسراء/ وفيه : فلما مرّ جبريل بإدريس قال : «مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح فقلت : من هذا؟ قال : هذا إدريس» .

وأخرج أحمد من حديث معاوية بن الحكم السلمي أن رسول الله ﷺ سُئل عن الخط بالرمل فقال : «إنه كان نبي يخط به فمن وافق خطه فذاك» [مسند أحمد/ ح ٢٣٨٢٣] .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : حدثنا أبو داود ، قال : حدثنا همام ، عن قتادة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : كان بين نوح وآدم عليهما السلام عشرة قرون ، كلهم على شريعة من الحق ؛ فاختلفوا ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، قال : وكذلك هي في قراءة عبد الله : (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا)^(٢) . (١ : ١٧٨) .

(١) صحيح .

(٢) إسناده صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما وأخرجه الحاكم من طريق شيخ الطبري هنا (محمد بن بشار) ثنا أبو داود ثنا همام عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما =

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة : قوله عز وجل : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ ، قال : كانوا على الهدى جميعاً فاختلفوا ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ ، فكان أول نبي بعث نوح عليه السلام ^(١) . (١ : ١٧٨) .

ذكر الأحداث التي كانت في عهد نوح عليه السلام

فأما كتاب الله فإنه ينبيء عنهم أنهم كانوا أهل أوثان ، وذلك أن الله عز وجل يقول مخبراً عن نوح : ﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهْمْ عَصَوْنِي وَأَتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُمْ وَلَدَهُ إِلَّا خُسَارًا ﴾

= قال : كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين .

قال : وكذلك في قراءة عبد الله (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا) .

وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه (المستدرک مع التلخيص / ٢ / ٥٤٦) .

وأخرجه الحاكم أيضاً من طريق عبد الصمد بن عبد الوارث ثنا همام عن قتادة ثنا عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فلما اختلفوا بعث الله النبيين والمرسلين وأنزل كتابه فكانوا أمة واحدة .

وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه (المستدرک ٢ / ٤٤١) .

قلنا : وأخرج البزار (ح ٢١٩٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «كان بين آدم وبين نوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق قال : فلما بعث الله النبي ﷺ وأنزل كتابه قال : فكان الناس أمة واحدة» .

وقال الهيثمي : رواه البزار وفيه عبد الصمد بن النعمان وثقه ابن معين وقال غيره : ليس بالقوي (مجمع الزوائد / ح ١٠٨٥٨) .

وأخرج أبو يعلى (ح ١١٨٣٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ قال : على الإسلام كلهم . وقال الهيثمي : رجال أبي يعلى رجال الصحيح (مجمع الزوائد / ح ١٠٨٥٧) .

قلنا : وأما المرفوع فقد أخرج ابن حبان في صحيحه (ح ٦١٩٠) عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله ، أنبي كان آدم؟ قال : نعم ، قال : فكم بينه وبين نوح؟ قال : عشرة قرون . وقال الحافظ ابن كثير : وهذا على شرط مسلم ولم يخرجه (البداية والنهاية ١ / ١٦٠) والله تعالى أعلم .

(١) هذا إسناد مرسل صحيح ومعناه صحيح (انظر ما قبله) .

وَمَكْرُوهًا مَّكْرًا كَبِيرًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴿٢٤﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ نُوحًا مُخَوِّفُهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ ، ومَحْذَرُهُمْ سَطَوْتَهُ ، ودَاعِيًا لَهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ والمَرَاجَعَةِ إِلَى الْحَقِّ ^(١) . (١ : ١٧٩) .

قال ابن إسحاق: حتى إذا تمادوا في المعصية ، وعظمت في الأرض منهم الخطيئة ، وتطاول عليه وعليهم الشأن ، واشتد عليه منهم البلاء ، وانتظر النجل بعد النجل ، فلا يأتي قرن إلا كان أخبث من الذي قبله؛ حتى إن كان الآخر منهم ليقول: قد كان هذا مع آبائنا ومع أجدادنا؛ هكذا مجنوننا! لا يقبلون منه شيئاً ، حتى شكا ذلك من أمرهم نوح إلى الله عز وجل ، فقال كما قصَّ الله عز وجل علينا في كتابه: ﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٢٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٢٦﴾ إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ ، حتى قال: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٧﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي يَصْلُحُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٨﴾ إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ . فلما شكا ذلك منهم نوح إلى الله عز وجل واستنصره عليهم أوحى الله إليه أن ﴿ وَأَصْنَعِ الْفُلَ كَمَا يَفْصِلُ الْوَحْيَ وَلَا تَخْطِئْ فِي الدِّينِ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴾ . فأقبل نوح على عمل الفلك ، ولها عن قومه ، وجعل يقطع الخشب ويضرب الحديد ، ويهتئء عُدَّةَ الْفُلِ من القار وغيره مما لا يصلح له إلا هو ، وجعل قومه يمرُّون به ، وهو في ذلك من عمله ، فيسخرون منه ، ويستهزئون به فيقول: ﴿ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَسَوْفَ نَعْلَمُوكَ مِنْ بَأْسِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ ^(٢) . (١ : ١٨٢ / ١٨٣) .

قال أبو جعفر: وقد أخبر الله تعالى ذكره من الخبر عن الطوفان بخلاف ما قالوا ، فقال وقوله الحق: ﴿ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٣٠﴾ وَبَجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ ؛ فأخبر عز ذكره أن ذرية نوح هم الباقون دون غيرهم ^(٣) . (١ : ١٩٢) .

حدثنا بشر ، قال: حدثنا يزيد ، قال: حدثنا سعيد ، عن قتادة ، في قوله:

(١) صحيح .

(٢) ذكر ابن إسحاق كلامه هذا بلا إسناد إلا أن معناه صحيح مأخوذ من تفسير الآيات وكما فسرها

ابن إسحاق وعنه الطبري والله أعلم .

(٣) صحيح .

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ ، قال : فالناس كلهم من ذرية نوح^(١) . (١ : ١٩٢) .

حدثني علي بن داود ، قال : حدثنا أبو صالح ، قال : حدثني معاوية ، عن علي ، عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ يقول : لم يبق إلا ذرية نوح^(٢) . (١ : ١٩٢) .

وهذا الذي ذكر عن الشعبي من التاريخ ينبغي أن يكون على تاريخ اليهود ، فأما أهل الإسلام فإنهم لم يؤرخوا إلا من الهجرة ، ولم يكونوا يؤرخون بشيء من قبل ذلك ، غير أن قريشاً كانوا - فيما ذكر - يؤرخون قبل الإسلام بعام الفيل ، وكان سائر العرب يؤرخون بأيامهم المذكورة ، كتاريخهم بيوم جيلة ، وبالكلاب الأول ، والكلاب الثاني .

وكانت النصارى تؤرخ بعهد الإسكندر ذي القرنين ؛ وأحسبهم على ذلك من التاريخ إلى اليوم .

وأما الفرس فإنهم كانوا يؤرخون بملوكهم ، هم اليوم فيما أعلم يؤرخون بعهد يزدجرد بن شهريار ، لأنه كان آخر من كان من ملوكهم له ملك بابل والمشرق^(٣) . (١ : ١٩٣) .

(١) صحيح مرسل .

(٢) هذا إسناده موقوف والمعنى صحيح وهو تفسير للآية الكريمة من حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) صحيح .
الآيات الواردة في قصة نوح عليه السلام مع تفسيرها اعتماداً على ابن كثير بعد حذف الإسرائيليات :

نوح في القرآن :

وقد ذكر الله قصته وما كان من قومه ، وما أنزل بمن كفر به من العذاب بالطوفان ، وكيف أنجاه وأصحاب السفينة ، في غير ما موضع من كتابه العزيز ، ففي الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصفات ؛ وأنزل فيه سورة كاملة .

فقال في سورة الأعراف : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عِلَّةٍ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١٠﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝١١١﴾ قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١١٢﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝١١٣﴾ أَوْعِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ دَلِيلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١١٤﴾ فَكَذَّبُوهُ ۝١١٥﴾

فَأَمَّا جِبْتُهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿١٠٠﴾

وقال تعالى في سورة يونس: ﴿١٠١﴾ وَأَنْتَلِ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوُّوا إِنَّ كَانَ كِبَرُ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِّرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَّ اللَّهُ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٠٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجَرٍ إِنْ أَجَرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَجَبْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَافَةً وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿١٠٤﴾

وقال تعالى في سورة هود: ﴿١٠٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِتِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٠٦﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿١٠٧﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرِيدُكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرِيدُكَ أَتَبْعُكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُواكَ بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ يَتَقَوُّوا رَبَّهُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَنِي رَحْمَةً مِنْ عِندِهِ فَعُوبِتْ عَلَيْكُمْ أَنْتُمْ كُفَرْتُمْ لَهَا كَرِهُونِ ﴿١٠٩﴾ وَيَتَقَوُّوا لَا أَشْتَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أَجَرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلَقَوْنَ رَبَّهُمْ وَلِكَيْفَ أَرْكُزُ قَوْمًا يَفْجَهُلُونَ ﴿١١٠﴾ وَيَتَقَوُّوا مِنْ بِنَصْرِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَفْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١١١﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا يَنْتَهِجُ قَدْ جَدَلْنَا فَاكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَإِنَّا بِمَا قَوْلُنَا إِنْ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنَا بِمُعْجِزٍ ﴿١١٤﴾ وَلَا يَفْعَلُكُمْ تَحِيصِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَتَرَبُّنَا عَلَى إِجْرَائِي وَأَنَا بَرِيءٌ وَمِمَّا تَحْمِلُونِ ﴿١١٦﴾ وَأَوَّحَى إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا يَتَّبِعْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١١٧﴾ وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ وَآغِيثِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَحْطِطْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿١١٨﴾ وَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿١١٩﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُغْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿١٢٠﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿١٢١﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَعَلْنَاهَا مِرْسًا هَامِرَةً إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٢﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿١٢٣﴾ قَالَ سَتَأْتِي إِلَى جِبَلٍ يَعْصِي مِنْكَ الْمَاءُ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿١٢٤﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلُغِي مَاءَكِ وَسَسْأَلُ آبِلِي وَغِيصَ الْمَاءِ وَفُصِّي الْأَمْرُ وَأَسْمَوَاتُ عَلَى الْجَنُودِ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٢٦﴾ قَالَ يَنْتَهِجُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَحْشَلْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْتَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٢٨﴾ قِيلَ يَنْتَهِجُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمِّهِ وَمَنْ مَعَهُ وَأَمَّا سَمِعَتُهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مَتَاعُ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٢٩﴾ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٠﴾ وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿١٣١﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ

فَقَبِلْ فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٦٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٦٧﴾ [الأنبياء: ٧٦ - ٧٧].

وقال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ بِقَوْمِي أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ حِجَّةٌ قَلِيلٌ يَتَّبِعُ مَا يَشَاءُ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ ﴿٣٤﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا ووَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمرُنَا وَقَارَ السُّيُوفُ فَاسْلُفَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَازِينَ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٣٥﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْخَلْقُ لِلَّهِ الَّذِي يَجُنُّ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَقُلْ رَبِّ انزِلْنِي مُنزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٣٧﴾ [المؤمنون: ٢٣ - ٣٠].

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٦﴾ قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿٧﴾ قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَبُونَ ﴿١٣﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحًا وَبِجَنِّي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ فَاجْنِبْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْفَالِاقِ الْمَشْحُونِ ﴿١٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٦﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَتْ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٨﴾ [الشعراء: ١٠٥ - ١٢٢].

وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١﴾ فَاجْنِبْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٢﴾. وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٦٦﴾ وَجَعَلْنَاهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٦٧﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٦٨﴾ وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٦٩﴾ سَلَّمْ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٧١﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٧٣﴾.

وقال تعالى في سورة القمر: ﴿كَذَّبَ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ ﴿١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿٢﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿٣﴾ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدِيرٍ ﴿٤﴾ وَجَعَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُسِرَ ﴿٥﴾ تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفْرًا ﴿٦﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٧﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿٨﴾ وَلَقَدْ بَشِّرْنَا الْفَرَّانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٩﴾.

وقال تعالى بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٣﴾ يَعْرِفْ لَكُمْ مِنْ دُونِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنْ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصْغِيَةً فِي أَعَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَرُوا زِينَتَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِيْ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ

أَنهَرَا ﴿١٦﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٧﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَمْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٩﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿٢٠﴾ وَاللَّهُ أُنَبِّئُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿٢١﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿٢٣﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٤﴾ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهْمُ عَصَوْنِي وَأَتَّبِعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢٥﴾ وَمَكْرُؤًا مَكْرًا كَبِيرًا ﴿٢٦﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٧﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٨﴾ سَمَا خَطِئْتَهُمْ أَغْرَقُوا فَأَدْخِلُونَا إِنَّا فَكَّرَ بِخِذْلِهِمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٣٠﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْنَاهُمْ يَضِلُّوا عَكَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِجَاجًا كَفَّارًا ﴿٣١﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٣٢﴾ .

وقد تكلمنا على كل موضع من هذه في التفسير . وسنذكر مضمون القصة مجموعاً من هذه الأماكن المتفرقة ، ومما دلت عليه الأحاديث والآثار . وقد جرى ذكره أيضاً في مواضع متفرقة من القرآن فيها مدحه وذم من خالفه ، فقال تعالى في سورة النساء : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالْيُسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ هَدَيْنَا نُوْحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٣ - ١٦٥] .

وقال في سورة الأنعام : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [٢٢٢] وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَذَكَرْنَا وَيْحَ عِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٍّ مِّن الصَّالِحِينَ ﴿٢٢٤﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَهُدًى وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٢٥﴾ وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٢٦﴾ .

وقال في سورة براءة : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ . وتقدمت قصته في يونس وهود .

وقال في سورة إبراهيم : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَوْهَانِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ .

وقال في سورة الإسراء : ﴿ ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُمْ كَانَتْ عِبَادًا شُكُورًا ﴾ ، وقال فيها أيضاً : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ . وتقدمت قصته في الأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت .

وقال في سورة الأحزاب : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ ، وقال في سورة ص : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو

الْأَوَّلَادِ ﴿١٧﴾ وَنُوحٌ وَقَوْمٌ لُوطٌ وَأَصْحَبُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٨﴾ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٩﴾

وقال في سورة غافر: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدُوا لِابْنِطِلٍ لِيُدْخِلُوهُ الْحَقَّ فَآخَذْنَاهُمْ فَأَخَذْنَاهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾﴾

وقال في سورة الشورى: ﴿سَرَّحْ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّي بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١﴾﴾

وقال تعالى في سورة ق: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَبُ الرَّيْسِ وَنُوحٌ ﴿١٧﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٨﴾ وَأَصْحَبُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُسُوعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٩﴾﴾ وقال في سورة الذاريات: ﴿وَقَوْمُ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١﴾﴾ وقال في سورة النجم: ﴿وَقَوْمُ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى ﴿١﴾﴾ وتقدمت قصته في سورة اقتربت الساعة. وقال تعالى في سورة الحديد: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١﴾﴾ وقال تعالى في سورة التحريم: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاسِخِينَ ﴿١﴾﴾

وأما مضمون ما جرى له مع قومه مأخوذاً من الكتاب والسنة والآثار ، فقد قدمنا عن ابن عباس: أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام .

[عبادة الأصنام]:

ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور ، اقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام . وكان سبب ذلك ما رواه البخاري من حديث ابن جريج عن عطاء ، عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ، ففعلوا فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك وانتسخ العلم عبت .

قال ابن عباس: وصارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد . وهكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة ومحمد بن إسحاق . قال ابن جرير في تفسيره: حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهران ، عن سفيان ، عن موسى ، عن محمد بن قيس قال: كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر ، فعبدوهم .

وقد ذكر أنه لما تطاولت العهود والأزمان ، جعلوا تلك الصور تماثيل مجسدة ليكون أثبت =

لها ، ثم عبدت بعد ذلك من دون الله عز وجل . ولهم في عبادتها مسالك كثيرة جداً قد ذكرناها في مواضعها من كتابنا التفسير . . والله الحمد والمنة .

وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه لما ذكرت عنده أم سلمة وأم حبيبة تلك الكنيسة التي رأيها بأرض الحبشة ، ويقال لها «مارية» وذكرتا من حسنهما وتصاوير فيها قال : «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ، ثم صوروا فيه تلك الصورة ، أولئك شرار الخلق عند الله عز وجل (صحيح البخاري/ كتاب الصلاة/ ح ٤٢٧) ومسلم (٥٢٨/١٦) .

[نوح يدعو لعبادة الله:]

والمقصود أن الفساد لما انتشر في الأرض وعمَّ البلاء بعبادة الأصنام فيها ، بعث الله عبده ورسوله نوحاً عليه السلام ، يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وينهى عن عبادة ما سواه .

فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي حيان ، عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ في حديث الشفاعة ، قال : «فيأتون آدم فيقولون : يا آدم . . أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة ، ألا تشفع لنا إلى ربك؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا؟ فيقول : ربي قد غضب غضباً شديداً لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، ونهاني عن شجرة فعصيت ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري . اذهبوا إلى نوح . فيأتون نوحاً فيقولون : يا نوح . . أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وسماك الله عبداً شكوراً ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ألا ترى إلى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا إلى ربك عز وجل؟ فيقول : ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، نفسي نفسي» وذكر تمام الحديث كما أورده البخاري في قصة نوح . (صحيح البخاري/ كتاب الأنبياء/ ح ٣٣٤٠) ومسلم (٣٢٧/١٩٤) .

فلما بعث الله نوحاً عليه السلام ، دعاهم إلى إفراة عبادة الله وحده لا شريك له ، وألا يعبدوا معه صنماً ولا تمثالاً ولا طاغوتاً وأن يعترفوا بوحدايته ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ، كما أمر الله تعالى من بعده من الرسل الذي هم كلهم من ذريته ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرّاً آثِقِينَ ﴾ ، وقال فيه وفي إبراهيم : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ ، أي كل نبي من بعد نوح من ذريته ، وكذلك إبراهيم .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَسَأَلْنَا مَنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوْحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ . ولهذا قال نوح لقومه : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ، وقال : ﴿ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا =

يقول لهم: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَدَيْهِ مِنْ رَبِّي وَآلَنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ﴾ أي النبوة والرسالة ﴿فَعَصَيْتَ﴾

عَلَيْكُمْ ﴿ أَي فُلَم تَفْهَمُوهَا ، وَلَمْ تَهْتَدُوا إِلَيْهَا ، ﴿ أَنْزَلْنَاهُ مُكْتُمَهَا ﴾ أَي أَنْغَصَبَكُمْ بِهَا ، وَنَجْبَرَكُمْ عَلَيْهَا ؟ ﴿ وَأَنْتُمْ هُنَا كَرِهْتُمْ ﴾ أَي لَيْسَ لِي فِيكُمْ حِيلَةٌ وَالْحَالَةُ هَذِهِ . ﴿ وَيَنْقُورُ لَا أَشْكُلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أَجَرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ أَي لَسْتُ أُرِيدُ مِنْكُمْ أَجْرَةً عَلَى إِبْلَاجِي إِيَّاكُمْ مَا يَنْفَعُكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ وَأَخْرَاجُكُمْ إِنْ أَطْلَبَ ذَلِكَ إِلَّا مِنْ اللَّهِ الَّذِي ثَوَابُهُ خَيْرٌ لِي وَأَبْقَى مِمَّا تَعْطُونَنِي أَنْتُمْ .

وقوله : ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَزِيدُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴾ كَانَهُمْ طَلِبُوا مِنْهُ أَنْ يَبْعِدَ هَؤُلَاءِ عَنْهُ ، وَوَعَدُوهُ أَنْ يَجْتَمِعُوا بِهِ إِذَا هُوَ فَعَلَ ذَلِكَ ، فَأَبَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَقَالَ : ﴿ إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ ﴾ أَي فَأَخَافُ إِنْ طَرَدْتَهُمْ أَفَلَا تَذْكُرُونَ . وَلِهَذَا لَمَّا سَأَلَ كِفَارَ قَرِيشٍ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَطْرُدَ عَنْهُ ضَعَفَاءُ الْمُؤْمِنِينَ ، كَعِمَارَ وَصَهْبٍ وَبِلَالٍ وَخَبَابٍ وَأَشْبَاهِهِمْ ، نَهَاهُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ ، كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي سورتَي الْأَنْعَامِ وَالْكَهْفِ .

﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ أَي بَلْ أَنَا عَبْدٌ وَرَسُولٌ ، لَا أَعْلَمُ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مَا أَعْلَمَنِي بِهِ وَلَا أَقْدِرُ إِلَّا عَلَى مَا أَقْدَرَنِي عَلَيْهِ ، وَلَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ : ﴿ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ ﴾ يَعْنِي مِنْ أَتْبَاعِهِ ﴿ كَنْ يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ أَي لَا أَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ لَا خَيْرَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِهِمْ وَسَيَجَازِيهِمْ عَلَى مَا فِي نَفْسِهِمْ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٍ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٍّ ، كَمَا قَالُوا فِي الْمَوَاضِعِ الْأُخْرَى : ﴿ أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ .

وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَشِيسَةً عَامًا فَآخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ أَي وَمَعَ هَذِهِ الْمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ ، مَا أَمِنَ بِهِ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنْهُمْ . وَكَانَ كُلُّمَا انْقَرَضَ جِيلٌ وَصَّوْا مِنْ بَعْدِهِمْ بِعَدَمِ الْإِيمَانِ بِهِ وَمَحَارَبَتِهِ وَمُخَالَفَتِهِ . وَكَانَ الْوَالِدُ إِذَا بَلَغَ وَلَدَهُ وَعَقَلَ عَنْهُ كَلَامَهُ ، وَصَّاهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ ، أَلَا يُؤْمِنُ بَنُو حَامٍ أَبَدًا مَا عَاشَ ، وَدَائِمًا مَا بَقِيَ . وَكَانَتْ سَجَايَاهُمْ تَأْتِي الْإِيمَانَ وَاتِّبَاعَ الْحَقِّ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح : ٢٧] .

ولهذا : ﴿ قَالُوا يَنْتَهِزُ قَدْ جَدَلْنَا فَاكْتَسَرَتْ جِدَلُنَا فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿ أَي إِنَّمَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، فَإِنَّهُ الَّذِي لَا يَعْجِزُهُ شَيْءٌ وَلَا يَكْتُرُهُ أَمْرٌ ، بَلْ هُوَ الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ .

﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أَي مَنْ يَرُدُّ اللَّهُ فَتَنَتَهُ فَلَنْ يَمْلِكَ أَحَدٌ هِدَايَتَهُ ، هُوَ الَّذِي يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْفَعَالُ لِمَا يَرِيدُ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، الْعَلِيمُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهَدَايَةَ ، وَمَنْ يَسْتَحِقُّ الْغَوَايَةَ ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ .

﴿ وَأَوْحَى إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾ تَسْلِيَةٌ لَهُ عَمَّا كَانَ مِنْهُمْ إِلَيْهِ ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وَهَذِهِ تَعْزِيَةٌ لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْمِهِ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ، =

أي لا يسوءك ما جرى ، فإن النصر قريب ، والنبأ عجب عجب . ﴿ وَأَصْنَعُ الْفُلَ كَبُوعًا بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَجُونَ ﴾ .

وذلك أن نوحاً عليه السلام لما يش من صلاحهم وفلاحهم ، ورأى أنه لا خير فيهم وتوصلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريق ، من فعال ومقال ، دعا عليهم دعوة غضب الله عليهم فلبى الله دعوته وأجاب طلبته ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْيَعْمَلْ الْغُيُوبُونَ ﴾ ٢٥ ﴿ وَبَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴾ ٢٦ ﴿ فَأَفْنَعُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ قَتْعًا وَيَبْجِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾ وقال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كُنتُ دُونَهُ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ سَمَا خَطْبَتْنَهُمْ غَرْبًا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴾ ٢٧ ﴿ وَقَالَ نُوْحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ ٢٨ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح : ٢٥ - ٢٧] .

[صنع السفينة] :

فاجتمع عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورهم ودعوة نبيهم عليهم . فعند ذلك أمره الله تعالى أن يصنع الفلك ، وهي السفينة العظيمة .

وقدم الله تعالى إليه أن إذا جاء أمره ، وَحَلَّ بِهِمْ بِأَسْهَ الَّذِي لَا يَرُدُّ عَنْ الْقَوْمِ الْمَجْرَمِينَ ، أنه لا يعاوده فيهم ولا يراجعه ، فإنه لعله قد يدرکه رقة على قومه عند معاينة العذاب النازل بهم ، فإنه ليس الخبر كالمعاينة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَجُونَ ﴾ .

﴿ وَصْنَعُ الْفُلَ كَبُوعًا عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ أي : يستهزئون منه إستبعاداً لوقوع ما توعدهم به ﴿ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ أي : نحن الذين نسخر منكم ونتعجب منكم في استمراركم على كفركم وعنادكم الذي يقتضي وقوع العذاب بكم وحلوله عليكم . ﴿ فَسَوْفَ نَعْلَمُ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحُلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ .

وقد كانت سجاياهم الكفر الغليظ والعناد البالغ في الدنيا ، وهكذا في الآخرة فإنهم يجحدون أيضاً أن يكون قد جاءهم رسول ، كما قال البخاري : (حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنا الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : «يجيء نوح عليه السلام وأمه ، فيقول الله عز وجل : هل بلغت؟ فيقول : أي رب ، فيقول لأمه : هل بلغتكم؟ فيقولون : لا ، ما جاءنا من نبي ، فيقول لنوح : من يشهد لك؟ فيقول : محمد وأمه ، فنشهد أنه قد بلغ» ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِنُكَوِّثُ أَشْهَادًا عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (وانظر صحيح البخاري كتاب الأنبياء/ ح ٣٣٣٩) .

والوسط : العدل . فهذه الأمة تشهد على شهادة نبيها الصادق والمصدق ، بأن الله قد بعث نوحاً بالحق ، وأنزل عليه الحق ، وأمره به ، وأنه بلغه إلى أمته على أكمل الوجوه وأتمها ، =

= ولم يدع شيئاً مما ينفعهم في دينهم إلا وقد أمرهم به ، ولا شيئاً مما قد يضرهم إلا وقد نهاهم عنه وحذرهم منه .

وهكذا شأن جميع الرسل ، حتى إنه حذر قومه من المسيح الدجال ، وإن كان لا يتوقع خروجه في زمانهم ، حذراً عليهم وشفقة ورحمة بهم .

كما قال البخاري: حدثنا عبدان ، حدثنا عبد الله ، عن يونس ، عن الزهري ، قال سالم: قال ابن عمر: قام رسول الله ﷺ في الناس فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم ذكر الدجال فقال: «إني لأنذركموه ، وما من نبي إلا وقد أنذر قومه . لقد أنذر نوح قومه ، ولكني أقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه: تعلمون أنه أعور ، وأن الله ليس بأعور» صحيح البخاري (ح ٣٣٣٧) .

وهذا الحديث في الصحيحين أيضاً من حديث شيان بن عبد الرحمن ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: «ألا أحدثكم عن الدجال حديثاً ما حدث به نبي قومه؟ إنه أعور وإنه يحيى معه بمثال الجنة والنار والتي يقول عليها الجنة هي النار ، وإني أنذركم كما أنذره به نوح قومه . لفظ البخاري (ح ٣٣٣٨) . قال الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ اضْرُفْ يَمَا كَذَّبُونِ ﴾ ٥٦ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا أَيُّ بَأْمُرْنَا لَكَ ، بمرأى منا لصنعتك لها ، ومشاهدتنا لذلك ، لنرشدك إلى الصواب في صنعتها . ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَخْطِطِ فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٢٦ - ٢٧] .

فتقدم إليه بأمره العظيم العالي أنه إذا جاء أمره وحل بأسه ، أن يحمل في هذه السفينة من كل زوجين اثنين من الحيوانات ، وسائر ما فيه روح من المأكولات وغيرها لبقاء نسلها ، وأن يحمل معه أهله ، أي أهل بيته ، إلا من سبق عليه القول منهم ، أي إلا من كان كافراً فإنه قد نفذت فيه الدعوة التي لا ترد ، ووجب عليه حلول البأس الذي لا يرد ، وأمر أنه لا يراجعهم فيهم إذا حل بهم ما يعاينه من العذاب العظيم ، الذي قد حتمه عليهم الفعال لما يريد . كما قدمنا بيانه قبل .

والمراد بالتنور عند الجمهور وجه الأرض ، أي نبتت الأرض من سائر أرجائها حتى نبتت التنانير التي هي محال النار .

[محتويات السفينة]:

قوله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ هذا أمر بأنه عند حلول النعمة بهم أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين .

وقوله: ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ أي من استجيب فيهم الدعوة النافذة ممن كفر ، فكان منهم ابنه «يام» الذي غرق كما سيأتي بيانه ﴿ وَمَنْ آمَنَ ﴾ أي واحمل فيها من آمن بك من=

أمتك . قال الله تعالى : ﴿ وَمَاءٌ أَمِنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ هذا مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ، ودعوتهم الأكيدة ليلاً ونهاراً بضروب المقال وفنون المتلطفات والتهديد والوعيد تارة والترغيب والوعد أخرى .

قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ فَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوَيمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مَبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ .

أمره أن يحمد ربه على ما سخر له من هذه السفينة ، فنجاه بها وفتح بينه وبين قومه ، وأقر عينه ممن خالفه وكذبه ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَرْوَاحَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلُكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿٦٩﴾ لِئَسْتَوِيَ عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿٧٠﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُقْتِلُونَ ﴾ .

وهكذا يؤمر بالدعاء في ابتداء الأمر : أن يكون على الخير والبركة ، وأن تكون عاقبته محمودة ، كما قال تعالى لرسوله ﷺ حين هاجر : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِّنْ لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ .

وقد امثل نوح عليه السلام هذه الوصية وقال : ﴿ آتَكْبُوا فِيهَا بِإِسْمِ اللَّهِ بِحَبْرِهَا وَمُرْسَاهَا إِنْ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : على اسم الله ابتداء سيرها وانتهاءه ﴿ إِنْ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وذو عقاب أليم ، مع كونه غفورا رحيمًا ، لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، كما أحل بأهل الأرض الذين كفروا به وعبدوا غيره .

قال الله تعالى : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ وذلك أن الله تعالى أرسل من السماء مطراً لم تعده الأرض قبله ولا تمطره بعده ، كان كأفواه القرب ، وأمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها وسائر أرجائها كما قال تعالى : ﴿ فَعَارَبْتُمْ أَتَىٰ مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ﴿٧١﴾ فَفَنَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثِيرٍ ﴿٧٢﴾ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ فَرَّرَ ﴿٧٣﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوَّاجِ وَدُسر : والدسر : المسامير ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي : بحفظنا وكلاءتنا وحراستنا ومشاهدتنا لها ﴿ جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفْرًا ﴾ .

[نهاية الطوفان] :

﴿ وَقِيلَ يَتَافَتِسُ آبَاؤُكُمْ وَمَنْ سَمَاءُ آتَيْنِي وَغِيصَ الْمَاءُ وَفُصِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

أي : لما فرغ من أهل الأرض ، ولم يبق بها أحد ممن عبد غير الله عز وجل ، أمر الله الأرض أن تبتلع ماءها ، وأمر السماء أن تقلع أي تمسك عن المطر ﴿ وَغِيصَ الْمَاءُ ﴾ أي نقص عما كان ﴿ وَفُصِيَ الْأَمْرُ ﴾ أي وقع بهم الذي كان قد سبق في علمه وقدره ، من إحلاله بهم ما حل بهم ، ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي نودي عليهم بلسان القدرة : بعداً لهم من الرحمة والمغفرة .

كما قال تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخْبَتْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا =

ذكر الأحداث التي كانت بين نوح وإبراهيم

خليل الرحمن عليهما السلام

فكان من قصّتهم ما حدّثنا أبو كريب ، قال : حدّثنا أبو بكر بن عيّاش ، قال : حدّثنا عاصم ، عن أبي وائل ، عن الحارث بن حسان البكري ، قال : قدمت على رسول الله ﷺ : فمررت بامرأة بالربذة ، فقالت : هل أنت حاملي إلى رسول الله ﷺ ؟ قلت : نعم ، فحملتها حتى قدمت المدينة ، فدخلت المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ على المنبر ، وإذا بلالٌ متقلّد السيف ، وإذا رايات سودٌ ، قال : قلت : ما هذا؟ قالوا : عمرو بن العاص قدم من غزوته ، فلما نزل رسول الله ﷺ عن منبره أتته فاستأذنته ، فأذن له ، فقلت : يا رسول الله ، إنّ بالباب امرأة من بني تميم ، قد سألتني أن أحملها إليك ، قال : يا بلال ، انّذن لها ، قال : فدخلت ، فلما جلست قال لي رسول الله ﷺ : هل كان بينكم وبين تميم شيء؟ قلت : نعم ، وكانت الدبرة عليهم ، فإن رأيت أن تجعل الدّهناء بيننا وبينهم فعلت ، قال : تقول المرأة فأين تضطرّ مضرك يا رسول الله؟ قال : قلت : مثلي مثل معزى حملت حتفاً ، قال : قلت : أو حملتُك تكونين عليّ خصماً! أعوذ بالله أن أكون كوفد عاد . قال رسول الله ﷺ : وما وفد عاد؟ قال : قلت : على الخير سقطت؛ إن عاداً قحطت ، فبعثت من يستسقي لها ، فمروا على بكر بن معاوية بمكة يسقيهم الخمر ، وتغنيهم الجرادتان شهراً ، ثم بعثوا رجلاً من عنده ، حتى أتى جبال مَهْرة ، فدعا ، فجاءت سحابات ، قال : وكلّما جاءت قال : اذهبي إلى

إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْفٍ أَعْرَفْنَاهُمْ أَجْعِينَ ﴿١٦﴾ . وقال تعالى : ﴿ فَأَنبِئْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكِ الْمَشْهُورِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ آبَائِهِ ﴿١٨﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٢٠﴾ . وقال تعالى : ﴿ فَأَنبِئْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٢٢﴾ ، وقال : ﴿ وَلَقَدْ زَكَّيْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٢٣﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ بَشَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٢٥﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا خَطْبُكُمْ أَغْرَقُوا فَأَدْخِلُوا نَارًا فَادْعُوا لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٦﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٧﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْنَاهُمْ يَبْلُغُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٨﴾ [سورة نوح] .

كذا ، حتى جاءت سحابة ، فنودي منها: خُذْها رماداً رَمَدَدًا ، لا تدع من عاد أحداً. قال: فسمعه وكتمهم حتى جاءهم العذاب^(١). (١ : ٢١٧/٢١٨).

قال أبو كريب: قال أبو بكر بعد ذاك في حديث عاد ، قال: فأقبل الذي أتاهم ، فأتى جبال مَهْرَة فصعد فقال: اللهم إني لم أجئك لأسير فأفاديه ، ولا لمرىض أشفيه ، فاسق عاداً ما كنت مُسْقِيه! قال: فَرَفَعَتْ له سحابات. قال: فنودي منها: اختر ، فجعل يقول: اذهبي إلى بني فلان اذهبي إلى بني فلان. قال: فمَرَّتْ آخرها سحابة سوداء؛ فقال: اذهبي إلى عاد. قال: فنودي منها: خُذْها رماداً رَمَدَدًا ، لا تدع من عاد أحداً. قال: وكتمهم والقوم عند بكر بن معاوية يشربون. قال: وكره بكر بن معاوية أن يقول لهم من أجل أنهم عنده ، وأنهم في طعامه. قال: فأخذ في الغناء وذكّرهم^(٢). (١ : ٢١٨).

حدثنا أبو كريب ، قال: حدثنا زيد بن حُبَاب ، قال: حدثنا سَلَامُ أبو المنذر النُخَوِيُّ ، قال: حدثنا عاصم ، عن أبي وائل ، عن الحارث بن يزيد البكري ، قال: خرجت لأشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ ، فمررت بالربذة ، فإذا عجوز منقطع بها من بني تميم ، فقالت: يا عبد الله ، إن لي إلى رسول الله حاجة ، فهل أنت مُبْلَغِي إليه؟ قال: فحملتها ، فقدمت المدينة - قال أبو جعفر: أظنه قال: «إذا رايات سود» - قال: قلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث بعمر بن العاص وجهاً. قال: فجلست حتى فرغ ، قال: فدخل منزله - أو قال رَحَلَهُ - فاستأذنتُ عليه ، فأذن لي. قال: فدخلت فقعدت ، فقال لي رسول الله ﷺ: هل كان بينكم وبين تميم شيء؟ قال: قلت: نعم ، وكانت الدِّبْرَة عليهم ، وقد مررت بالربذة ، فإذا عجوز منهم منقطع بها ، فسألتني أن أحملها إليك ، وها هي بالباب ، فأذن لها رسول الله ﷺ فدخلت ، فقلت: يا رسول الله ، اجعل بيننا وبين تميم الدَّهْنَاءَ حاجزاً ، فحميت العجوز واستوفزت ، وقالت: فأين تضطر

(١) هذا إسناد حسن صحيح والحديث أخرجه أحمد (ح ١٥٩٥٣) من طريق سلام أبي المنذر عن عاصم بن بهدلة عن أبي وائل عن الحارث بن حسان قال: مررت بعجوز بالربذة منقطع بها من بني تميم... الحديث مع اختلاف في الألفاظ ، والحديث أخرجه غير واحد كما سنين بعد الرواية الآتية.

(٢) صحيح.

مضرك يا رسول الله؟ قال: قلت: أنا كما قالوا: «معزى حملت حَتَفًا»، حملت هذه ولا أشعر أنها كائنة لي خصماً، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد! قال: وما وافد عاد؟ قلت: علي الخبير سقطت، قال: وهو يستطعمني الحديث قلت: إن عاداً قَحَطُوا فبعثوا «قَيْلاً» وافداً، فنزل على بكر، فسقاه الخمر شهراً، وتغني جاريثان يقال لهما الجرادتان، فخرج إلى جبال مَهْرَة، فنأى: إني لم أجد لمرض فادأويه، ولا لأسير فأفاديه، اللهم اسق عاداً ما كنت تُسقيه! فمرّت به سحباب سود، فنودي منها: خذها رماداً رَمَدَداً، لا تبقي من عاد أحداً. قال: فكانت المرأة تقول: لا تكن كوافد عاد، فما بلغني أنه أرسل عليهم من الريح يا رسول الله إلا قَدَرَ ما يجري في خاتمي. قال أبو وائل: وكذلك بلغني^(١). (١: ٢١٨/٢١٩).

حدثنا القاسم، قال: حدثنا الحسين، قال: حدثنا حجاج، عن ابن جريج، قال: حَدَّثْتُ أنه لما أخذتهم الصيحة أهلك الله مَنْ بين المشارق والمغارب منهم، إلا رجلاً واحداً كان في حَرَمِ الله، منعه حرمُ الله من عذاب الله قيل: ومن هو يا رسول الله؟ قال: أبو رغال، وقال رسول الله ﷺ حين أتى على قرية ثمود لأصحابه: «لا يدخلن أحدٌ منكم القرية، ولا تشربوا من مائهم»، وأرأهم مُرتَقَى الفصيل، حين ارتقى في القارة.

قال ابن جريج: وأخبرني موسى بن عقبة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر، أن النبي ﷺ حين أتى على قرية ثمود قال: «لا تدخلن على هؤلاء

(١) هذا إسناد حسن صحيح والحديث أخرجه أحمد (ح ١٥٩٥٤) من طريق زيد بن حبان (كما عند الطبري) وإسناده حسن، وحديث الحارث هذا أخرجه الترمذي مختصراً كما عند أحمد والطبري وقال: روى غير واحد هذا الحديث عن سلام أبي المنذر عن عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن الحارث بن حسان ويقال الحارث بن يزيد. اهـ. (سنن الترمذي/ ح ٣٢٧٣).

والحديث أخرجه النسائي في السنن الكبرى (ح ٨٦٠٧). ولقد حسن الحافظ ابن حجر إسناده من رواية أحمد وقال: والظاهر أنه في قصة عاد الأخيرة لذكر مكة فيه وإنما بنيت بعد إبراهيم حين أسكن هاجر وإسماعيل بواد غير ذي زرع، فالذين ذكروا في سورة الأحقاف هم عاد الأخيرة (فتح الباري ٩/ ٥٥١/ طبعة دار الفكر).

المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم ؛ أن يصيبكم ما أصابهم .

قال ابن جريج : قال جابر بن عبد الله : إن النبي ﷺ لما أتى على الحجر ، حمد الله وأثنى عليه ثم قال : «أما بعد ، فلا تسألوا رسولكم الآيات ، هؤلاء قوم صالح سألوا رسولهم الآية ، فبعث الله لهم الناقة ، فكانت ترد من هذا الفجّ وتصدّر من هذا الفجّ ، فتشرب ماءهم يوم وزدها»^(١) . (١ : ٢٣١) .

(١) لقد ذكر الطبري هنا حديثاً في قصة واحدة ولكن فرقه على ثلاثة أسانيد ، الأول من طريق ابن جريج قال : حدثت ، والثاني من طريق ابن جريج عن موسى بن عقبة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمران مرفوعاً .

والثالث من طريق ابن جريج عن جابر مرفوعاً ، والحديث رواه غير واحد من الأئمة مختصراً ومطولاً وفي أسانيد أكثرها ضعيف سوى طريق سنذكرها .

أخرج أحمد في مسنده من طريق عبد الله بن عثمان بن خثيم عن أبي الزبير عن جابر قال : لما مر النبي ﷺ بالحجر قال لا تسألوا الآيات وقد سألها قوم صالح فكانت ترد من هذا الفجّ وتصدر من هذا الفجّ فعصوا عن أمر ربهم فعقروها وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً ، فعقروها فأخذتهم صيحة أهدم الله من تحت أديم السماء منهم ، إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله ، قيل : من هو يا رسول الله ؟ قال : أبو رغال ، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه) .

(مسند أحمد/ ح ١٤١٦٠) .

وقال الهيثمي : رواه الطبراني في الأوسط والبخاري وأحمد بنحوه ورجال أحمد رجال الصحيح وقد تقدمت لهذا الحديث طرق مختصرة في غزوة تبوك (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد/ ح ١١٠٧٨) .

قلنا : وحديث جابر (عند أحمد) أورده الحافظ ابن كثير وقال : وهذا الحديث على شرط مسلم وليس هو في شيء من الكتب الستة (قصص الأنبياء/ ١١٢) .

قلنا : وحديث جابر هذا أخرجه الحاكم (٣٤١/٢) وصححه ووافقه الذهبي وأخرجه الطحاوي في شرح المشكل (ح ٣٧٥٧) وقال العلامة أرناؤوط : وسنده قوي (انظر مسند أحمد/ ح ١٤١٦٠) .

قلنا : والحديث أخرجه الطبراني (ح ١٢٩٣١) وأورده الحافظ البوصيري من طريق محمد بن يحيى بن أبي عمر ثنا يحيى بن سليم عن ابن خثيم عن أبي الزبير ثنا جابر أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر في غزوة تبوك . . . (الحديث) ولم يسم الرجل ، وقال البوصيري : هذا إسناد صحيح (إتحاف الخيرة المهرة/ ٨/ ح ٧٧١٣) .

وأخرج البخاري في صحيحه (كتاب المغازي/ ح ٤٤٢٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : =

حدثني إسماعيل بن المتوكل الأشجعي ، قال : حدثنا محمد بن كثير ، قال : حدثنا عبد الله بن واقد ، عن عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم ، قال : حدثنا أبو الطفيل قال : لما غزا رسول الله ﷺ غزوة تبوك ، نزل الحجر فقال : «أيها الناس لا تسألوا نبيكم الآيات ، هؤلاء قوم صالح سألوهم أن يبعث لهم آية ، فبعث الله تعالى ذكره لهم الناقة آية ، فكانت تلج عليهم يوم وزدها من هذا الفج فتشرب ماءهم ، ويوم وردهم كانوا يتزودون منه ، ثم يحلبونها مثل ما كانوا يتزودون من مائهم قبل ذلك لبناً ، ثم تخرج من ذلك الفج . فعتوا عن أمر ربهم وعقروها ، فوعدهم الله العذاب بعد ثلاثة أيام ، وكان وعداً من الله غير مكذوب ، فأهلك الله من كان منهم في مشارق الأرض ومغاربها إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله ، فمنعه حرم الله من عذاب الله ، قالوا : ومن ذلك الرجل يا رسول الله ؟ قال : أبو رغال^(١) . (١ : ٢٣١ / ٢٣٢) .

ذكر إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام

وذكر من كان في عصره من ملوك العجم

قال أبو جعفر : رجع الحديث إلى حديث ابن إسحاق .

ثم أقبل عليهم كما قال الله عز وجل : ﴿صَرَّيَا بِالْيَمِينِ﴾ . ثم جعل يكسرهن بفأس

قال رسول الله ﷺ لأصحاب الحجر : «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم» .

وأخرجه أحمد في مواضع في مسنده عن عبد الله بن عمر كما في (ح ٥٩٨٤) عن ابن عمر قال : (لما نزل رسول الله ﷺ بالناس عام تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود . . . الحديث وفي آخره (ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا ، قال : إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليه» .

قلنا : وإسناده صحيح والحديث أخرجه مسلم (ح ٢٩٨١) وابن حبان (ح ٥٩٩١) من مسند عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(١) إسناده ضعيف ولكن المتن صحيح (مختصر عن الذي قبله) فالحديث هنا صحيح لغيره والله أعلم .

وسبق أن ذكرنا رواية الإمام أحمد في مسنده (ح ١٤١٦٠) عن جابر رضي الله عنه قال : لما مرَّ رسول الله ﷺ بالحجر قال : «لا تسألوا الآيات فقد سألتها قوم صالح . . . الحديث» . وانظر الرواية السابقة فقد ذكرنا الحديث بتمامه .

في يده ، حتى إذا بقيَ أعظمُ صنم منها ربط الفأس بيده ، ثم تركهنَّ ، فلما رجع قومه رأوا ما صنع بأصنامهم ، فراعهم ذلك ، فأعظموه و﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ . ثم ذكروا ف﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ - يعنون فتى يسبها ويعيبها ويستهزئ بها ، لم نسمع أحداً يقول ذلك غيره ، وهو الذي نظن صنع هذا بها . وبلغ ذلك نمرود وأشراف قومه ، فقالوا : ﴿ فَأَتَوْا بِهِ عَلَىٰ آعِينَ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ أي : ما يصنع به ^(١) . (١ : ٢٣٨ / ٢٣٩) .

رجع الحديث إلى حديث ابن إسحاق :

قال : فلما أتى به فاجتمع له قومه عند ملكهم نمرود ، قالوا : ﴿ أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ ^(١٦) قَالَ بَلْ فَعَلَهُمُ كِبِيرُهُمْ هَذَا فَسَكُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ ، غضب من أن يعبدوا معه هذه الصغار وهو أكبر منها ، فكسرهنَّ ، فارعوها ورجعوا عنه فيما ادعوا عليه من كسرهنَّ إلى أنفسهم فيما بينهم ، فقالوا : لقد ظلمناه وما نراه إلا كما قال . ثم قالوا وعرفوا أنها لا تضر ولا تنفع ولا تبطش : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتُمَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ ، أي لا يتكلمون فيخبرونا : مَنْ صنع هذا بها ، وما تبطش بالأيدي فنصدقك ، يقول الله عز وجل : ﴿ ثُمَّ نَكْسُوهُمُ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ ، أي نكسوا على رؤوسهم في الحجة عليهم لإبراهيم حين جادلهم ، فقال عند ذلك إبراهيم حين ظهرت الحجة عليهم بقولهم : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتُمَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ ^(١٧) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ^(١٨) أَفِ لَكُمْ لِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

قال : وحاجه قومه عند ذلك في الله جل ثناؤه يستوصفونه إياه ويخبرونه أن آلهتهم خير مما يعبد ، فقال : ﴿ أَتَحْكُمُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ، يضرب لهم الأمثال ، ويصرف لهم العبر ، ليعلموا أن الله هو أحق أن يخاف ويُعبد مما يعبدون من دونه ^(٢٢) ^(٢٣) . (١ : ٢٣٩ / ٢٤٠) .

(١) صحيح .

(٢) صحيح .

(٣) مادام الحديث عن تحريق إبراهيم عليه السلام فلا بأس أن نذكر هنا حديثاً لم يخرج الطبري في تاريخه فقد أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : =

قال أبو جعفر: ثم إن نمرود - فيما يذكرون - قال لإبراهيم: أرايت إلهك هذا الذي تعبد وتدعو إلى عبادته ، وتذكره من قدرته التي تعظمه بها على غيره ما هو؟ ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ ، فقال نمرود: فأنا ﴿ أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ ، فقال له إبراهيم: كيف تحيي وتميت؟ قال: آخذ الرجلين قد استوجبا القتل في حكمي ، فأقتل أحدهما فأكون قد أمته ، وأعفو عن الآخر فأتركه فأكون قد أحيتة ، فقال له إبراهيم عند ذلك: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمَسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأَتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ ، فعرف أنه كما يقول ، فبهت عند ذلك نمرود ولم يرجع إليه شيئاً ، وعرف أنه لا يطيق ذلك. يقول الله عز وجل: ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ ، يعني وقعت عليه الحجة .

قال: ثم إن نمرود وقومه أجمعوا في إبراهيم فقالوا: ﴿ حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾^(١) . (١ : ٢٤٠) .

حدثنا أبو كريب ، قال: حدثنا أبو أسامة ، قال: حدثني هشام ، عن محمد ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ : قال: «لم يكذب إبراهيم عليه السلام غير ثلاث: ثنتين في ذات الله ، قوله ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ ، وقوله: ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ . وبينما هو يسير في أرض جبار من الجبابرة ، إذ نزل منزلاً ، فأتى الجبار رجلاً فقال: إن في أرضك - أو قال: ها هنا - رجلاً معه امرأة من أحسن الناس ، فأرسل إليه ، فجاء فقال: ما هذه المرأة منك؟ قال: هي أختي ، قال: اذهب فأرسل بها إلي ، فانطلق إلى سارة ، فقال: إن هذا الجبار قد سألني عنك فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني عنده ، فإنك أختي في كتاب الله ، فإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك ، قال: فانطلق بها وقام إبراهيم عليه السلام يصلي قال: فلما دخلت عليه فرأها أهوى إليها وذهب يتناولها ، فأخذ أخذاً شديداً ، فقال: ادعي

= (يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قفرة وغبرة فيقول له إبراهيم ألم أقل لك لا تعصيني فيقول له أبوه: فالיום لا أعصيك فيقول إبراهيم يا رب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون ، وأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟! .
فيقول الله: إني حرمت الجنة على الكافرين . ثم يقال: يا إبراهيم ما تحت رجلحك؟ فينظر فإذا هو بذيخ متلطح فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار) .
(١) ذكره الطبري بلا إسناد وهو تفسير للآيات القرآنية والمعنى صحيح .

الله ولا أضرك ، فدعت له فأرسل فأهوى إليها فذهب يتناولها ، فأخذ أخذاً شديداً ، فقال : ادعي الله ولا أضرك ، فدعت له فأرسل ، ثم فعل ذلك الثالثة ، فأخذ ، فذكر مثل المرتين فأرسل . قال : فدعا أدنى حُجَّابه فقال : إنك لم تأتني بإنسان ، ولكنك أتيتني بشيطان ، أخرجها وأعطيها هاجر ، فأخرجت وأعطيت هاجر ، فأقبلت بها ، فلما أحسن إبراهيم بمجيئها انقتل من صلاته ، فقال : مهيم ! فقالت : كفى الله كيد الفاجر الكافر ! وأخدم هاجر .

قال محمد بن سيرين : فكان أبو هريرة إذا حدث هذا الحديث يقول : فتلك أمكم يا بني ماء السماء^(١) . (١ : ٢٤٥ / ٢٤٦) .

حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، قال : حدثنا محمد بن إسحاق ، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد ، عن أبيه ، عن عبد الرحمن الأعرج ، عن أبي هريرة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لم يقل إبراهيم شيئاً قطّ» لم يكن «إلا ثلاثاً : قوله : ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ لم يكن به سقم ، وقوله : ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْتُلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَظْفِقُونَ﴾ ، وقوله لفرعون حين سأله عن سارة فقال : مَنْ هذه المرأة معك ؟ قال : أختي ، قال : فما قال إبراهيم عليه السلام شيئاً قطّ «لم يكن» إلا ذلك»^(٢) . (١ : ٢٤٦) .

حدثني سعيد بن يحيى الأموي ، قال : حدثني أبي ، قال : حدثنا محمد بن إسحاق ، قال : حدثنا أبو الزناد ، عن عبد الرحمن الأعرج ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : «لم يكذب إبراهيم في شيء قطّ إلا في ثلاث . . .» ثم ذكر نحوه^(٣) . (١ : ٢٤٦) .

(١) هذا إسناد صحيح والحديث أخرجه البخاري من طريق الأعرج عن أبي هريرة مرفوعاً دون قوله (لم يكذب إبراهيم عليه السلام غير ثلاث ثنتين في ذات الله قوله إني سقيم) وقوله (بل فعله كبيرهم هذا) (صحيح البخاري/ كتاب البيوع/ ح ٢٢١٧) .

وأخرجه البخاري من طريق محمد بن سيرين عن أبي هريرة مرفوعاً (لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات) (صحيح البخاري/ كتاب أحاديث الأنبياء/ ح ٣٣٥٧) .

(٢) شيخ الطبري في هذا الإسناد ضعيف وفيه محمد بن إسحاق مدلس وقد عنعن ولم يصرح بالتحديث إلا أن الحديث صحيح كما سبق ولم نجد فيما بين أيدينا من الروايات لفظة (فرعون) بدلاً من لفظة (جبار) والله أعلم .

(٣) صحيح .

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا أبو أسامة ، قال : حدثني هشام ، عن محمد ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : «لم يكذب إبراهيم غير ثلاث : ثنتين في ذات الله ، قوله : ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ، وقوله : ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ ، وقوله في سارة : هي أختي»^(١) . (١ : ٢٤٦) .

حدثني ابن حميد ، قال : حدثنا جرير ، عن مغيرة ، عن المسيب بن رافع ، عن أبي هريرة قال : ما كذب إبراهيم عليه السلام غير ثلاث كذبات : قوله : ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ، وقوله : ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ ، وإنما قاله موعظة وقوله حين سأله الملك فقال : أختي - لسارة - وكانت امرأته^(٢) . (١ : ٢٤٧) .

حدثني يعقوب ، قال : حدثني ابن عُلَيَّة ، عن أيوب ، عن محمد ، قال : إن إبراهيم لم يكذب إلا ثلاث كذبات : ثنتان في الله ، وواحدة في ذات نفسه ، وأما الثنتان فقوله : ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ، وقوله : ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وقصته في سارة . وذكر قصتها وقصة الملك^(٣) . (١ : ٢٤٧) .

حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، قال : حدثني ابن إسحاق ، عن الزهري ، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك الأنصاري ، قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا فتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيراً ، فإن لهم ذمة ورحماً»^(٤) . (١ : ٢٤٧) .

(١) صحيح .

(٢) شيخ الطبري هنا ضعيف وهو موقوف ولكن متنه صحيح وكذلك أخرجه البخاري .

(٣) هذا إسناد مرسل صحيح .

(٤) هذا إسناد مرسل ولقد روى الطبراني في المعجم الكبير (١٩/٦١) عن كعب بن مالك قال :

سمعت رسول الله ﷺ يقول : إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذماً ورحماً .

وأخرج أبو يعلى (٣/١٤٧٣) قال رسول الله ﷺ : (إنكم ستقدمون على قوم جعد رؤوسهم

فاستوصوا بهم خيراً فإنهم قوة لكم وإبلاغ إلى عدوكم بإذن الله تعالى) يعني قبط مصر .

وأخرج مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إنكم ستقدمون أرضاً يذكر

فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيراً ، فإن لهم ذمة ورحماً فإذا رأيتم رجلين يقتتلان في موضع

لبنة فاخرج منها» (صحيح مسلم/ كتاب فضائل الصحابة/ ٢٦٦/ ح ٢٥٤٣) .

وأخرج مسلم عن أبي ذر مرفوعاً : (إنكم ستفتحون مصرأ وهي أرض يسمى فيها القيراط فإذا

افتتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحماً) . . . الحديث . (صحيح مسلم/ ٢٢٦/ =

ذكر أمر بناء البيت

حدثني يعقوب بن إبراهيم والحسن بن محمد ، قالا : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، عن أيوب ، قال : بُنِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ أَنَّهُ حَدَّثَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ سَعَى بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ لِأُمِّ إِسْمَاعِيلَ ، وَأَنَّ أَوَّلَ مَنْ أَحْدَثَ مِنْ نِسَاءِ الْعَرَبِ جَرَّ الذُّيُولِ لِأُمِّ إِسْمَاعِيلَ . قَالَ : لَمَّا فَرَّتْ مِنْ سَارَةِ أَرْخَتْ ذَيْلَهَا لَتُعْفِيَ أَثَرَهَا ، فَجَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَمَعَهَا إِسْمَاعِيلُ حَتَّى انْتَهَى بِهِمَا إِلَى مَوْضِعِ الْبَيْتِ ، فَوَضَعَهُمَا ثُمَّ رَجَعَ ، فَاتَّبَعْتَهُ فَقَالَتْ : إِلَى أَيِّ شَيْءٍ تَكْلُنَا؟ إِلَى طَعَامٍ تَكْلُنَا؟ إِلَى شَرَابٍ تَكْلُنَا؟ لَا يَرِدُ عَلَيْهَا شَيْءٌ ، فَقَالَتْ : اللَّهُ أَمْرُكَ بِهَذَا؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَتْ : إِذَا لَا يَضِيعُنَا ، قَالَ : فَارْجِعِي وَمَضَى حَتَّى إِذَا اسْتَوَى عَلَى ثِيَّةِ كَدَاءٍ ، أَقْبَلَ عَلَى الْوَادِي فَقَالَ : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ . . . ﴾ الْآيَةِ . قَالَ : وَمَعَ الْإِنْسَانَةَ شَتَّى فِيهَا مَاءٌ ، فَنَفَذَ الْمَاءَ ، فَعَطِشَتْ فَانْقَطَعَ لَبْنُهَا ، فَعَطِشَ الصَّبِيُّ فَظَنَرَتْ : أَيُّ الْجِبَالِ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ ، فَصَعِدَتْ الصَّفَا فَتَسَمَّعَتْ : هَلْ تَسْمَعُ صَوْتًا ، أَوْ تَرَى أَنْيَسًا؟ فَلَمْ تَسْمَعْ شَيْئًا فَانْحَدَرَتْ ، فَلَمَّا أَتَتْ عَلَى الْوَادِي سَعَتْ - وَمَا تَرِيدُ السَّعْيَ - كَالْإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ الَّذِي يَسْعَى وَمَا يَرِيدُ السَّعْيَ ، فَظَنَرَتْ أَيُّ الْجِبَالِ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ ، فَصَعِدَتْ الْمَرْوَةَ ، فَتَسَمَّعَتْ : هَلْ تَسْمَعُ صَوْتًا أَوْ تَرَى أَنْيَسًا؟ فَسَمِعَتْ صَوْتًا ، فَقَالَتْ كَالْإِنْسَانِ الَّذِي يَكْذِبُ سَمِعَهُ : صَهْ! حَتَّى اسْتَيْقَنْتَ ، فَقَالَتْ : قَدْ أَسْمَعْتَنِي صَوْتَكَ فَأَغْنِنِي ، فَقَدْ هَلَكْتَ وَهَلَكَ مَنْ مَعِيَ ، فَجَاءَ الْمَلِكُ بِهَا حَتَّى انْتَهَى بِهَا إِلَى مَوْضِعِ زَمْزَمَ ، فَضْرَبَ بِقَدَمِهِ فَفَارَتْ عَيْنًا ، فَعَجَلَتْ الْإِنْسَانَةَ تُفْرِغُ فِي شَتَّتِهَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « رَحِمَ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ ، لَوْلَا أَنَّهَا عَجَلَتْ لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا » .

وقال لها المَلِكُ : لَا تَخَافِي الظَّمْأَ عَلَى أَهْلِ هَذَا الْبَلَدِ؛ فَإِنَّهَا عَيْنٌ يَشْرَبُ ضَيْفَانُ اللَّهِ مِنْهَا ، وَقَالَ : إِنْ أَبَا هَذَا الْغَلَامُ سَيَجِيءُ فَيَبْنِيَانِ لِلَّهِ بَيْتًا هَذَا مَوْضِعُهُ .

قال : وَمَرَّتْ رُفْقَةٌ مِنْ جُزْهِمَ تَرِيدُ الشَّأْمَ ، فَرَأَوُا الطَّيْرَ عَلَى الْجَبَلِ ، فَقَالُوا : إِنْ هَذَا الطَّيْرُ لِعَائِفٍ عَلَى مَاءٍ ، فَهَلْ عَلِمْتُمْ بِهَذَا الْوَادِي مِنْ مَاءٍ؟ فَقَالُوا : لَا ،

فأشرفوا فإذا هم بالإنسانه ، فأتوها فطلبوا إليها أن ينزلوا معها ، فأذنت لهم ، قال : وأتى عليها ما يأتي على هؤلاء الناس من الموت ، فماتت وتزوج إسماعيل امرأة منهم ، فجاء إبراهيم فسأل عن منزل إسماعيل حتى دُلَّ عليه فلم يجده ، ووجد امرأة له فظة غليظة ، فقال لها : إذا جاء زوجك فقولي له : جاء ها هنا شيخ من صفته كذا وكذا ، وأنه يقول لك : إني لا أرضى لك عتبة بابك فحولها ، وانطلق . فلما جاء إسماعيل أخبرته فقال : ذلك أبي ، وأنت عتبة بابي . فطلقها ، وتزوج امرأة أخرى منهم ، وجاء إبراهيم حتى انتهى إلى منزل إسماعيل فلم يجده ووجد امرأة له سهلة طليقة فقال لها : أين انطلق زوجك؟ فقالت : انطلق إلى الصيد ، قال : فما طعامكم؟ قالت : اللحم والماء ، قال : اللهم بارك لهم في لحمهم ومائهم ، ثلاثاً . وقال لها : إذا جاء زوجك فأخبريه ؛ قولي له جاء ها هنا شيخ من صفته كذا وكذا ، وإنه يقول لك : قد رضى لك عتبة بابك ، فأثبتها ، فلما جاء إسماعيل أخبرته ، قال : ثم جاء الثالثة ، فرفعا القواعد من البيت^(١) . (١ : ٢٥٥ / ٢٥٦ / ٢٥٧) .

حدثنا الحسن بن محمد ، قال : حدثنا يحيى بن عباد ، قال : حدثنا حماد بن سلمة ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : جاء إبراهيم نبي الله بإسماعيل وهاجر فوضعهما بمكة في موضع زمزم ، فلما مضى نادته هاجر : يا إبراهيم ، إنما أسألك ثلاث مرات : مَنْ أمرك أن تضعني بأرض

(١) الحديث أخرجه البخاري (ح ٣٣٦٤) و(٣٣٦٥) عن ابن عباس ، وقال ابن حجر : وأما ابن عباس فإن كان لم يسمعه من النبي ﷺ فهو من مرسل الصحابة .

وأما ابن كثير فقال : وهذا الحديث من كلام ابن عباس وموشح برفع بعضه وفي بعضه غرابة وكأنه مما تلقاه ابن عباس من الإسرائيليات (قصص الأنبياء / ١٣٧) .

وقال العلامة أحمد شاكر رحمه الله : وهذا عجب منه (أي من ابن كثير) فما كان ابن عباس ممن يتلقى الإسرائيليات . ثم إن سياق الحديث يفهم منه ضمناً أنه مرفوع كله ثم لو سلمنا أن أكثره موقوفاً فما هناك دليل أو شبه دليل على أنه من الإسرائيليات بل يكون الأقرب مما عرفته قریش وتداولته على مر السنين من حديث جدّهم إبراهيم وإسماعيل فقد يكون بعضه صحيحاً وبعضه خطأ .

ولكن الظاهر عندي أنه مرفوع كله في المعنى (وانظر البداية والنهاية ١ / ١٤٧) ومسنّد أحمد (ح ٣٢٥٠) بتحقيق الشيخ أرناؤوط .

ليس فيها زرع ولا ضرع ولا أنيس ولا ماء ولا زاد؟ قال: ربي أمرني ، قالت: فإنه لن يضيعنا ، قال: فلما قفا إبراهيم قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ يعني من الحزن ﴿وَمَا يُخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ . فلما ظمى إسماعيل جعل يدحس الأرض بعقبه فذهبت هاجر حتى علت الصفا ، والوادي يومئذ لاخ - يعني عميق - فصعدت الصفا ، فأشرفت لتنظر: هل ترى شيئاً؟ فلم تر شيئاً ، فأنحدرت فبلغت الوادي ، فسمعت فيه حتى خرجت منه ، فأنت المروة فصعدت فاستشرفت: هل ترى شيئاً؟ فلم تر شيئاً ، ففعلت ذلك سبع مرات ، ثم جاءت من المروة إلى إسماعيل ، وهو يدحس الأرض بعقبه ، وقد نبعت العين وهي زمزم ، فجعلت تفحص الأرض بيدها عن الماء ، وكلما اجتمع ماء أخذته بقدها ، فأفرغته في سقائها ، قال: فقال النبي ﷺ: «يرحمها الله! لو تركتها لكانت عيناً سائحة تجري إلى يوم القيامة» .

قال: وكانت جُزْهم يومئذ بواد قريب من مكة ، قال: ولزمت الطير الوادي حين رأت الماء ، فلما رأت جُزْهم الطير لزمت الوادي ، قالوا: ما لزمته إلا وفيه ماء ، فجاؤوا إلى هاجر ، فقالوا: لو شئت كنا معك وآنسناك والماء ماؤك ، قالت: نعم! فكانوا معها حتى شبَّ إسماعيل وماتت هاجر ، فتزوج إسماعيل امرأة من جُزْهم ، قال: فاستأذن إبراهيم سارة أن يأتي هاجر ، فأذنت له ، وشرطت عليه ألا ينزل ، وقدم إبراهيم - وقد ماتت هاجر - إلى بيت إسماعيل فقال لامرأته: أين صاحبك؟ قالت: ليس ها هنا ، ذهب يتصيد ، وكان إسماعيل يخرج من الحرم فيتصيد ثم يرجع ، فقال إبراهيم: هل عندك ضيافة؟ هل عندك طعام أو شراب؟ قالت: ليس عندي وما عندي أحد ، قال إبراهيم: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام ، وقولي له: فليغيّر عتبة بابه ، وذهب إبراهيم وجاء إسماعيل ، فوجد ريحاً أبيه فقال لامرأته: هل جاءك أحد؟ قالت: جاءني شيخ صفته كذا - وكذا كالمستخفة بشأنه - قال: فما قال لك؟ قالت: قال لي: أقرئي زوجك السلام ، وقولي له: فليغيّر عتبة بابه ، فطلّقها وتزوج أخرى ، فلبث إبراهيم ما شاء الله أن يلبث ، ثم استأذن سارة أن يزور إسماعيل ، فأذنت له واشترطت عليه ألا ينزل ، فجاء إبراهيم حتى انتهى إلى باب إسماعيل ، فقال لامرأته: أين صاحبك؟ قالت: ذهب يتصيد وهو يجيء الآن إن شاء الله ، فانزل

يرحمك الله! قال لها: هل عندك ضيافة؟ قالت: نعم، قال هل عندك خبز أو بُز أو شعير أو تمر؟ قال: فجاءت باللبن واللحم، فدعا لهما بالبركة، فلو جاءت يومئذ بخبز أو بُز أو شعير أو تمر لكانت أكثر أرض الله بُزاً وشعيراً وتمرّاً، فقالت: انزل حتى أغسل رأسك، فلم ينزل، فجاءته بالمقام فوضعت عند شقه الأيمن، فوضع قدمه عليه فبقي أثر قدمه عليه، فغسلت شِقْ رأسه الأيمن، ثم حولت المقام إلى شقه الأيسر، فغسلت شِقّه الأيسر، فقال لها: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام، وقولي له: قد استقامت عتبة بابك. فلما جاء إسماعيل وجد ريح أبيه، فقال لامرأته: هل جاءك أحد؟ قالت: نعم، شيخ أحسن الناس وجهاً وأطيبهم ريحاً، فقال لي: كذا وكذا، وقلت له: كذا وكذا، وغسلت رأسه وهذا موضع قدميه على المقام، قال: وما قال لك؟ قالت: قال لي: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام، وقولي له: قد استقامت عتبة بابك، قال ذلك إبراهيم، فلبث ما شاء الله أن يلبث وأمره الله عز وجل ببناء البيت، فبناه هو وإسماعيل، فلما بناه قيل: ﴿وَإِذْ قَالَ النَّاسُ بِالْحَجِّ﴾، فجعل لا يمرُّ بقوم إلا قال: يا أيها الناس، إنه قد بُني لكم بيت فحجوه، فجعل لا يسمعه أحد؛ لا صخرة ولا شجرة ولا شيء إلا قال: لبيك اللهم لبيك. قال: وكان بين قوله: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾، وبين قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ كذا وكذا عاماً؛ لم يحفظ عطاء^(١). (١: ٢٥٧/٢٥٨/٢٥٩).

حدثني محمد بن سنان، قال: حدثنا عبيد الله بن عبد المجيد أبو علي الحنفي، قال: أخبرنا إبراهيم بن نافع، قال: سمعت كثير بن كثير يحدث عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: جاء - يعني إبراهيم - فوجد إسماعيل يُصَلِّح نَبْلًا له من وراء زمزم، فقال إبراهيم: يا إسماعيل، إن ربك قد أمرني أن أبني له بيتاً، فقال له إسماعيل: فأطع ربك فيما أمرك، فقال إبراهيم: قد أمرك أن تُعِينِي عليه قال: إذاً أفعَل، قال: فقام معه، فجعل إبراهيم يبنيه وإسماعيل يناوله الحجارة ويقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، فلما ارتفع البنيان

(١) في إسناده عطاء اختلط بأمره إلا أن رواية حماد عنه (هاهنا) قبل الاختلاط عند الجمهور والخبر عند البخاري كما سبق أن ذكرنا عند الرواية السابقة إلا أن هذه الرواية متضمنة بعض غرابة والخبر رواه البخاري كما سبق (٣٣٦٥) وأحمد (٣٢٥٠).

وضَعُفُ الشَّيْخِ عَنْ رَفْعِ الْحِجَارَةِ قَامَ عَلَى حَجَرٍ ، وَهُوَ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، فَجَعَلَ يَنَاولُهُ وَيَقُولَانِ : ﴿ تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾^(١) . (١ : ٢٥٩ / ٢٦٠) .

فلما فرغ إبراهيم من بناء البيت الذي أمره الله عزَّ وجلَّ ببنائه ، أمره الله أن يؤدِّنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ، فقال له : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾^(٢) . (١ : ٢٦٠) .

(١) في إسناده محمد بن سنان ضعيف إلا أن المتن جزء من حديث طويل أشرنا إليه سابقاً (ح ٣٣٦٥) وفي آخره : (فجاء فوافق إسماعيل من وراء زمزم يصلح نبلاً له فقال : يا إسماعيل إن ربك أمرني أن أبني بيتاً . . . الحديث) من طريق إبراهيم بن نافع عن كثير بن كثير عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس) وليس في رواية البخاري فلما ارتفع البنيان وضعف الشيخ . . . إلخ .

(٢) صحيح .

لقد ذكر الإمام الطبري روايات عدة [ذكرناها في قسم الضعيف] منها ما هي مرفوعة أو موقوفة تؤكد أن الذبيح إسحاق ، وأخرى تؤكد أن الذبيح إسماعيل وقال الطبري في نهاية المطاف إلى كون الذبيح إسحاق ، وإن كان أثناء مناقشته للأدلة غير مقتنع بصحة أسانيد الأحاديث المرفوعة في هذه المسألة إذ يقول (١/٢٦٣) وقد روى عن رسول الله ﷺ كلا القولين : لو كان فيهما صحيح لم نعد إلى غيره ، غير أن الدليل من القرآن على صحة الرواية التي رويت عنه ﷺ أنه قال : (هو إسحاق) أوضح وأبين منه على صحة الأخرى وهذا يعني أن ضعف تلك الروايات المرفوعة واضح عند الطبري إلا أنه يرجح بعضها على بعض بما يستنبطه من فهم الآيات القرآنية كقرائن ودلائل .

وأما الحافظ ابن كثير فهو يقول بالرأي الآخر ويرى أن ما ذهب إليه ابن جرير بعيد جداً وأن ما استدل به محمد بن كعب على أنه إسماعيل أثبت وأصح وأقوى (تفسير القرآن العظيم/ سورة الصافات/ ٢٩٨٩) .

وأما الإمام الشوكاني فقد ساق مختلف الأدلة ثم قال : وبما سقناه من الاختلاف في الذبيح هل هو إسحاق أو إسماعيل وما استدل به المختلفون في ذلك تعلم أنه لم يكن في المقام ما يوجب القطع أو يتعين رجحانه تعييناً ظاهراً ، وقد رجَّح كل قولٍ طائفة من المحققين المنصفين كابن جرير فإنه رجح أنه إسحاق ، ولكنه لم يستدل على ذلك إلا ببعض ما سقناه ها هنا وكابن كثير فإنه رجح أنه إسماعيل وجعل الأدلة على ذلك أقوى وأصح ، وليس الأمر كما ذكره فإنها إن لم تكن دون أدلة القائلين بأن الذبيح إسحاق لم تكن فوقها ولا أرجح منها ولم يصح عن رسول الله ﷺ في ذلك شيء ، وما روي عنه فهو إما موضوع أو ضعيف جداً ، ولم يبق إلا مجرد استنباطات من القرآن كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق وهي محتملة ولا تقوم الحجة بمحتمل فالوقف هو الذي لا ينبغي مجاوزته وفيه السلامة من الترجيح بلا مرجح ومن =

ذكر ابتلاء الله إبراهيم بكلمات

فلما عرف الله تعالى من إبراهيم الصبر على كل ما ابتلاه به ، والقيام بكل ما ألزمه من فرائضه ، وإيثاره طاعته على كل شيء سواها ، اتخذته خليلاً ، وجعله لمن بعده من خلقه إماماً ، واصطفاه إلى خلقه رسولاً ، وجعل في ذريته النبوة والكتاب والرسالة ، وخصَّهم بالكتب المنزلة ، والحكم البالغة ، وجعل منهم الأعلام والقادة والرؤساء والسادة ، كلُّهم مضى منهم نجيبٌ خلفه سيد رفيع ، وأبقى لهم ذكراً في الآخرين ، فالأمم كلها تتولاه وتُثني عليه ، وتقول بفضلته إكراماً من الله له بذلك في الدنيا ، وما ادَّخر له في الآخرة من الكرامة أجلُّ وأعظم من أن يحيط به وصف واصف^(١) . (١ : ٢٨٦) .

= الاستدلال بما هو محتمل (فتح القدير ٣/ ٤٩٣) .

قلنا: ومن الذين ناقشوا هذه المسألة كذلك بالتفصيل الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه القيم زاد المعاد ورجح كون الذبيح إسماعيل (زاد المعاد ١/ ٧١) والله تعالى أعلم .

لقد روى الطبري رحمه الله روايات عدة في وصف (الذبيح العظيم) الذي كان فداءً لولد إبراهيم عليهما السلام وقد ذكرناها في قسم الضعيف وهي مستوحاة من الإسرائيليات إلا أن الذي ثبت أنه كان كبشاً وكفى ، وكما قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى فأما ما روى عن ابن عباس أنه كان وعلاً وعن حسن أنه كان تيساً من الأروى واسمه جرير فلا يكاد يصح عنهما ثم غالب ما هنا من الآثار مأخوذ من الإسرائيليات وفي القرآن كفاية كما جرى من الأمر العظيم والاختبار الباهر وأنه فدي بذبح عظيم .

قلنا: والخبر أخرجه أحمد في مسنده (ح/ ١٦٦٣٧) من طريق صفية بنت شيبة أم منصور قالت : (أخبرتني امرأة من بني سليم ولدت عامة أهل دارنا: أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة وقالت مرة: إنها سألت عثمان بن طلحة لم دعاك النبي ﷺ؟ قال: إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت فنسيت أن آمرك أن تخمرهما ، فخرهما فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي ، قال سفيان: لم تزل قرنا الكبش في البيت حتى احترق البيت فاحترقا) .

قلنا: وإسناده صحيح والحديث أخرجه أبو داود وفيه (الأسلمية) بدلاً من قوله (امرأة من بني سليم) وصححه من المعاصرين كلٌّ من المحدث الألباني والعلامة أرناؤوط والحديث أخرجه البيهقي (٢/ ٦١٥ ح/ ٤٢٩٧) والله أعلم .

(١) لقد ذكر الإمام الطبري رحمه الله روايات كثيرة استغرقت الصفحات (٢٩٧ - ٢٨٦) وهي

ذكر لوط بن هاران وقومه

وكان قطعهم السبيل - فيما ذكر - إتيانهم الفاحشة إلى مَنْ ورد بلدهم .

روايات موقوفة أو من أقوال التابعين سوى حديثين مرفوعين ولكن ضعيفين ولقد ذكرناها جميعاً في قسم الضعيف .

والطبري رحمه الله ذكر هذه الروايات في تفسيره للقرآن الكريم ثم قال : والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال : إن الله عز وجل اختبر إبراهيم خليله بكلمات أوحاهن إليه وأمره أن يعمل بهن وأتمهن كما أخبر الله جل ثناؤه عنه أنه فعل وجائز أن تكون تلك الكلمات جميع ما ذكره من ذكرنا قوله في تأويل الكلمات ، وجائز أن تكون بعضه ، ثم قال : وإذا كان ذلك كذلك فغير جائز لأحد أن يقول : عنى الله بالكلمات التي ابتلي بهن إبراهيم شيئاً من ذلك بعينه دون شيء ولا عنى به كل ذلك إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر عن الرسول ﷺ أو إجماع من الحجة ، ولم يصح منه شيء من ذلك خبر عن الرسول بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة ؛ التي يجب التسليم لما نقلته (تفسير سورة البقرة/ الآية ١٢٤/ ح ١٥٩٥) .

وذكر الحافظ ابن كثير تضعيف الطبري لهاتين الروايتين المرفوعتين ثم قال : وهو كما قال (أي الطبري) فإنه لا تجوز روايتهما إلا ببيان ضعفهما ، وضعفهما من وجوه عدة فإن كلاً من السندين مشتمل على غير واحد من الضعفاء مع ما في متن الحديث مما يدل على ضعفه (تفسير القرآن العظيم/ ١/ ٣٨٦) .

وأخيراً فإن الحافظ ابن كثير رحمه الله يقول :

والذي قاله أولاً (أي الطبري) من أن الكلمات تشمل جميع ما ذكر أقوى من هذا الذي جَوَّزه من قول مجاهد ومن قال مثله لأن السياق يعطي غير ما قالوه والله أعلم (٣٨٦/٧/ المصدر السابق) .

وقال الإمام الشوكاني رحمه الله بعد سرده لهذه الروايات : وإذا لم يصح شيء عن رسول الله ﷺ ولا جاءنا من طريق تقوم بها الحجة تعيين تلك الكلمات ، لم يبق لنا إلا أن نقول : إنها ما ذكره الله سبحانه بقوله ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ ﴾ إلى آخر الآيات ويكون ذلك بياناً للكلمات والسكوت وإحالة العلم في ذلك على الله سبحانه ، وأما ما روي عن ابن عباس ونحوه من الصحابة ومن بعدهم في تعيينها فهو أولاً أقوال الصحابة لا تقوم بها حجة فضلاً عن أقوال من بعدهم وعلى تقرير أنه لا مجال للاجتهاد في ذلك وأنه له حكم الرفع فقد اختلفوا في التعيين اختلافاً يمنع معه العمل ببعض ما روي عنها دون البعض الآخر بل اختلفت الروايات عن الواحد منهم كما قدمنا عن ابن عباس فكيف يجوز العمل بذلك وبهذا تعرف ضعف قول من قال : إنه يصار إلى العموم ويقال تلك الكلمات هي جميع ما ذكرنا هنا فإن هذا يستلزم تفسير كلام الله بالضعيف والمتناقض وما لا تقوم به الحجة . اهـ . (فتح القدير ١/ ١٨٩) .

* ذكر من قال ذلك :

حدثني يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد في قوله تعالى : ﴿ وَتَقَطَّعُوا السَّبِيلَ ﴾ ، قال : السبيل طريقُ المسافر إذا مرّ بهم ، وهو ابن السبيل قطعوا به وعملوا به ذلك العمل الخبيث ^(١) . (١ : ٢٩٣) .

حدثنا موسى بن هارون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السّدي في خبر ذكره ، عن أبي مالك وعن أبي صالح ، عن ابن عباس - وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود - وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ : بعث الله الملائكة لتهلك قومَ لوط ، فأقبلت تمشي في صورة رجال شباب ؛ حتى نزلوا على إبراهيم فتضيّفوه ، فكان من أمرهم وأمر إبراهيم ما قد مضى ذكرنا إياه في خبر إبراهيم وسارة . فلما ذهب عن إبراهيم الروح جاءته البشري ، وأطلعت الرسل على ما جاؤوا له ، وأنّ الله أرسلهم لهلاك قوم لوط ناظرهم إبراهيم وحاجّهم في ذلك كما أخبر الله عنه ، فقال : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرَىٰ جَدُّنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾ ^(٢) . (١ : ٢٩٧) .

حدثني المثنى ، قال : حدثنا إسحاق بن الحجاج ، قال : حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم ، قال : حدثني عبد الصمد بن معقل ، أنه سمع وهباً يقول : قال لوط لهم : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ إِيَّائِي رَكْنٌ شَدِيدٌ ﴾ ، فوجد عليه الرسل وقالوا : إنّ ركنك لشديد . فلما يئس لوط من إجابتهم إياه إلى شيء مما دعاهم إليه وضاق بهم ذرعاً ، قالت الرسل له حينئذ : ﴿ يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنَاصِلُوكَ إِلَىٰكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْفُتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا نَّكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ﴾ ^(٣) . (١ : ٢٠٠) .

(١) قال الشوكاني : والظاهر أنهم كانوا يفعلون ما يكون سبباً لقطع الطريق من غير تقييد بسبب خاص .

(٢) هذا إسناد ضعيف إلا أن تفسيره للآيات صحيح .

(٣) صحيح .

(٣٠٧/١) : بعد أن ميزنا الصحيح من الضعيف من الآثار الواردة في قصة لوط عليه السلام نذكر هنا تفسير ابن كثير للآيات (بعد اختصار وحذف الإسرائيليات) .

نَبِيُّ اللَّهِ لُوطُ
عَلَيْهِ السَّلَامُ

قال الحافظ ابن كثير :

ومما وقع في حياة إبراهيم الخليل من الأمور العظيمة: قصة قوم لوط عليه السلام ، وما حل بهم من النقمة العميمة . ولوط ابن أخي إبراهيم الخليل .

وكان لوط قد نزح عن محلة عمه الخليل عليهما السلام بأمره له وإذنه ، فنزل بمدينة ، ولها أهل من أفجر الناس وأكفرهم وأسوأهم طوية ، وأردتهم سريرة وسيرة ، يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر ، ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم ، وهي إتيان الذكران من العالمين ، وترك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين .

فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات والفواحش والمنكرات ، والأفاعيل المستقبحات ، فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم ، واستمروا على فجورهم وكفرانهم ، فأحل الله بهم من البأس الذي لا يرد ما لم يكن في خلدتهم وحسابهم وجعلهم مثلة في العالمين ، وعبرة يتعظ بها الألباء من العالمين .

[القرآن وشذوذ قومه]:

ولهذا ذكر الله تعالى قصتهم في غير ما موضع في كتابه المبين . فقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحْشَاءَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾ إِنَّا كُنَّا نُنَادِيهِمْ فِي دُورِ الْبَيْتِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨٥﴾ وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطِغُونَ ﴿٨٦﴾ فَأَجَبْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرْ كَيْفَ كَانَتْ عَذَابُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٨﴾ [الأعراف: ٨٠ - ٨٤] .

وقال تعالى في سورة هود: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيفٍ ﴿٨٩﴾ فَمَارَأَ آيِدِيَهُمْ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَزَلْنَا عَنْ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٩٠﴾ وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٩١﴾ قَالَتْ يَوْنِيئِي ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٩٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَرَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُمْ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٩٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَى ابْتَدَأَ فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٩٥﴾ يَتَذَكَّرُ مِنْهُمْ أَرُضًا مِنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَنِيبُونَ مِنْ عَذَابٍ غَيْرِ مَرْدُودٍ ﴿٩٦﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقَهُمْ وَصَافَى بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٩٧﴾ وَجَاءَهُمْ قَوْمُهُمْ يَهْرَعُونَ وَإِلَيْهِمْ قَبِلَ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفُورُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَعِيفِ النَّاسِ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٩٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٩٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿١٠٠﴾ قَالُوا يَبْلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَنْفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا جَاءَ =

أَمَرْنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْصُورٍ ﴿٨٧﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنْ الظَّالِمِينَ بِعِيدٍ ﴿هود: ٦٩ - ٨٣﴾ .

وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَبَيَّنَّاهُمْ عَنْ صَافٍ إِبْرَاهِيمَ ﴿٨١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٨٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ ﴿٨٣﴾ قَالَ أُبَشِّرُكُمْ بِأَنَّ أَنْتُمْ أَنْتُمْ الْكَاذِبُونَ ﴿٨٤﴾ قَالُوا بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفَاطِيَةِ ﴿٨٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَفْطِنُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّي إِلَّا الصَّالُونَ ﴿٨٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٨٧﴾ قَالُوا إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَى قَوْمٍ ثُجْرِمِينَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجِّيهِمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٩﴾ إِلَّا أَمْرَانَهُ قَدَرْنَا إِنَّا لَمِنَ الْغَايِبِينَ ﴿٩٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٩١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٩٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٩٣﴾ وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٩٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْبِثُ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٩٥﴾ وَفَضَّلْنَا إِبْرَاهِيمَ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنْ دَاوُدَ هَتُولَاءَ مَقْطُوعٍ مُصْبِحِينَ ﴿٩٦﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٩٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٩٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٩٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠١﴾ لَعَنُوا لِيَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ عَنْ عَالَمِينَ ﴿١٠٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿١٠٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿١٠٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِمَنْتَوَسَّيْنَ ﴿١٠٥﴾ وَإِنَّا لَنَسِيبُ لَمُفْسِدِينَ ﴿١٠٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿الحجر: ٥١ - ٧٧﴾ .

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١١١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١١٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١١٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٤﴾ أَتَأْتُونَ الذِّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴿١١٦﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ فِي مَا كُنَّا فِيهِ مِنَ الْمُخَرَّجِينَ ﴿١١٧﴾ قَالَ إِنِّي لَعَلَّكُمْ مِنَ الْغَالِينَ ﴿١١٨﴾ رَبِّ بَنِي وَأَهْلِي بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١١٩﴾ فَخَبَّرْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ دَرَأْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٢٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِظٌ رَحِيمٌ ﴿الشعراء: ١٦٠ - ١٧٥﴾ .

وقال تعالى في سورة النمل: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿١١٠﴾ أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ﴿١١١﴾ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُجْهَلُونَ ﴿١١٢﴾ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسُ نَبْطَهِرُونَ ﴿١١٣﴾ فَانْجِبْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَانَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَايِبِينَ ﴿١١٤﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿النمل: ٥٤ - ٥٨﴾ .

وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَفَعَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٠﴾ أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي كَادِكُمْ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُفْضِلِينَ ﴿١١١﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْني عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿١١٢﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنْ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَانَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَايِبِينَ ﴿١١٤﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِوَاهُ مِنْهُمْ وَصَافٍ بِهِمْ دَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا نُنْجِيكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَانَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَايِبِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْرًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١١٦﴾ وَلَقَدْ

رَّكَعًا مِنْهَا آيَةً يَنْتَهِ لَقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ [العنكبوت: ٢٨ - ٣٥]

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَلَوْ لَوْطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٦﴾ إِذْ بَيَّنَّتْهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِينَ ﴿٣٨﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿٣٩﴾ وَانْكَرُ لَنُورُونَ عَلَيْهِمْ مُصْحِحِينَ ﴿٤٠﴾ وَابْتَلِ الْأَفْلَاقَ تَقُولُونَ ﴿٤١﴾ [الصافات: ١٣٣ - ١٣٨].

وقال تعالى في سورة الذاريات بعد قصة ضيف إبراهيم وبشارتهم بإياه بسلام عليهم: ﴿قَالَ فَا حَظُّكَ أَيُّهُمُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٦﴾ قَالُوا إِنَّا أَزْهَلْنَا إِلَى قَوْمٍ تَجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ لِيُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٨﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٩﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٠﴾ فَمَا وَحَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَرَكَعًا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٤٢﴾ [الذاريات: ٣١ - ٣٧].

وقال في سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِي ﴿٣٦﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا عَالُ لُوطٍ لَبَّيْتَهُمْ بِسِحْرِ رَئِمَةٍ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ تَجْرِي مِنْ شُكْرٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالَّذِي ﴿٣٨﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٤٠﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْفَرَّءَ أَنْ لِيُذَكَّرَ فَهَلْ مِنْ مُذَكِّرٍ ﴿٤٢﴾ . وقد تكلمنا على هذه القصص في أماكنها من هذه السور في التفسير. وقد ذكر الله لوطاً وقومه في مواضع أخرى من القرآن ، تقدم ذكرها مع نوح وعاد وشمود.

والمقصود الآن إيراد ما كان من أمرهم ، وما أحل الله لهم مجموعاً من الآيات والآثار . وبالله المستعان .

[لوط والشواذ]:

وذلك أن لوطاً عليه السلام لما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهاهم عن تعاطي ما ذكر الله عنهم من الفواحش ، لم يستجيبوا له ولم يؤمنوا به حتى ولا رجل واحد منهم ، ولم يتركوا ما عنه نُهوا . بل استمروا على حالهم ، ولم يراعوا عن غيهم وضلالهم ، وهما بإخراج رسولهم بين ظهرانيهم . وما كان حاصل جوابهم عن خطابهم إذ كانوا لا يعقلون إلا أن قالوا: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَنْطَهُرُونَ ﴿١﴾﴾ فجعلوا غاية المدح ذمّاً يقتضي الإخراج ، وما حملهم على مقاتلتهم هذه إلا العناد واللجاج . فطهره الله وأهله إلا امرأته ، وأخرجهم منها أحسن إخراج .

وما كان هذا جوابهم إلا لما نهاهم عن ارتكاب الطامة العظمى ، والفاحشة الكبرى ، التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين أهل الدنيا . ولهذا صاروا مثلة فيها وعبرة لمن عليها . وكانوا مع ذلك يقطعون الطريق ، ويخونون الرفيق ، ويأتون في ناديتهم - وهو مجتمعهم ومحل حديثهم وسمهم - المنكر من الأقوال والأفعال على اختلاف أصنافه .

وربما وقع منهم الفعلة العظيمة في المحافل ولا يستنكفون ، ولا يراعون لوعظ واعظ ولا نصيحة من عاقل . وكانوا في ذلك وغيره كالأنعام بل أضل سبيلاً ، ولم يقلعوا عما كانوا =

عليه في الحاضر ، ولا ندموا على ما سلف من الماضي ، ولا راموا في المستقبل تحويلاً ، فأخذهم الله أخذاً ويلاً .

وقالوا له فيما قالوا : ﴿ أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴾ فطلبوا منه وقوع ما حذرهم منه من العذاب الأليم ، وحلول البأس العظيم . فعند ذلك دعا عليهم نبيهم الكريم ، فسأل من رب العالمين وإله المرسلين أن ينصره على القوم المفسدين .

فغار الله لغيرته ، وغضب لغضبته ، واستجاب لدعوته ، وأجابه إلى طلبته وبعث رسله الكرام ، وملائكته العظام ، فمروا على الخليل إبراهيم وبشروه بالسلام العليم ، وأخبروه بما جاؤوا له من الأمر الجسيم والخطب العميم : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ ﴿ قَالُوا إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ تُحْرِمِينَ ﴾ ﴿ لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَ مِّنْ طِينٍ ﴾ ﴿ نُسَوِّمُهُمْ بِالْفِئْرِ لَلْمُشْرِقِينَ ﴾ ، وقال : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا مِّنْكَ أَتَى مِنَ الْغَيْبِ ﴾ ، وقال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ خَبِرْنَا فِي قَوْمِ لُوطَ ﴾ . وذلك أنه كان يرجو أن يجيبوا أو ينبيوا ويسلموا ويقبلوا ويرجعوا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَعَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنتَبِئٌ ﴾ ﴿ يَأْتِيهِمْ أَغْرَاضٌ مِّنْ هَذَا إِنَّهُمْ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَّبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَدُنْكَ عَذَابٌ غَيْرَ مَرْدُودٍ ﴾ أي : أعرض عن هذا وتكلم غيره ، فإنه قد حتم أمرهم ، ووجب عذابهم وتدميرهم وهلاكهم ، ﴿ إِنَّهُمْ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَّبِّكَ ﴾ أي : قد أمر به من لا يرد أمره ، ولا يرد بأسه ، ولا معقب لحكمه ، ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَدُنْكَ عَذَابٌ غَيْرَ مَرْدُودٍ ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَءَ يَوْمٍ وَضَّا قِيَمَهُمْ وَضَّا قِيَمَهُمْ دَرَعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ . قال المفسرون : لما فصلت الملائكة من عند إبراهيم أقبلوا في صور شبان حسان ، اختباراً من الله تعالى لقوم لوط وإقامة للحجة عليهم . فاستضافوا لوطاً عليه السلام وذلك عند غروب الشمس ، فخشى إن لم يضيفهم أن يضيفهم غيره ، وحسبهم بشراً من الناس ، و﴿ سِئَءَ يَوْمٍ وَضَّا قِيَمَهُمْ دَرَعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومحمد بن إسحاق : شديد بلاؤه . وذلك لما يعلم من مدافعتة الليلة عنهم ، كما كان يصنع بهم في غيرهم ، وكانوا قد اشتروا عليه أن لا يضيف أحداً ، ولكن رأى من لا يمكن المحيد عنه .

وقوله : ﴿ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَتَمَلَّكُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ أي هذا مع ما سلف لهم من الذنوب العظيمة الكبيرة الكثيرة ، ﴿ قَالَ يَقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ يرشدهم إلى غشيان نساءهم وهن بناته شرعا ، لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد ، كما ورد في الحديث ، وكما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِن أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ أُنْهَىٰ عَنْهُمْ ﴾ وفي قول بعض الصحابة والسلف : وهو أب لهم . وهذا كقوله : ﴿ أَتَأْتُونَ الذِّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ .

وهذا هو الذي نص عليه مجاهد وسعيد بن جبيرة والربيع بن أنس وقتادة والسدي ومحمد بن =

إسحاق ، وهو الصواب . والقول الآخر خطأ مأخوذ من أهل الكتاب .

وقوله : ﴿ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزُونِ فِي صَبِيٍّ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ نهي لهم عن تعاطي ما لا يليق من الفاحشة ، وشهادة عليهم بأنه ليس فيهم رجل له مسكة ولا فيه خير ، بل الجميع سفهاء ، فجرة أقوياء ، كفره أغبياء . وكان هذا من جملة ما أراد الملائكة أن يسمعه منه من قبل أن يسألوه عنه . فقال قومه - عليهم لعنة الله الحميد المجيد ، مجيبين لنيهم فيما أمرهم به من الأمر السديد - : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ﴾ يقولون - عليهم لعائن الله - : لقد علمت يا لوط أنه لا أرب لنا في نساتنا ، وإنك لتعلم مرادنا وغرضنا .

واجهوا بهذا الكلام القبيح رسولهم الكريم ، ولم يخافوا سطوة العظيم ، ذي العذاب الأليم . ولهذا قال عليه السلام : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنِي شَدِيدٍ ﴾ ود أن لو كان له بهم قوة ، أو له منعة وعشيرة ينصرونه عليهم ، ليحل بهم ما يستحقونه من العذاب على هذا الخطاب .

وقد قال الزهري عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعاً : « نحن أحق بالشك من إبراهيم ، ويرحم الله لوطاً ، لقد كان يأوي إلى ركن شديد ، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي » . ورواه أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة [البخاري/ ح ٣٨٦] .

وقال محمد بن عمرو بن علقمة ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « رحمة الله على لوط ، إنه كان يأوي إلى ركن شديد - يعني الله عز وجل - فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه » . الترمذي/ كتاب تفسير القرآن/ (ح ٣١٢٧) .

وقال تعالى : ﴿ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ ﴿١٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ صَبِيٌّ فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿١٨﴾ وَأَقْبُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزُونِ ﴿١٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ تَنْهَكْ عَنِ الْعُلَمِيكِ ﴿٢٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَعِلِيلِينَ ﴿٢١﴾ فأمرهم بقربان نساتهم ، وحذرهم الاستمرار على طريقتهم وسيئاتهم . وهذا وهم في ذلك لا ينتهون ولا يروعون ، بل كلما نهاهم يبالغون في تحصيل هؤلاء الضيفان ويحرصون ، ولم يعلموا ما حم به القدر مما هم إليه صائرون ، وصبيحة ليلتهم إليه منقلبون . ولهذا قال تعالى مقسماً بحياة نبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ لَعَنَّاكَ إِنْهُمْ لَوِي سَكْرَتِهِمْ يَعْهَوْنَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنَّدْرِ ﴾ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ صَيفِيهِ فَمَسَسَا أَعْيُنَهُمْ فُدُوهُوَ عَدَائِي وَنَذَرِ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ .

ذكر المفسرون وغيرهم : أن نبي الله لوطاً عليه السلام جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم والباب مغلق ، وهم يرومون فتحه وولوجه ، وهو يعظهم وينهاهم من وراء الباب ، وكل ما لهم في إلحاح وإنجاح ، فلما ضاق الأمر وعسر الحال قال ما قال : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنِي شَدِيدٍ ﴾ لأحللت بكم النكال .

قالت الملائكة : ﴿ يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ صَيفِيهِ فَمَسَسَا أَعْيُنَهُمْ فُدُوهُوَ عَدَائِي وَنَذَرِ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ . ﴾ . فذلك أن الملائكة تقدمت إلى لوط عليه السلام امرين له بأن يسري هو وأهله من =

آخر الليل ﴿وَلَا يَلْفُتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ يعني عند سماع صوت العذاب إذا حل بقومه، وأمره أن يكون سيره في آخرهم كالساقة لهم .
 وقوله: ﴿إِلَّا أَمْرَانِكَ﴾ على قراءة النصب: يحتمل أن يكون مستثنى من قوله: ﴿فَأَنزِلْ بِأَهْلِكَ﴾ كأنه يقول إلا امرأتك فلا تسر بها، ويحتمل أن يكون في قوله: ﴿وَلَا يَلْفُتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ﴾ أي فإنها ستلتفت فيصيبها ما أصابهم ، ويقوي هذا الاحتمال قراءة الرفع ، ولكن الأول أظهر في المعنى . . والله أعلم .
 [عقابهم]:

وقالوا له مبشرين بهلاك هؤلاء البغاة العتاة ، الملعونين النظراء والأشباه الذين جعلهم الله سلفاً لكل خائن مربب: ﴿إِنْ مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ الْبُحْبُوحُ الْقَرِيبُ﴾ . فلما خرج لوط عليه السلام بأهله ، وخلصوا من بلادهم وطلعت الشمس فكانت عند شروقها ، جاءهم من أمر الله ما لا يرد ، ومن البأس الشديد .

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُورٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢ - ٨٣] .
 ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ والسجيل فارسي معرب: وهو الشديد الصلب القوي ، ﴿مَّنْضُورٍ﴾ أي يتبع بعضها بعضاً في نزولها عليهم من السماء ﴿مُّسَوِّمَةً﴾ أي معلمة مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذي يهبط عليه فيدمغه ، كما قال: ﴿مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ ، وكما قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ ، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤَنَّفِكَ أَهْوَىٰ ﴿٨٢﴾ فَعَسَىٰٓ أَهْوَىٰ مَا غَشَىٰ ﴿٨١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِي رَكَّ نَتْمَارِي﴾ يعني قلبها فأهوى بها منكسة عاليها سافلها ، وغشاها بمطر من حجارة من سجيل: متتابعة ، مسومة ، مرقومة ، على كل حجر اسم صاحبه الذي سقط عليه .

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِّنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغَيَّا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ سِتًّا وَقِيلَ لَهُمَا ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ أي خانتاهما في الدين فلم يتبعاهما فيه ، وليس المراد أنهما كانتا على فاحشة - حاشا وكلا - فإن الله لا يُقَدِّرُ على نبي قط أن تبغي امرأته ، كما قال ابن عباس وغيره من أئمة السلف والخلف: ما بغت امرأة نبي قط ، ومن قال خلاف هذا فقد أخطأ خطأ كبيراً .

قال الله تعالى في قصة الإفك ، لما أنزل براءة أم المؤمنين عائشة بنت الصديق ، زوج رسول الله ﷺ ، حين قال لها أهل الإفك ما قالوا ، فعاتب الله المؤمنين وأب ورجز ، ووعظ وحذر ، قال فيما قال: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ أي سبحانك أن تكون زوجة نبيك بهذه المثابة .

وقوله هنا: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أي وما هذه العقوبة بعيدة ممن أشبههم في =

فعلهم. ولهذا ذهب من ذهب من العلماء إلى أن اللواط يرجم ، سواء أكان محصناً أو لا . ونص عليه الشافعي وأحمد بن حنبل وطائفة كثيرة من الأئمة . واحتجوا أيضاً بما رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث عمرو بن أبي عمرو ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ قال : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » . وذهب أبو حنيفة إلى أن اللواط يلقي من شاهر جبل ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ (وانظر سنن أبي داود / كتاب الحدود / ح ٤٤٦٢) .

وجعل الله مكان تلك البلاد بحيرة منتنة لا ينتفع بمائها ، ولا بما حولها من الأرض المتاخمة لفنائها ، لرداءتها ودناءتها ، فصارت عبرة ومثلة وعظة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته ، وعزته في انتقامه ممن خالف أمره ، وكذب رسله ، واتبع هواه وعصى مولاه ، ودليلاً على رحمته بعباده المؤمنين في إنجائهم إياهم من المهلكات ، وإخراجهم إياهم من الظلمات إلى النور ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ .

وقال الله تعالى : ﴿ فَأَخَذْتُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ ﴾ ٧٦ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَابِقَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿ ٧٧ ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴿ ٧٨ ﴾ وَإِنَّا لَنَسِيبُ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴿ ٧٩ ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿ ٨٠ ﴾ أي من نظر بعين الفراسة والتوسم فيهم ، كيف غير الله تلك البلاد وأهلها؟ وكيف جعلها بعدما كانت اهلة عامة هالكة غامرة؟

كما روى الترمذي وغيره مرفوعاً : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ثم قرأ : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَإِنَّا لَنَسِيبُ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴾ أي لطريق مهيع مسلوك إلى الآن . كما قال : ﴿ وَإِنَّا لَنَكُرُّنَّ عَلَيْهِمْ مُّصِيبِينَ ﴾ ٧٦ وَإِنَّا لَنَلْبِئِلُ أَفْلاً تَعْقِلُونَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ٨٠ فَأَوْحَدْنَا فِيهَا عِيزَ بَنِيٍّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ ٨١ ﴾ وَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ .

أي : تركناها عبرة وعظة لمن خاف عذاب الآخرة ، وخشي الرحمن بالغيب ، وخاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فانزجر من محارم الله وترك معاصيه ، وخاف أن يشابه قوم لوط . ومن تشبه بقوم فهو منهم ، وإن لم يكن من كل وجه ، فمن بعض الوجوه ، كما قال بعضهم :

فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم فما قوم لوط منكم ببعيد

نَبِيُّ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ
عَلَيْهِ السَّلَام

[دعوته لأبيه]:

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله :

وكان أول دعوته لأبيه ، وكان أبوه ممن يعبد الأصنام ، لأنه أحق الناس بإخلاص النصيحة له =

= أبي هريرة ، عن النبي ﷺ بنحوه ، وفي سياقه غريبة ، ورواه أيضاً من حديث قتادة عن عقبة بن عبد الغافر ، عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ بنحوه .
وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ مَاذَا تَعْبُدُ أَصْنَامًا ءِلهَةً إِنِّي مِنْكَ وَمَا كُنْتُ بِمُبِينٍ ﴾ هذا يدل على أن اسم أبي إبراهيم أزر .
[عبادة الكواكب]:

ثم قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ ﴿٦٦﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكُوكِبَ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٦٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ رَبِّي الْكَوْكَبُ إِنَّ كُوتُوبَ مِنَ الْقَوَمِ الضَّالِّينَ ﴿٦٨﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُفَوِّرُ إِبْرَاهِيمُ بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٦٩﴾ إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَائِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٠﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ اتَّخَذُوهُ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٧١﴾ وَكَيفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٧٣﴾ وَنَالِكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .

وهذا المقام مقام مناظرة لقومه ، وبيان لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة ، لا تصلح للألوهية ، ولا أن تعبد مع الله عز وجل ، لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبرة مسخرة ، تطلع تارة وتأفل أخرى ، فتغيب عن هذا العالم ، والرب تعالى لا يغيب عنه شيء ولا تخفى عليه خافية ، بل هو الدائم الباقي بلا زوال ، لا إله إلا هو ولا رب سواه .

فبين لهم أولاً عدم صلاحية الكوكب لذلك ، ثم ترقى منها إلى القمر الذي هو أضوأ منها وأبهى من حسننها ، ثم ترقى إلى الشمس التي هي أشد الأجرام المشاهدة ضياء وسناء وبهاء ، فبين أنها مسخرة مسيرة مقدره مربوبة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ .

ولهذا قال : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً ﴾ أي طالعة ﴿ قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُفَوِّرُ إِبْرَاهِيمُ بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ ﴿٦٩﴾ إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَائِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٠﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ اتَّخَذُوهُ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ﴿٧١﴾ أي لست أبالي بهذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله ، فإنها لا تنفع شيئاً ، ولا تسمع ولا تعقل ، بل هي مربوبة مسخرة كالكواكب ونحوها ، أو مصنوعة منحوتة منجورة .

[البايلون وعبادة الأصنام]:

وأما أهل بابل فكانوا يعبدون الأصنام ، وهم الذين ناظرهم في عبادتهم وكسرها عليهم ، =

وأهانها وبين بطلانها ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ بَلَّغْتُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ .

وقال في سورة الأنبياء : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ (١) إِذْ قَالَ لِأَيُّهُ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ ﴿٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤﴾ قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥﴾ قَالَ بَلْ زَكَّيْتُمْ رَبَّنَا لَسْتُمْ بِالَّذِي فُطِرْتُمْ وَأَنْتَ عَلَى ذِكْرٍ مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٦﴾ وَاللَّهُ لَا كِيدَ أَنتَ مَكِيدٌ ﴿٧﴾ بَعْدَ أَنْ تَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ جُذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٩﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿١١﴾ قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَى عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿١٢﴾ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٣﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَشَاوَوْا إِيَّاهُ ﴿١٤﴾ كَانُوا يَنْطَفِقُونَ ﴿١٥﴾ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطَفِقُونَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿١٨﴾ أَيُّ لَكُمْ أَمْرٌ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٩﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٢٠﴾ فَلَمَّا بَنَدُوا لَكُنِي بَرَاءً وَسَلَّمْنَا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٢١﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٢٢﴾ [الأنبياء : ٥١ - ٧٠] .

وقال في سورة الشعراء : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (١) إِذْ قَالَ لِأَيُّهُ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُنُّهَا عَافِيَةً ﴿٣﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُوهُمْ أَوْ يَسْعَوْنَكَ أَمْ يَبْصُرُونَ ﴿٤﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٥﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٦﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقَامُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا نَحْنُ عَدُوٌّ لِّالَّذِينَ لَا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٩﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿١٠﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿١١﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿١٢﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٣﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْجِغْرَىٰ بِالصَّبْرِ ﴿١٤﴾ [الشعراء : ٦٩ - ٨٣] .

وقال في سورة الصافات : ﴿ وَآتَتْ مِن شِعْبِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾ (١) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٢﴾ إِذْ قَالَ لِأَيُّهُ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٣﴾ أَفَبِعَالَمٍ إِلَهُةٌ دُونُ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٤﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥﴾ فَظَرَّ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٦﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٧﴾ تَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٨﴾ فَرَأَى إِلَهُ الْهَيْمَنَةِ فَقَالَ لَا تَأْكُلُونَ ﴿٩﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿١٠﴾ فَرَأَى عَلَيْهِمْ صُرًا بِالْإِيمَانِ ﴿١١﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ أَعْبُدُونَ مَا تَنْجُوا ﴿١٣﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا ابْنُوا آلَهُنَا بَنِينَ فَأَقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿١٥﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿١٦﴾ .

يخبر الله تعالى عن إبراهيم خليله عليه السلام ، أنه أنكر على قومه عبادة الأوثان ، وحرقها عندهم وصغرها وتنقصها ، فقال : ﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ ؟ أي معتكفون عندها وخاضعون لها ، قالوا : ﴿ وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ ﴾ أي ما كانت حجتهم إلا صنيع الآباء والأجداد ، وما كانوا عليه من عبادة الأنداد .

﴿ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَيُّهُ وَقَوْمِهِ مَاذَا =

تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَفَبِكَا إِلَهَةِ دُونِ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا تَلْعَبُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ . قال قتادة: فما ظنكم به أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟ .

وقال لهم: ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ ﴿٨٨﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٩٠﴾ سلموا له أنها لا تسمع داعياً ولا تنفع ولا تضر شيئاً ، وإنما الحامل لهم على عبادتها الاقتداء بأسلافهم ومن هو مثلهم في الضلال من الآباء الجاهل ، ولهذا قال لهم: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿٩١﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٩٢﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِيَ الرَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٣﴾ [الشعراء: ٧٥ - ٧٧] .

وهذا برهان قاطع على بطلان إلهية ما ادعوه من الأصنام ، لأنه تبرأ منها وتنقص بها ، فلو كانت تضر لضرته ، أو تؤثر لأثرته فيه . ﴿ قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴾ ؟ ويقولون: هذا الكلام الذي تقوله لنا وتنقص به آلهتنا ، وتطعن بسببه في آبائنا ، أتقوله محققاً جاداً فيه أم لا عباً؟

﴿ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ يعني بل أقول لكم ذلك جاداً محققاً ، إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو ، ربكم ورب كل شيء ، فاطر السموات والأرض ، الخالق لهما على غير مثال سبق ، فهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، وأنا على ذلكم من الشاهدين .

[موقفه من الأصنام]:

وقوله: ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ ﴾ أقسم ليكيدهن هذه الأصنام التي يعبدونها بعد أن تولوا مدبرين إلى عيدهم . قيل: إنه قال: هذا خفية في نفسه . وقال ابن مسعود: سمعه بعضهم .

قال تعالى: ﴿ فَطَرْنَا نَفْرَةً فِي الْجُبُورِ ﴾ ﴿٩٤﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٩٥﴾ عرض لهم في الكلام حتى توصل إلى مقصوده من إهانة أصنامهم ونصرة دين الله الحق ، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي تستحق أن تكسر وأن تهان غاية الإهانة .

﴿ فَرَأَى إِلَى آلِهِمْ ﴾ أي ذهب إليها مسرعاً مستخفياً ، فوجدها في بهو عظيم ، وقد وضعوا بين أيديها أنواعاً من الأطعمة قرباناً إليها فقال لها على سبيل التهكم والازدراء: ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ ﴿٩٦﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٧﴾ فَرَأَى عَلَيْهِمْ صَرَبًا يَلْعِينُ ﴿٩٨﴾ لأنها أقوى وأبطش وأقهر ، فكسرها بقدم في يده كما قال تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَاهُ جُذَاءً ﴾ أي حطاماً ، كسرها كلها ﴿ إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ قيل: إنه وضع القدم في يد الكبير ، فلما وجدوا ما حل بمعبودهم: ﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الْغَالِبِينَ ﴾ وهذا فيه دليل ظاهر لهم لو كانوا يعقلون ، وهو ما حل بآلهتهم التي كانوا يعبدونها ، فلو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها من أرادها بسوء لكنهم قالوا من جهلهم وقلة عقلهم وكثرة ضلالهم وخبالهم: ﴿ مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الْغَالِبِينَ ﴾ ، ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ أي يذكرها بالغييب والتقص لها والازدراء بها ، فهو المقيم عليها والكاسر لها وعلى قول ابن مسعود ، أي يذكرها بقوله: ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ ﴾

أَصْنَعَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُؤْا مُدِيرِينَ ﴿٦٥﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦٦﴾ أي في الملاء الأكبر على رؤوس الأشهاد ، لعلمهم يشهدون مقالته ويسمعون كلامه ، ويعاينون ما يحل به من الاقتصاد منه . وكان هذا أكبر مقاصد الخليل عليه السلام أن يجتمع الناس كلهم ، فيقيم على جميع عباد الأصنام الحجة على بطلان ما هم عليه ، كما قال موسى عليه السلام لفرعون : ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسَ صُغًى ﴾ .

فلما اجتمعوا وجاؤوا به كما ذكروا : ﴿ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِإِبْرَاهِيمَ ﴾ ﴿٦٧﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴿٦٨﴾ قيل معناه : هو الحامل لي على تكسيرهم ، وإنما عرض لهم في القول ﴿ فَسْتَوْفُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُبْطِقُونَ ﴾ . وإنما أراد بقوله هذا أن يبادروا إلى القول بأن هذه لا تنطق ، فيعترفوا بأنها جماد كسائر الجمادات .

﴿ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي فعادوا على أنفسهم بالملامة ، فقالوا : إنكم أنتم الظالمون . أي في تركها لا حافظ لها ولا حارس عندها . ﴿ ثُمَّ تَوَكَّسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ ﴾ قال السدي : أي ثم رجعوا إلى الفتنة ، فعلى هذا يكون قوله : ﴿ إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي في عبادتها .

وقال قتادة : أدركت القوم حيرة سوء ، أي فاطرقوا ثم قالوا : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ أي لقد علمت يا إبراهيم أن هذه لا تنطق ، فكيف تأمرنا بسؤالها؟! فعند ذلك قال لهم الخليل عليه السلام : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ ﴿٦٩﴾ أَمْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٠﴾ . كما قال : ﴿ فَأَقْبِلُوا إِلَيْهِ يَرْفُؤُنْ ﴾ قال مجاهد : يسرعون . قال : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا نَنْحِتُونَ ﴾ أي : كيف تعبدون أصناماً أنتم تنحتونها من الخشب والحجارة ، وتصورونها وتشكلونها كما تريدون ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

وسواء أكانت : «ما» مصدرية أو بمعنى «الذي» فمقتضى الكلام أنكم مخلوقون ، وهذه الأصنام مخلوقة ، فكيف يتعبد مخلوق لمخلوق مثله؟ فإنه ليس عبادتكم لها بأولى من عبادتها لكم ، وهذا باطل ، فالآخر باطل للتحكم ، إذ ليست العبادة تصلح ولا تجب إلا للخالق وحده لا شريك له .

[حرق إبراهيم] :

﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴾ ﴿٧١﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٧٢﴾ عدلوا عن الجدل والمناظرة لما انقطعوا وغلبوا ، ولم تبق لهم حجة ولا شبهة إلا استعمال قوتهم وسلطانهم ، لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم ، فكادهم الرب جل جلاله ، وأعلى كلمته ودينه وبرهانه كما قال تعالى : ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا يَنْتَازِ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٧٤﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٥﴾ .

وذلك أنهم شرعوا يجمعون خطباً من جميع ما يمكنهم من الأماكن ، وأطلقوا فيها النار فاضطربت وتأججت والتهبت وعلا لها شر ثم ألقوه من البنيان الذي بنوه له إلى النار قال : =

حسبنا الله ونعم الوكيل ، كما روى البخاري عن ابن عباس أنه قال : حسبنا الله ونعم الوكيل ، قالها إبراهيم حين ألقى في النار ، وقالها محمد حين قيل له : ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ ٧٧ فَاَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ فَفَضِّلَ لَمْ يَسْمَعْهُمْ سَوْءٌ ٧٨ الآية .

وقال أبو يعلى : حدثنا أبو هشام الرفاعي ، حدثنا إسحاق بن سلمان ، عن أبي جعفر الرازي ، عن عاصم بن أبي النجود ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال ﷺ : «لما ألقى إبراهيم في النار ، قال : اللهم إنيك في السماء واحد ، وأنا في الأرض واحد أعبدك» ! . ﴿ قُلْنَا يَنْتَارُ كُوفٍ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ قال علي بن أبي طالب : أي لا تضرب به .

وقال ابن عباس وأبو العالية : لولا أن الله قال : ﴿ وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ لآذى إبراهيم بردها . فأرادوا أن ينتصروا فخذلوا ، وأرادوا أن يرتفعوا فارتفعوا ، وأرادوا أن يغلبوا فغلبوا . قال الله تعالى : ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ ، وفي آية أخرى : ﴿ الْأَسْفَلِينَ ﴾ ففازوا بالخسارة والسفال هذا في الدنيا ، وأما في الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم برداً ولا سلاماً ، ولا يلقون فيها تحية ولا سلاماً ، بل هي كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسَقَّرًا وَمُقَامًا ﴾ .

قال البخاري : حدثنا عبيد الله بن موسى ، أو ابن سلام عنه ، أنبأنا ابن جريج ، عن عبد الحميد بن جبير ، عن سعيد بن المسيب ، عن أم شريك ، أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ ، وقال : «كان ينفخ على إبراهيم» . [صحيح البخاري/ كتاب الأنبياء/ ح ٣٣٥٩] . ورواه مسلم من حديث ابن جريج ، وأخرجه النسائي وابن ماجه من حديث سفيان بن عيينة ، كلاهما عن عبد الحميد بن جبير بن شيبه عنه [مسلم/ ٢٢٣٧/ ١٤٣] .

وقال أحمد : حدثنا محمد بن بكر ، حدثنا ابن جريج ، أخبرني عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي أمية ، أن نافعا مولى ابن عمر أخبره أن عائشة أخبرته أن رسول الله ﷺ قال : «اقتلوا الوزغ فإنه كان ينفخ النار على إبراهيم» ، قال : فكانت عائشة تقتلهن [مسند أحمد/ ح ٢٥٧٠١] .

وقال أحمد : حدثنا إسماعيل : حدثنا أيوب عن نافع ، أن امرأة دخلت على عائشة فإذا رمح منصوب فقالت : ما هذا الرمح؟ فقالت : نقتل به الأوزاغ؛ ثم حدثت عن رسول الله ﷺ : «أن إبراهيم لما ألقى في النار جعلت الدواب كلها تطفئ عنه إلا الوزغ ، فإنه جعل ينفخها عليه» . تفرد به أحمد من هذين الوجهين [أحمد/ ح ٢٥٨٨٥] .

وقال أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا جرير ، حدثنا نافع ، حدثني سماعة مولاة الفاكه بن المغيرة ، قالت : دخلت على عائشة فرأيت في بيتها رمحاً موضوعاً ، فقلت : يا أم المؤمنين . ما تصنعين بهذا الرمح؟ قالت : هذا لهذه الأوزاغ تقتلن به ، فإن رسول الله ﷺ حدثنا : «أن إبراهيم حين ألقى في النار لم يكن في الأرض دابة إلا تطفئ عنه النار ، غير الوزغ كان ينفخ عليه ، فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله» . ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن =

أبي شيبة ، عن يونس بن محمد ، عن جرير بن حازم به . [أحمد/ ٢٤٨٣٤] وابن ماجه [٣٢٣١] .

[مناظرة إبراهيم مع خصمه]:

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُبْعِثُ قَالَ أَنَا أُخِيءُ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

ذكر تعالى مناظرة خليله مع هذا الملك الجبار المتمرد الذي ادعى لنفسه الربوبية ، فأبطل الخليل عليه دليله ، وبين كثرة جهله وقلة عقله ، وألجمه الحجة ، وأوضح له طريق المحجة .

قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار : وهذا الملك هو ملك بابل ، واسمه النمروذ . ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة : مؤمنان وكافران ، فالمؤمنان : ذو القرنين ، وسليمان . والكافران : النمروذ ، ويختنصر .

ولما دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، حملة الجهل والضلال وطول الآمال على إنكار الصانع ، فحاج إبراهيم الخليل في ذلك ، وادعى لنفسه الربوبية ، فلما قال الخليل : ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُبْعِثُ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُخِيءُ وَأُمِيتُ ﴾ . قال قتادة والسدي ومحمد بن إسحاق : يعني أنه إذا أوتي بالرجلين قد تحتم قتلهما ، فإذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر فكأنه قد أحيا هذا وأمات الآخر .

وهذا ليس بمعارضة للخليل ، بل هو كلام خارج عن مقام المناظرة ، ليس بمنع ولا بمعارضة ، بل هو تشغيب محض ، وهو انقطاع في الحقيقة ، فإن الخليل استدل على وجود الصانع بحدوث هذه المشاهدات من إحياء الحيوانات وموتها ، على وجود فاعل ذلك الذي لا بد من استنادها إلى وجوده : ضرورة عدم قيامها بنفسها ، ولا بد من فاعل لهذه الحوادث المشاهدة ، من خلقها وتسخيرها ، وتسيير هذه الكواكب والرياح والسحاب والمطر ، وخلق هذه الحيوانات التي توجد مشاهدة ، ثم إماتتها . ولهذا قال إبراهيم : ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُبْعِثُ وَيُمِيتُ ﴾ فقول هذا الملك الجاهل : ﴿ أَنَا أُخِيءُ وَأُمِيتُ ﴾ إن عنى أنه الفاعل لهذه المشاهدات فقد كابر وعاند ، وإن عنى ما ذكره قتادة والسدي ومحمد بن إسحاق ، فلم يقل شيئاً يتعلق بكلام الخليل ، إذ لم يمنع مقدمة ، ولا عارض الدليل .

لما كان انقطاع مناظرة هذا الملك قد تخفى على كثير من الناس ممن حضره وغيرهم ، ذكر دليلاً آخر بين وجود الصانع ، وبطلان ما ادعاه النمروذ وانقطاعه جهرة : ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ أي هذه الشمس مسخرة كل يوم ، تطلع من المشرق كما سخرها خالقها ومسيرها وقاهرها ، وهو الذي لا إله إلا هو خالق كل شيء ، فإن كنت كما زعمت من أنك الذي تحيي وتميت فأت بهذه الشمس من المغرب ، فإن الذي =

يحيي ويميت والذي يفعل ما يشاء ولا يمانع ولا يغالب ، بل قد قهر كل شيء ودان له كل شيء ، فإن كنت كما تزعم فافعل هذا ، فإن لم تفعله فلست كما زعمت ، وأنت تعلم وكل أحد يعلم أنك لا تقدر على شيء من هذا ، بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة أو تنتصر منها .

فبين ضلاله وجهله وكذبه فيما ادعاه ، وبطلان ما سلكه وتبجح به عند جهلة قومه ، ولم يبق له كلام يجب الخليل به ، بل انقطع وسكت ولهذا قال : ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

[هجرة الخليل عليه السلام] :

قال الله : ﴿ فَأَمَّا لَوْطُ قَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ﴿٧٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ إِجْرَمَ فِي الدُّنْيَا وَآلِهَةً فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٧٤﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدٌ ﴾ [الأنبياء : ٧١ - ٧٣] .

لما هجر قومه في الله ، وهاجر من بين أظهرهم ، وكانت امرأته عاقراً لا يولد لها ، ولم يكن له من الولد أحد ، وهبه الله تعالى بعد ذلك الأولاد الصالحين ، وجعل في ذريته النبوة والكتاب ، فكل نبي بعث بعده فهو من ذريته ، وكل كتاب نزل من السماء على نبي من الأنبياء من بعده ، فعلى أحد نسله وعقبه ، خلعة من الله وكرامة له ، حيث ترك بلاده وأهله وأقرباءه ، وهاجر إلى بلد يتمكن فيها من عبادة ربه عز وجل ودعوة الخلق إليه .

الأرض التي قصدتها بالهجرة أرض الشام ، وهي التي قال الله عز وجل : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ . قاله أبي بن كعب وأبو العالية وقتادة وغيرهم . وروى العوفي عن ابن عباس قوله : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ مكة ، ألم تسمع إلى قوله : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ .

ثم المشهور أن إبراهيم عليه السلام لما هاجر من بابل خرج بسارة مهاجراً من بلاده كما تقدم والله أعلم .

وقال البخاري (ح ٣١٥٨) حدثنا محمد بن محبوب ، حدثنا حماد بن زيد ، عن أيوب ، عن محمد ، عن أبي هريرة قال : « لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات : اثنتان منهم في ذات الله ، قوله : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ ، وقوله : ﴿ بَلْ نَعْكُهُمْ كَيْدُهُمْ هَذَا ﴾ » وقال : بينا هو ذات يوم وسارة ، إذ أتى على جبار من الجبابرة ، فقيل له : إن هاهنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس ، فأرسل إليه وسأله عنها ، فقال : من هذه ؟ قال : أختي ، فأتى سارة فقال : يا سارة . . ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك ، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني . فأرسل إليها ، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ ، فقال : ادعي الله لي ولا أضرك ، =

= فدعت الله فأطلق ، ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد ، فقال : ادعي الله لي ولا أضرك ، فدعت فأطلق . فدعا بعض حبيته فقال : إنكم لم تأتونني بإنسان وإنما أتيتموني بشيطان فأخدمها هاجر . فأتته وهو قائم يصلي فأوماً بيده مهيم ، فقالت : رد الله كيد الكافر - أو الفاجر - في نحره ، وأخدم هاجر . قال أبو هريرة : فتلك أمكم يا بني ماء السماء . تفرد به من هذا الوجه موقوفاً . وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار ، عن عمرو بن علي الفلاس ، عن عبد الوهاب الثقفي ، عن هشام بن حسان ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : إن إبراهيم لم يكذب قط إلا ثلاث كذبات ، كل ذلك في ذات الله ، قوله : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ ، وقوله : ﴿ بَلْ فَعَلَكُمْ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ وبينما هو يسير في أرض جبار من الجبابرة إذ نزل منزلاً ، فأتي جبار فقيل له : إنه قد نزل هاهنا رجل معه امرأة من أحسن الناس ، فأرسل إليه فسأله عنها فقال : إنها أختي ، فلما رجع إليها قال : إن هذا سألني عنك فقلت : إنك أختي . وإنها ليس اليوم مسلم غيري وغيرك ، وإنك أختي ، فلا تكذبيني عنده .

فانطلق بها ، فلما ذهب يتناولها أخذ ، فقال : ادعي الله لي ولا أضرك ، فدعت له فأرسل ، فذهب يتناولها فأخذ مثلها أو أشد منها ، فقال : ادعي الله لي ولا أضرك ، فدعت فأرسل ، ثلاث مرات ، فدعا أدنى حشمه ، فقال : إنك لم تأتني بإنسان ، ولكن أتيتني بشيطان ، أخرجها وأعطاها هاجر . فجاءت إبراهيم قائم يصلي . فلما أحس بها انصرف ، فقال : مهيم ؟ فقالت : كفى الله كيد الظالم وأخدمني هاجر . وأخرجاه من حديث هشام . ثم قال البزار : لا يعلم إسناداه عن محمد ، عن أبي هريرة إلا هشام ، ورواه غيره موقوفاً .

وقال الإمام أحمد : حدثنا علي بن حفص ، عن ورقاء - وهو أبو عمر اليسكري - عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات ؛ قوله حين دعي إلى الهتهم فقال : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ ، وقوله : ﴿ بَلْ فَعَلَكُمْ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ ، وقوله لسارة : إنها أختي » .

قال : ودخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة . فقيل : دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس ، قال : فأرسل إليه الملك أو الجبار : من هذه معك ؟ قال : أختي ، قال : فأرسل بها إليه ، وقال : لا تكذبي قولي ، فإني قد أخبرته أنك أختي إنه ما على الأرض مؤمن غيري وغيرك .

فلما دخلت عليه قام إليها ، فأقبلت تتوضأ وتصلي وتقول : اللهم إن كنت تعلم أنني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي ، فلا تسلط علي الكافر . قال : فغط حتى ركض برجله . قال أبو الزناد : قال أبو سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة أنها قالت : اللهم إن يمت يقال هي قتله ، قال : فأرسل .

قال : ثم قام إليها ، قال : فقامت تتوضأ وتصلي ، وتقول : اللهم إن كنت تعلم أنني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي . فلا تسلط علي الكافر . قال : فغط حتى ركض =

برجله . قال أبو الزناد: وقال أبو سلمة ، عن أبي هريرة أنها قالت: اللهم إن يمت يقل هي قتلته ، قال: فأرسل . قال: فقال في الثالثة أو الرابعة: ما أرسلتم إليّ إلا شيطاناً ، أرجعوها إلى إبراهيم وأعطوها هاجر . قال: فرجعت ، فقالت لإبراهيم: أشعرت أن الله رد كيد الكافرين وأخدم وليدة؟ تفرد به أحمد من هذا الوجه ، وهو على شرط الصحيح [مسند أحمد/ ح ٩٢٥٢] .

وقد رواه البخاري عن أبي اليمان ، عن شعيب بن أبي حمزة ، عن أبي الزناد ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ به مختصراً .

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي ، حدثنا سفيان ، عن علي بن زيد بن جدعان ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ في كلمات إبراهيم الثلاث التي قالها: «ما منها كلمة إلا ماحل بها عن دين الله ، فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ، وقال: ﴿بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدُهُمْ هَذَا﴾ ، وقال للملك حين أراد أمراته: هي أختي» .

فقوله في الحديث: هي أختي أي في دين الله ، وقوله لها: «إنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك» ، يعني زوجين مؤمنين غيري وغيرك ، ويتعين حمله على هذا لأن لوطاً كان معهم وهو نبي عليه السلام . وقوله لها لما رجعت إليه: مهيم؟ معناه ما الخبر؟ فقالت: إن الله رد كيد الكافرين ، وفي رواية: الفاجر وهو الملك ، وأخدم جارية .

وكان إبراهيم عليه السلام من وقت ذهب بها إلى الملك ، قام يصلي لله عز وجل ، ويسأله أن يدفع عن أهله ، وأن يرد بأس هذا الذي أراد أهله بسوء . وهكذا فعلت هي أيضاً . فلما أراد عدو الله أن ينال منها أمراً قامت إلى وضوئها وصلاتها ، ودعت الله عز وجل بما تقدم من الدعاء العظيم . ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ فعصمها الله وصانها لعصمة عبده ورسوله وحببيه وخليله إبراهيم عليه السلام .

وقد ذهب بعض العلماء إلى نبوة ثلاث نسوة: سارة ، وأم موسى ، ومريم عليهن السلام . والذي عليه الجمهور أنهن صديقات رضي الله عنهن وأرضاهن .

ثم إن الخليل عليه السلام رجع من بلاد مصر إلى أرض التيمن وهي الأرض المقدسة التي كان فيها . وصحبته هاجر القبطية المصرية .

[هجرة إبراهيم بابنه إسماعيل وأمه]:

قال البخاري: قال عبد الله بن محمد - هو أبو بكر بن أبي شيبة - حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن أيوب السخثياني وكثير بن كثير بن المطلب بن أبي وداعة ، يزيد أحدهما على الآخر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل ، اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه ، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء . فوضعهما هنالك ووضع عندهما جراباً فيه تمر ، وسقاء فيه ماء . =

ثم قفى إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل ، فقالت : يا إبراهيم . . أين تذهب وتركتنا بهذا الوادي الذي ليس به أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت له : الله أمرك بهذا؟ قال : نعم ، قالت : إذاً لا يضيعنا . ثم رجعت . فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند ثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ .

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال يتلبط - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً ، فلم تر أحداً . فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادي رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعي الإنسان المجهود ، حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها ، ونظرت هل ترى أحداً ، فلم تر أحداً ، فعلت ذلك سبع مرات . قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : « ذلك سعي الناس بينهما » .

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت : صه ، تريد نفسها . ثم سمعت فسمعت أيضاً ، فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه - أو قال بجناحه - حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا . وجعلت تغرف من الماء في سقاها وهو يفور بعدما تغرف . قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : « يرحم الله أم إسماعيل ! لو تركت زمزم - أو قال : لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عيناً معيناً » ، قال : فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافي الضيعة فإن هاهنا بيتاً لله بينه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله .

وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالراية ، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم ، أو أهل بيت من جرهم ، مقبلين من طريق كداء ، فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عاثفاً ، فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء . فأرسلوا جرياً أو جريين فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبرهم بالماء فأقبلوا .

قال : وأم إسماعيل عند الماء ، فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت : نعم ، ولكن لا حق لكم في الماء عندنا . قالوا : نعم . قال عبد الله بن عباس : قال النبي ﷺ : « فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس » ، فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم . وشب الغلام وتعلم العربية منهم ، وأنفسهم وأعجبهم حين شب . فلما أدرك زوجه امرأة منهم .

وماتت أم إسماعيل ، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل ، =

فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يتغي لنا ، ثم سألها عن عيشهم وهيتهم ، فقالت: نحن بِشَرٌّ ، نحن في ضيق وشدة ، وشكت إليه ، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له: يغيّر عتبة بابه .

فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً ، فقال: هل جاءكم من أحد؟ فقالت: نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته ، وسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا في جهد وشدة ، قال: هل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم ، أمرني أن أقرأ عليك السلام ، ويقول لك غَيَّرَ عتبة بابه . قال: ذاك أبي ، وقد أمرني أن أفارقك فالحق بأهلك ، وطلقها وتزوج منهم أخرى ، ولبت عنهم إبراهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم بعد فلم يجده فدخل على امرأته فسألها عنه ، فقالت: خرج يتغي لنا ، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيتهم ، فقالت: نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله عز وجل ، فقال: وما طعامكم؟ قالت: اللحم ، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء . قال: «اللهم بارك لهم في اللحم والماء» .

قال النبي ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حب ، ولو كان لهم حب لدعا لهم فيه» ، قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه . قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ، ومريه بثبت عتبه بابه ، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم ، أتانا شيخ حسن الهيئة ، وأثنت عليه ، فسألني عنك فأخبرته ، فسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير ، قال: أفأوصاك بشيء؟ قالت: نعم هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابه ، قال: ذاك أبي وأنت العتبه ، أمرني أن أمسكك .

ثم لبت عندهم ما شاء الله ، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبكي نبالاً له تحت دوحة قريباً من زمزم ، فلما راه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ثم قال: يا إسماعيل . إن الله أمرني بأمر ، قال: فاصنع ما أمرك به ربك ، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك . قال فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتاً ، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها . قال: فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت ، وجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني ، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر ووضعه له ، فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا قَبِّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧] .

قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا قَبِّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ . ثم قال: حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو ، حدثنا إبراهيم بن نافع ، عن كثير بن كثير ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال: لما كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان ، خرج بإسماعيل وأم إسماعيل ، ومعهم شاة فيها ماء ، وذكر تمامه بنحو ما تقدم .

وهذا الحديث من كلام ابن عباس وموضح برفع بعضه . وفي بعضه غرابة . وكأنه مما نفاه ابن عباس عن الإسرائيليات ، وفيه أن إسماعيل كان رضيعاً إذ ذاك * .

* قلنا: الحديث أخرجه البخاري (ح ٣٣٦٤) و(ح ٣٣٦٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما وقال الحافظ في الفتح (٥٠/٧) وأما ابن عباس فإن كان لم يسمعه من النبي فهو من مرسل الصحابة ولم يعتمد البخاري على هذا الإسناد الخالص كما ترى .
وقال في موضع آخر: وهذا القدر صرح ابن عباس برفعه عن النبي ﷺ وفيه إشعار بأن جميع الحديث مرفوع (فتح الباري ٥٤/٧).

وعند أهل التوراة أن الله أمر إبراهيم بأن يختن ولده إسماعيل وكل من عنده من العبيد وغيرهم فختنهم ، وذلك بعد مضي تسع وتسعين سنة من عمره ، فيكون عمر إسماعيل يومئذ ثلاث عشرة سنة ، وهذا امتثال لأمر الله عز وجل في أهله ، فيدل على أنه فعله على وجه الوجوب . ولهذا كان الصحيح من أقوال العلماء أنه واجب على الرجال ، كما هو مقرر في موضعه .

وقد ثبت في الحديث الذي رواه البخاري: حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن القرشي ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «اختن إبراهيم النبي عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم». تابعه عبد الرحمن بن إسحاق عن أبي الزناد ، وتابعه عجلان ، عن أبي هريرة ، ورواه محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة وهكذا رواه مسلم عن قتيبة . وفي بعض الألفاظ: «اختن إبراهيم بعدما أنت عليه ثمانون سنة واختن بالقدوم» ، والقدوم هو الالة ، وقيل: موضع .

وهذا اللفظ لا ينافي الزيادة على الثمانين . . والله أعلم ، لما سيأتي من الحديث عند ذكر وفاته ، عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اختن إبراهيم وهو ابن مئة وعشرين سنة ، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة» . رواه ابن حبان في صحيحه .

وليس في هذا السياق ذكر قصة الذبيح وأنه إسماعيل ، ولم يذكر في قدمات إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث مرات: أولاهن بعد أن تزوج إسماعيل بعد موت هاجر ، وكيف تركهم من حين صغر الولد - على ما ذكر - إلى حين تزويجه لا ينظر في حالهم ، وقد ذكر أن الأرض كانت تطوى لهم ، وقيل: إنه كان يركب البراق إذا سار إليهم ، فكيف يختلف عن مطالعة حالهم وهم في غاية الضرورة الشديدة والحاجة الأكيدة؟! وكان بعض هذا السياق متلقى من الإسرائيليات ومطرز بشيء من المرفوعات ، ولم يذكر فيه قصة الذبيح ، وقد دللنا على أن الذبيح هو إسماعيل على الصحيح في سورة الصافات .

[قصة الذبيح]:

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَبْعِينَ ۖ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۖ فَفَسَّرْنَاهُ بِعُلْمِ حَلِيمٍ ۖ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَتَّىٰ إِلَىٰ أَرْنَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَأَنْظِرْ مَاذَا تَرَىٰ ۖ قَالَ يَتَأْتِيَ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ۖ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۖ وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَّزِهِمُ ۖ فَذَصَدَقَ الرَّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۖ إِنَّ هَذَا لَمَوْلَا الْبَلَاءِ الْمُنِ ۖ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ۖ وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۖ سَلَّمْنَا عَلَىٰ إِزْرَاهِيمَ ۖ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۖ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَبَشَرْنَاهُ إِسْحَاقَ يَتَّىٰ مِنْ=

الْفَصْلِ الْحِجِثِ ﴿١١٣﴾ وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا نَحْسَنُ وَطَارِمَ لِنَفْسِهِ مِيثُ ﴿[الصفات : ٩٩ - ١١٣]

يذكر تعالى عن خليله إبراهيم أنه لما هاجر من بلاد قومه ، سأل ربه أن يهب له ولداً صالحاً ، فبشره الله بغلام حلیم ، وهو إسماعيل عليه السلام ، وهذا ما لا خلاف فيه بين أهل الملل ، لأنه أول ولده وبكره .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ أي شب وصار يسعى في مصالحه كأيبه . قال مجاهد : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ أي شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل . فلما كان هذا ، رأى إبراهيم عليه السلام في المنام أنه يؤمر بذبح ولده هذا ، وفي الحديث عن ابن عباس مرفوعاً : «رؤيا الأنبياء وحي» .

وهذا اختيار من الله عز وجل لخليله في أن يذبح هذا الولد العزيز الذي جاءه على كبر ، وقد طعن في السن ، بعدما أمر بأن يسكنه هو وأمه في بلاد قفر ، وواد ليس به حسيس ولا أنيس ، ولا زرع ولا ضرع . فامتثل أمر الله في ذلك ، وتركهما هناك ثقة بالله وتوكلاً عليه ، ففعل الله لهما فرجاً ومخرجاً ، ورزقهما من حيث لا يحتسبان .

ثم لما أمر بعد هذا كله بذبح ولده هذا الذي قد أفردته عن أمر ربه ، وهو بكره ووحيد الذي ليس له غيره ، أجاب ربه وامتثل أمره ، وسارع إلى طاعته . ثم عرض ذلك على ولده ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسراً ويذبحه قهراً : ﴿ قَالَ يَبْنَىٰ إِلَيَّ أَرَأَيْتَ فِي الْمَنَاسِكِ أَفِي أَذْبَحْكَ فَأَنْظُرَ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ . فبادر الغلام الحلیم ، سر والده الخليل إبراهيم ، فقال : ﴿ يَتَأْتِي أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ وهذا الجواب في غاية السداد والطاعة للوالد ولرب العباد .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ قيل : «أسلما» أي استسلما لأمر الله وعزماً على ذلك . وقيل : وهذا من المقدم والمؤخر ، والمعنى : «تله للجبين» أي ألقاه على وجهه . فعند ذلك نودي من الله عز وجل : ﴿ أَنْ يَبْرَاهِيمُ ﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴿ أي قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك ، ومبادرتك إلى أمر ربك ، وبذلت ولدك للقربان ، كما سمحت ببدنك للنيران ، وكما مالك مبذول للضيغان ! ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ هَذَا لَهُمْ أَبَلَّتْهُمُ الْآلَمِينَ ﴾ أي الاختبار الظاهر البين .

وقوله : ﴿ وَوَدَّعْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ أي جعلناه فداء ذبح ولده ما يسره الله تعالى له من العوض عنه . والمشهور عن الجمهور أنه كبش ثم ذكر ابن كثير بعض الروايات في وصف الكبش . ثم قال : ثم غالب ما هاهنا من الآثار مأخوذ من الإسرائيليات . وفي القرآن كفاية عما جرى من الأمر العظيم ، والاختبار الباهر ، وأنه فدي بذبح عظيم ، وقد ورد في الحديث أنه كان كبشاً .

قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، حدثنا منصور ، عن خاله نافع ، عن صفية بنت شيبة =

قالت: أخبرني امرأة من بني سليم ، ولدت عامة أهل دارنا قالت: أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة ، وقالت مرة: إنها سألت عثمان: لم دعاك رسول الله ﷺ؟ قال: قال لي رسول الله: «إني كنت رأيت قرني الكيش حين دخلت البيت ، فنسيت أن أملك أن تخمرهما فخمرهما فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي». [مسند أحمد/ ح ١٦٦٣٧].

قال سفيان: لم يزل قرنا الكيش معلقين في البيت حتى احترق البيت فاحترقا. وكذا روي عن ابن عباس أن رأس الكيش لم يزل معلقاً عند ميزاب الكعبة حتى ييس . وهذا وحده دليل على أن الذبيح إسماعيل ، لأنه كان هو المقيم بمكة ، وإسحاق لا نعلم أنه قدمها في حال صغره . . والله أعلم. وهذا هو الظاهر من القرآن ، بل كأنه نص على أن الذبيح هو إسماعيل ، لأنه ذكر قصة الذبيح ثم قال بعده: ﴿ وَكَشَرْنَاهُ إِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ ﴾ ومن جعله حالاً فقد تكلف ، ومستنده أنه إسحاق إنما هو إسرائيليات ، وكتابهم فيه تحريف ، ولا سيما هاهنا قطعاً لا محيد عنه ، فإن عندهم أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه ووحيدة ، وفي نسخة من المعربة: بكره إسحاق ، بلفظة إسحاق هاهنا مقحمة مكذوبة مفتراة ، لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر إنما ذاك إسماعيل .

وإنما حملهم على هذا حسد العرب ، فإن إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله ﷺ ، وإسحاق والد يعقوب - وهو إسرائيل - الذي ينتسبون إليه ، فأرادوا أن يجروا هذا الشرف إليهم ، فحرفوا كلام الله وزادوا فيه وهم قوم بهت ولم يقرؤا بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .

وقد قال بأنه إسحاق طائفة كثيرة من السلف وغيرهم ، وإنما أخذوه - والله أعلم - من كعب الأخبار ، أو من صحف أهل الكتاب. وليس في ذلك حديث صحيح عن المعصوم حتى ترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز ، ولا يفهم هذا من القرآن ، بل المفهوم بل المنطوق بل النص عند التأمل على أنه إسماعيل [لقد فصلنا القول في هذا البحث في مكان آخر فلا نعلق هنا على ترجيح ابن كثير].

وما أحسن ما استدلل به ابن كعب القرظي على أنه إسماعيل وليس بإسحاق من قوله: ﴿ فَشَرَّزْنَاهَا إِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ ، قال: فكيف تقع البشارة بإسحاق وأنه سيولد له يعقوب ، ثم يؤمر بذبح إسحاق وهو صغير قبل أن يولد له؟ هذا لا يكون ، لأنه يناقض البشارة المتقدمة . . . والله أعلم.

وقد اعترض السهيلي على هذا الاستدلال بما حاصله أن قوله: ﴿ فَشَرَّزْنَاهَا إِسْحَاقَ ﴾ جملة تامة ، وقوله: ﴿ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ جملة أخرى ليست في حيز البشارة. قال: لأنه لا يجوز من حيث العربية أن يكون مخفوضاً إلى أن يعاد معه حرف الجر ، فلا يجوز أن يقال مررت بزيد ومن بعده عمرو ، حتى يقال ومن بعده بعمر . وقال: فقوله: ﴿ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ ﴾

يَعْقُوبُ ﴿منصوب بفعل مضمر تقديره: ووهبنا لإسحاق يعقوب ، وفي هذا الذي قاله نظر .
ورجح أنه إسحاق ، واحتج بقوله: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ قال: وإسماعيل لم يكن عنده إنما
كان في حال صغره هو وأمه بجمال مكة فكيف يبلغ معه السعي؟ وهذا أيضا فيه نظر ، لأنه قد
روي أن الخليل كان يذهب في كثير من الأوقات راكبا البراق إلى مكة ، يطلع على ولده وابنه
ويرجع . . والله تعالى أعلم .

فمن حكى القول عنه بأنه إسحاق: كعب الأحبار ، وروي عن عمر والعباس وعلي وابن
مسعود ، ومسعود وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد وعطاء والشعبي ومقاتل وعبيد بن
عمير ، وأبي ميسرة وزيد بن أسلم وعبد الله بن شقيق ، والزهري والقاسم وابن أبي بردة
ومكحول ، وعثمان بن حاضر والسدي والحسن وقتادة ، وأبي الهذيل وابن سابط ، وهو
اختيار ابن جرير ، وهذا عجب وهو أحدث الروايتين عن ابن عباس .

ولكن الصحيح عنه - وعن أكثر هؤلاء - أنه إسماعيل عليه السلام ، قال مجاهد وسعيد
والشعبي ويوسف بن مهران وعطاء وغير واحد عن ابن عباس: هو إسماعيل عليه السلام .
وقال ابن جرير:

حدثني يونس ، أنبأنا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن قيس ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن
ابن عباس أنه قال: المفدى إسماعيل وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود .
قال عبد الله بن الإمام أحمد سألت أبي عن الذبيح: من هو؟ إسماعيل أو إسحاق ، فقال:
إسماعيل . وقال ابن أبي حاتم: وسمعت أبي يقول: الصحيح أن الذبيح إسماعيل . وروي
عن علي وابن عمر وأبي هريرة ، وأبي الطفيل ، وسعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير ،
والحسن ومجاهد ، والشعبي ، ومحمد بن كعب ، وأبي جعفر محمد بن علي ،
وأبي صالح أنهم قالوا: الذبيح هو إسماعيل عليه السلام . وحكاه البغوي أيضا عن الربيع عن
أنس والكلبي وأبي عمرو بن العلاء .

نَبِيُّ اللَّهِ إِسْحَاقُ
عَلَيْهِ السَّلَامُ

[مولده]:

قال الله تعالى: ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ﴿١٦﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا عِيسَىٰ
وَعِيسَىٰ لِنَفْسِهِ مِثْرٌ ﴿١٧﴾ . وقد كانت البشارة به من الملائكة لإبراهيم وسارة .
قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ
حَنِيمٍ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَتَيْنَاكَ إِلَى قَوْمِ
لُوطٍ ﴿١٩﴾ وَأَمْرَانِمْ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ ﴿٢٠﴾ قَالَتْ يَتُولىٰ ءَالِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ

وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَقِيٌّ عَجِيبٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا أَنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُمْ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٧﴾ [هود: ٦٩ - ٧٣] .

قال تعالى: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَمْثَلُكُمْ فِيمَنْ أَنْفَسَى الْكِبَرِ فِيمَ يُبَشِّرُونِ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بِشْرُوكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ [الحجر: ٥١ - ٥٦] .

وقال تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ ﴿٦١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾ فَرَأَى إِلَهُهُ فَجَاءَ بِمِجَلِّ سَمِينٍ ﴿٦٣﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ ﴿٦٥﴾ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَأَتُهُ فِي صَرَرٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٦٦﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّنَا إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٦٧﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٣٠] .

يذكر تعالى: أن الملائكة لما وردوا على الخليل حسبهم أولاً أضيافاً ، فعاملهم معاملة الضيوف ، وشوى لهم عجلًا سميناً من خيار بقره ، فلما قرَّبه إليهم وعرض عليهم ، لم ير لهم همة إلى الأكل بالكلية ، وذلك لأن الملائكة ليس فيهم قوة الحاجة إلى الطعام ﴿ نَكِرَهُمْ ﴾ إبراهيم: ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ أي لندمر عليهم . فاستبشرت عند ذلك سارة غضباً لله عليهم ، وكانت قائمة على رؤوس الأضياف كما جرت به عادة الناس من العرب وغيرهم ، فلما ضحكت استبشاراً بذلك ، قال الله تعالى: ﴿ فَبَشِّرْنَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِهِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ أي بشرتها الملائكة بذلك: ﴿ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَأَتُهُ فِي صَرَرٍ ﴾ أي في صرخة: ﴿ فَصَكَتْ وَجْهَهَا ﴾ أي كما تفعل النساء عند التعجب وقالت: ﴿ يَتَوَلَّىءُ الْإِلَهُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾ أي كيف يلد مثلي وأنا كبيرة وعقيم أيضاً ، وهذا بعلي ، أي زوجي ، شيخاً؟ تعجبت من وجود ولد والحالة هذه . ولهذا قالت: ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَقِيٌّ عَجِيبٌ ﴾ ﴿٧٦﴾ قَالُوا أَنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُمْ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٧﴾ .

وكذلك تعجب إبراهيم عليه السلام استبشاراً بهذه البشارة وتبئياً لها وفرحاً بها: ﴿ قَالَ أَبَشِّرْهُنَّ بِغُلَامٍ وَأَنْفَسَى الْكِبَرِ فِيمَ يُبَشِّرُونِ ﴾ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بِشْرُوكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴾ أكدوا الخبر بهذه البشارة وقرروه معه ، فبشروهما ﴿ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ ﴾ وهو إسحاق أخو إسماعيل ، غلام عليم مناسب لمقامه وصبره ، وهكذا وصفه ربه بصدق الوعد والصبر . وقال في الآية الأخرى: ﴿ فَبَشِّرْنَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِهِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ .

وهذا مما استدل به محمد بن كعب القرظي وغيره على أن الذبيح هو إسماعيل ، وإن إسحاق لا يجوز أن يؤمر بذبحه بعد أن وقعت النبشارة بوجوده ووجود ولده يعقوب المشتق من العقب من بعده .

فقوله تعالى: ﴿ فَبَشِّرْنَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِهِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ دليل على أنها تستمتع بوجود ولدها إسحاق ، ثم من بعده يولد ولده يعقوب . أي يولد في حياتهما لتقر أعينهما به كما قرت بولده ، ولو لم يرد هذا لم يكن للذكر يعقوب وتخصيص التنصيص عليه من دون سائر نسل =

إِسْحَاقُ فَائِدَةٌ ، وَلَمَّا عَيْنٌ بِالذِّكْرِ دَلَّ عَلَى أَنَّهُمَا يَتِمْتَعَانِ بِهِ وَيَسْرَانِ بَوْلَهُ ، كَمَا سَرَا بِمَجْلَدٍ أَبِيهِ مِنْ قَبْلِهِ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا ﴾ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا أَغَارَتْهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ .

وهذا إن شاء الله ظاهر قوي ، ويؤيده ما ثبت في الصحيحين من حديث سليمان بن مهران الأعمش ، عن إبراهيم بن يزيد التيمي ، عن أبيه ، عن أبي ذر ، قال : قلت : يا رسول الله . . . أي مسجد وضع أول؟ قال : «المسجد الحرام» ، قلت : ثم أي؟ قال : «المسجد الأقصى» ، قلت : كم بينهما؟ قال : «أربعون سنة» ، قلت : ثم أي؟ قال : «ثم حيث أدركت الصلاة فصل فكلها مسجد». وعند أهل الكتاب ، أن يعقوب عليه السلام هو الذي أسس المسجد الأقصى ، وهو مسجد إيليا ببيت المقدس شرفه الله .

وهذا متجه ويشهد له ما ذكرناه من الحديث ، فعلى هذا يكون بناء يعقوب عليه السلام وهو - إسرائيل - بعد بناء الخليل وابنه إسماعيل المسجد الحرام بأربعين سنة سواء . وقد قال بناؤهما ذلك بعد وجود إسحاق ، لأن إبراهيم عليه السلام لما دعا ، قال في دعائه كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ٦٥ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّونَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ يَبْعَثْ لِّيَ نَارًا مِنِّي وَمِنْ عَصَائِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٦٦ رَبَّنَا إِنِّي أَتَّكُتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الشَّعِيرِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ٦٧ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا تُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ وَمَا يُخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ٦٨ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ٦٩ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ٧٠ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم : ٣٥ - ٤١] .

وما جاء في الحديث من أن سليمان بن داود عليهما السلام ، لما بنى بيت المقدس سأل الله خلافاً ثلاثة ، كما ذكرناه عند قوله : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ ، - وكما سنورده في قصته - فالمراد من ذلك والله أعلم ، أنه جدد بناءه كما تقدم من أن بينهما أربعين سنة ، ولم يقل أحد إن بين سليمان وإبراهيم أربعين سنة سوى ابن حبان في تقاسيمه وأنواعه . وهذا القول لم يوافق عليه ولا سبق إليه .

[بناء البيت العتيق]:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ فِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ٢٦﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٩٦ - ٩٧) .

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أُنْثِيَ إِِبْرَاهِيمَ رُبُّهُ بَكَهَنٌ فَاتَمَهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا=

يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَانْجَدُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَفِي شِئْنِ الْمَصِيرِ ﴿١٢٨﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٩﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٣٠﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿البقرة: ١٢٤ - ١٢٩﴾ .

يذكر تعالى عن عبده ورسوله وصفيه وخليله ، إمام الحنفاء ووالد الأنبياء إبراهيم عليه السلام أنه بنى البيت العتيق الذي هو أول مسجد وضع لعموم الناس ، يعبدون الله فيه ، وبوأه الله مكانه ، أي أرشده إليه ودله عليه .

فأمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يبني له بيتاً يكون لأهل الأرض كتلك المعابد لملائكة السموات ، وأرشده الله إلى مكان البيت المهيأ له ، المعين لذلك منذ خلق السموات والأرض ، كما ثبت في الصحيحين: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق الله السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة» .

ولم يجرى في خبر صحيح عن المعصوم أن البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام ، ومن تمسك في هذا بقوله: ﴿مَكَاتِ الْبَيْتِ﴾ فليس بناهض ولا ظاهر ، لأن المراد مكانه المقدر في علم الله ، المقرر في قدره ، المعظم عند الأنبياء موضعه ، من لدن آدم إلى زمان إبراهيم .

وقد قال الله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي أن أول بيت وضع لعموم الناس للبركة والهدى . البيت الذي ببكة . وقيل : محل الكعبة : ﴿فِيءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي على أنه بناء الخليل ، والد الأنبياء من بعده وإمام الحنفاء من ولده ، الذين يقتدون به ويتمسكون بسنته ، ولهذا قال: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي الحجر الذي كان يقف عليه قائماً لما ارتفع البناء عن قامته ، فوضع له ولده هذا الحجر المشهور ، ليرتفع عليه لما تعالى البناء وعظم الفناء . كما ذكر في حديث ابن عباس الطويل .

وقد كان هذا الحجر ملصقاً بحائط الكعبة على ما كان عليه من قديم الزمان إلى أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأخره عن البيت قليلاً ، لئلا يشغل المصلين عنده الطائفتين بالبيت ، واتبع عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذا ، فإنه قد وافقه ربه في أشياء ، منها قوله لرسوله ﷺ : لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى ، فأنزل الله: ﴿وَانْجَدُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ . وقد كانت آثار قدمي الخليل باقية في الصخرة إلى أول الإسلام . وقد قال أبو طالب في قصيدته اللامية المشهورة :

وثرور ومن أرسى ثبيراً مكانه وراق ليرقى في حراء ونازل-

وبالبيت حق البيت من بطن مكة وبالله إن الله ليس بغافل
وبالحجر المسود إذ يمسحونه إذا اكتنفوه بالضحي والأصائل
وموطىء إبراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافيا غير ناعل
يعني أن رجله الكريمة غاصت في الصخرة فصارت على قدر قدمه حافية لا متعلقة. ولهذا قال
تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ أي في حال قولهما: ﴿رَبَّنَا نَقْبَلْ مِنَّا إِنَّكَ
أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فهما في غاية الإخلاص والطاعة لله عز وجل ، وهما يسألان من الله عز
وجل السميع العليم أن يتقبل منهما ما هما فيه من الطاعة العظيمة والسعي المشكور: ﴿رَبَّنَا
وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾
[البقرة: ١٢٨] .

والمقصود أن الخليل بنى أشرف المساجد في أشرف البقاع ، في واد غير ذي زرع ، ودعا
لأهلها بالبركة ، وأن يرزقوا من الثمرات ، مع قلة المياه وعدم الأشجار والزرع والثمار ،
وأن يجعله حرماً محرماً وآمناً محتماً .

فاستجاب الله - وله الحمد - له مسألته ، ولبى دعوته ، وأتاه طلبته ، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا
أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُحِطُّ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ ، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا
يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ . وسأل الله أن يبعث فيهم رسولا منهم ، أي من
جنسهم ، وعلى لغتهم الفصيحة البليغة النصيحة ، لتتم عليهم النعمتان: الدنيوية والدينية ،
سعادة الأولى والآخرة .

وقد استجاب الله له فبعث فيهم رسولا وأي رسول! ختم به أنبياء ورسله ، وأكمل له من
الدين ما لم يؤت أحد قبله ، وعم بدعوته أهل الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم
وصفاتهم ، في سائر الأقطار والأمصار والأعصار إلى يوم القيامة ، وكان هذا من خصائصه
من بين سائر الأنبياء ، لشرفه في نفسه وكمال شفقتة على أمته ، ولطفه ورحمته ، وكريم
محتده وعظيم مولده ، وطيب مصدره ومورده .

ولهذا استحق إبراهيم الخليل عليه السلام إذ كان باني الكعبة لأهل الأرض ، أن يكون منصبه
ومحله وموضعه في منازل السموات ورفيع الدرجات عند البيت المعمور ، الذي هو كعبة
أهل السماء السابعة ، المبارك المبرور ، الذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة
يتعبدون فيه ، ثم لا يعودون إلى يوم البعث والنشور .

وقد ذكرنا في التفسير من سورة البقرة صفة بنائه للبيت ، وما ورد في ذلك من الأخبار والآثار
بما فيه كفاية ، فمن أراد فليراجعه ثم... والله الحمد .

وفي الصحيحين من حديث مالك ، عن ابن شهاب ، عن سالم : أن عبد الله بن محمد بن
أبي بكر أخبر ، عن ابن عمر ، عن عائشة : أن رسول الله ﷺ قال : «أَلَمْ تَرَ أَن قَوْمَكَ حِينَ بَنُوا
الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم؟ فقلت: يا رسول الله . . ألا تردها على قواعد إبراهيم؟ =

فقال: «لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت». وفي رواية: «لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية - أو قال بكفر - لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله، ولجعلت بابها بالأرض، ولأدخلت فيها الحجر». صحيح البخاري/ ح (٤٤٨٤) وح (١٥٨٦).

وقد بناها ابن الزبير رحمه الله في أيامه على ما أشار إليه رسول الله ﷺ حسبما أخبرته به خالته عائشة، أم المؤمنين عنه، فلما قتله الحجاج في سنة ثلاثة وسبعين كتب إلى عبد الملك بن مروان الخليفة إذ ذاك، فاعتقدوا أن ابن الزبير إنما صنع ذلك من تلقاء نفسه. فأمر بردها إلى ما كانت عليه، فنقضوا الحائط الشامي وأخرجوا منها الحجر، ثم سدوا الحائط وردموها الأحجار في جوف الكعبة، فارتفع بابها الشرقي، وسدوا الغربي بالكلية، كما هو مشاهد إلى اليوم. ثم لما بلغهم أن ابن الزبير إنما فعل هذا لما أخبرته عائشة أم المؤمنين ندموا على ما فعلوا، وتأسفوا أن لو كانوا تركوه وما تولى من ذلك. ثم لما كان في زمن المهدي بن المنصور استشار الإمام مالك بن أنس في ردها على الصفة التي بناها ابن الزبير فقال له: إني أخشى أن يتخذها الملوك لعبة. يعني كلما جاء ملك بناها على الصفة التي يريد. فاستقر الأمر على ما هي عليه اليوم.

[ثناء الله على خليله إبراهيم]:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١﴾ لما وفي ما أمره به ربه من التكليف العظيمة، جعله للناس إماماً يقتدون به ويأتمون بهديه. وسأل الله أن تكون هذه الإمامة متصلة بسببه، وباقية في نسبه، وخالدة في عقبه فأجيب إلى ما سأل ورام وسلمت إليه الإمامة بزمam، واستثنى من نيلها الظالمون. واختص بها من ذريته العلماء العاملون، كما قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٢﴾ وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٣﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا وَكَذَلِكَ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٥﴾ وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦﴾.

فالضمير في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ عائد على إبراهيم على المشهور، ولوط وإن كان ابن أخيه إلا أنه دخل في الذرية تغليباً، وهذا هو الحامل للقاتل الآخر أن الضمير على نوح كما قدمنا في قصته.. والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ الآية. فكل كتاب أنزل من السماء على نبي من الأنبياء بعد إبراهيم الخليل، فمن ذريته وشيعته، وهذه خلعة سنية لا تضاهاى، ومرتبة عليّة لا تباهى. وذلك أنه ولد له لصلبه ولدان ذكران عظيمان: إسماعيل من هاجر، ثم إسحاق من سارة، ووُلِدَ له يعقوب - وهو إسرائيل - الذي ينتسب =

إلى سائر أسباطهم ، فكانت فيهم النبوة ، وكثروا جداً بحيث لا يعلم عددهم إلا الذي بعثهم واختصهم بالرسالة والنبوة ، وحتى ختموا بعبسى ابن مريم من بني إسرائيل .
 وإما إسماعيل عليه السلام ، فكانت منه العرب على اختلاف قبائلها ، كما سنبينه فيما بعد إن شاء الله تعالى ، ولم يوجد من سلالة من الأنبياء سوى خاتمتهم على الإطلاق وسيدهم ، وفخر بني آدم في الدنيا والآخرة : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي ، المكي ثم المدني صلوات الله وسلامه عليه .

فلم يوجد من هذا الفرع الشريف والغصن المنيف سوى هذه الجوهرة الباهرة ، والذرة الزاهرة ، وواسطة العقد الفاخرة ، وهو السيد الذي يفتخر به أهل الجمع ، ويغبطه الأولون والآخرين يوم القيامة . وقد ثبت عنه في صحيح مسلم أنه قال : «سأقوم مقاماً يرغب إلي الخلق كلهم حتى إبراهيم» . فمدح إبراهيم أباه مدحة عظيمة في هذا السياق ، ودل كلامه على أنه أفضل الخلائق بعده عند الخلاق ، في هذه الحياة الدنيا ويوم يكشف عن ساق .

وقال البخاري : حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا جرير ، عن منصور ، عن المنهال ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يعوذ الحسن والحسين ويقول : «إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق : أعوذ بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة» . ورواه أهل السنن من حديث منصور به . [البخاري/ ح ٣٣٧١] .

وقال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُؤْمِنُ قَال بَلَىٰ وَلَكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وذكر المفسرون لهذا السؤال أسباباً بسطناها في التفسير وقررناها بأتم تقرير .

والحاصل : أن الله عز وجل أجابه إلى ما سأل ، فأمره أن يعمد إلى أربعة من الطيور ، اختلفوا في تعيينها على أقوال ، والمقصود حاصل على كل تقدير ، فأمره أن يمزق لحومهن وريشهن ، ويخلط ذلك بعضه في بعض ، ثم يقسمه قسماً ويجعل على كل جبل منهن جزءاً ففعل ما أمر به ، ثم أمر أن يدعوهن بإذن ربهن ، فلما دعاهن جعل كل عضو يطير إلى صاحبه ، وكل ريشة تأتي إلى أختها ، حتى اجتمع بدن كل طائر على ما كان عليه ، وهو ينظر إلى قدرة الذي يقول للشيء : كن فيكون ، فأتين إليه سعيًا ، ليكون أبين له وأوضح لمشاهدته من أن يأتين طيراناً .

وقد كان إبراهيم عليه السلام يعلم قدرة الله تعالى على إحياء الموتى علماً يقيناً لا يحتمل النقيض ، ولكن أحب أن يشاهد ذلك عياناً ، ويرقى من علم اليقين إلى عين اليقين ! فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه غاية مأموله .

وقال تعالى : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٥﴾ هَٰئِنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَبَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾

وَأَنْشُرَ لَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ .

ينكر تعالى على أهل الكتاب من اليهود والنصارى في دعوى كل من الفريقين ، كون الخليل على ملتهم وطريقتهم ، فبرأه الله منهم ، وبين كثرة جهلهم وقلة عقلهم في قوله : ﴿ وَمَا أُنزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِي ﴾ أي فكيف يكون على دينكم وأنتم إنما شرع لكم ما شرع بعده بمدد متطاولة ؟ ولهذا قال ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ، إلى أن قال : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران : ٦٧] .

فبين أنه كان على دين الله الحنيف ، وهو القصد إلى الإخلاص ، والانحراف عمداً عن الباطل إلى الحق الذي هو مخالف لليهودية والنصرانية والشرك .

كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ﴿٦٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَنْبَى إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٦٨﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ عَابِدُكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُائِنَا وَحَدًّا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٦٩﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧١﴾ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٧٢﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٣﴾ صَبَّغَهُ اللَّهُ وَمِنْ أَحْسَنَ مِنَ اللَّهِ صَبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿٧٤﴾ قُلْ اتَّخَذْتُنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿٧٥﴾ أَمْ نَقُولُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَعْلِمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَبَ شَهَادَةً عِنْدَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٦﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧٧﴾ [البقرة : ١٣٠ - ١٤١] .

فنزّه الله عز وجل خليفه عليه السلام عن أن يكون يهودياً أو نصرانياً ، وبين أنه إنما كان حنيفاً مسلماً ولم يكن من المشركين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ يعني الذين كانوا على ملته من أتباعه في زمانه ، ومن تمسك بدينه من بعدهم : ﴿ وَهَذَا النَّبِيُّ ﴾ يعني محمداً ﷺ ، فإن الله شرع له الدين الحنيف الذي شرع لل خليل ، وكمله الله تعالى له ، وأعطاه ما لم يُعْطَ نبيّاً ولا رسولاً من قبله ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿٧٦﴾ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَمْ يَكُنْ لِي بَرَّةٌ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٨﴾ [الأنعام : ١٦١ - ١٦٣] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿٧٦﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ آتِيتُهُ وَهَدَانُهُ إِلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٌ ﴿١٦١﴾ وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّمَا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٦٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦٣﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٣].

وقال البخاري: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام، عن معمر، عن أيوب، عن عكرمة، عن ابن عباس أن النبي ﷺ لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيّت، ورأى إبراهيم وإسماعيل بأيديهما الأضلام فقال: «قاتلهم الله... والله ما استقسما بالأضلام قط». لم يخرجهم مسلم. وفي بعض ألفاظ البخاري: «قاتلهم الله... لقد علموا أن شيخنا لم يستقسم بها قط». [البخاري/ كتاب الأنبياء/ ح ٣٣٥٢ و[الحج/ ١٦٠١].

وقوله: ﴿أُمَّةٌ﴾ أي قدوة إماماً مهتدياً داعياً إلى الخير، يُقتدى به فيه ﴿فَأَتَيْنَا اللَّهَ﴾ أي خاشعاً له في جميع حالاته وحركاته وسكناته ﴿حَنِيفًا﴾ أي مخلصاً على بصيرة ﴿وَلَوْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ﴿أَي قَائِمًا بِشُكْرِ رَبِّهِ بِجَمِيعِ جَوَارِحِهِ مِنْ قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ وَأَعْمَالِهِ﴾ ﴿أَجَبْنَهُ﴾ أي اختاره الله لنفسه واصطفاه لرسالته، واتخذة خليلاً، وجمع له بين خيرَي الدنيا والآخرة.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنَ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ يرغب تعالى في اتباع إبراهيم عليه السلام، لأنه كان على الدين القويم والصراط المستقيم، وقد قام بجميع ما أمره به ربه، ومدحه تعالى بذلك فقال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ ولهذا اتخذ الله خليلاً، والخلة هي غاية المحبة كما قال بعضهم:

قد تخللت مسلك الروح مني وبذا سُمِّي الخليل خليلاً وهكذا نال هذه المرتبة خاتم الأنبياء وسيد المرسلين محمد صلوات الله وسلامه عليه، كما ثبت في الصحيحين وغيرهم من حديث جندب الجلي وعبد الله بن عمرو وابن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أيها الناس... إن الله اتخذني خليلاً». وقال أيضاً في آخر خطبة خطبها: «أيها الناس... لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله». أخرجاه من حديث أبي سعيد. [البخاري/ ح ٣٩٠٤] ومسلم [٢/ ٢٣٨٢].

وثبت أيضاً من حديث عبد الله بن الزبير وابن عباس وابن مسعود. وروى البخاري في صحيحه: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا شعبة، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير، عن عمرو بن ميمون، قال: إن معاذاً لما قدم اليمن صلى بهم الصبح فقرأ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ فقال رجل من القوم: لقد قرت عين أم إبراهيم!

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمود بن خالد السلمي، حدثنا الوليد، عن إسحاق بن يسار قال: لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً ألقى في قلبه الوجل، حتى إن كان خفقان قلبه ليسمع من بعد كما يسمع خفقان الطير في الهواء.

وقد ذكره الله تعالى في القرآن كثيراً في غير ما موضع بالثناء عليه والمدح له، فقيل: إنه =

مذكور في خمسة وثلاثين موضعاً ، منها خمسة عشر (موضعاً) في البقرة وحدها .

وهو أحد أولي العزم الخمسة المنصوص على أسمائهم تخصيصاً من بين سائر الأنبياء في آيتي الأحزاب والشورى ، وهما قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَبَيْنَ نُوْحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظًا ﴾ ، وقوله : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ الآية . ثم هو أشرف أولي العزم بعد محمد ﷺ .

وهو الذي وجده عليه السلام في السماء السابعة مسنداً ظهره بالبيت المعمور الذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم ، وما وقع في حديث شريك بن أبي نمر عن أنس في حديث الإسراء ، من أن إبراهيم في السادسة ، وموسى في السابعة ، فمما انتقد على شريك في هذا الحديث . والصحيح الأول .

وقال أحمد : حدثنا محمد بن بشر : حدثنا محمد بن عمرو ، حدثنا أبو سلمة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن » . تفرد به أحمد [مسند أحمد/ ٨٣٩٩] .

ثم مما يدل على أن إبراهيم أفضل من موسى الحديث الذي قال فيه : « وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلي الخلق كلهم حتى إبراهيم » . رواه مسلم من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه . وهذا هو المقام المحمود الذي أخبر عنه صلوات الله وسلامه عليه بقوله : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر » ، ثم ذكر استشفاع الناس بآدم ، ثم بنوح ، ثم إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى ، فكلهم يحيد عنها حتى يأتوا محمداً ﷺ فيقول : « أنا لها ، أنا لها » الحديث بتمامه .

وقال البخاري : حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا عبيد الله ، حدثني سعيد ، عن أبي هريرة قال : قيل : يا رسول الله ، من أكرم الناس ؟ قال : « أكرمهم أتقاهم » ، فقالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : « فأكرم الناس يوسف نبي الله ، ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله » ، قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : « فعن معادن العرب تسألونني ؟ » ، قالوا : نعم ، قال : « فخيرهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا » [صحيح البخاري/ ح ٣٣٨٣] .

وهكذا رواه البخاري في مواضع أخرى ومسلم والنسائي من طرق ، عن يحيى بن سعيد القطان ، عن عبيد الله - وهو ابن عمر - العمري به .

ثم قال البخاري : قال أبو أسامة ومعتز عن عبيد الله ، عن سعيد ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ : قلت : وقد أسنده في موضع آخر من حديثهما ، وحديث عبيدة بن سليمان ، والنسائي من حديث محمد بن بشر ، أربعتهم عن عبيد الله بن عمر ، عن سعيد ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ ولم يذكروا أباه .

وقال أحمد: حدثنا محمد بن بشر ، حدثنا محمد بن عمر ، حدثنا أبو سلمة ، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله». تفرد به أحمد [مسند أحمد/ ح ٨٣٩٩].

وقال البخاري: إسحاق بن منصور ، أخبرنا عبد الصمد ، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله ، عن أبيه ، عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم». تفرد به من طريق عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار ، عن أبيه ، عن ابن عمر به .

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا يحيى ، عن سفيان ، حدثني مغيرة بن النعمان ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ: «يحشر الناس عراة غرلاً ، فأول من يكسى إبراهيم عليه السلام» ، ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ﴾ فأخرجاه في الصحيحين من حديث سفيان الثوري وشعبة بن الحجاج ، وكلاهما عن مغيرة بن النعمان النخعي الكوفي ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس به (أحمد/ ح ١٩٥٠) والبخاري (ح ٣٣٤٩).

وهذه الفضيلة المعينة لا تقتضي الأفضلية بالنسبة إلى ما قابلها مما ثبت لصاحب المقام المحمود ، الذي يغطيه به الأولون والآخرون .

وأما الحديث الآخر الذي قاله الإمام أحمد: حدثنا وكيع وأبو نعيم ، حدثنا سفيان - هو الثوري - عن مختار بن مختار بن فلفل ، عن أنس بن مالك ، قال رجل للنبي ﷺ: يا خير البرية ، فقال: «ذاك إبراهيم» فقد رواه مسلم من حديث الثوري وعبد الله بن إدريس ، وعلي بن مشهر ومحمد بن فضيل ، أربعهم عن المختار بن فلفل [وانظر مسند أحمد/ ١٢٨٢٦].

وهذا من باب الهضم والتواضع مع والده الخليل عليه السلام كما قال: «لا تفضلوني على الأنبياء» ، وقال: «لا تفضلوني على موسى ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من يفيق ، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش ، فلا أدري أفأق قبلني أم جوزي بصعقة الطور؟» .

وهذا كله لا ينافي ما ثبت بالتواتر عنه صلوات الله وسلامه عليه من أنه سيد ولد آدم يوم القيامة . وكذلك حديث أبي بن كعب في صحيح مسلم: «وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلي الخلق كلهم حتى إبراهيم» .

ولما كان إبراهيم عليه السلام أفضل الرسل وأولي العزم بعد محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، أمر المصلي أن يقول في شهادته ، ما ثبت في الصحيحين من حديث كعب بن عجرة وغيره ، قال: قلنا: يا رسول الله . . هذا السلام عليك قد عرفناه ، فكيف الصلاة عليك؟ قال: «قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم

حدثني الحارث ، قال : حدثنا ابن سعد ، قال : أخبرنا هشام ، عن أبيه قال : فهاجر إبراهيم من بابل إلى الشام فجاءته سارة ، فوهبت له نفسها فتزوجها ، وخرجت معه وهو يومئذ ابن سبع وثلاثين سنة ، فأتى حرّان ، فأقام بها زماناً ، ثم أتى الأردن فأقام بها زماناً ، ثم خرج إلى مصر فأقام بها زماناً ، ثم رجع إلى الشام فنزل السبع (أرض بين إيليا وفلسطين) واحتفر بئراً ، وبني مسجداً . ثم إن بعض أهل البلد آذاه فتحول من عندهم ، فنزل منزلاً بين الرملة وإيليا ، فاحتفر به بئراً أقام به ، وكان قد وُسّع عليه في المال والخدم ، وهو أول من أضاف الضيف ، وأول من ثرد الثريد ، وأول من رأى الشيب .

قال : وولد لإبراهيم عليه السلام إسماعيل وهو أكبر ولده - وأمه هاجر وهي قبطية ، وإسحاق ، وكان ضرير البصر ، وأمه سارة ابنة بتويل بن ناخور بن ساروع بن أرغوا بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح - ومدن ، ومدين ، ويقسان ، وزمران ، وأسبق ، وسوح ؛ وأمهم قنطورا بنت مقطور من العرب العاربة .

فأما يقسان فلحق بنوه بمكة ، وأقام مدن ومدين بأرض مدين ، فسميت به ، ومضى سائرهم في البلاد وقالوا لإبراهيم : يا أبانا أنزلت إسماعيل وإسحاق معك ، وأمرتنا أن ننزل أرض الغربة والوحشة ! فقال : بذلك أمرت ، قال : فعلمهم اسماً من أسماء الله تبارك وتعالى ، فكانوا يستسقون به ويستنصرون ، فمنهم من نزل خراسان ، فجاءتهم الخزر فقالوا : ينبغي للذي علمكم هذا أن يكون خير أهل الأرض ، أو ملك الأرض ، قال : فسموا ملوكهم خاقان .

قال أبو جعفر : ويقال في يسبق : يسباق ، وفي سوح : ساح ^(١) .

(١ : ٣١٠ / ٣١١)

وقال بعضهم : تزوج إبراهيم بعد سارة امرأتين من العرب ، إحداهما قنطورا بنت يقطان ، فولدت له ستة بنين ، وهم الذين ذكرنا ، والأخرى منهما

= وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد» (البخاري ح ٤٧٩٧) .
(١) ضعيف .

حجور بنت أرهير ، فولدت له خمسة بنين : كيسان ، وشورخ ، وأميم ، ولوطان ، ونافس^(١) . (١ : ٣١١) .

(١) ضعيف .

لقد ذكرنا الروايات في قصة أيوب في قسم الضعيف فليس فيها ما صح سنده وسنذكر هنا ما صح من أحاديث مرفوعة في قصة أيوب عليه السلام ولم يذكرها الطبري في تأريخه : فقد أخرج البخاري في صحيحه / كتاب الأنبياء / باب قوله تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ ح / ٣٣٩١ وأحمد (ح ٨١٦٥) عن أبي هريرة مرفوعاً (بينما أيوب يغتسل عرياناً خر عليه جراد من ذهب فجعل يحثي في ثوبه فناداه ربه عز وجل : يا أيوب ، ألم أكن أغنيك عما ترى ؟ قال : بل يا رب ولكن لا غنى لي عن بركتك) . وفي رواية أخرى لأحمد من حديث أبي هريرة مرفوعاً : (لما عافى الله أيوب عليه السلام أمطر عليه جراداً من ذهب فجعل يأخذ بيده ويجعل في ثوبه قال : فقيل له يا أيوب أما تشبع ؟ ! قال : يا رب ومن يشبع من رحمتك) .

وقال ابن كثير : رواه ابن حبان في صحيحه عن عبد الله بن محمد الأزدي عن إسحاق بن راهويه عن عبد الصمد به ، ولم يخرججه أحد من أصحاب الكتب الستة وهو على شرط الصحيح والله أعلم . (البداية والنهاية ١ / ٣١١) .

نَسَبُ اللَّهِ أَيُّوبَ عليه السلام

وهو من الأنبياء المنصوص على الإيحاء إليهم في سورة النساء في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ إِذْ هَبْنَا دَاوُدَ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ ﴾ الآية [النساء : ١٦٣] .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [٣٣] فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَ لِلْعَالَمِينَ [الأنبياء : ٨٣-٨٤] . وقال تعالى في سورة ص : ﴿ وَذَكَرْ عَبْدًا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بَنُصِيبٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ ۚ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝ وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَ لِلْأُولَىٰ ۚ أَلَّا يَكُونَ مِنَ الْغَافِلِينَ ۝ وَخَذْ بِيَدِكَ مُضْغَةً فَامْرُقْ بِهَا وَلَا تَحْنُثْ ۚ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٤١ - ٤٤] . [ابتلاؤه بالمرض] :

وابتلي في جسده بأنواع من البلاء ، وهو في ذلك كله صابر محتسب ، ذاكر الله عز وجل في ليله ونهاره وصباحه ومساءه .

وطال مرضه حتى عافه الجليس ، وأوحش منه الأنيس ، وانقطع عنه الناس ، ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته ، كانت ترعى له حقه ، وتعرف قديم إحسانه إليها وشفقته عليها . فكانت تتردد إليه فتصلح من شأنه ، وتعينه على قضاء حاجته ، وتقوم بمصلحته ، رضي الله =

عنها وأرضها ، وهي صابرة معه على ما حل بهما من فراق المال والولد ، وما يختص بها من المصيبة بالزوج ، وضيق ذات اليد ، بعد السعادة والنعمة والخدمة والحرمة . فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل » ، وقال : « يتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه » . [أحمد / ١٦٠٧] والترمذي (٢٣٩٨) وقال حسن صحيح . ولم يزد هذا كله أيوب عليه السلام إلا صبراً واحتساباً وحمداً وشكراً حتى إن المثل ليضرب بصبره عليه السلام ، ويضرب المثل أيضاً بما حصل له من أنواع البلايا . [شفاهه] :

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عمرو بن مرزوق ، حدثنا همام ، عن قتادة ، عن النضر بن أنس ، عن بشير بن نهيك ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « لما عافى الله أيوب عليه السلام أمطر عليه جراداً من ذهب ، فجعل يأخذ منه بيده ويجعل في ثوبه . قال : فقيل له : يا أيوب ، أما تشيع ؟ قال : يا رب . ومن يشيع من رحمتك ؟ » . [أحمد / ح ٧٣١٣] . وهكذا رواه الإمام أحمد عن أبي داود الطيالسي ، وعبد الصمد ، عن همام ، عن قتادة به . ورواه ابن حبان في صحيحه ، عن عبد الله بن محمد الأزدي ، عن إسحاق بن راهويه ، عن عبد الصمد به ، ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب ، وهو على شرط الصحيح ، والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة : أرسل الله على أيوب رجلاً من جراد من ذهب ، فجعل يقبضها في ثوبه ، فقيل : يا أيوب ، ألم يكفك ما أعطيناك ؟ قال : أي رب ، من يستغني عن ذلك ! هذا موقوف ، وقد روي عن أبي هريرة من وجه مرفوعاً .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق : حدثنا معمر ، عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة ، قال رسول الله ﷺ : « بينما أيوب يغتسل عرياناً خر عليه رجل جراد من ذهب ، فجعل أيوب يحثي في ثوبه ، فناداه ربه عز وجل : يا أيوب . . ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى يا رب ، ولكن لا غنى لي عن بركتك » . [رواه البخاري من حديث عبد الرزاق به / ح ٢٧٦٦] .

وقوله : ﴿ أَرْكُضْ بِرَجْلِكَ ﴾ أي : اضرب الأرض برجلك ، فامثل ما أمر به ، فأنبع الله عيناً باردة الماء ، وأمر أن يغتسل فيها ويشرب منها ، فأذهب الله عنه ما كان يجده من الألم والأذى ، والسقم والمرض ، الذي كان في جسده ظاهراً وباطناً ، وأبدله الله بعد ذلك كله صحة ظاهرة وباطنة ، وجمالاً تاماً ومالاً كثيراً ، حتى صب له من المال صباً ، وأخلف الله له أهله ، كما قال تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ﴾ ، وقوله : ﴿ رَحْمَةً مِنَّا عَيْنًا ﴾ أي رفعنا عنه =

شدته ، وكشفنا ما به من ضر ، رحمة به ورأفة وإحساناً ، ﴿ وَذَكَرَ لِلْعَمِيدِينَ ﴾ أي : تذكرة لمن ابتلي في جسده أو ماله أو ولده ، فله أسوة بنبي الله أيوب ، حيث ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك فصبر واحتسب حتى فرج الله به . ١. هـ كلام الحافظ (بعد حذف للإسرائيليات واختصار) .

نبي الله شعيب
عليه السلام

[قصة مدين في القرآن] :

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله :

قال الله تعالى في سورة الأعراف بعد قصة قوم لوط : ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ نَعْمٌ مِنْ رَبِّكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْخُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكُفِّرْكُمْ وَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ الَّذِينَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعُوبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَئِكَ كَفَرُوا مِنْكُمْ أَلَمْ يَكْفُرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِيُنْزِلَ عَلَيْهِمْ عَذَابًا إِنَّ عَذَابَنَا فِي يَلَيْكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا أَفَتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِيَنَّكُمْ شُعَيْبًا إِذْ أَخْبَرُونَا فَاحْذَرُوهُمْ أَلَيْسَ لَهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمًا ﴿٨٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَنْفُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمْ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَنُفِئُوا عَنْهُمْ وَقَالَ يَتَقَوَّمُوا لَقَدْ أَتَيْنَاكُمْ بِرِسَالَتٍ رُبِّي وَنَصَحْتُمْ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَامَنُوا عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩١﴾ [الأعراف : ٨٥ - ٩٣] .

وقال في سورة هود بعد قصة قوم لوط أيضاً : ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ يُحْطِطُ ﴿٩٢﴾ وَيَتَقَوَّمُوا أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٩٣﴾ بَيِّنَتْ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيضٍ ﴿٩٤﴾ قَالُوا يَشْعُوبُ أَصْلُكَ تَأْتِيكَ أَنْ تَزُولَ مَا يَعْذُرُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أُمُورِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٩٥﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُوا أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنْتُمْ لَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٩٦﴾ وَيَتَقَوَّمُوا لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٩٧﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٨﴾ قَالُوا يَشْعُوبُ مَا نَفَقَهُ

كثيراً مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿١١﴾ قَالَ يَنْفَوِرَ أَهْلِيَّ
أَعَزَّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢﴾ وَنَقُورٌ أَعْمَلُوا عَلَى
مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَايِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي
مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ
فَأَصْبَحُوا فِي دِيبَرِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿١٤﴾ كَأَن لَّزِعْنَاهَا فِيهَا أَلَا بَعْدَ لَمَدٍ كَمَا بَعَدَتْ نُجُودٌ ﴿١٥﴾ [هود: ٨٤ - ٩٥].

وقال في الحجر بعد قصة قوم لوط أيضاً: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ ﴿٧٦﴾ فَأَنقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا
لِيَا مِرْمِينَ ﴿٧٧﴾. وقال تعالى في الشعراء بعد قصتهم: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٧٨﴾ إِذْ قَالَ
هُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نَنْقُورُ ﴿٧٩﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٨٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿٨١﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا
عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٢﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿٨٤﴾ وَلَا تَبْخَسُوا
النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولَى ﴿٨٦﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ
الْمُخْسِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨٨﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ
مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٨٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴿٩٠﴾ فَاخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ ﴿٩١﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩٣﴾ [الشعراء: ١٧٦ - ١٩١].

[مدين وشعيب]:

كان أهل مدين قوماً عرباً يسكنون مدينتهم «مدين» التي هي قرية من أرض معان من أطراف الشام ، مما يلي ناحية الحجاز قريباً من بحيرة قوم لوط ، وكانوا بعدهم بمدة قرية ، ومدين قبيلة عُرفت بهم ، وهم من بني مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل . وشعيب نبئهم هو ابن ميكيل بن يشجن . وذكره ابن إسحاق .

قال: ويقال له بالسريانية «يترون» وفي هذا نظر . ويقال: شعيب بن يشخر بن لاوي بن يعقوب ، ويقال: شعيب بن نوب بن عيفا بن مدين بن إبراهيم ، ويقال: شعيب بن صيفر بن عيفا بن ثابت بن مدين بن إبراهيم ، وقيل غير ذلك في نسبه . قال ابن عساکر: ويقال جدته ، ويقال: أمه ، بنت لوط . وكان ممن آمن بإبراهيم وهاجر معه ودخل معه دمشق .

وعن وهب بن منبه أنه قال: شعيب وملغم ممن آمن بإبراهيم يوم أحرق بالنار ، وهاجر معه إلى الشام ، فزوجهما بنتي لوط عليه السلام . ذكره ابن قتيبة . وفي هذا كله نظر ، والله تعالى أعلم .

وذكر أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة سلمة بن سعد العنزي: أنه قدم على رسول الله ﷺ فأسلم وانتسب إلى عترة ، فقال: «نعم الحي عترة ، مبغي عليهم منصورون رهط شعيب وأختان موسى» .

فلو صح هذا لدل على أن شعيباً صهر موسى وأنه من قبيلة من العرب العاربة يقال لهم عترة ، =

لا أنهم من عزة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، فإن هؤلاء بعده بدهر طويل ، والله أعلم .

وفي حديث أبي ذر الذي في صحيح ابن حبان في ذكر الأنبياء والرسول قال : «أربعة من العرب : هود وصالح وشعيب ونيك يا أبا ذر» . وكان بعض السلف يسمي شعيباً «خطيب الأنبياء» ويعني لفصاحته وعلو عبارته وبلاغته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالته .

وقد روى ابن إسحاق بن بشر عن جوير ومقاتل ، عن الضحاك ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذكر شعيباً قال : «ذاك خطيب الأنبياء» . وكان أهل مدين كفاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارة ، ويعبدون الأيكة ، وهي شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها . وكانوا من أسوأ الناس معاملة ، يبخسون المكيال والميزان ، ويطففون فيها ، ويأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص . فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو رسول الله شعيب عليه السلام فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهاهم عن تعاطي هذه الأفاعيل القبيحة من بخس الناس أشياءهم ، وإخافتهم لهم في سبلهم وطرقاتهم ، فامن به بعضهم وكفر أكثرهم ، حتى أحل الله بهم البأس الشديد ، وهو الولي الحميد .

كما قال تعالى : ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوْرَ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ تَكْثِيرَكُمْ بَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي دلالة وحجة واضحة ، وبرهان قاطع على صدق ما جئتكم به وأنه أرسلني ، وهو ما أجرى الله على يديه من المعجزات التي لم يتقل إلينا تفصيلها ، وإن كان هذا اللفظ قد دخل عليها إجمالاً .

﴿فَارْزُقُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ . أمرهم بالعدل ونهاهم عن الظلم ، وتوعدهم على خلاف ذلك فقال : ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ أي : طريق ، ﴿تَوْعَدُونَ﴾ أي : تتوعدون الناس بأخذ أموالهم من مكوس وغير ذلك وتخيفون السبل . قال السدي في تفسيره عن الصحابة : ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تَوْعَدُونَ﴾ أي أنهم كانوا يأخذون العشور من أموال المارة . وقال إسحاق بن بشر عن جوير ، عن الضحاك ، عن ابن عباس قال : كانوا قوما طغاة يجلسون على الطريق ، يبخسون الناس ، يعني يعشرونهم ، وكانوا أول من سن ذلك .

﴿وَنَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبَعُونَهَا عَوْجًا﴾ نهاهم عن قطع الطريق الحسية الدنيوية ، والمعنوية الدينية .

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ ذكرهم بنعمة الله تعالى عليهم في تكثيرهم بعد القلة ، وحذرهم نقمة الله بهم إن خالفوا ما أرشدهم إليه ودلهم عليه . كما قال لهم في القصة الأخرى : ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِغَيْرِ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُونَ﴾ أي : لا تركبوا ما أنتم عليه وتستمروا =

فيه فيمحق الله بركة ما في أيديكم ، ويفقركم ويذهب ما به يغنيكم . وهذا مضاف إلى عذاب الآخرة ، ومن جمع له هذا وهذا ، فقد باء بالصفقة الخاسرة ! .

فنهاهم أولاً عن تعاطي ما لا يليق من التطفيف وحذرهم سلب نعمة الله عليهم في دنياهم ، وعذابه الأليم في آخرهم ، وعنفهم أشد تعنيف . ثم قال لهم أمراً بعدما كان عن صده زاجراً : ﴿ وَيَقَوْمُ اقْوُوا إِلَيْنَا يَا أَلْمِيزَاتِ بِالْقِسْطِ وَلَا تَحْسَبُوا النَّاسَ شَيْئاً هُمْ وَلَا تَعْتَوُوا أَرْضَ الْمُقْسِدِينَ ﴾ [٥٥] يَقَيَّتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيضٍ ﴿ .

قال ابن عباس والحسن البصري : ﴿ يَقَيَّتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ ﴾ أي : رزق الله خير لكم من أخذ أموال الناس . وقال ابن جرير : ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان : خير لكم من أخذ أموال الناس بالتطفيف . قال : وقد روي هذا عن ابن عباس .

وهذا الذي قاله وحكاه حسن ، وهو شبيهه بقوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْكَافِرُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْكَافِرِينَ ﴾ يعني أن القليل من الحلال خير لكم من الكثير من الحرام ، فإن الحلال مبارك وإن قل ، والحرام ممحوق وإن كثر ، كما قال تعالى : ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الْأَصْدَاقَ ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : « إن الربا وإن كثر فإن مصيره إلى قل » رواه أحمد . أي إلى قلة . وقال رسول الله ﷺ : « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما » . [مسند أحمد / ٣٧٥٤ و ٥٣١٤] و [البخاري / ٣٤ / ١٩ / ٤٢] .

والمقصود أن الربح الحلال مبارك فيه وإن قل ، والحرام لا يجدي وإن كثر . ولهذا قال نبي الله شبيب : ﴿ يَقَيَّتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيضٍ ﴾ أي افعلوا ما أمركم به ابتغاء وجه الله ورجاء ثوابه ، لا لأراكم أنا وغيري .

﴿ قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلَانَا أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ يقولون هذا على سبيل الاستهزاء والتنقص والتهكم : أصلاتك هذه التي تصلحها ، هي الأمرة لك بأن تحجر علينا فلا نعبد إلا إلهك ؟ ونترك ما يعبد آبائنا الأقدمون وأسلافنا الأولون ؟ أو ألا نتعامل إلا على الوجه الذي ترضيه أنت ، ونترك المعاملات التي تأبأها ، وإن كنا نحن نرضاهما ؟ .

﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ قال ابن عباس وميمون بن مهران وابن جريج وزيد بن أسلم وابن جرير : يقول ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء .

﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَيْنِ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ مِنْ مَّا أَنْهَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ . هذا تلطف معهم في العبارة ، ودعوة لهم إلى الحق بآبين إشارة . يقول لهم : أرايتم أيها المكذبون ﴿ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَيْنِ مِنْ رَبِّي ﴾ أي على أمر بين من الله تعالى أنه أرسلني إليكم ، ﴿ وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ يعني النبوة والرسالة ، يعني وعمي عليكم معرفتها ، فأي حيلة لي =

فيكم؟ وهذا كما تقدم عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه سواء .
وقوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَى مَا أَنهَضَكُمْ عَنْهُ﴾ أي لست آمركم بالأمر إلا وأنا أول فاعل له ، وإذا نهيتكم عن الشيء فأنا أول من يتركه .

وهذه هي الصفة المحمودة العظيمة ، وضدها هي المردودة الذميمة ، كما تلبس بها علماء بني إسرائيل في آخر زمانهم ، وخطباؤهم الجاهلون ، قال تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وذكرنا عندها في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يؤتى بالرجل فيلقى في النار فتندلق أفتاب بطنه - أي تخرج أعضاؤه من بطنه - فيدور بها كما يدور الحمار برحاه ، فيجمع أهل النار فيقولون: يا فلان ، مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى ، كنت أمر بالمعروف ولا آتية ، وأنهى عن المنكر وآتية» . [صحيح البخاري / ح ٣٢٦٧] و[مسلم ٥٨ / ٢٩٨٩] .

وهذه صفة مخالفي الأنبياء من الفجار والأشقياء ، فأما السادة من النجباء ، والألباء من العلماء ، الذين يخشون ربهم بالغيب ، فحالهم كما قال نبي الله شعيب: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنهَضَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ أي: ما أريد في جميع أمري إلا الإصلاح في الفعال والمقال بجهدى وطاقتي . ﴿وَمَا تَوْفِيقِي﴾ أي في جميع الأحوال ﴿إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي عليه أتوكل في سائر الأمور ، وإليه مرجعي ومصيري في كل أمري . وهذا مقام ترغيب .

ثم انتقل إلى نوع من الترهيب فقال: ﴿وَيَقُولُ لَا يَحْزَمَكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ .

أي لا يحملنكم مخالفتي وبغضكم ما جئتكم به على الاستمرار على ضلالكم وجهلكم ومخالفتكم ، فيحل الله بكم من العذاب والنكال ، نظير ما أحله بنظرانكم وأشباهكم ، من قوم نوح وقوم هود وقوم صالح من المكذبين المخالفين .

وقوله: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ قيل معناه: في الزمان ، أي ما بالعهد من قدم ، مما قد بلغكم ما أحل بهم على كفرهم وعتوهم . وقيل معناه: وما هم منكم ببعيد في المحلة والمكان . وقيل: في الصفات والأفعال المستقبحة ، من قطع الطريق ، وأخذ أموال الناس جهره وخفية بأنواع الحيل والشبهات .

والجمع بين هذه الأقوال ممكن ، فإنهم لم يكونوا بعيدين منهم لا زماناً ولا مكاناً ولا صفات .

ثم مزج الترهيب بالترغيب فقال: ﴿وَأَسْتَغْفِرُكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبَّكُمْ رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ أي: أقلعوا عما أنتم فيه ، وتوبوا إلى ربكم الرحيم الرودود ، فإنه من تاب إليه تاب عليه ، فإنه رحيم بعباده ، أرحم بهم من الوالده بولدها: ﴿وَدُودٌ﴾ وهو الحبيب ، ولو بعد التوبة على =

عبد ، ولو من الموبقات العظام . ﴿ قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِيْنَا ضَعِيفًا ۖ ﴾ .

رُوي عن ابن عباس وسعيد بن جبير والثوري أنهم قالوا : كان ضرير البصر . وقد رُوي في حديث مرفوع : أنه بكى من حب الله حتى عمي ، فرد الله عليه بصره ، وقال : « يا شعيب . . أتبكي خوفا من النار ؟ أو من شوقك إلى الجنة ؟ فقال : بل من محبتك ، فإذا نظرت إليك فلا أبالي ماذا يصنع بي ، فأوحى الله إليه : هنيئاً لك يا شعيب لقائي ، فلذلك أخدمتك موسى بن عمران كليماً » .

رواه الواحدي عن أبي الفتح محمد بن علي الكوفي ، عن علي بن الحسن بن بندار ، عن عبد الله محمد بن إسحاق الرملي ، عن هشام بن عمار ، عن إسماعيل بن عباس ، عن يحيى بن سعيد ، عن شداد بن أوس ، عن النبي ﷺ بنحوه . وهو غريب جداً ، وقد ضعفه الخطيب البغدادي .

وقولهم : ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۖ ﴾ هذا من كفرهم البليغ ، وعنادهم الشنيع ، حيث قالوا : ﴿ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ ﴾ أي : ما نفهمه ولا نعقله ، لأننا لا نجبه ولا نريده ، وليس لنا همة إليه ، ولا إقبال عليه . وهو كما قال كفار قريش لرسول الله ﷺ : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكْثَرِ مِمَّا نَدْعُونَكَ إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقَرْءٍ مِّنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا عَمَلُوهَا ۚ ﴾ .

وقولهم : ﴿ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِيْنَا ضَعِيفًا ۖ ﴾ أي : مضطهداً مهجوراً ، ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ ﴾ أي : قبيلتك وعشيرتك فينا ﴿ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۖ ﴾ .

﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُ أَرْهَطِيْ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ ۖ ﴾ أي : تخافون قبيلتي وعشيرتي وترعونني بسببهم ، ولا تخافون عذاب الله ؟ ولا تراعونني لأنني رسول الله ؟ فصار رهطي أعز عليكم من الله : ﴿ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا ۖ ﴾ أي : جانب الله وراء ظهوركم ﴿ إِنَّكَ رَبِّيْ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۖ ﴾ أي : هو عليم بما تعملونه وما تصنعونه ، محيط بذلك كله ، وسيجزيكم عليه يوم ترجعون إليه .

﴿ وَيَقُولُوا أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ ۖ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ۖ ﴾ . هذا أمر تهديد شديد ووعد أكيد ، بأن يستمروا على طريقتهم ومنهجهم وشاكلتهم ، فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار ومن يحل عليه الهلاك والوبار : ﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أي في هذه الحياة الدنيا ﴿ وَيَحُلْ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أي في الآخرة ﴿ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ ﴾ أي منكم فيما أخبر وبشر وحذر . ﴿ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ۖ ﴾ هذا كقوله : ﴿ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِآلِئِيْ أَرْسَلْتُ إِلَيْهِمْ وَإِلَيْهِ لَمَّا نُنَادِئُهُمْ فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَخْرُجَ إِلَيْكُمْ اللَّهُ يَبْتَلَانِيْ هُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ۖ ﴾ .

﴿ قَالَ أَلَمْ أَتَاكُم بِآيَاتٍ مِّن قَوْمِيْ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَةٍ أَوْ نَعُودَنَّ فِيْ مَلِيَّتٍ ۖ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ۖ ﴾ قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِن عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِدْخَالِنَا إِلَيْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ

فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿١٠﴾ .

طلبوا بزعمهم أن يردوا من آمن منهم إلى ملتهم ، فانتصب شعيب للمحاجة عن قومه فقال : ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَاهِنِينَ﴾ أي هؤلاء لا يعودون إليكم اختياراً ، وإنما يعودون إليكم إن عادوا ، اضطراباً مكرهين ، وذلك لأن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد ، ولا يرتد أحد عنه ، ولا محيد لأحد منه .

ولهذا قال : ﴿قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِدْجَعْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي فهو كافينا ، وهو العاصم لنا وإليه ملجؤنا في جميع أمورنا .

ثم استفتح على قومه ، واستنصر ربه عليهم في تعجيل ما يستحقونه إليهم فقال : ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ أي الحاكمين . فدعا عليهم ، والله لا يرد دعاء رسوله إذا استنصروه على الذين جحدوه وكفروه وخالفوه . ومع هذا صمموا على ما هم عليه مشتملون ، وبه متلبسون : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَبًا مِنْكُمْ بِخَبَرٍ أَنَّكُمْ لَمَنِائِلٌ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [عقاب الله] :

قال الله تعالى : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ ذكر في سورة الأعراف أنهم أخذتهم رجفة ، أي رجفت بهم أرضهم ، وزلزلت زلزالاً شديداً ، أزهدت أرواحهم من أجسادهم ، وصيرت حيوان أرضهم كجمادها ، وأصبحت جثثهم جائية ، لا أرواح فيها ولا حركات بها ، ولا حواس لها .

وقد جمع الله عليهم أنواعاً من العقوبات ، وصنوفاً من المثالات ، وأشكالاً من البليات وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات ، سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكتت الحركات وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات وظلة أرسل عليهم منها شرر النار من سائر أرجائهم والجهات .

ولكنه تعالى أخبر عنهم في كل سورة بما يناسب سياقها ويوافق طباقها ، في سياق قصة الأعراف أرجفوا نبي الله وأصحابه ، وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم ، أو ليعودون في ملتهم راجعين . فقال تعالى : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ فقابل الإرجاف بالرجفة ، والإخافة بالخيفة ، وهذا مناسب لهذا السياق ومتعلق بما تقدمه من السياق .

وأما في سورة هود : فذكر أنهم أخذتهم الصيحة ، فأصبحوا في ديارهم جاثمين ، وذلك لأنهم قالوا لنبي الله على سبيل التهكم والاستهزاء والتنفص : ﴿أَصَلَوْتُكَ فَأَمْرُكَ أَنْ تَنْزِلَ مَا يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَكِيمُ الرَّشِيدُ﴾ فناسب أن يذكر الصيحة التي هي كالزجر عن تعاطي هذا الكلام القبيح ، الذي واجهوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح ، فجاءتهم صيحة أسكتتهم مع رجفة أسكتتهم .

وأما في سورة الشعراء : فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظلة ، وكان ذلك إجابة لما طلبوا ، =

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ قَوْمِهِ لِيَنِ اتَّبِعْتُمْ شُعْبًا إِنَّا لَنَخَسِرُونَ ﴿١٠﴾ فَأَخَذْتُمُ الرِّجْفَةَ فَأَسْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِيمِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعْبًا كَانُوا يَفْتَنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ ، وهذا في مقابلة قولهم: ﴿لِيَنِ اتَّبِعْتُمْ شُعْبًا إِنَّا لَنَخَسِرُونَ﴾ .

ثم ذكر تعالى عن نبيهم: أنه ناهم إلى أنفسهم موبخاً ومؤنباً ومقرعاً ، فقال تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَ قَوْمٍ لَقَدْ أَتَيْتُكُمْ بِرُسُلٍ مِنِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ أي أعرض عنهم مولياً عن محلتهم بعد هلكتهم قائلاً: ﴿أَتَيْتُكُمْ بِرُسُلٍ مِنِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ أي قد أدبت ما كان واجباً عليّ من البلاغ التام والنصح الكامل ، وحرصت على هدايتكم بكل ما أقدر عليه وأتوصل إليه ، فلم ينفعكم ذلك ، لأن الله لا يهدي من ضل وما لهم من ناصرين ، فلست أتأسف بعد هذا عليكم ، لأنكم لم تكونوا تقبلون النصيحة ، ولا تخافون يوم الفضيحة .

ولهذا قال: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ﴾ أي أحزن ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ أي لا يقبلون الحق ولا يرجعون إليه ولا يلتفتون إليه فحل بهم من بأس الله الذي لا يرد ما لا يدفع ولا يمانع ، ولا محيد لأحد أريد به عنه ، ولا مناص عنه . وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه عن ابن عباس: أن شعيباً عليه السلام كان بعد يوسف عليه السلام .

نبي الله يوسف
عليه السلام

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله :

[من الأمور العجيبة في حياة إسرائيل:]

وقد أنزل الله عز وجل في شأنه وما كان من أمره سورة من القرآن العظيم ، ليتدبر ما فيها من الحكم والمواعظ والآداب والأمر الحكيم . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿يَسْمِعُ اللَّهُ الْمُعْتَمِرَ ﴿١﴾ الرَّتْلَ ءَإِنِّي إِلَهُكُمْ أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْءَانَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَفْلِينَ ﴾ [يوسف: ١ - ٣] .

وجملة القول في هذا المقام: أنه تعالى يمدح كتابه العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم ، بلسان عربي فصيح ، بيّن واضح جلي ، يفهمه كل عاقل ذكي ، فهو أشرف كتاب نزل من السماء ، أنزله أشرف الملائكة على أشرف الخلق في أشرف زمان ومكان ، بأفصح لغة وأظهر بيان .

فإن كان السياق في الأخبار الماضية أو الآتية أحسنها وأبينها وأظهر الحق مما اختلف الناس فيه ، ودمغ الباطل وزيفه وردده . وإن كان في الأوامر والنواهي فأعدل الشرائع وأوضح المناهج ، وأبين حكماً وأعدل حكماً ، فهو كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا =

وَعَدَلًا ، يعني صدقاً في الأخبار ، وعدلاً في الأوامر والنواهي .
ولهذا قال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْكَافِرِ ﴾ أي بالنسبة إلى ما أوحى إليك فيه .

كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحَنَا مَا كُنْتَ نَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ صرط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله نصير الأمور ﴿ [الشورى : ٥٢ - ٥٣] .

وقال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴾ ﴿ من أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴾ ﴿ خَلِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴾ [طه : ٩٩ - ١٠١] .

يعني من أعرض عن هذا القرآن واتبع غيره من الكتب فإنه يناله هذا الوعيد . كما قال في الحديث المروي في المسند والترمذي عن أمير المؤمنين علي ، مرفوعاً وموقوفاً : «من ابتغى الهدى في غيره أضله الله» .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سريج بن النعمان ، حدثنا هشام ، أنبأنا خالد عن الشعبي ، عن جابر : أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه على النبي ﷺ قال : فغضب وقال : «أتتهوكون فيها يا بن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية . لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه أو يبطل فتصدقونه ، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني» . إسناده صحيح [مسند أحمد ح ١٥١٥٨] .

ورواه أحمد من وجه آخر عن عمرو وفيه : فقال رسول الله ﷺ : «والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم ، أنتم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين» . وقد أوردت طرق هذا الحديث وألفاظه في أول سورة يوسف . وفي بعضها : أن رسول الله ﷺ خطب الناس فقال في خطبته : «أيها الناس . . إني قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه ، واختصر لي اختصاراً ، وقد أنبتكم بها بيضاء نقية فلا تهوكون ، ولا يغرنكم المتهوكون» ، ثم أمر بتلك الصحيفة فمحيت حرفاً حرفاً . [مسند أحمد/ ح ١٨٣٦٣] .

[حلم يوسف عليه السلام] :
﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَيِّهِ يَتَأْتِي إِيَّيَ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ ﴿ قَالَ يَبْنَئُ لَكَ نَقَاصٌ مِنْ رِبَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْنِبُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُرِيكَ نِعَمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف : ٤ - ٦] .

قد قدمنا أن يعقوب كان له من البنين اثنا عشر ولداً ذكراً وسميناهم وإليهم تنسب أسباط بني إسرائيل كلهم ، وكان أشرفهم وأجلهم يوسف عليه السلام . وقد ذهب طائفة من العلماء إلى =

أنه لم يكن فيهم نبي غيره ، وباقي إخوته لم يوح إليهم . وظاهر ما ذكر من فعالهم ومقالاتهم في هذه القصة يدل على هذا القول .

ومن استدل على نبوتهم بقوله: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ وزعم أن هؤلاء هم الأسباط فليس استدلاله بقوي ، لأن المراد بالأسباط شعوب بني إسرائيل وما كان يوجب فيهم من الأنبياء الذين ينزل عليهم الوحي من السماء . . والله أعلم .

ومما يؤيد أن يوسف عليه السلام هو المختص من بين إخوته بالرسالة والنبوة أنه ما نص على واحد من إخوته سواه ، فدل على ما ذكرناه . ويستأنس لهذا بما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد ، حدثنا عبد الرحمن ، عن عبد الله بن دينار ، عن أبيه ، عن ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم». انفرد به البخاري ، فرواه عن عبد الله بن محمد وعبد ، عن عبد الصمد بن عبد الوارث به . وقد ذكرنا طريقه في قصة إبراهيم بما أغنى عن إعادته هنا . والله الحمد والمنة . [انظر صحيح البخاري/ كتاب الأنبياء/ ح ٣٣٩٠] ومسنّد أحمد [ح ٧١٦].

قال المفسرون وغيرهم: رأى يوسف عليه السلام وهو صغير قبل أن يحتلم ، كأن أحد عشر كوكباً ، وهم إشارة إلى بقية إخوته ، والشمس والقمر وهما عبارة عن أبويه ، قد سجدا له ، فهاله ذلك .

فلما استيقظ قصها على أبيه ، فعرف أبوه أنه سينال منزلة عالية ورفعة عظيمة في الدنيا والآخرة ، بحيث يخضع له أبوه وإخوته فيها ، فأمره بكتمانها وألا يقصها على إخوته ، كيلا يحسدوه ويغوا له الغوائل ، ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر ، وهذا يدل على ما ذكرناه . ولهذا جاء في بعض الآثار : «استعينوا على قضاء حوائجكم بكتمانها ، فإن كل ذي نعمة محسود» . وعند أهل الكتاب أنه قصها على أبيه وإخوته معاً ، وهو غلط منهم .

﴿وَكَذَلِكَ يَجْهِنُكَ رَبُّكَ﴾ أي وكما أراك هذه الرؤيا العظيمة ، فإذا كتمتها ﴿يَجْهِنُكَ رَبُّكَ﴾ أي يخصك بأنواع اللطف والرحمة ﴿وَيَعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أي يفهمك من معاني الكلام وتعبير المنام ما لا يفهمه غيرك .

﴿وَبُيِّنَتْ لِيَمَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي بالوحي إليك ﴿وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾ أي بسببك ، ويحصل لهم بك خير الدنيا والآخرة . ﴿كَمَا أَنتَ هَاهُنَا عَلَى آبَائِكَ مِنْ قَبْلُ إِزْهَمَ وَلاَ تَخَفْ﴾ أي نعم عليك ويحسن إليك بالنبوة ، كما أعطاه أباك يعقوب ، وجدك إسحاق ، ووالد جدك إبراهيم الخليل ، ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ كما قال تعالى : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ . لهذا قال رسول الله ﷺ لما سئل : أي الناس أكرم ؟ قال : «يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله» .

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِّلرَّسَالِينَ﴾ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ =

عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيْكُمُ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ [يوسف: ٧ - ١٠].

[التخلص من يوسف عليه السلام]:

ينبه تعالى على ما في هذه القصة من الآيات والحكم ، والدلالات والمواظ والبيانات . ثم ذكر حسد إخوة يوسف له على محبة أبيه له ولأخيه - يعنون شقيقه لأمه بنيامين - أكثر منهم ، وهم عصبة أي جماعة يقولون : فكنا نحن أحق بالمحبة من هذين ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي بتقديمه جبهما علينا .

ثم اشتروا فيما بينهم في قتل يوسف ، أو إبعاده إلى أرض لا يرجع منها ، ليخلو لهم وجه أبيهم : أي لتمحض محبته لهم وتوفر عليهم ، وأضمروا التوبة بعد ذلك . فلما تمالؤوا على ذلك وتوافقوا عليه : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾ أي المارة من المسافرين ﴿ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ ما تقولون لا محالة ، فليكن هذا الذي أقول لكم ، فهو أقرب حالا من قتله أو نفيه وتغريبه .

فاجمعوا رأيهم على هذا ، فعند ذلك ﴿ قَالُوا يَتَّابَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنْصَحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ ﴾ طلبوا من أبيهم أن يرسل معهم أخاهم يوسف ، وأظهروا له أنهم يريدون أن يرعى معهم ، وأن يلعب وينسبط وقد أضمروا له ما الله به عليم .

فأجابهم الشيخ ، عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم : يا بني . . يشق علي أن أفارقه ساعة من النهار ، ومع هذا أخشى أن تشغلوا في لعبكم وما أنتم فيه ، فيأتي الذئب فيأكله ، ولا يقدر على دفعه عنه لصغره وغفلتكم عنه .

﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ ﴾ أي لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ، أو اشتغلنا عنه حتى وقع هذا ونحن جماعة ، إنا إذا لخاسرون ، أي عاجزون هالكون .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهٖ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٤﴾ وَجَاءَ وَابَاهُ عَشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا يَتَّابَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٦﴾ وَجَاءَهُ عَلَى قَيْصِيهِ يَدِرُ كَذِبًا قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٥ - ١٨].

لم يزلوا بأبيهم حتى بعثه معهم ، واجمعوا على إلقائه في غيابة الجب ، أي في قعره على راعونته ، وهي الصخرة التي تكون في وسطه يقف عليها «الماتح» وهو الذي ينزل ليملا الدلاء إذا قل الماء ، والذي يرفعها بالحبل يسمى «الماتح» .

فلما ألقوه فيه ، أوحى الله إليه : أنه لا بد لك من فرج ومخرج من هذه الشدة التي أنت فيها ، ولتخبرن إخوانك بصنيعهم هذا في حال أنت فيهم عزيز ، وهم محتاجون إليك خائفون منك ، ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ قال مجاهد وقتادة : وهم لا يشعرون بإيحاء الله إليه ذلك . وعن ابن عباس : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي لتخبرنهم بأمرهم هذا في حال لا يعرفونك فيها ، رواه ابن جرير عنه .

فلما وضعوه فيه ورجعوا عنه ، أخذوا قميصه فطبخوه بشيء من دم ، ورجعوا إلى أبيهم عشاءً وهم يبيكون ، أي على أخيهم . ولهذا قال بعض السلف : لا يغرنك بكاء المتظلم فرب ظالم وهو باك . وذكر بكاء إخوة يوسف وقد جاؤوا أباهم عشاءً يبيكون ، أي في ظلمة الليل ، ليكون أمشي لغدرهم لا لغدرهم .

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْلَعِنَا ﴾ أي ثيابنا ﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ أي في غيبتنا عنه في استبقا . وقوله : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ أي ما أنت بمصدق لنا في الذي أخبرناك من أكل الذئب له ، ولو كنا غير متهمين عندك . فكيف وأنت تتهما في هذا ؟ فإنك خشيت أن يأكله الذئب ، وضمت لك ألا يأكله لكثرتنا حوله ، فصرنا غير مصدقين عندك ، فمعذور أنت في عدم تصديقك لنا والحالة هذه .

﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ أي مكذوب مفتعل ، فوضعوه على قميصه ، ليوهموه أنه أكله الذئب . قالوا : ونسوا أن يخرقوه ، وافة الكذب النسيان ! ولما ظهرت عليهم علائم الريبة لم يرج صنيعهم على أبيهم ، فإنه كان يفهم عداوتهم له ، وحسدهم إياه على محبته له من بينهم أكثر منهم ، لما كان يتوسم فيه من الجلالة والمهابة التي كانت عليه في صغره لما يريد الله أن يخصه به من نبوته . ولما راودوه عن أخذه فبمجرد ما أخذوه أعدموه ، وغيبوه عن عينيه ، وجاؤوا وهم يتباكون ، وعلى ما تمالؤوا يتواطؤون ؛ ولهذا : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ .

[انتقاله من الحب إلى بيت عزيز مصر] :

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشِّرُنِي هَذَا عَلَّمَ وَأَسْرُوهُ يَضَعُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ يَمَافَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ وَشَرُّهُ بِشَرِّ بَخْسٍ دَرَهَمٍ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ وقال الذي اشترته من مصر لا مراءيه أكثر من ثمنه عسى أن ينفعنا أو ننخذه ولذا وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ بَوَّأْنَاهُ مَكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

يخبر الله تعالى عن قصة يوسف حين وضع في الحب : أنه جلس ينتظر فرج الله ولطفه به ، فجاءت سيارة ، أي مسافرون ، فأرسلوا بعضهم ليستقوا من ذلك البئر ، فلما أدلى أحدهم دلوه تعلق فيه يوسف .

فلما رآه ذلك الرجل ﴿ قَالَ يَبُشِّرُنِي ﴾ أي يا بشارتي ﴿ هَذَا عَلَّمَ وَأَسْرُوهُ يَضَعُهُ ﴾ أي أوهموا أنه =

معهم غلام من جملة متجرهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي هو عالم بما تمالأ عليه إخوته ، وبما أسرّه واجدوه من أنه بضاعة لهم ، ومع هذا لا يغيره تعالى ، لما له في ذلك من الحكمة العظيمة والقدر السابق والرحمة بأهل مصر ، بما يجري الله على يدي هذا الغلام الذي يدخلها في صورة أسير رقيق ، ثم بعد هذا يملكه أزمة الأمور وينفعهم الله به في دنياهم وأخراهم ، بما لا يحد ولا يوصف .

ولما استشعر إخوة يوسف بأخذ السيارة له لحقوهم ، وقالوا هذا غلامنا أبق منا ، فاشتروه منهم بثمن بخس ، أي قليل نزر ، وقيل : هو الزيف ، ﴿دَرَّهَمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ وقال الذي اشتريته من مِصْرَ لِأَمْرَأَةٍ أَكْرَمِي مَثْوِيَّ أَي أحسني إليه ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَنْجُوهُ وَلَكِنَّ﴾ وهذا من لطف الله به ورحمته وإحسانه إليه ، بما يريد أن يؤهله له ويعطيه من خيري الدنيا والآخرة .

وقال ابن إسحاق عن أبي عبيدة ، عن ابن مسعود قال : أفرس الناس ثلاثة : عزيز مصر حيث قال لامرأته : ﴿أَكْرَمِي مَثْوِيَّ﴾ والمرأة التي قالت لأبيها عن موسى : ﴿يَتَأْتِ اسْتَعْجِرَةُ إِنْ خَيْرَ مَنْ اسْتَعْجَرَتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما .

وقوله : ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي وكما قيضنا هذا العزيز وامرأته يحسنان إليه ، ويعتنيان به ، مكنا له في أرض مصر ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أي فهمها ، وتعبير الرؤيا من ذلك ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ أي إذا أراد شيئا فإنه يفيض له أسبابا وأمورا لا يهتدي إليها العباد . ولهذا قال تعالى : ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .
﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ فدل على أن هذا كله كان وهو قبل بلوغ الأشد وهو حد الأربعين الذي يوحى الله فيه إلى عباده النبيين عليهم الصلاة والسلام من رب العالمين .

وقد اختلفوا في مدة العمر الذي هو بلوغ الأشد : فقال مالك وربيعة وزيد بن أسلم والشعبي : هو الحلم . وقال سعيد بن جبير : ثمانين عشرة سنة . وقال الضحاك : عشرون سنة ، وقال عكرمة : خمس وعشرون سنة . وقال السدي : ثلاثون سنة وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : ثلاث وثلاثون سنة وقال الحسن : أربعون سنة ، ويشهد له قوله تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف : ١٥] .

محاولة امرأة العزيز الإغرائية :

﴿وَرَوَدَتْهُ الْمَرْءُ هَوًى بِبَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ؕ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ ﴿١٧﴾ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصُومُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿١٨﴾ قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ =

نَفْسٍ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٩﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنِ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٣١﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٣٢﴾ [يوسف: ٢٩-٣٣].

يذكر تعالى ما كان من مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام عن نفسه وطلبها منه ما لا يليق بحاله ومقامه وهي في غاية الجمال والمال ، والمنصب والشباب وكيف غلقت الأبواب عليها وعليه ، وتهيات له وتصنعت ولبست أحسن ثيابها وأفخر لباسها وهي مع هذا كله امرأة الوزير .

وهذا كله من أن يوسف عليه السلام شاب بديع الجمال والبهاء ، إلا أنه نبي من سلالة الأنبياء ، فعصمه ربه عن الفحشاء ، وحماه عن مكر النساء ، فهو سيد السادة النجباء ، السبع الأتقياء ، المذكورين في الصحيحين عن خاتم الأنبياء ، في قوله عليه الصلاة والسلام من رب الأرض والسماء : «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجل معلق قلبه بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا في الله اجتماعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل دعتة امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله» [صحيح البخاري / ٦٦٠ / كتاب الأذان].

والمقصود أنها دعتة إليها وحرصت على ذلك أشد الحرص ، فقال : ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي﴾ يعني زوجها صاحب المنزل ، سيدي ﴿أَحْسَنَ مَثْوًى﴾ أي أحسن إليّ وأكرم مقامي عنده ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ وقد تكلمنا على قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ بما فيه كفاية ومقنع في التفسير .

وأكثر أقوال المفسرين هاهنا متلقى من كتب أهل الكتاب ، فالإعراض عنه أولى بنا . والذي يجب أن يعتقد : أن الله تعالى عصمه وبرأه ، ونزّهه عن الفاحشة وحماه عنها وصانه منها ، ولهذا قال تعالى : ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُتَّخِصِينَ﴾ .

﴿وَأَسَدَّبَا أَلْبَابَ﴾ أي هرب منها طالبا الباب ليخرج منه فرارا منها ، فاتبعته في أثره ﴿وَأَلْقِيَا﴾ أي وجدا ﴿سِدِّهَا﴾ أي زوجها ﴿لَدَا أَلْبَابٍ﴾ فبدرته بالكلام وحرصته عليه ﴿فَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ اتهمته وهي المتهمه ، وبرأت عرضها ، ونزهت ساحتها ، فلهذا قال يوسف عليه السلام : ﴿هِيَ زَوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ احتاج إلى أن يقول الحق عند الحاجة .

[وشهد شاهد من أهلها] :

فقال : ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي لأنه يكون قد راودها فدافعته حتى قُدَّتْ مقدم قميصه ، ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي =

لأنه يكون قد هرب منها فاتبعته وتعلقت فيه فانشق قميصه لذلك ، وكذلك كان ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا قَمِيصَهُ قُدْرَيْنِ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ أي هذا الذي جرى من مكركن ، أنت راودتيه عن نفسه ، ثم اتهمتيه بالباطل .

ثم أضرب بعلمها عن هذا صفحاً فقال : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ أي لا تذكره لأحد ، لأن كتمان مثل هذه الأمور هو الأليق والأحسن ، وأمرها بالاستغفار لذنبها الذي صدر منها والتوبة إلى ربها ، فإن العبد إذا تاب إلى الله تاب الله عليه .

﴿ وَقَالَ يَسُوهُ فِي الْمَدِينَةِ أَمْرَاتُ الْعَزِيزِ تَرُودُ فَنَهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرْنَهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَجِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رُودْنَهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ فَصَرَفَ عَنْهُمْ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [يوسف : ٣٠ - ٣٤] .

يذكر تعالى ما كان من قبل نساء المدينة ، من نساء الأمراء وبنات الكبراء في الطعن على امرأة العزيز وعبها ، والتشنيع عليها في مراودتها فتاها ، وحبها الشديد له ، وهو لا يساوي هذا ، لأنه مولى من الموالى وليس مثله أهلاً لهذا . ولهذا قلن : ﴿ إِنَّا لَنَرْنَهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي في وضعها الشيء في غير محله .

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ أي بتشنيعهن عليها والتنقص لها ، والإشارة إليها بالعيب والمذمة بحب مولايها وعشق فتاها ، فأظهرن ذمّاً وهي معذورة في نفس الأمر ، فلهذا أحببت أن تبسط عذرها عندهن ، وتبين أن هذا الفتى ليس كما حسن ، ولا من قبيل ما لديهن . فأرسلت إليهن فجمعتن في منزلها ، وأعدت لهن ضيافة مثلهن ، وأحضرت من جملة ذلك شيئاً مما يقطع بالسكاكين ، كالأترج ونحوه ، وآتت كل واحدة منهن سكيناً ، وكانت قد هيأت يوسف عليه السلام ، وألبسته أحسن الثياب ، وهو في غاية طراوة الشباب ، وأمرته بالخروج عليهن بهذه الحالة ، فخرج وهو أحسن من البدر لا محالة .

﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ﴾ أي أعظمته وأجللته وهبته ، وما ظنن أن يكون مثل هذا في بني آدم ، وبهرهن حسنه حتى اشتغلن عن أنفسهن ، وجعلن يحزنن في أيديهن بتلك السكاكين ولا يشعرن بالجراح ﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ .

وقد جاء في حديث الإسراء : « فمرت بيوسف وإذا هو قد أعطي شطر الحسن » . قال السهيلي وغيره من الأئمة : معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام ، لأن الله تعالى خلق آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه . فكان في غاية نهايات الحسن البشري . ولهذا يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم وحسنه ، ويوسف كان على النصف من حسن آدم .

﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ ثم مدحته بالعفة التامة فقالت : ﴿ وَلَقَدْ رُودْنَهُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ =

فَأَسْتَعَصِمَ ۖ أَيِ امْتَنَعَ ﴿٢٤﴾ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ۖ

وكان بقية النساء حرصه على السمع والطاعة لسيدته ، فأبى أشد الإباء ، ونأى لأنه من سلالة الأنبياء ، ودعا فقال في دعائه لرب العالمين : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ وَمَا يَدْعُونِي إِلَيْهِ وَإِلَّا قَصَّرَفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ يعني إن وكلتني إلى نفسي ، فليس لي من نفسي إلا العجز والضعف ، ولا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله . فأنا ضعيف إلا ما قويتني وعصمتني وحفظتني ، وحطنتي بحولك وقوتك .

ولهذا قال تعالى : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ بَدَأَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْعَذَابَ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ جِيءَ بِهِ ﴿٢٦﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأًا وَلَوْلَا إِِنَّا نُرَئِكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُزْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ حُمْقٌ وَهُمْ يَأْتِيَهُمْ كُفْرًا وَلَئِنْ لَبِثْتُ مِلَّةَ آبَائِهِمْ لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَانُوا عَلَىٰ أَثَرِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَعْزَرَ النَّاسَ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٨﴾ يَصْنَعِي السِّجْنَ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهِ الْوَلَدُ أَفْقَهَارُ ﴿٢٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَبَّحْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ لِلَّهِ إِلَّا لِيَنْزِلَ أَمْرٌ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِنَاءَ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقِيمُ وَلَئِنْ أَعْزَرَ النَّاسَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ يَصْنَعِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلِبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ۚ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿يوسف : ٣٤ - ٤١﴾ .

[سجن يوسف عليه السلام] :

يذكر تعالى عن العزيز وامرأته أنه بدا لهم ، أي ظهر لهم من الرأي بعدما علموا براءة يوسف أن يسجنوه إلى وقت ، ليكون ذلك أقل لكلام الناس في تلك القضية ، وأحمد لأمرها ، وليظهروا أنه راودها عن نفسها فسجن بسببها ، فسجنوه ظلماً وعدواناً . وكان هذا مما قدر الله له ، ومن جملة ما عصمه به ، فإنه أبعد له عن معاشرتهم ومخالطتهم .

قال الله : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ ﴾ قيل : كان أحدهما ساقى الملك . فلما رأيا يوسف في السجن أعجبهما سمته وهديه ، ودله وطريقته ، وقوله وفعله ، وكثرة عبادته ربه ، وإحسانه إلى خلقه ، فرأى كل واحد منهما رؤيا تناسبه .

فقصاها عليه وطلبا منه أن يعبرها لهما وقالوا : ﴿ إِنَّا نُرَئِكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فأخبرهما أنه عليم بتعبيرها ، خبير بأمرها ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾ قيل معناه مهما رأيتما من حلم فإني أعبره لكم قبل وقوعه فيكون كما أقول . وقيل معناه : أني أخبركم بما يأتیکما من الطعام قبل مجيئه حلواً وحامضاً ، كما قال عيسى : ﴿ وَأَنْتُمْ كُفْرًا تَأْكُلُونَهُ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ [آل عمران : ٤٩] .

وقال لهما : إن هذا من تعليم الله إياي ، لأنني مؤمن به موحد له متبع لملة آبائي الكرام : إبراهيم الخليل ، وإسحاق ويعقوب . ﴿ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ۚ

عَلَيْنَا ﴿ أَيُّ أَنْ هَدَانَا لِهَذَا ، ﴿ وَعَلَى النَّاسِ ﴾ أَيُّ بَانَ أَمَرْنَا أَنْ نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ وَنُرْشِدَهُمْ وَنُدْلِهِمْ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي فِطْرِهِمْ مَرْكُوزٌ ، وَفِي جَبَلْتِهِمْ مَغْرُوزٌ ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

ثُمَّ دَعَاهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ وَذَمَّ عِبَادَةَ مَا سِوَى اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ ، وَصَغَّرَ أَمْرَ الْأَوْثَانِ وَحَقَّرَهَا ، وَضَعَفَ أَمْرَهَا فَقَالَ : ﴿ يَصْصَحِي السَّجَنُ ، أَرْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَبَرٌ أَمَرَ اللَّهُ الْوَحْدَ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ أَيُّ الْمُتَصَرِّفِ فِي خَلْقِهِ الْفَعَالُ لِمَا يَرِيدُ ، الَّذِي يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ﴿ أَمَرَ الْأَوْثَانَ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ أَيُّ وَحْدِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ وَ﴿ ذَلِكَ الَّذِينَ أَلْفِتِمُ ﴾ أَيُّ الْمُسْتَقِيمِ وَالصِّرَاطِ الْقَوِيمِ ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيُّ فَهْمٍ لَا يَهْتَدُونَ إِلَيْهِ مَعَ وَضُوحِهِ وَظُهُورِهِ .

وَكَانَتْ دَعْوَتُهُ لِهَمَا فِي هَذِهِ الْحَالِ فِي غَايَةِ الْكَمَالِ ، لِأَنَّ نَفُوسَهُمَا مَعْظَمَةٌ لَهُ ، مِنْبَعَةٌ عَلَى تَلْقَى مَا يَقُولُ بِالْقَبُولِ ، فَنَاسِبٌ أَنْ يَدْعُوهُمَا إِلَى مَا هُوَ الْأَنْفَعُ لِهَمَا مِمَّا سَأَلَ عَنْهُ وَطَلِبَا مِنْهُ . ثَمَّ لَمَّا قَامَ بِمَا وَجِبَ عَلَيْهِ وَأُرْشِدَ إِلَى مَا أُرْشِدَ إِلَيْهِ قَالَ : ﴿ يَصْصَحِي السَّجَنُ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُضْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ﴾ فَضَى الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿ أَيُّ وَقَعَ هَذَا لَا مُحَالَةً ، وَوَجِبَ كَوْنُهُ عَلَى كُلِّ حَالَةٍ .

وَقَدْ رَوَى عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ وَمُجَاهِدٍ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ بَنِ اسْلَمَ أَنَّهُمَا قَالَا : لَمْ نَرِ شَيْئًا ، فَقَالَ لِهَمَا : ﴿ فَضَى الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ . ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَّهُ الشَّيْطَانُ ذَكَرَ رَبِّهِ فَلَيْتَ فِي السَّجَنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ . يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ يُوسُفَ قَالَ لِلَّذِي ظَنَّهُ نَاجِيًا مِنْهُمَا وَهُوَ السَّاقِي : ﴿ أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ يَعْنِي أَذْكُرْ أَمْرِي وَمَا أَنَا فِيهِ مِنَ السَّجَنِ بِغَيْرِ جَرَمٍ عِنْدَ الْمَلِكِ . وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ السَّعْيِ فِي الْأَسْبَابِ ، وَلَا يَنَافِي ذَلِكَ التَّوَكُّلَ عَلَى رَبِّ الْأَرْيَابِ .

﴿ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذَكَرَ رَبِّهِ ﴾ أَيُّ فَانْسَى النَّاجِي مِنْهُمَا الشَّيْطَانُ أَنْ يَذْكُرَ مَا وَصَّاهُ بِهِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ . قَالَ مُجَاهِدٌ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُ وَاحِدٍ : وَهُوَ الصَّوَابُ ، وَهُوَ مَنْصُوصٌ أَهْلُ الْكِتَابِ .

﴿ فَلَيْتَ ﴾ يُوسُفَ ﴿ فِي السَّجَنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ وَالْبُضْعُ : مَا بَيْنَ الثَّلَاثِ إِلَى التَّسْعِ ، وَمَنْ قَالَ إِنْ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذَكَرَ رَبِّهِ ﴾ عَائِدٌ عَلَى يُوسُفَ فَقَدْ ضَعُفَ مَا قَالَهُ ، وَإِنْ كَانَ قَدْ رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعُكْرَمَةٍ . وَالْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ضَعِيفٌ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ ، تَفَرَّدَ بِإِسْنَادِهِ إِبْرَاهِيمُ بْنُ يَزِيدَ الْخُزَيْمِيُّ الْمَكِّيُّ وَهُوَ مَتْرُوكٌ . وَمَرْسَلُ الْحَسَنِ وَقَتَادَةَ لَا يَقْبَلُ ، وَلَا هَاهُنَا بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْآخِرَى . . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

[خروج يوسف من السجن] :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَنَعُ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَنَعُ سُبُلَاتٍ خُضِرَ وَأَخْرَ يَابِسَاتٍ يَأْتِيهَا أَلَمَلٌ أَفْتُونٌ فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿١٧﴾ قَالُوا أَضَعَتْ أَحَلْمٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴿١٨﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أَمْنِهِ أَنَا أَنْبَأُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿١٩﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْنَدَكَ

فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَىٰ يَاسْتَبِي لَعَلِّي أَرْجِعَ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ تَزْعَوْنَ سَبْعَ سِنِينَ دَا بَا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٩﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ هُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَحْصِتُونَ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ ﴿٥١﴾ [يوسف: ٤٣ - ٤٩] .

هذا كان من جملة أسباب خروج يوسف عليه السلام من السجن على وجه الاحترام والإكرام ، وذلك أن ملك مصر لما قصها على ملئه وقومه لم يكن فيهم من يحسن تعبيرها ، بل ﴿ قَالُوا أَصْغَتْ أَحْلَامُ ﴾ أي أحلاط أحلام من الليل ، لعله لا تعبير لها ، ومع هذا فلا خبرة لنا بذلك . ولهذا قالوا : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴾ فعند ذلك تذكر الناجي منهما ، الذي وصاه يوسف بأن يذكره عند ربه فنسيه إلى حينه هذا ، وذلك عن تقدير الله عز وجل وله الحكمة في ذلك . فلما سمع رؤيا الملك ، ورأى عجز الناس عن تعبيرها ، تذكر أمر يوسف ، وما كان أوصاه به من التذكار .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهَا أَذْكُرُ ﴾ أي تذكر ﴿ بَعْدَ أَمْرٍ ﴾ أي بعد مدة من الزمن فقال لقومه وللملك : ﴿ أَنَا أَنَبْتُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ أي فأرسلون إلى يوسف فجاءه فقال : ﴿ يَوْسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَىٰ يَاسْتَبِي لَعَلِّي أَرْجِعَ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

فبذل يوسف عليه السلام ما عنده من العلم بلا تأخر ولا شرط ، ولا طلب الخروج سريعاً ، بل أجابهم إلى ما سألوه ، وعبر لهم ما كان من منام الملك ، الدال على وقوع سبع سنين من الخصب ويعقبها سبع جدد ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ ﴾ يعني يأتهم الغيث والخصب والرفاهية ﴿ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ ﴾ يعني ما كانوا يعصرونه من الأقصاب والأعقاب والزيتون والسمن وغيرها .

فعبر لهم ، وعلى الخير دلهم ، وأرشدهم إلى ما يعتمدونه في حالتي خصبهم وجدهم ، وما يفعلونه من ادخار حبوب سني الخصب في السبع الأول في سنبله ، إلا ما يرصد بسبب الأكل ، ومن تقليل البذر في سني الجدد في السبع الثانية ، إذ الغالب على الظن أنه لا يرد البذر من الحقل ، وهذا يدل على كمال العلم وكمال الرأي والفهم .

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِيَنِي بِهِ فَمَا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ الْيَسْوَۥۥ الَّتِي قَطَّعَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَافٍ عَلِيمٌ ﴿٥٢﴾ قَالَ مَا خَطْبُكَ أَنْ يَرْوَدَنَّ يَوْسُفُ عَنْ نَفْسِهِ قُلْتُ حَسْبُ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَنِّ حَصَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥٣﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٤﴾ وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٠ - ٥٣] .

لما أحاط الملك علماً بكمال علم يوسف عليه الصلاة والسلام ، وتمام عقله ، ورأيه السديد وفهمه ، أمر بإحضاره إلى حضرته ، ليكون من جملة خاصته . فلما جاءه الرسول بذلك ، =

أحب ألا يخرج حتى يتبين لكل أحد أنه حبس ظلماً وعدواناً ، وأنه بريء الساحة مما نسبوه إليه بهتاناً . ﴿ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ يعني الملك ﴿ فَتَعَلَّهُ مَا بَالَ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ قيل معناه : إن سيدي العزيز يعلم براءتي مما نسب إلي ، أي فمر الملك فليسألهن : كيف كان امتناعي الشديد عند مراودتهن إياي ؟ وحثهن لي على الأمر الذي ليس برشيد ولا سديد ؟ .

فلما سئل عن ذلك اعترف بما وقع من الأمر ، وما كان منه من الأمر الحميد ﴿ قُلْتُ حَسْبُ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ . فعند ذلك ﴿ قَالَتْ أَمَرْتُ الْعَزِيزَ ﴾ وهي زليخا ﴿ الْفَنَ حَصَصَ الْحَقُّ ﴾ أي : ظهر وتبين ووضح ، والحق أحق أن يتبع ﴿ أَنَا رَوَدْتُهُمْ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أي فيما يقوله ، ومن أنه بريء ، وأنه لم يراودني ، وأنه حبس ظلماً وعدواناً ، وزوراً وبهتاناً . وقوله : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴾ قيل : إنه من كلام يوسف ، أي إنما طلبت تحقيق هذا ليعلم العزيز أنني لم أخنه بظهر الغيب . وقيل : إنه من تمام كلام زليخا ، أي : إنما اعترفت بهذا ليعلم زوجي أنني لم أخنه في نفس الأمر ، وإنما كان مراودة لم يقع معها فعل فاحشة .

وهذا القول هو الذي نصره طائفة من أئمة المتأخرين وغيرهم . ولم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم سوى الأول . ﴿ وَمَا أَتَرَىٰ نَفْسِي إِلَّا النَّفْسَ لَأَمَّارَةً بِالْسُوءِ إِلَّا مَا رَجَعَهُ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قيل : إنه من كلام يوسف . وقيل : من كلام زليخا وهو مفرع على القولين الأولين وكونه من تمام كلام زليخا أظهر وأنسب وأقوى ، والله أعلم .

[تولي يوسف وزارة المالية] :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِيهِ يَدَهُ اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ ﴿ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا ﴾ ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مَتَّحًا حَيْثُ شَاءَ نُضَيِّقُ بِرَحْمَتِنَا مِنْ شَاءَ وَلَا نُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿ وَلَا جَزَاءُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ [يوسف : ٥٤ - ٥٧] .

لما ظهر للملك براءة عرضه ، ونزاهة ساحته عما كانوا أظهروا عنه مما نسبوه إليه ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِيهِ يَدَهُ اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي ﴾ أي أجعله من خاصتي ، ومن أكابر دولتي ، ومن أعيان حاشيتي ، فلما كلمه وسمع مقاله وتبين حاله ﴿ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ أي ذو مكانة وأمانة .

﴿ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا ﴾ طلب أن يوليه النظر فيما يتعلق بالأهرام لما يتوقع من حصول الخلل فيما بعد مضي سبع سني الخصب ، لينظر فيها بما يرضي الله في خلقه ، من الاحتياط لهم والرفق بهم ، وأخبر الملك أنه حفيظ ، أي قوي على حفظ ما لديه أمين عليه ، عليم بضبط الأشياء ومصالح الأهرام . وفي هذا دليل على جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه الأمانة والكفاءة .

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ أي بعد السجن والضيق والحصر ، صار مطلق الركاب بديار مصر ، ﴿يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ أي أين شاء حل منها مكرماً محسوداً معظماً .

﴿تُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي هذا كله من جزاء الله وثوابه للمؤمن مع ما يدخر له في آخرته من الخير الجزيل والثواب الجميل . ولهذا قال: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ .
[التقاء يوسف بإخوته]:

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتَأْتُونِي بِأَنْجُكُمْ مِنْ أَيْكُمُ الْأَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَوْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا نَقْرَبُوكَ﴾ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَتَرُوهُ عَنْ آبَاءِهِ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفَتَاتِهِ اجْعَلُوا بَضْعَهُمْ فِي رِجَالِهِمْ لَعَلَّهِمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْفَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف: ٥٨ - ٦٢] .

يخبر تعالى عن قدوم إخوة يوسف عليه السلام إلى الديار المصرية يمتارون طعاماً ، وذلك بعد إتيان سني الجذب وعمومها على سائر العباد والبلاد . وكان يوسف عليه السلام إذ ذاك الحاكم في أمور الديار المصرية ديناً ودنياً . فلما دخلوا عليه عرفهم ولم يعرفوه ، لأنه لم يخطر ببالهم ما صار إليه يوسف عليه السلام من المكانة والعظمة ، فلهذا عرفهم وهم له منكرون .

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ أي أعطاهم من الميرة ما جرت به عادته ، من إعطاء كل إنسان حمل بعير لا يزيد عليه ﴿قَالَ أَتَأْتُونِي بِأَنْجُكُمْ مِنْ أَيْكُمُ﴾ وكان قد سألهم عن حالهم ، وكم هم ؟ فقالوا: كنا اثني عشر رجلاً ، فذهب منا واحد وبقي شقيقه عند أبينا . فقال: إذا قدمتم من العام المقبل فأتوني به معكم .

﴿الْأَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ ؟ أي قد أحسنت نزلكم وقراكم ، فرغبهم ليأتوه به ثم رهبهم إن لم يأتوه به فقال: ﴿فَإِنْ لَوْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا نَقْرَبُوكَ﴾ أي فلست أعطيكم ميرة ، ولا أقريكم بالكلية ، عكس ما أسدى إليهم أولاً . فاجتهد في إحضاره معهم ليل شوقه منه بالترغيب والترهيب .

﴿قَالُوا سَتَرُوهُ عَنْ آبَائِهِ﴾ أي سنجتهد في مجيئه معنا وإتيانه إليك بكل ممكن ، ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ أي وإنا لقادرون على تحصيله . ثم أمر فتياته أن يضعوا بضاعتهم وهي ما جاؤوا به يتعوضون به عن الميرة في أمتعتهم من حيث لا يشعرون بها ﴿لَعَلَّهِمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْفَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ .

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكَيْلَ وَإِنَّا لَخَافِطُونَ﴾ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَسْتَكُمُ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَمْسَكْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذَا . بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ=

أَهْلَنَا وَنَحْفُظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٨﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٩﴾ وَقَالَ يَبْنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَجِدْ وَأَدْخُلُوا مِنْ أُبوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿يوسف : ٦٣ - ٦٨﴾

يذكر تعالى ما كان من أمرهم بعد رجوعهم إلى أبيهم وقولهم له : ﴿ مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾ أي بعد عامنا هذا إن لم ترسل معنا أخانا ، فإن أرسلته معنا لم يمنع منا . ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا بَابَانَا مَا نَبْغِي ﴾ أي شيء نريد وقد ردت إلينا بضاعتنا ؟ ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ أي نمتار لهم ونأتيهم بما يصلحهم في سبتهم ومحلهم ، ﴿ وَنَحْفُظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ ﴾ بسببه ﴿ كَيْلٌ بَعِيرٌ ﴾ . قال الله تعالى : ﴿ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ أي في مقابلة ذهاب ولده الآخر .

وكان يعقوب عليه السلام أضن شيء بولده بنيامين ، لأنه كان يشم فيه رائحة أخيه ويتسلى به عنه ، ويتعوض بسببه منه . فلهذا قال : ﴿ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ أي إلا أن تغلبوا كلكم عن الإتيان به . ﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ .

أكد المواثيق وقرر العهود ، واحتاط لنفسه في ولده ، ولن يغني حذر من قدر ! ولولا حاجته وحاجة قومه إلى الميرة ، لما بعث الولد العزيز ، ولكن الأقدار لها أحكام ، والرب تعالى يقدر ما يشاء ويختار ما يريد ، ويحكم ما يشاء وهو الحكيم العليم .

ثم أمرهم ألا يدخلوا المدينة من باب واحد ، ولكن ليدخلوا من أبواب متفرقة . وقيل : أراد ألا يصيبهم أحد بالعين ، وذلك لأنهم كانوا أشكالا حسنة وصورا بديعة . قاله ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وقتادة والسدي والضحاك .

وقيل : أراد أن يتفرقوا لعلهم يجدون خبرا ليوسف أو يحدثون عنه بأثر . قاله إبراهيم النخعي ، والأول أظهر . ولهذا قال : ﴿ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَىٰ أَخِيهِ قَالَ أَخِي إِنِّي أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَءْسِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسِرِفُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ جِمْدٌ بَعِيرٌ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتُمْ بِهِ فَيَسْأَلُ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَافِرِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مِنْ وَجْدٍ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاؤِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ

كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ ﴿٧٦﴾ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَفَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ ، وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَكَ أبا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَكَادُ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عَنْدَهُ إِنَّا إِذَا ظَلَمْنَا لَمُوتُ ﴿٧٩﴾ [يوسف : ٦٨ - ٧٩] .

يذكر تعالى ما كان من أمرهم حين دخلوا بأخيهم بنيامين على شقيقه يوسف ، وإيوائه إليه ، وإخباره له سرّاً عنهم بأنه أخوه ، وأمره بكتّم ذلك عنهم ، وسلاه عما كان منهم من الإساءة إليه .

ثم احتال على أخذه منهم وتركه إياه عنده دونهم ، فأمر فتياه بوضع سقايته ، وهي التي كان يشرب بها ويكيل بها للناس الطعام ، عن غرة في متاع بنيامين ، ثم أعلمهم بأنهم قد سرقوا صواع الملك ، ووعدهم جعالة على رده ، حمل بعير ، وضمنه المنادي لهم . فأقبلوا على من اتهمهم بذلك فأتوه وهجنوه فيما قاله لهم : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتَنَا بِتَفْسِدٍ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ يقولون : أنتم تعلمون منا خلاف ما رميتمونا به من السرقة .

﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ ﴿٧٦﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ ، فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٧﴾ وهذه كانت شريعتهم : أن السارق يدفع إلى المسروق منه . ولهذا قالوا : ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ ﴾ ليكون ذلك أبعاداً للتهمة وأبلغ في الحيلة ، ثم قال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ أي لولا اعترافهم بأن جزاءه من وجد في رحله فهو جزاؤه ، لما كان يقدر يوسف على أخذه منهم في سياسة ملك مصر ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَتٍ مَنْ تَشَاءُ ﴾ أي في العلم ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ ﴾ .

وذلك لأن يوسف كان أعلم منهم ، وأتم رأياً وأقوى عزماً وحزماً ، وإنما فعل ما فعل عن أمر الله له في ذلك ، لأنه يترتب على هذا الأمر مصلحة عظيمة بعد ذلك ، من قدوم أبيه وقومه عليه ووفودهم إليه .

فلما عاينوا استخراج الصواع من حمل بنيامين ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَفَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعنون يوسف .

﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَفَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ ﴾ وهي كلمته بعدها ، وقوله ﴿ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ أجابهم سرّاً لا جهراً ، حلماً وكرماً وصفحاً وعفواً ، فدخلوا معه في الترفق والتعطف فقالوا : ﴿ يَا أَبَانَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَكَ أبا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَكَادُ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عَنْدَهُ إِنَّا إِذَا ظَلَمْنَا لَمُوتُ ﴿٧٩﴾ أي إن أطلقنا المتهم وأخذنا البريء ، وهذا ما لا نفعله ولا نسمح به ، وإنما نأخذ من وجدنا متاعنا عنده .

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ أَرْجِعُوا إِلَى آبَيْكُمْ فَقُولُوا يَتَابَعْنَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨٨﴾ وَسَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿٨٩﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٩٠﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَتَّاسِفُنِي عَلَى يُوسُفَ وَأَبِضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٩١﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُنَا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٩٢﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرِّزَ إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَبْنِي أَهْبَاءُ فَتَحَسَّنُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٠ - ٨٧]

يقول تعالى مخبراً عنهم لما استياسوا من أخذه منه: خلصوا يتناجون فيما بينهم ، قال كبيرهم: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ ﴾ لتأنتني به إلا أن يحاط بكم؟ لقد أخلفتم عهده ، وفرطتم فيه كما فرطتم في أخيه يوسف من قبله ، فلم يبق لي وجه أقابله ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ ﴾ أي لا أزال مقبهاً هاهنا ﴿ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾ في القدوم عليه ، ﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾ بأن يقدرني على رد أخي إلى أبي ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ .

﴿ أَرْجِعُوا إِلَى آبَيْكُمْ فَقُولُوا يَتَابَعْنَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ ﴾ أي أخبروه بما رأيتم من الأمر في ظاهر مشاهد ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ ﴿ وَسَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ أي فإن هذا الذي أخبرناك به - من أخذهم أخانا لأنه سرق - أمر اشتهر بمصر وعلمه من مع العير التي كنا نحن وهم هناك ﴿ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴾ .

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أي ليس الأمر كما ذكرتم ، لم يسرق ، فإنه ليس سجيبة له ولا خلقه . وإنما ﴿ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ .

ثم قال: ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴾ أي بحالي وما أنا فيه من فراق الأحبة ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فيما يقدره ويفعله ، وله الحكمة البالغة والحجة القاطعة . ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ ﴾ أي أعرض عن بنيه: ﴿ وَقَالَ يَتَّاسِفُنِي عَلَى يُوسُفَ ﴾ ذكره حزنه الجديد بالحزن القديم ، وحرك ما كان كامناً .

وقوله: ﴿ وَأَبِضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ أي من كثرة البكاء ، ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي مكظم من كثرة حزنه وأسفه وشوقه إلى يوسف . فلما رأى بنوه ما يقاسيه من الوجد وألم الفراق ﴿ قَالُوا ﴾ له على وجه الرحمة والرأفة والحرص عليه: ﴿ تَاللَّهِ تَفْتُنَا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾ . يقولون: لا تزال تذكره حتى ينحل جسدك وتضعف قوتك ، فلو رفقت بنفسك كان أولى بك .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرِّزَ إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يقول لبنيه: لست أشكو إليكم ولا إلى أحد من الناس ما أنا فيه ، إنما أشكوه إلى الله عز وجل ، وأعلم أن الله سيجعل =

لي مما أنا فيه فرجاً ومخرجاً ، وأعلم أن رؤيا يوسف لا بد أن تقع ، ولا بد أن أسجد له أنا وأنتم حسب ما أرى . ولهذا قال : ﴿ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

ثم قال لهم محرصاً على تطلب يوسف وأخيه ، وأن يبحثوا عن أمرهما : ﴿ يَبْنَئُ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِئُسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ أي لا تيأسوا من الفرج بعد الشدة ، فإنه لا ييأس من روح الله وفرجه ، وما يقدره من المخرج في المضايق ، إلا القوم الكافرون .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَتَآيَأُ الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلُنَا النَّصْرُ وَجِئْنَا بِضِغَعَةٍ مُزْجَلَةٍ فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَتَرَكْنَا اللَّهَ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ بِغَفْرِ اللَّهِ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [يوسف : ٨٨ - ٩٣] .

يخبر تعالى عن رجوع إخوة يوسف إليه وقدمهم عليه ، ورغبتهم فيما لديه من الميرة ، والصدقة عليهم برد أخيه بنيامين إليهم : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَتَآيَأُ الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلُنَا النَّصْرُ ﴾ أي من الجذب وضيق الحال وكثرة العيال ، ﴿ وَجِئْنَا بِضِغَعَةٍ مُزْجَلَةٍ ﴾ أي ضعيفة لا يقبل مثلها منا إلا أن تتجاوز عنا ﴿ فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ .

فلما رأى ما هم فيه من الحال ، وما جاؤوا به مما لم يبق عندهم سواه من ضعيف المال ، تعرف إليهم وعطف عليهم ، قائلاً لهم عن أمر ربه وربهم ، وقد حسر عن جبينه الشريف ، وما يحويه من الحال الذي يعرفون فيه : ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ . ﴿ قَالُوا ﴾ وتعجبوا كل العجب ، وقد ترددوا إليه مرارا عديدة ، وهم لا يعرفون أنه هو ﴿ إِيَّاكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ﴾ .

﴿ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي ﴾ يعني أنا يوسف الذي صنعت مع ما صنعت ، وسلف من أمركم فيه ما فرطتم . وقوله : ﴿ وَهَذَا أَخِي ﴾ تأكيد لما قال ، وتنبيه على ما كانوا أضمرُوا لهما من الحسد ، وعملوا في أمرهما من الاحتيال . ولهذا قال : ﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ أي بإحسانه إلينا وصدقته علينا ، وإيوائه لنا وشده معاقب عِزنا ، وذلك بما أسلفنا من طاعة ربنا ، وصبرنا على ما كان منكم ، وطاعتنا وبرنا لأبينا ، ومحبة الشديدة لنا ، وشفقته علينا ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَتَرَكْنَا اللَّهَ عَلَيْنَا ﴾ أي فضلك وأعطاك ما لم يعطنا ﴿ وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴾ أي فيما أسدينا إليك ، وما نحن بين يديك . ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ أي لست أعتابكم على ما كان منكم بعد يومكم هذا . ثم زادهم على ذلك فقال : ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ ومن زعم أن الوقف على قوله ﴿ لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ ﴾ وابتدأ بقوله =

﴿الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ف قوله ضعيف والصحيح الأول.

ثم أمرهم بأن يذهبوا بقميصه ، وهو الذي يلي جسده ، فيضعوه على عيني أبيه ، فإنه يرجع إليه بصره بعدما كان ذهب ، بإذن الله ، وهذا من خوارق العادات ودلائل النبوات وأكبر المعجزات . ثم أمرهم أن يتحملوا بأهلهم أجمعين إلى ديار مصر ، إلى الخير والدعة وجمع الشمل بعد الفرقة ، على أكمل الوجوه وأعلى الأمور .

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ ٩٨ ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ﴾ ٩٩ ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ١٠٠ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ ١٠١ ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف : ٩٤ - ٩٨] .

قال عبد الرزاق : أنبأنا إسرائيل ، عن أبي سنان ، عن عبد الله بن أبي الهذيل ، سمعت ابن عباس يقول : ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ قال : لما خرجت العير هاجت ريح ، فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف فقال : ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ قال : فوجد ريحه من مسيرة ثلاثة أيام . وكذا رواه الثوري وشعبة وغيرهم عن أبي سنان به . وقال الحسن البصري وابن جريج المكي : كان بينهما مسيرة ثمانين فرسخا ، وكان له منذ فارقته ثمانون سنة .

وقوله : ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ أي تقولون : إنما قلت هذا من الفند ، وهو الخرف وكبر السن . قال ابن عباس وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبيرة وقتادة ﴿تُفَنِّدُونِ﴾ تسفهون .

وقال الله تعالى : ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ أي بمجرد ما جاء ألقى القميص على وجه يعقوب فرجع من فوره بصيرا بعدما كان ضريرا . وقال لبنيه عند ذلك : ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أعلم أن الله سيجمع شملي بيوسف ، وسيقر عيني به ، وسيريني فيه ومنه ما يسرني .

فمنذ ذلك : ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ طلبوا منه أن يستغفر لهم الله عز وجل عما كانوا فعلوا ونالوا منه ومن ابنه ، وما كانوا عزموا عليه ، ولما كان من نيتهم التوبة قبل الفعل وفقهم الله للاستغفار عند وقوع ذلك منهم ، فأجابهم أبوههم إلى ما سألوا ، وما عليه عولوا فقال : ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ .

[يوسف وأبواه] :

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مَعِيَ مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ ١٠٢ ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِيَنَّ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْتُهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ الْمِصْرِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ ١٠٣ ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف : ٩٩ - ١٠١]

هذا إخبار عن حال اجتماع المتحابين بعد الفرقة الطويلة .

ذكر يعقوب وأولاده

ثم خبره تعالى عن إخوة يوسف ومجيئهم إلى أبيه عشاءً يبكون ، يذكرون له

وظاهر سياق القصة يرشد إلى تحديد المدة تقريباً ، فإن المرأة راودته وهو شاب فامتنع ، فكان في السجن بضع سنين ، ثم أخرج فكانت سنوات الخصب السبع ، ثم لما أمحل الناس في السبع البواقي ، جاء إخوته يمتارون في السنة الأولى وحدهم ، وفي الثانية ومعهم أخوه بنيامين ، وفي الثالثة تعرف إليهم وأمرهم بإحضار أهليهم أجمعين ، فجاؤوا كلهم .
﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ واجتمع بهما خصوصاً وحدهما دون إخوته ،
﴿ وَقَالَ ادْخُلُوا مَعِيَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ .
قال الله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ .

ورفعهما على العرش ، أي أجلسهما معه على سريره : ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ أي سجد له الأبوان والإخوة الأحد عشر ، تعظيماً وتكريماً وكان هذا مشروعاً لهم ، ولم يزل ذلك معمولاً به في سائر الشرائع حتى حرم في ملتنا .

﴿ وَقَالَ يَكْتُبْتُ هَذَا تَأْوِيلَ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي هذا تعبير ما كنت قصصته عليك : من رؤيتي الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر ، حين رأيتهم لي ساجدين ، وأمرتني بكتمانها ، ووعدتني ما وعدتني عند ذلك ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ أي بعد الهم والضيق ، جعلني حاكماً نافذ الكلمة في الديار المصرية حيث شئت ﴿ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ﴾ أي البادية . وكانوا يسكنون أرض العربات من بلاد الخليل ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ أي فيما كان منهم من الأمر الذي تقدم وسبق ذكره .

ثم قال : ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ﴾ أي إذا أراد شيئاً هيئاً أسبابه ، ويسرها وسهلها من وجوه لا يهتدي إليها العباد ، بل يقدرها ويسرها بلطيف صنعه وعظيم قدرته . ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴾ بالأمر ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ في خلقه وشرعه وقدره .

ثم لما رأى يوسف عليه السلام نعمته قد تمت ، وشمله قد اجتمع ، وعرف أن هذه الدار لا يقر بها قرار ، وأن كل شيء فيها ومن عليها فان ، وما بعد التمام إلا النقصان ، فعند ذلك أثنى على ربه بما هو أهله ، واعترف له بعظيم إحسانه وفضله ، وسأل منه - وهو خير المسؤولين - أن يتوفاه ، أي حين يتوفاه على الإسلام ، وأن يلحقه بعباده الصالحين ، وهكذا كما يقال في الدعاء : « اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين » أي حين نتوفانا . اهـ كلام ابن كثير بتصرف .

أن يوسف أكله الذئب، وقول والدهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾^(١). (١: ٣٣٣).

ثم خبره جلّ جلاله عن مجيء السيارة ، وإرسالهم واردهم ، وإخراج الوارد يوسف وإعلامه أصحابه به بقوله: ﴿يَبْشُرِي هَذَا غُلَامٌ﴾ يبشرهم^(٢). (١: ٣٣٣).

وتحدث النساء بأمر يوسف وأمر امرأة العزيز بمصر ومرادتها إياه على نفسها فلم ينكتم ، وقلن: ﴿أَمْرَاتُ الْعَزِيزِ تَرْوِدُ فَدَنَّا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ قد وصل حب يوسف إلى شغاف قلبها فدخل تحته حتى غلب على قلبها. وشغاف القلب: غلافه وحجابه^(٣). (١: ٣٤٠).

حدثني سليمان بن عبد الجبار ، قال: حدثنا محمد بن الصلت ، قال: حدثنا أبو كُدَيْثَةَ ، عن حُصَيْن ، عن مجاهد ، عن ابن عباس: ﴿وَأَعْتَدْتُ لِمَنْ مَثَكَاوَأَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينًا﴾ ، قال: أعطتهن أترجًا ، وأعطت كل واحدة منهن سكينًا.

فلما فعلت امرأة العزيز ذلك بهنّ ، وقد أجلست يوسف في بيت ومجلس غير المجلس الذي هنّ فيه جلوس ، قالت ليوسف: ﴿أَخْرِجْ عَلَيْنَ﴾ ، فخرج يوسف عليهنّ ، فلما رأيته أجللته وأكبرته وأعظمته ، وقطعن أيديهن بالسكاكين التي في أيديهنّ ، وهن يحسبن أنهنّ يقطعن بها الأترج ، وقلن: معاذ الله ما هذا إنس ، ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾. فلما حلّ بهنّ ما حلّ من قطع أيديهن من أجل نظرة نظرهنها إلى يوسف وذهاب عقولهنّ ، وعرفتهنّ خطأ قيلهنّ: ﴿أَمْرَاتُ الْعَزِيزِ تَرْوِدُ فَدَنَّا عَنْ نَفْسِهِ﴾ ، وإنكارهنّ ما أنكرن من أمرها أقرت عند ذلك لهنّ بما كان من مرادتها إياه على نفسها ، فقالت: ﴿فَدَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاَسْتَعَصَمَ﴾ بعد ما حلّ سراويله^(٤). (١: ٣٤٠/٣٤١).

حدثنا ابن وكيع ، قال: حدثنا عمرو بن محمد ، عن أسباط ، عن السديّ: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ من الزنى ، واستغاث بربه عز وجلّ

(١) صحيح.

(٢) صحيح.

(٣) صحيح.

(٤) صحيح.

فقال: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾. فأخبر الله عز وجل أنه استجاب له دعاءه ، فصرف عنه كيدهن ونجاه من ركوب الفاحشة ، ثم بدا للعزیز من بعد ما رأى من الآيات ما رأى من قد القميص من الدُّبر ، وخمش في الوجه ، وقطع النسوة أيديهن وعلمه ببراءة يوسف مما قُرف به في ترك يوسف مطلقاً^(١). (١: ٣٤١).

فقيل: كان إحسانه ما حدثنا به إسحاق بن أبي إسرائيل ، قال: حدثنا خلف بن خليفة ، عن سلمة بن نبط ، عن الضحاك قال: سأل رجل الضحاك عن قوله: ﴿إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾: ما كان إحسانه؟ قال: كان إذا مرض إنسان في السجن قام عليه ، وإذا احتاج جمع له ، وإذا ضاق عليه المكان وسَّع له ، فقال لهما يوسف: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ﴾ في يومكما هذا ﴿إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ في اليقظة. فكره صلى الله عليه أن يعبر لهما ما سألاه عنه ، وأخذ في غير الذي سألا عنه لما في عبارة ما سألا عنه من المكروه على أحدهما فقال: ﴿يَصْدِحِي السِّجْنَ ءَازِبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾^(٢). (١: ٣٤٣).

حدثنا ابن وكيع ، قال: حدثنا ابن فضيل ، عن عمارة - يعني ابن القعقاع - عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله ، في الفتيين اللذين أتيا يوسف في الرؤيا إنما كانا تحالما ليختبراه ، فلما أوَّل رؤياهما قالَا: إنما كنا نلعب فقال: ﴿فُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ ثم قال لـ «نبو» - وهو الذي ظن يوسف أنه ناج منهما - : ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعني عند الملك ، وأخبره أني محبوس ظلماً ، ﴿فَأَنسَنُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ ، غفلة عرضت ليوسف من قبل الشيطان^(٣). (١: ٣٤٣/٣٤٤).

فحدثنا بشر بن معاذ ، قال: حدثنا يزيد ، قال: حدثنا سعيد ، عن قتادة ، ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ فالسمان المخاصيب ، والبقرات العجاف هُنَّ السنون المحول الجدوب. قوله: ﴿وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ أما الخضر

(١) صحيح.

(٢) صحيح.

(٣) صحيح.

فهنَّ السنون المخاصيب ، وأما اليابسات فهن الجدوب المحول^(١) . (١ : ٣٤٥) .

فلما أخبر يوسف نبو بتأويل ذلك ، أتى نبو الملك ، فأخبره بما قال له يوسف ، فعلم الملك أن الذي قال يوسف من ذلك حق ، قال : ائتوني به .

فحدثنا ابن وكيع ، قال : حدثنا عمرو ، عن أسباط ، عن السدي ، قال : لما أتى الملك رسوله فأخبره ، قال : ائتوني به ، فلما أتاه الرسول ودعاه إلى الملك أبى يوسف الخروج معه ، وقال : ﴿ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلُهُ مَا بِأَلِ الْيَسُوفِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾^(٢) . (١ : ٣٤٥ / ٣٤٦) .

قال السدي : قال ابن عباس : لو خرج يوسف يومئذ قبل أن يعلم الملك بشأنه ما زالت في نفس العزيز منه حاجة ، يقول : هذا الذي راود امرأتي . فلما رجع الرسول إلى الملك من عند يوسف جمع الملك أولئك النسوة ، فقال لهن : ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ! قلن - فيما حدثنا ابن وكيع ، قال : حدثنا عمرو ، عن أسباط ، عن السدي ، قال : لما قال الملك لهن : ﴿ مَا خَطَبُكُنَّ إِذْ رَاودْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ ؛ ولكن امرأة العزيز أخبرتنا أنها روادته عن نفسه ، ودخل معها البيت ، فقالت امرأة العزيز حينئذ : ﴿ الْفَنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ . فقال يوسف : ذلك هذا الفعل الذي فعلت من ترديدي رسول الملك بالرسالات التي أرسلت في شأن النسوة ، ليعلم أطفير سيدي ﴿ أَنِّي لَمْ أَخْنُهَا بِالْغَيْبِ ﴾ في زوجته راعيل ، ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾^(٣) . (١ : ٣٤٦) .

فلما تبين للملك عذر يوسف وأمانته قال : ﴿ ائْتُونِي بِهِءَ اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا ﴾ أُتِيَ به ﴿ كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ . فقال يوسف للملك : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ﴾^(٤) . (١ : ٣٤٧) .

فحدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد في قوله :

(١) صحيح .

(٢) صحيح .

(٣) معنى هذا التفسير صحيح إلا أن الأسماء (أطفير ، وراعي) لم ترد في خبر صحيح .

(٤) صحيح .

﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ قال: كان لفرعون خزائن كثيرة غير الطعام ، فسَلَّم سلطانه كله إليه ، وجعل القضاء إليه أمره ، وقضاؤه نافذ^(١) . (١ : ٣٤٧) .

حدثنا ابن وكيع ، قال: حدثنا عمرو ، عن أسباط ، عن السدي: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ قال: استعمله الملك على مصر ، وكان صاحبَ أمرها ، وكان يلي البيع والتجارة وأمرها كله ، فذلك قوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ . فلما ولي يوسف للملك خزائن أرضه واستقرَّ به القرار في عمله ، ومضت السنون السبع المخصصة التي كان يوسف أمرَ بترك ما في سنبل ما حصدوا من الزرع فيها فيه ، ودخلت السنون المجدبة وقحط الناس ، أجذبت بلاد فلسطين فيما أجذب من البلاد ، ولحق مكروه ذلك آل يعقوب في موضعهم الذي كانوا فيه ، فوجه يعقوب بنيه^(٢) . (١ : ٣٤٧ / ٣٤٨) .

وحدثنا ابن حميد ، قال: حدثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال: كان يوسف حين رأى ما أصاب الناس من الجهد قد آسى بينهم ، فكان لا يحمل للرجل إلا بعيراً واحداً ، ولا يحمل الواحد بعيرين تقسيطاً بين الناس ، وتوسيعاً عليهم ، فقدم عليه إخوته فيمن قدم عليه من الناس يلتمسون الميرة من مصر ، فعرفهم وهم له منكرون لما أراد الله تعالى أن يبلغ بيوسف فيما أراد . ثم أمر يوسف بأن يوقر لكل رجل من إخوته بعيره ، فقال لهم: اثنوني بأخيكم من أبيكم ، لأحمل لكم بعيراً آخر ، فتردادوا به حمل بعير: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ فلا أبخسه أحداً ، ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ . وأنا خير من أنزل ضيفاً على نفسه من الناس بهذه البلدة ، فأنا أضيفكم ﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِأَخِيكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ فَلَا طَعَامَ لَكُمْ عِنْدِي أَكِيلَهُ ، وَلَا تَقْرَبُوا بِلَادِي . وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ الَّذِينَ يَكِيلُونَ الطَّعَامَ لَهُمْ: ﴿أَجْعَلُوا يَضَعَهُمْ﴾ وهي ثمن الطعام الذي اشتروه به ﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾^(٣) . (١ : ٣٤٩) .

٢

حدثنا بشر ، قال: حدثنا يزيد بن زريع ، قال: حدثنا سعيد ، عن قتادة:

(١) صحيح .

(٢) صحيح .

(٣) إسناده ضعيف ومعناه صحيح في تفسيره للآيات .

﴿اجْعَلُوا يَضَعَنَّهُمْ فِي رَحْلِهِمْ﴾ ، أي وَرَقَهُمْ ، فجعلوا ذلك في رحالهم وهم لا يعلمون^(١) . (١ : ٣٤٩) .

فقال يعقوب : ﴿لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ يقول : إلا أن تهلكوا جميعاً ، فيكون حينئذ ذلك لكم عذراً عندي ، فلما وثقوا له بالإيمان قال يعقوب : ﴿اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾^(٢) . (١ : ٣٥١) .

ثم أوصاهم بعد ما أذن لأخيهم من أبيهم بالرحيل معهم ، ألا تدخلوا من باب واحد من أبواب المدينة خوفاً عليهم من العين ، وكانوا ذوي صورة حسنة ، وجمال وهيئة ، وأمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة ، كما حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، قال : حدثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن قتادة : ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ ، قال : كانوا قد أوتوا صورة وجمالاً ، فخشي عليهم أنفسهم الناس ، فقال الله تبارك وتعالى : ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ ، وكانت الحاجة التي في نفس يعقوب فقضاها ما تخوف على أولاده أعين الناس لهيئتهم وجمالهم^(٣) . (١ : ٣٥١) .

حدثنا الحسن بن محمد ، قال : حدثنا عفان ، قال : حدثنا عبد الواحد ، عن يونس ، عن الحسن أنه كان يقول : الضَّوَّاعِ والسَّقَايَةِ سواء ، هما الإناء الذي يشرب فيه ، وجعل ذلك في رَحْلِ أخيه ، والأخ لا يشعر فيما ذكر^(٤) . (١ : ٣٥٢) .

حدثنا ابن وكيع ، قال : حدثنا عمرو ، عن أسباط ، عن السدي : ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ ، والأخ لا يشعر ، فلما ارتحلوا أذن مؤذن قبل أن ترتحل العير : ﴿إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾^(٥) . (١ : ٣٥٢) .

حدثنا ابن وكيع ، قال : حدثنا عمرو ، عن أسباط ، عن السدي ، قال :

(١) صحيح .

(٢) صحيح .

(٣) صحيح .

(٤) صحيح .

(٥) صحيح .

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ (٧٦) قَالُوا: تأخذونه؛ فهو لكم. فبدأ يوسف بأوعية القوم قبل وعاء أخيه بنيامين، ففتشها ثم استخرجها من وعاء أخيه لأنه آخر تفتيشه^(١). (١: ٣٥٣/٣٥٤).

حدثنا الحسن بن محمد، قال: حدثنا شبابة، قال: حدثنا ورقاء، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: قوله: ﴿مَا كَانَ لِأَخِي أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ إلا بعلّة كادها الله له، فاعتلّ بها يوسف، فقال إخوة يوسف حينئذ: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يعنون بذلك يوسف^(٢). (١: ٣٥٤).

فلما رجعوا إلى أبيهم فأخبروه خبر بنيامين، وتخلّف روبيل قال لهم: بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً أردتموه، فصبّر جميل لا جزع فيه على ما نالني من فقد ولدي، عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً بيوسف وأخيه وروبييل.

ثم أعرض عنهم يعقوب وقال: ﴿يَتَأَسَفَنَّ عَلَى يُوسُفَ﴾ يقول الله عز وجل: ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾، مملوء من الحزن والغىظ. فقال له بنوه الذين انصرفوا إليه من مصر حين سمعوا قوله ذلك: تالله لا تزال تذكر يوسف فلا تفر من حبه وذكره حتى تكون دنف الجسم، مخبول العقل من حبه وذكره، هريماً بالياً أو تموت!

فأجابهم يعقوب فقال: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله لا إليكم، وأعلم من الله ما لا تعلمون من صدق رؤيا يوسف؛ أن تأويلها كائن، وأناي وأنتم سنسجد له^(٣). (١: ٣٥٧).

حدثنا ابن وكيع قال: حدثنا عمرو، عن أسباط، عن السدي، قال: لما قال لهم يوسف: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ اعتذروا وقالوا: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخُطِئِينَ﴾. قال لهم يوسف: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾. فلما عرفهم يوسف نفسه سألهم عن أبيه^(٤). (١: ٣٥٩).

(١) صحيح.

(٢) صحيح.

(٣) صحيح.

(٤) صحيح.

حدثنا ابن وكيع ، قال : حدثنا عمرو ، عن أسباط ، عن السدي ، قال : قال يوسف : ما فعل أبي بعدي ؟ قالوا : لما فاته بنيامين عمي من الحزن فقال : ﴿ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴿ عِيرَ بَنِي يَعْقُوبَ ، قال يعقوب : ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ (١) . (١ : ٣٥٩) .

حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، حدثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن قتادة : ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ قال : كانت تحية الناس أن يسجد بعضهم لبعض ، وقال يوسف لأبيه : ﴿ يَتَأْتَبَرُ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ ، يعني بذلك : هذا السجود منكم ، يدل على تأويل رؤياي التي رأيتها من قبل ، صنع إخوتي بي ما صنعوا ، وتلك الكواكب الأحد عشر والشمس والقمر ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ . يقول : قد حقق الرؤيا بمجيء تأويلها (٢) . (١ : ٣٦٢)

* * *

قصة الخضر وخبره وخبر موسى وفتاه يوشع عليه السلام

والذي روى أبي بن كعب في ذلك عنه ﷺ ما حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا يحيى بن آدم ، قال : حدثنا سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، عن سعيد ، قال : قلت لابن عباس : إن نوحاً يزعم أن الخضر ليس بصاحب موسى ، فقال : كذب عدو الله ، حدثنا أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ قال : إن موسى قام في بني إسرائيل خطيباً ف قيل : أي الناس أعلم ؟ فقال : أنا ، فعتب الله عليه حين لم يرد العلم إليه ، فقال : بل عبدٌ لي عند مجمع البحرين ، فقال : يارب ، كيف به قال : تأخذ حوتاً فتجعله في مكمل فحيث تفقده فهو هناك . قال : فأخذ حوتاً فجعله في مكمل ، ثم قال لفتاه : إذا فقدت هذا الحوت فأخبرني . فانطلقا يمشيان على ساحل البحر حتى أتيا صخرة ، فرقد موسى فاضطرب الحوت في المكمل ،

(١) صحيح .

(٢) صحيح .

فخرج فوق في البحر ، فأمسك الله عنه جَرِيَّةُ الماء فصار مثل الطاق ، فصار للحوث سرباً ، وكان لهما عجباً . ثم انطلقا ، فلما كان حين الغداء قال موسى لفته: ﴿ إِنَّا غَدَاؤُنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ قال: ولم يجد موسى النصب حتى جاوز حيث أمره الله ، قال: فقال: ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ قال: فقال: ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَأَرْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ . قال: يقصّان آثارهما . قال: فأتيا الصخرة ، فإذا رجل نائم مسجّى بثوبه ، فسلم عليه موسى فقال: وأنتي بأرضنا السلام! قال: أنا موسى ، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم ، قال: يا موسى ، إني على علم من علم الله ، علمنيه الله لا تعلمه ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه ، قال: فإنني أتبعك على أن تعلمني ممّا علّمت رُشداً . ﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ . فانطلقا يمشيان على الساحل ، فإذا بملاح في سفينة ، فعرف الخضر ، فحملة بغير نول ، فجاء عصفور فوق على حرفها فنقر - أو فنقد - في الماء ، فقال الخضر لموسى: ما ينقص علمي وعلمك من علم الله إلا مقدار ما نقر - أو نقد - هذا العصفور من البحر .

قال أبو جعفر: أنا أشكّ ، وهو في كتابي هذا «نقر» . قال: فبينما هم في السفينة لم يُفجأ موسى إلا وهو يتد وتد أو ينزع تختاً منها ، فقال له موسى: حملنا بغير نول وتخرقها لتغرق أهلها! ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴿ - قال فكانت الأولى من موسى نسياناً - قال: ثم خرجا فانطلق يمشيان فأبصرا غلاماً يلعب مع الغلمان ، فأخذ برأسه فقتله ، فقال له موسى: ﴿ أَقَلَّتْ نَفْسًا وَرَكِبَتُ بَغِيرَ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾ (٧١) ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ (٧٢) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿ .

فانطلقا حتى إذا أتيا أهلَ قرية استطعما أهلها ، فلم يجدا أحداً يطعمهم ولا يسقيهم ، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه بيده - قال: مسحه بيده - فقال له موسى: لم يُضيفونا ولم ينزلونا ، ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ . ﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ﴾ قال: فقال رسول الله ﷺ: «لوددت أنه كان صبر حتى يقصّ

علينا قصصهم»^(١). (١ : ٣٦٦ / ٣٦٧ / ٣٦٨)

حدثني العباس بن الوليد ، قال : أخبرني أبي قال : حدثنا الأوزاعي ، قال : حدثني الزهري ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، عن ابن عباس : أنه تمارى هو والحُرّ بن قيس بن حصن الفزاري في صاحب موسى ، فقال ابن عباس : هو الخضر ، فمرّ بهما أبي بن كعب ، فدعاه ابن عباس فقال : إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى عليه السلام الذي سأل السبيل إلى لقائه ، فهل سمعت رسول الله يذكر شأنه؟ قال : نعم إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «بينا موسى عليه السلام في ملأ من بني إسرائيل ، إذ جاءه رجل فقال : تعلم مكان أحد أعلم منك؟ قال موسى : لا ، فأوحى الله إلى موسى : بلى عبدنا الخضر ، فسأل موسى السبيل إلى لقائه ، فجعل الله الحوت آية ، وقال له : إذا افتقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه ، فكان موسى يتبع أثر الحوت في البحر ، فقال فتى موسى لموسى : ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ﴾ ، قال موسى : ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَأَرْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ ، فوجدا الخضر ، فكان من شأنهما ما قصَّ الله في كتابه»^(٢). (١ : ٣٦٨ / ٣٦٩).

حدثني محمد بن مرزوق قال : حدثنا حجاج بن المنهال ، قال : حدثنا عبد الله بن عمر النميري ، عن يونس بن يزيد ، قال : سمعت الزهري يحدث قال : أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، عن ابن عباس : أنه تمارى هو والحُرّ بن قيس بن حصن الفزاري في صاحب موسى ، فذكر نحو حديث العباس عن أبيه^(٣). (١ : ٣٦٩).

ثم رجع الحديث إلى حديث السدي. قال : ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً

(١) هذا إسناد صحيح والحديث صحيح ومن طريق سفيان هذا أخرجه البخاري مختصراً (ح ٤٧٢٥) ومطولاً (ح ٤٧٢٦) من طريق ابن جريج عن عمرو بن دينار به وسنأتي على ذكر الحديث بعد قليل.

(٢) هذا إسناد صحيح وأخرجه البخاري من طريق الأوزاعي به كما عند الطبري (صحيح البخاري/ كتاب العلم/ ح ٧٨) و(ح ٧٤٧٨).

(٣) صحيح ، وانظر ما قبله.

مِنْ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴿١﴾ يقول: كثرة من الناس يسقون^(١). (١ : ٣٩٧).

حدثني أحمد بن محمد الطوسي ، قال: حَدَّثَنَا الْحُمَيْدِيُّ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ الزَّبِيرِ ، قال: حَدَّثَنَا سَفْيَانٌ ، قال: حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ يَحْيَى بْنِ أَبِي يَعْقُوبَ ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ قال: «سألت جبرئيل: أيُّ الأجلين قضى موسى؟ قال: أتمهما وأكملهما»^(٢). (١ : ٣٩٩).

حدثنا ابن حميد ، قال: حَدَّثَنَا سلمة ، قال: حَدَّثَنِي ابن إسحاق ، عن حكيم بن جبير ، عن سعيد بن جبير ، قال: قال لي يهودي بالكوفة - وأنا أتجهز للحج -: إني أراك رجلاً يتبع العلم ، أخبرني أيُّ الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أعلم وأنا الآن قادم على حَبْرِ العرب - يعني ابن عباس - فسأله عن ذلك ، فلما قدمت مكة سألت ابن عباس عن ذلك وأخبرته بقول اليهودي ، فقال ابن عباس: قضى أكثرهما وأطيبهما؛ إن النبي إذا وعد لم يخلف. قال سعيد: فقدمت العراق فلقيت اليهودي فأخبرته ، فقال: صدق وما أنزل الله على موسى. هذا والله العالم^(٣). (١ : ٣٩٩)

(١) صحيح.

(٢) في إسناده إبراهيم بن يحيى بن أبي يعقوب ، قال الحافظ في ترجمته عن الحكم بن أبان وعنه سفيان بن عيينة بخبر منكر والرجل نكرة وحديثه عن الحميدي وهذا الرجل ذكره ابن حبان في الثقات (لسان الميزان/ ترجمة ٣٨١).

قلنا: ومن طريق إبراهيم هذا أخرجه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس (أن النبي ﷺ سأل جبريل أي الأجلين قضى موسى قال: أتمهما) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه (المستدرك ٤٠٧/٢).

وأخرجه البزار من طريق أحمد بن أبان القرشي عن سفيان عن إبراهيم بن أعين عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعاً ، وقال البزار: لا نعرفه مرفوعاً عن ابن عباس إلا من هذا الوجه (كشف الأستار عن زوائد البزار ٦٣/٣).

وأخرج الخطيب عن أبي ذر مرفوعاً: (إذا سُئِلْتُ أيُّ الأجلين قضى موسى؟ فقل: خيرهما وأبرهما... الحديث) (تاريخ بغداد ١٢٨/٢) وفي إسناده عوبد بن أبي عمران متروك.

وللحديث طرق أخرى مرسلة وموقوفة تتعارض بها جميعاً كما سنذكر بعد الروايتين التاليتين: (٣) هذا إسناده ضعيف إلا أن المتن صحيح موقوفاً كما أخرجه البخاري في طريقه من طريق سالم الأفتس عن سعيد بن جبير قال: سألتني يهودي من أهل الحيرة أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله فقدمت ابن عباس فقال: قضى أكثرهما =

فنودي: ﴿يَمُوسَىٰ إِنَّكَ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينِكَ يَمُوسَىٰ﴾ ١٧ ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنِيٍّ﴾ ، يقول: أضرب بها الورق ، فيقع للغنم من الشجر ﴿وَلِي فِيهَا مَنَارِبٌ أُخْرَى﴾ ، يقول: حوائج أخرى أحمل عليها المزود والسقاء ، فقال له: ﴿أَلْفَهَا يَمُوسَىٰ﴾ ١٨ ﴿فَالْقَهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ ، ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا نَهَزَتْ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ ، يقول: لم ينتظر. فنودي: ﴿يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسُولِ﴾ ، ﴿أَقِيلْ وَلَا تَحَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ﴾ ﴿وَأَضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ﴾ العصا واليد آيتان ، فذلك حين يدعو موسى ربه ، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ ١٩ ﴿وَإِخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ ، يقول: كيما يصدقني ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ قال: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ - يعني بالقتل - ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَجَعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ - والسلطان الحجة - ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّدِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ ، ﴿فَاتَّبَعُوا قَوْلًا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٢٠ (١: ٤٠٠/٤٠١).

ولما جاوز بني إسرائيل البحر أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، ﴿قَالُوا

= وأطيعهما إن رسول الله إذا قال فعل (صحيح البخاري/ ح ٢٦٨٤).

وإليك أقوال أئمة الحديث في هذه المسألة:

قال الحافظ ابن حجر بعد شرحه للحديث (٢٦٨٤): وهو في حكم المرفوع لأن ابن عباس كان لا يعتمد على أهل الكتاب كما سيأتي بيانه في الباب الذي يليه (٥/٢٢٧/ ط. دار الفكر).

وقال الحافظ ابن كثير: فهذه طرق متعاضدة (تفسير القرآن العظيم ٢٦٥٦/ ط. المنار). وقال الإمام الشوكاني: بعد سرده لبعض طرق الحديث: وأما روايات أنه قضى أتم الأجلين فلها طرق يقوي بعضها بعضاً (فتح القدير ٤/٢٠٦).

أما من المعاصرين فقد رجح الشيخ عبد الرزاق المهدي وقفه (أحكام القرآن/ ١٧١٦). وأما المحدث الألباني فقد ذكر طرق الحديث وبين ضعف أسانيدھا وذكر المرسل منها والموقوف والمرفوع ثم قال: فهذه طرق تتعاضد كما قال ابن كثير في تفسيره (٦/٣٣٥) فالحديث قوي. وقد رواه ابن جرير بسند صحيح عن ابن عباس موقوفاً فهو من يقوي المرفوع لأنه في حكمه والله أعلم (السلسلة الصحيحة ح ١٨٨٠) قلنا: والقول ما قاله الألباني إلا أنه لم يذكر أن البخاري أخرجه كذلك موقوفاً عن ابن عباس (ح ٢٦٨٤) والله أعلم.

(١) صحيح.

يَمُوسَى أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَنَطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٨﴾ قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغْيَيْكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٩﴾ وواعد الله موسى حين أهلك فرعون وقومه ونجاه وقومه ثلاثين ليلة^(١). (١: ٤٢١).

(١) صحيح.

لقد ذكرنا الرواية (١/٤٢٣ / ق ٦٧٧) في قسم الضعيف فإسناده لا يستقيم وفي منته نكارة وهو خبر طويل يتضمن تفسير بعض الآيات في قصة موسى عليه السلام إلا أن جزءاً منه يسيراً (في بداية الخبر) من مكان الحسن - وقد أخرجه الطبري موقوفاً على ابن عباس أنه قال: (تجلى منه مثل طرف الخضر فجعل الجبل دكا وخر موسى صعباً).

فقد أخرج الترمذي من طريق عبد الله بن عبد الرحمن أخبرنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾.

قال حماد هكذا وأمسك سليمان بطرف إبهامه على أنملة إصبعه اليمنى ، قال: فساخ الجبل ﴿وَاخْرَجَ مُوسَى صَعْبًا﴾ قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب صحيح لا نعرفه إلا من حديث حماد بن سلمة حدثنا عبد الوهاب الوراق البغدادي ، حدثنا معاذ عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس عن النبي ﷺ نحوه ، هذا حديث حسن . ١ هـ . (سنن الترمذي / كتاب تفسير القرآن / ح ٣٠٧٤).

وأخرجه الحاكم من طريقين عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس مرفوعاً وفيه قال حماد هكذا ووضع الإبهام على مفصل الخنصر الأيمن قال فقال حميد لثابت: تحدث بمثل هذا قال: فضرب ثابت صدر حميد ضربة بيده وقال رسول الله ﷺ يحدث به وأنا لا أحدث به .

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم (المستدرک ٢/ ٣٢٠) والحديث أخرجه الطبري في تفسيره (ح ١٥٠٧٨) و(ح ١٥٠٨٨) وأخرجه أحمد من طريق معاذ بن معاذ العنبري قال: حدثنا حماد بن سلمة حدثنا ثابت عن أنس مرفوعاً (المسند ح ١٢٢٦٠).

قلنا: وإسناده حسن صحيح . وقال العلامة أرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد بن سلمة فمن رجال مسلم . ١ هـ .

والحديث ذكره ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ١٢٢) وأما ابن عدي (٦١/ ٤٣٠) فقد عده من غرائب حماد بن سلمة ، وأما من المعاصرين فقد صححه العلامة أرناؤوط كما ترى وكذلك صححه المحدث الألباني (كما في صحيح سنن الترمذي) وأما الشيخ عبد الرزاق المهدي فضعفه وقال: ومع ذلك ذكره الألباني في صحيح الترمذي جرياً منه على ظاهر الإسناد والذي أراه أنه معلول لكن لا يتهى الحكم عليه بالوضع . وقد ورد من وجه آخر أخرجه الطبري (١٥٠٩٦). عن الأعمش عن رجل عن أنس وهذا إسناد ضعيف فيه راو لم =

فلما كلم الله موسى طمع في رؤيته ، فسأل ربه أن ينظر إليه ، فقال له : إِنَّكَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ ﴿١﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

ثم قال الله لموسى : ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ سَأُورِيكَ دَارَ الْفَلْسَفِينَ ﴾ . وقال له : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمْوَسَّى ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ فَارْجِعْ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبَيْنَ أَسْفَى ﴾ ، ومعه عهد الله في ألواح .

ولما انتهى موسى إلى قومه فرأى ما هم فيه من عبادة العجل ألقى الألواح من يده ، وكانت - فيما يذكرون - من زبرجد أخضر ، ثم أخذ برأس أخيه ولحيته ويقول : ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿١٦﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَلَمْ تَرْفُقْ قَوْلِي ﴾ . فقال : ﴿ أَبْنَأَمْ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتُ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلَنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ، فارعوى موسى وقال : ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

وأقبل علي قومه فقال : ﴿ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ ﴾ . وأقبل على السامري فقال : ﴿ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمِرِيُّ ﴿١٧﴾ ﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ . ثم أخذ الألواح ، يقول الله : ﴿ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي سُخْرِيهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ ^(١) . (١ : ٤٢٦ / ٤٢٧) .

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا مصعب بن المقدام ، عن حماد بن سلمة ، عن عمار بن أبي عمار ، مولى بني هاشم ، عن أبي هريرة ، قال : قال

= يُسَمِّى فَالْحَدِيثُ غَيْرُ قَوِيٍّ وَمَعَ ذَلِكَ فَلْيُحَرَّرْ (حاشية فتح القدير ٢/ ٢٩٩) .

قلنا : وما ذهب إليه الترمذي والحاكم وغيرهما من المتقدمين ثم الألباني وأرناؤوط من المعاصرين هو الأرجح . . . وحماد لم ينفرد بهذا الحديث فقد أخرج نحوه ابن أبي عاصم (٤٨٢) من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس وابن منده من طريق أحمد محمد الصيد عن سعيد بن عامر عن ثابت عن أنس وقال غريب من حديث شعبة (الرد على الجهمية/ ٥٩) .

قلنا : وفي إسناده أحمد الصيد مجهول الحال فهذان طريقان يضاف إليهما طريق الأعمش الضعيف فهي طرق تتعاضد جميعاً ليرتفع الحديث إلى الحسن إن شاء الله والله تعالى أعلم .

رسول الله ﷺ: «إن ملك الموت كان يأتي الناس عياناً حتى أتى موسى فلطمه ففقأ عينه ، قال: فرجع فقال: يا ربَّ إنَّ عبدك موسى فقأ عيني ، ولولا كرامته عليك لشققت عليه ، فقال: ائت عبيدي موسى ، فقل له: فليضع كفه على متن ثور ، فله بكل شعرة وارت يده سنة ؛ وخيِّره بين ذلك وبين أن يموت الآن ، قال: فأتاه فخيِّره ، فقال له موسى: فما بعد ذلك؟ قال: الموت ، قال: فالآن إذا ، قال: فسَمِّه شمة قبض روحه . قال: فجاء بعد ذلك إلى الناس خُفية»^(١) . (١: ٤٣٤) .

(١) هذا إسناد حسن صحيح وحماة ثقة إلا أن له أوهاماً وهو أعلم الناس بحديث ثابت وحميد الطويل تجنبه البخاري وقال الحاكم: ما خرَّج مسلم لحماة بن سلمة في الأصول إلا من حديثه عن ثابت وقد خرَّج له في الشواهد عن طائفة (وانظر ميزان الاعتدال ، ترجمة ٢٢٥١) . قلنا: ولعلَّ ما في الحديث من غرابة من أوهام حماد ونعني بذلك عبارة (كان ملك الموت يأتي الناس عياناً) وإلا فبقية الحديث صحيح أخرجه البخاري عن أبي هريرة (ح ٣٤٠٧) ولفظه: (أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام ، فلما جاءه صكه ، فرجع إلى ربه فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت قال: ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور فله بما غطى يده بكل شعرة سنة . قال أي رب ثم ماذا؟ قال: ثم الموت قال فالآن . قال فسأل الله أن يدينه من الأرض المقدسة .

قال أبو هريرة رضي الله عنه فقال رسول الله ﷺ: «لو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر» قال: وأخبرنا معمر عن همام حدثنا أبو هريرة عن النبي ﷺ نحوه . اهـ .

وقال الحافظ ابن حجر تعليقاً على هذه الرواية قوله (قال وأخبرنا معمر عن همام . . . الخ) هو موصول بالإسناد المذكور ، ووه من قال إنه معلق فقد أخرجه أحمد عن عبد الرزاق عن معمر ، ومسلم عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق كذلك (فتح الباري ٧/ ١٠٤) .

قلنا: وأما حديث أحمد فهو في مسند أبي هريرة (ح ١٠٩٠٤) وقال الشيخ أرناؤوط: رجاله رجال الصحيح وفي أوله نكارة وهي قوله (كان ملك الموت يأتي الناس عياناً) وهذه اللفظة تفرد بها عمار بن أبي عمار وعنه حماد بن سلمة ولكل منهما بعض المناكير . اهـ .

قلنا: وأما حديث عبد الرزاق مرفوعاً ، فهو كذلك من حديث أبي هريرة (ح ٢٠٥٣٠) وأما مسلم فقد رواه موقوفاً (١٥٧/ ح ٢٣٧٢) مرفوعاً والحديث أخرجه الحاكم وصححه على شرط مسلم (المستدرک ٢/ ٥٧٨) وأخرجه أحمد (ح ٨١٧٢) من طريق همام عن أبي هريرة مرفوعاً وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد مرفوعاً كما عند الطبري (كان ملك الموت يأتي الناس عياناً . . . الحديث وفي آخره فكان يأتي الناس خفية) .

وقال الهيثمي: في الصحيح طرف منه رواه أحمد والبخاري ورجال الصحيح / مجمع الزوائد (٨/ ٢٠٤ ح ١٣٧٨٣) .

نبي الله موسى
عليه السلام

لقد استشهد الطبري رحمه الله بالآيات القرآنية وفسرها بياناً لقصة موسى عليه السلام ولكنه رحمه الله خلط التفسير بالإسرائيليات وآثرنا هنا أن نذكر تفسير ابن كثير لهذه الآيات (كما في البداية والنهاية) بعد أن حذفنا الإسرائيليات واختصرنا والله الحمد.
قال الحافظ ابن كثير:

وهو موسى بن عمران ، قال تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۖ وَنَذَيْنَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرَيْنَهُ يَمِينًا ۖ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ۖ ﴾ [مريم : ٥١ - ٥٣] .
وقد ذكره الله تعالى في مواضع كثيرة متفرقة من القرآن . وذكر قصته في مواضع متعددة مبسطة وغير مطولة . وقد تكلمنا على ذلك كله في مواضعه من التفسير . وسنورد سيرته هاهنا من ابتدائها إلى آخرها من الكتاب والسنة . وما ورد في الآثار المنقولة من الإسرائيليات التي ذكرها السلف وغيرهم إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان . [قلنا هكذا قال ابن كثير ، ولكننا حذفنا ما ذكره ابن كثير من الإسرائيليات أثناء تفسيره للآيات الواردة في قصة موسى عليه السلام وبني قومه] .

قال الله تعالى : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ طَسَمَ ۖ تِلْكَ ۖ إِنَّمَا أَتَىٰ الْكُتُبَ الْمُبِينِ ۖ ﴾ تَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۖ ﴿٢﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَذِخُّ أُنْيَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانَتْ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۖ ﴿١﴾ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَىٰ الَّذِيكَ اسْتَضِعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۖ ﴿٢﴾ وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَهُؤُلَاءِ مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۖ ﴾ [القصص : ١ - ٦] . يذكر تعالى ملخص القصة ثم يسطرها بعد هذا ، فذكر أنه يتلو على نبيه خبر موسى وفرعون بالحق ، أي بالصدق الذي كأن سامعه مشاهد للأمر معين له .

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ أي تجبر وعتا وطغى وبغى ، وأثر الحياة الدنيا ، وأعرض عن طاعة الرب الأعلى ، وجعل أهلها شيعاً ، أي قسم رعيته إلى أقسام ، وفرق وأنواع ، يستضعف طائفة منهم ، وهم شعب بني إسرائيل الذين هم من سلالة نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله . وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض . وقد سلط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر الفاجر ، يستعبدهم ويستخدمهم في أحسن الصنائع والحرف وأرداها وأدناها ومع هذا ﴿ يَذِخُّ أُنْيَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانَتْ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح أن بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرونه عن إبراهيم عليه السلام ، من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه وذلك - والله أعلم - حين كان جرى على سارة امرأة الخليل من ملك مصر من إرادته إياها =

على السوء وعصمة الله لها . وكانت هذه البشارة مشهورة في بني إسرائيل ، فتحدث بها القبط فيما بينهم ، ووصلت إلى فرعون فذكرها له بعض أمرائه وأساورته وهم يسمرون عنده ، فأمر عند ذلك بقتل أبناء بني إسرائيل ، حذراً من وجود هذا الغلام ، ولن يغني حذر من قدر ! . ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ وهم بنو إسرائيل ، ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ آيَةً وَيَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ أي الذين يؤول ملك مصر وبلادها إليهم : ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ أي سنجعل الضعيف قوياً والمقهور قاهراً والدليل عزيزاً ، وقد جرى هذا كله لبني إسرائيل ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْثَقْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعْرِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ وَكُنُوزٍ وَمَقَارٍ كَثِيرٍ ۖ وَآَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ وسيأتي تفصيل ذلك في موضعه إن شاء الله .

[قتل غلمان بني إسرائيل]:

والمقصود أن فرعون احترز كل الاحتراز ألا يوجد موسى ، حتى جعل رجالاً وقوابل يدورون على الحبالى ، ويعلمون ميقات وضعهن ، فلا تلد امرأة ذكراً إلا ذبحه أولئك الذباحون من ساعته .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُمْ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾ ولهذا قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِنَا مِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ فالصحيح أن فرعون إنما أمر بقتل الغلمان أولاً ، حذراً من وجود موسى .

[طفولة موسى في بيت فرعون]:

قال الله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنِ إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ٧ ﴿ فَالْقَطْعَةُ ۖ ءَالَ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ ٨ ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الفصل: ٧ - ٩] .

هذا الوحي وحي إلهام وإرشاد كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ اللَّبَالِ يُونًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ ١٥ ﴿ ثُمَّ كُنِيَ مِنْ كُلِّ الْاَثَرِ فَاسْتَكْبَرْتَ فَاسْتَكْبَرْتَ سُبُلَ رَبِّكَ ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا . . . ﴾ الآية . وليس هو بوحى نبوة كما زعمه ابن حزم وغير واحد من المتكلمين بل الصحيح الأول ، كما حكاه أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة والجماعة .

والمقصود أنها أرشدت إلى هذا الذي ذكرناه ، وألقي في خلدها وروعها ألا تخافي ولا تحزني ، فإنه إن ذهب فإن الله سيرده لك ، وإن الله سيجعله نبياً مرسلًا ، يعلي كلمته في الدنيا والآخرة ، فكانت تصنع ما أمرت به فذهب مع النيل فمر على دار فرعون ﴿ فَالْقَطْعَةُ ۖ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ قال بعضهم : هذه (لام) العاقبة ، وهو ظاهر إن كان متعلقاً بقوله ﴿ فَالْقَطْعَةُ ۖ ﴾ وأما إن جعل متعلقاً بمضمون الكلام ، وهو آل =

فرعون قبضوا لالتقاطه ليكون لهم عدواً وحزناً ، وصارت اللام معللة كغيرها . . والله أعلم .
ويقوي هذا التقدير الثاني قوله : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَزْنٌ ﴾ وهو الوزير السوء ﴿ وَخُنُودُهُمَا ﴾
تابعين لهما ﴿ كَانُوا خَطِيئِينَ ﴾ أي كانوا على خلاف الصواب ، فاستحقوا هذه العقوبة
والحسرة .

فلما رآته ووقع نظرها عليه أحبته حباً شديداً ، فلما جاء فرعون قال : ما هذا؟ وأمر بذبحه ،
فاستوهبته منه ودفعت عنه وقالت : ﴿ فَرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ ﴾ .

وقولها : ﴿ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا ﴾ قد أنالها الله ما رجت من النفع ، أما في الدنيا فهداها الله به ، وأما
في الآخرة فأسكنها جنته بسببه : ﴿ أَوْ نَتَّخِذْهُمُ وَكْدًا ﴾ وذلك أنهما تبنياه ، لأنه لم يكن يولد لهما
ولد ، قال الله تعالى : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ . أي لا يدرون ماذا يريد الله بهم ، أن قبضهم
لالتقاطه ، من النعمة العظيمة بفرعون وجنوده؟

قال الله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرَجًا ۚ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا
لَتَكُونُ مِنَ الْأَلْمُذِينَ ۝١٠ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١
وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ ۝١٢
فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أَبِيهِ كَي تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَلِنَعْلَمَ أَنَّكَ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرُهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص: ١٠ - ١٣] .

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو عبيدة والحسن وقتادة والضحاك
وغيرهم : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرَجًا ﴾ أي من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى ﴿ إِن
كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ أي لتظهر أمره وتسأل عنه جهره ﴿ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ أي
صبرناها وثبتناها ﴿ لَتَكُونُ مِنَ الْأَلْمُذِينَ ۝١٠ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ ﴾ وهي ابنتها الكبيرة : ﴿ قُصِّيهِ ﴾
أي اتبعي أثره واطلبي لي خبره ﴿ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ ﴾ قال مجاهد : عن بعد . وقال قتادة :
جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده . ولهذا قال : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ وذلك لأن موسى عليه
السلام لما استقر بدار فرعون أرادوا أن يغذوه برضاعة فلم يقبل ثدياً ولا أخذ طعاماً ، فحاروا
في أمره ، واجتهدوا على تغذيته بكل ممكن فلم يفعل ، كما قال تعالى : ﴿ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ
الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ فأرسلوه مع القوايل والنساء إلى السوق ، لعلهم يجدون من يوافق رضاعته .
فبينما هم وقوف به والنساء عكوف عليه إذ بصرت به أخته ، فلم تظهر أنها تعرفه بل قالت :
﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ ﴾ .

فأطلقوها وذهبوا معها إلى منزلهم ، فأخذته أمه ، فلما أرضعته التقم ثديها وأخذ يمتصه
ويرتضعه ، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً ، وذهب البشير إلى «اسية» يعلمها بذلك ، فاستدعتها
إلى منزلها وعرضت عليها أن تكون عندها ، وأن تحسن إليها .

فرجعت به تحوزه إلى رحلها ، وقد جمع الله شمله بشملها .

قال الله تعالى : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أَبِيهِ كَي تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَلِنَعْلَمَ أَنَّكَ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي كما =

وعدها برده ورسالته ، فهذا رده ، وهو دليل على صدق البشارة برسالته ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقد امتن على موسى بهذا ليلة كلمه ، فقال له فيما قال : ﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٧٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَى ﴿٧٨﴾ أَنْ أَقْرِضْنِي فِي الثَّابُوتِ فَأَقْرِضْنِي فِي الْيَمِّ فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوُّكَ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِّنِّي ﴾ وذلك أنه كان لا يراه أحد إلا أحبه ﴿ وَلْيَصْنَعْ عَلَيَّ عَيْتِي ﴾ قال قتادة وغير واحد من السلف : أي تطعم وترفه وتغذى بأطيب المأكَل ، وتلبس أحسن الملابس بمرأى مني ، وذلك كله بحفظي وكلاءتي لك فيما صنعت بك ولك ، وقدرته من الأمور التي لا يقدر عليها غيره . ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَلَلْتَ فَنَسَاءً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨١﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَىٰ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿٨٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨٣﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القصص : ١٤ - ١٧] .

لما ذكر تعالى أنه أنعم على أمه برده لها وإحسانه بذلك وامتنانه عليها ، شرع في ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى ، وهو احتكام الخلق والخلق ، وهو سن الأربعين في قول الأكثرين ، أتاه الله حكماً وعِلماً ، وهو النبوة والرسالة التي كان بشر بها أمه حين قال : ﴿ إِنَّا رَاوُوهُ إِلَيْكُ وَجَاءَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .
[إقامة موسى في مدين] :

ثم شرع في ذكر سبب خروجه من بلاد مصر ، وذهابه إلى أرض مدين وإقامته هنالك ، حتى كمل الأجل وانقضى الأمد ، وكان ما كان من كلام الله له ، وإكرامه بما أكرمه به ، كما سيأتي . قال تعالى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة وقاتدة والسدي : وذلك نصف النهار ، وعن ابن عباس : بين العشاءين . ﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴾ أي يتضاربان ويتهاوشان ﴿ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ ﴾ أي إسرائيلي ﴿ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ أي قبطي . قاله ابن عباس وقاتدة والسدي ومحمد بن إسحاق .

﴿ فَاسْتَغْنَىٰ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ وذلك أن موسى عليه السلام ، كانت له بديار مصر صولة ، بسبب نسبته إلى تبني فرعون له وتربيته في بيته ، وكان بنو إسرائيل قد عزّوا وصارت لهم وجاهة ، وارتفعت رؤوسهم بسبب أنهم أرضعوه ، وهم أحواله - أي من الرضاعة - فلما استغاث ذلك الإسرائيلي موسى عليه السلام على ذلك القبطي أقبل إليه موسى ﴿ فَوَكَرَهُ ﴾ قال مجاهد : أي طعنه بجمع كفه ، ﴿ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أي فمات منها .

وقد كان ذلك القبطي كافراً مشركاً بالله العظيم ، ولم يرد موسى قتله بالكلية ، وإنما أراد =

زجره وردعه ، ومع هذا ﴿ قَالَ ﴾ موسى : ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ (١٧) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُمْ هُمُ الْغَافِرُونَ الرَّحِيمُ ﴾ (١٨) قَالَ رَبِّ يَمَّا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ أَيُّ مِنَ الْعِزِّ وَالْجَاهِ ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ .

﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اِسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ (١٩) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَّى أَرِيدُ أَنْ نَقْتُلَنَّكَ كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ (٢٠) وَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمْوَسَّى إِنَّكَ أَلَمَّا لَأَتَمُرُونَ بِكَ لِتَقْتُلُوهُ فَأَخْرَجَ إِلَيَّ لَكَ مِنَ النَّصِيحَةِ ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص : ١٨ - ٢١] .

يخبر تعالى أن موسى أصبح بمدينة مصر خائفاً - أي من فرعون وملئه - أن يعلموا أن هذا القتل الذي رفع إليه أمره ، إنما قتله موسى في نصرة رجل من بني إسرائيل ، فتقوى ظنونهم أن موسى منهم ، ويترتب على ذلك أمر عظيم .

فصار يسير في المدينة في صبيحة ذلك اليوم ﴿ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ أي يتلفت ، فبينما هو كذلك ، إذ ذلك الرجل الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس يستصرخه ، أي يصرخ به ويستغيثه على آخر قد قتله ، فعنفه موسى ولامه على كثرة شره ومخاصمته ، قال له : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ ثم أراد أن يبطش بذلك القبطي ، الذي هو عدو لموسى وللإسرائيلي ، فبرده عنه ويخلصه منه ، فلما عزم على ذلك وأقبل على القبطي ﴿ قَالَ يَمْوَسَّى أَرِيدُ أَنْ نَقْتُلَنَّكَ كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ .

قال بعضهم : إنما قال هذا الكلام الإسرائيلي الذي اطلع على ما صنع موسى بالأمس ، وكأنه لما رأى موسى مقبلاً إلى القبطي اعتقد أنه جاء إليه ، لما عنفه قبل ذلك بقوله : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ فقال ما قال لموسى ، وأظهر الأمر الذي كان وقع بالأمس . فذهب القبطي فاستعدي فرعون على موسى . وهذا الذي لم يذكر كثير من الناس سواه . ويحتمل أن قاتل هذا هو القبطي ، وأنه لما رآه مقبلاً إليه خافه ، ورأى من سجيته انتصاراً جديداً للإسرائيلي . فقال ما قال من باب الظن والفراسة : إن هذا لعله قاتل ذلك القتل بالأمس ، أو لعله فهم من كلام الإسرائيلي حين استصرخه عليه ما دله على هذا ، والله أعلم .

والمقصود أن فرعون بلغه أن موسى هو قاتل ذلك المقتول بالأمس فأرسل في طلبه ، وسبقهم رجل ناصح من طريق أقرب . ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ أَقْصَا الْمَدِينَةِ ﴾ ساعياً إليه مشفقاً عليه فقال : ﴿ يَمْوَسَّى إِنَّكَ أَلَمَّا لَأَتَمُرُونَ بِكَ لِتَقْتُلُوهُ فَأَخْرَجَ ﴾ أي من هذه البلدة ﴿ إِلَيَّ لَكَ مِنَ النَّصِيحَةِ ﴾ أي فيما أقوله لك .

قال الله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ أي فخرج من مدينة مصر من فوره على وجهه لا يهتدي إلى طريق ولا يعرفه ، قائلاً : ﴿ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢٢) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (٢٣) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّكَاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ

دُونَهُمْ أَمْرَاتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا سَقَىٰ حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٢﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٣﴾ [القصص: ٢١ - ٢٤] .

يخبر تعالى عن خروج عبده ورسوله وكليمه من مصر خائفاً يترقب ، أي يتلفت ، وخشية أن يدركه أحد من قوم فرعون ، وهو لا يدري أين يتوجه ، ولا إلى أين يذهب ، وذلك لأنه لم يخرج من مصر قبلها . ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاءَ مَذْيَكٍ ﴾ أي اتجه له طريق يذهب فيه ، ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَفِيتَ أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أي عسى أن تكون هذه الطريق موصلة إلى المقصود ، وكذا وقع ، فقد أوصلته إلى مقصود وأي مقصود .

[اتصاله بالابنتين وأبيهما الشيخ]:

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَذْيَكٍ ﴾ وكانت بئراً يسقون منها ، ومدين هي المدينة التي أهلك الله فيها أصحاب الأيكة ، وهم قوم شعيب عليه السلام ، وقد كان هلاكهم قبل زمن موسى عليه السلام في أحد قولي العلماء . ولما ورد الماء المذكور ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أَمَةً تَبْكُ أَلْتَابَسُ يُسْقَوْنَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ أَمْرَاتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ أي تكففان عنهما غنهما أن تختلط بغنم الناس . ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا سَقَىٰ حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ أي لا نقدر على ورود الماء إلا بعد صدور الرعاء ، لضعفنا ، وسبب مباشرتنا هذه الرعية ضعف أبينا وكبره . قال الله تعالى: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ .

قال المفسرون: وذلك أن الرعاء كانوا إذا فرغوا من وزدهم ، وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة ، فتجيء هاتان المرأتان فيشرعان غنهما في فضل أغنام الناس ، فلما كان ذلك اليوم جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده ، ثم استقى لهما وسقى غنهما ، ثم رد الحجر كما كان قال أمير المؤمنين عمر: وكان لا يرفعه إلا عشرة ، وإنما استقى ذنوباً واحداً فكفاهما . ثم تولى إلى الظل ، ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ .

﴿ فَجَاءَهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ آتِي بِدُعُوكَ لِجَبْرِيكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْتِيَنَّكَ اسْتِجْرَاءُ تَبْكُ خَيْرٌ مِمَّا اسْتِجْرَتْ الْأُمَمُ ﴿٢٥﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَ بِكَ بِإِذْنِ رَبِّكَ أَنْ نَبْتَغِيَّكَ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجْرًا فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّادِقِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [القصص: ٢٥ - ٢٨] .

لما جلس موسى عليه السلام في الظل وقال: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ فذهبتا إلى أبيهما فأخبرتا بما كان من أمر موسى عليه السلام . فأمر إحداهما ، أن تذهب إليه فتدعوه : ﴿ فَجَاءَهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾ أي مشي الحرائر ، ﴿ قَالَتْ إِنَّكِ آتِي بِدُعُوكَ لِجَبْرِيكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ صرحت بهذا لئلا يوهم كلامها ريبة ، وهذا من تمام حياتها وصيانتها : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ ﴾ وأخبره خبره وما كان من أمره في خروجه من بلاد مصر فراراً من =

فرعونها: ﴿قَالَ﴾ له ذلك الشيخ: ﴿لَا تَخَفْ نَحَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي خرجت من سلطانهم فلست في دولتهم.

وقد اختلفوا في هذا الشيخ من هو؟ ف قيل: هو شعيب عليه السلام. وهذا هو المشهور عند كثيرين، وممن نص عليه الحسن البصري ومالك بن أنس، وجاء مصرحاً به في حديث، ولكن في إسناده نظر. وصرح طائفة بأن شعيباً عليه السلام عاش عمراً طويلاً بعد هلاك قومه، حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوج بابنته.

روى ابن أبي حاتم وغيره عن الحسن البصري: أن صاحب موسى عليه السلام هذا، اسمه شعيب، وكان سيد الماء، ولكن ليس بالنبي صاحب مدين.

والمقصود: أنه لما أضافه وأكرم مثواه، وقص عليه ما كان من أمره بشره بأنه قد نجا، فعند ذلك قالت إحدى البنتين لأبيها: ﴿يَتَأْتِي أَسْتَجِرَّةً﴾ أي لرعي غنمك، ثم مدحته بأنه قوي أمين.

قال ابن مسعود: أفرس الناس ثلاثة: صاحب يوسف حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ وصاحبة موسى حين قالت: ﴿يَتَأْتِي أَسْتَجِرَّةً إِنَّكَ خَيْرٌ مِّنْ أَسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب.

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَبِجٌّ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

استدل بهذه جماعة من أصحاب أبي حنيفة رحمه الله، على صحة ما إذا باعه أحد هذين العبدین أو الثوبین ونحو ذلك، أن يصح، لقوله: ﴿إِحْدَى ابْنَتَي هَتَيْنِ﴾. وفي هذا نظر، لأن هذه مروضة لا معاقدة. والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَةَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ يقول: إن موسى قال لصهره: الأمر على ما قلت، فأيهما قضيت فلا عدوان عليّ، والله على مقالتنا سامع وشاهد، ووكيل عليّ وعليك، ومع هذا فلم يقضي موسى إلا أكمل الأجلين وأتمهما وهو العشر سنين كوامل تامة.

قال البخاري: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا مروان بن شجاع، عن سالم الأبطس، عن سعيد بن جبیر، قال: سألتني يهودي من أهل الحيرة: أيّ الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله. فقدمت فسألت ابن عباس فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل. (ح ٢٦٨٤).

تفرد به البخاري من هذا الوجه، وقد رواه النسائي في حديث الفتن، كما سيأتي من طريق القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جبیر به.

وقد رواه ابن جرير عن أحمد بن محمد الطوسي، وابن أبي حاتم، عن أبيه، كلاهما عن الحميدي، عن سفيان بن عيينة، حدثني إبراهيم بن يحيى بن أبي يعقوب عن الحكم بن =

أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « سألت جبريل أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : أتمهما وأكملهما » . (جامع البيان/ ج ٢/ ٦٨) .

وإبراهيم هذا غير معروف إلا بهذا الحديث . وقد رواه البزار عن أحمد بن أبان القرشي ، عن سفيان بن عيينة ، عن إبراهيم بن أعين ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس . قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَظِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْشِيَ إِيَّيْنَا أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٥﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهَنَّرُ كَأَنَّهُ أَجْدٌ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْشِي فَأَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ ﴿٢٦﴾ أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْجُجُ بَيْضَاءَ مِنْ عَذْرَاسٍ وَأَضْمَمَ إِلَىٰكَ جَانِحًا مِنَ الرُّهْبِ فَلْيَنَظِرْكَ بَهَنَازٍ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَلَا يُؤْمِرُ بِهِمْ كَأَنُوقَمَا فَاسِقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [القصص : ٢٩ - ٣٢] .

تقدم أن موسى أتم الأجلين وأكملهما ، وقد يؤخذ هذا من قوله : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ أي من عند صهره .

قالوا : واتفق ذلك في ليلة مظلمة باردة ، وناهوا في طريقهم فلم يهتدوا إلى السلوك في الدرب المألوف ، واشتد الظلام والبرد .

فبينما هو كذلك إذ أبصر عن بعد نارا تأجج في جانب الطور - وهو الجبل الغربي منه عن يمينه ف ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ وكأنه والله أعلم رآها دونهم : ﴿ لَّعَلِّي آتِيكُم مِنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ أي لعلي أستعلم من عندها عن الطريق : ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ فدل على أنهم كانوا قد تاهوا عن الطريق في ليلة باردة مظلمة ، لقوله في الآية الأخرى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٢٤﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ فدل على وجود الظلام وكونهم تاهوا عن الطريق ، وجمع الكل في سورة النمل في قوله : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَائِكُمْ مِنْهَا خَبَرٌ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ وقد أتاهم بخبر وأي خبر ، ووجد عندها هدى وأي هدى ، واقتبس منها نورا وأي نور ؟ !

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَظِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْشِيَ إِيَّيْنَا أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ . وقال في النمل : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي سبحان الله الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿ يَمْشِيَ إِيَّيْنَا أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [النمل : ٩] .

وقال في سورة طه : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْشِيَ ﴿١١﴾ إِيَّيْنَا أَنَا رَبُّكَ فَانْخَلْعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ النِّسَاءَ آيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا يُتَجَرَّى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرَدَّى ﴾ [طه : ١١ - ١٦] .

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرْقِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ وكان موسى في واد اسمه «طوى» فكان موسى مستقبلاً القبلة ، وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب ، فناداه ربه بالواد المقدس طوى ، فأمر أولاً بخلع نعليه تعظيماً وتكريماً وتوقيراً لتلك البقعة المباركة ، ولا سيما في تلك الليلة المباركة .

ثم خاطبه تعالى كما يشاء قائلاً له: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ أي أنا رب العالمين الذي لا إله إلا هو ، الذي لا تصلح العبادة وإقامة الصلاة إلا له .

[عصا موسى]:

ثم أخبره أن هذه الدنيا ليست بدار قرار ، وإنما الدار الباقية يوم القيامة ، التي لا بد من كونها وجودها: ﴿لِنُجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا سَعَى﴾ أي من خير وشر ، وحضه وحته على العمل لها ، ومجانبة من لا يؤمن بها ممن عصى مولاه واتبع هواه . ثم قال له مخاطباً ومؤانساً ومبيناً له أنه القادر على كل شيء ، والذي يقول للشيء كن فيكون: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَى﴾ أي أما هذه عصاك التي تعرفها منذ صحبتها؟ ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَنُوكِّؤُا عَلَيْهَا وَأَهشُّ بِهَا عَلَى غَنِيِّ وَلِي فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ أي بلى هذه عصاي التي أعرفها وأتحققها ، ﴿قَالَ أَلْفَهَا يَمْوَسَى ﴿١٩﴾ فَأَلْفَهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ سَسْعَى﴾ . وهذا خارق عظيم وبرهان قاطع على أن الذي يكلمه هو الذي يقول للشيء كن فيكون ، وأنه الفعال بالاختيار .

وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَأَن أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي قد صارت حية عظيمة لها ضخامة هائلة وأنياب تصك ، وهي مع ذلك في سرعة حركة الجان ، وهو ضرب من الحيات يقال له: الجان والجنان ، وهو لطيف ولكنه سريع الاضطراب والحركة جداً ، فهذه جمعت الضخامة والسرعة الشديدة ، فلما عاينها موسى عليه السلام: ﴿وَلَّى مُدْبِرًا﴾ أي هارباً منها؛ لأن طبيعته البشرية تقتضي ذلك ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي ولم يلتفت ، فناداه ربه قائلاً له: ﴿يَمْوَسَى أَقِيلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ .

فلما رجع أمره الله تعالى أن يمسكها ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَتُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ فيقال إنه هابها شديداً ، فلما استمكن منها إذا هي قد عادت كما كانت عصا فسبحان القدير العظيم ، رب المشرقين والمغربين !

ثم أمره تعالى بإدخال يده في جيبه ، ثم أمره بنزعها فإذا هي تتلأأ كالقمر بياضاً من غير سوء ، أي من غير برص ولا بهق ، ولهذا قال: ﴿أَسْأَلُكَ بِكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ قبل معناه: إذا خفت فضع يدك على فؤادك يسكن جأشك .

وقال في سورة النمل: ﴿وَأَنخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي سِتْرٍ مَّائِيَةٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَأَوَّاهٌ عَلَيْهِمْ كَاؤُهُمْ فَتَفِيحُونَ﴾ أي هاتان الآيتان وهما: العصا واليد ، هما البرهانان المشار إليهما في قوله: =

﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِۦ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ومع ذلك سبع آيات أخرى. فذلك تسع آيات بينات وهي المذكورة في آخر سورة الإسراء ، حيث قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَمِنْ بَيْنِنَيْهِ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠٦﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَٰبِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنَ مَشْهُورًا ۖ﴾ .

وهي المبسوطه في سورة الأعراف في قوله : ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٠٧﴾ فَإِذَا جَاءَهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ سَبِئَتْهُمْ ذُرِّيَّتَهُمُ الْمَسْكُونَةُ ۖ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَخَنِّ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٨﴾ فَآرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَافِعَ وَالذَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ كما سيأتي الكلام على ذلك في موضعه .

وهذه التسع الايات غير العشر الكلمات . فإن التسع من كلمات الله القدريه ، والعشر من كلماته الشرعيه ، وإنما نبهنا على هذا لأنه قد اشتبه أمرها على بعض الرواة ، فظن أن هذه هي هذه ، كما قررنا ذلك في تفسير آخر سورة بني إسرائيل .

والمقصود أن الله سبحانه لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٠٩﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١١٠﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص : ٣٣ - ٣٥] .

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى عليه السلام ، في جوابه لربه عز وجل ، حين أمره بالذهاب إلى عدوه الذي خرج من ديار مصر فراراً من سطوته وظلمه ، حين كان من أمره ما كان في قتل ذلك القبطي ولهذا : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٠٩﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١١٠﴾ أَي اجعله معي معيناً وردءاً ووزيراً يساعديني ، ويعيني على أداء رسالتك إليهم فإنه أفصح مني لساناً وأبلغ بياناً .

قال الله تعالى مجيباً له إلى سؤاله : ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ أي برهاناً ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ أي فلا ينالون منكما مكروهاً بسبب قيامكما بآياتنا ، ﴿أَنْتَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ .

وقال في سورة طه : ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٢١﴾ فَقَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿١٢٢﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿١٢٣﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي ﴿١٢٤﴾ يَقْفُوهَا قَوْلِي ﴿١٢٥﴾ قِيلَ : إِنَّهُ أَصَابَهُ فِي لِسَانِهِ لُغَةٌ ، بسبب تلك الجمرة التي وضعها على لسانه ، والتي كان فرعون أراد اختبار عقله ، حين أخذ بلحيته وهو صغير فهم بقتله ، فخافت عليه أسية وقالت : إنه طفل ، فاختره بوضع ثمرة وجمرة بين يديه فهم بأخذ الثمرة فصرف الملك يده إلى الجمرة ، فأخذها فوضعها على لسانه فأصابته لُغَةٌ بسببها . فسأل =

زوال بعضها بمقدار ما يفهمون قوله ، ولم يسأل زوالها بالكلية . قال الحسن البصري :
والرسل إنما يسألون بحسب الحاجة ، ولهذا بقيت في لسانه بقية .

ولهذا قال فرعون - قبحه الله - فيما زعم أنه يعيب به الكلم : ﴿ وَلَا يَكْذُوبِينَ ﴾ أي يفصح عن مراده ، ويعبر عما في ضميره وفؤاده . ثم قال موسى عليه السلام : ﴿ وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِ هَرُونَ أَخِي ﴾ ﴿ أَشَدَّ بِهِ أَزْرَى ﴾ ﴿ وَأَشْرَكَ فِي أَمْرِي ﴾ ﴿ كَيْ سَيْحِكَ كَثِيرًا ﴾ ﴿ وَتَذَكَّرَكَ كَثِيرًا ﴾ ﴿ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴾ .

أي : قد أجبناك إلى جميع ما سألت ، وأعطيناك الذي طلبت . وهذا من وجاهته عند ربه عز وجل ، حين شفع أن يوحي الله إلى أخيه فأوحى إليه . وهذا جاه عظيم ، قال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِبَهَا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُمِنْ رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَرُونَ نَبِيًّا ﴾ .

وقد سمعت أم المؤمنين عائشة رجلاً يقول لأناس وهم سائرون في طريق الحج : أي أخ آمن على أخيه؟ فسكت القوم ، فقالت عائشة لمن حول هودجها : هو موسى بن عمران حين شفع في أخيه هارون فأوحى إليه . قال الله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُمِنْ رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَرُونَ نَبِيًّا ﴾ .

وقال تعالى في سورة الشعراء : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَيَّ الْقَوْمِ الْفَظِيلِينَ ﴾ ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلاَ يَنْفَقُونَ ﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَبْدُلُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ ﴾ ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ ﴿ قَالَ كَلَّا فَادْهَبْ بِأَخِيئِنَّا إِنَّمَا مَعَكُمْ مُّسْتَمِعُونَ ﴾ ﴿ فَأَتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ ﴿ قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكْ فِينَا وَلِيدًا وَلِيئْتُ فِينَا مِنْ عَمَلِكَ سِينِ ﴾ ﴿ وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٠ - ١٩] .

تقدير الكلام : فأتياه فقالا له ذلك ، وبلغاه ما أرسلنا به من دعوته إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وأن يفك أسر بني إسرائيل من قبضته وقهره وسطوته ، ويتركهم يعبدون ربهم حيث شاؤوا ويتفرغون لتوحيدهِ ودعائه والتضرع لديه .

فتكبر فرعون في نفسه وعتا وطغى ، ونظر إلى موسى بعين الازدراء والتنقص قائلاً له : ﴿ أَلَمْ تُرَبِّكْ فِينَا وَلِيدًا وَلِيئْتُ فِينَا مِنْ عَمَلِكَ سِينِ ﴾ أي أما أنت الذي ربينا في منزلنا؟ وأحسننا إليه وأنعمنا عليه مدة الدهر؟ .

وهذا يدل على أن فرعون الذي بعث إليه هو الذي فر منه ، ﴿ وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أي وقتلت الرجل القبطي ، وفررت منا وجحدت نعمتنا .

﴿ قَالَ فَمَلَأْنَاهَا إِذَا أَنَا مِنَ الْغَالِينَ ﴾ أي قبل أن يوحي إلي وينزل علي ، ﴿ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

ثم قال مجيباً لفرعون عما امتن به من التربية والإحسان إليه : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّ عَلَىٰ أَنْ عَدَّتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ أي وهذه النعمة التي ذكرت ، من أنك أحسنت إليّ وأنا رجل واحد من بني إسرائيل تقابل ما استخدمت هذا الشعب العظيم بكماله ، واستعبدتهم في أعمالك وخدمتك وأشغالك .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٦٦﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٦٧﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٦٨﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٩﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٧٠﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝

يذكر تعالى ما كان بين فرعون وموسى من المقالوة والمحاجة والمناظرة ، وما أقامه الكليم على فرعون اللثيم ، من الحجة العقلية المعنوية ثم الحسية . وذلك أن فرعون - قبحه الله - أظهر جحد الصانع تبارك وتعالى وزعم أنه الإله : ﴿ فَحَسَّرَ فَأَدَّى ﴾ ﴿٦٦﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ۝ ، ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتْلُوا آيَاتِ الْأَعْلَى مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي ۝

وهو في هذه المقالة معاند ، يعلم أنه عبد مريبوب ، وأن الله هو الخالق البارئ المصور ، الإله الحق كما قال تعالى : ﴿ وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْتَقِصَّهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُظُمًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ۝

ولهذا قال لموسى عليه السلام على سبيل الإنكار لرسالته ، والإظهار أنه ما ثم رب أرسله : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ لأنهما قالاه : ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فكانه يقول لهما : ومن رب العالمين ؟ الذي تزعمان أنه أرسلكما وابتعثكما ؟ .

فأجابه موسى قائلاً : ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ يعني رب العالمين خالق هذه السموات والأرض المشاهدة ، وما بينهما من المخلوقات المتعددة ، من السحاب والرياح والمطر والنبات والحيوانات التي يعلم كل موقن أنها لم تحدث بأنفسها ، ولا بد لها من موجد ومحدث وخالق . وهو الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين .

﴿ قَالَ ﴾ أي فرعون ﴿ لِمَنْ حَوْلَهُ ﴾ من أمرائه ومرازبته ووزرائه ، على سبيل التهكم والتنقص لما قرره موسى عليه السلام : ﴿ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ يعني كلامه هذا . ﴿ قَالَ ﴾ موسى مخاطباً له ولهم : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي هو الذي خلقكم والذين من قبلكم ، من الآباء والأجداد ، والقرون السالفة في الآباد ، فإن كل أحد يعلم أنه لم يخلق نفسه ، ولا أبوه ولا أمه ، ولا يحدث من غير محدث ، وإنما أوجده وخلقه رب العالمين ، وهذان المقامان هما المذكوران في قوله تعالى : ﴿ سَرُّبَهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ ۝

ومع هذا كله لم يستفق فرعون من رقدته ، ولا نزع عن ضلالته بل استمر على طغيانه وعناده وكفرانه : ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ ﴿٧٠﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ أي هو المسخر لهذه الكواكب الزاهرة المسيرة للأفلاك الدائرة . خالق الظلام والضياء ، ورب الأرض والسماء ، رب الأولين والآخرين ، خالق الشمس والقمر ، والكواكب السائرة ، والثوابت الحائرة ، خالق الليل بظلامه ، والنهار بضياءه ، والكل تحت قهره وتسخيره وتيسيره سائرون ، وفي فلك يسبحون ، يتعاقبون في سائر الأوقات ويدورون ، فهو تعالى الخالق المالك المتصرف في خلقه بما يشاء .

فلما قامت الحجج على فرعون وانقطعت شبهه ، ولم يبق له قول سوى العناد ، عدل إلى =

استعمال سلطانه وجاهه وسطوته ﴿قَالَ لَنْ أَخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ ﴿١٩﴾ قَالَ أُولُو حِجَّتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٢٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ وَرَزَقَهُ يَوْمَ ذَلِكَ مِمَّا يَشَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿الشعراء: ٢٩ - ٣٣﴾ .

وهذان هما البرهانان اللذان أيد بهما الله بهما ، وهما العصا واليد ، وذلك مقام أظهر فيه الخارق العظيم ، الذي بهر العقول والأبصار ، حين ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ، أي عظيم الشكل ، بديع في الضخامة والهول ، والمنظر العظيم الفظيع الباهر .

وهكذا لما أدخل موسى عليه السلام يده في جيبه واستخرجها ، أخرجها وهي كفلقة القمر تتلألأ نوراً يهر الأبصار ، فإذا أعادها إلى جيبه واستخرجها رجعت إلى صفتها الأولى .

ومع هذا كله لم ينتفع فرعون - لعنه الله - بشيء من ذلك ، بل استمر على ما هو عليه ، وأظهر أن هذا كله سحر ، وأراد معارضته بالسحرة ، فأرسل يجمعهم من سائر مملكته ومن هم في رعيته وتحت قهره ودولته ، كما سيأتي بسطه وبيانه في موضعه ، من إظهار الله الحق المبين والحجة الباهرة الفاطعة على فرعون ومملكته ، وأهل دولته وملته . . . والله الحمد والمنة .

* * *

وقال تعالى في سورة طه: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْؤِسُونَ ﴿١١﴾ وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿١٢﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَالْخَوَكُ يَا يُثَيِّبُ وَلَا نَبِيَّ فِي ذِكْرِي ﴿١٣﴾ أَذْهَبَ إِلَيَّ فِرْعَوْنُ إِنَّهُ كَفَرٌ ﴿١٤﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَنَا لَعَلَّهُ يُتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿١٥﴾ قَالَ لَا نَخَافُ أَنْ يَقْرُبَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴿١٦﴾ قَالَ لَا نَخَافُ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرْوِي ﴿سورة طه: ٤٠ - ٤٦﴾ .

يقول تعالى مخاطباً موسى فيما كلمه به ليلة أوحى إليه ، وأنعم بالنبوة عليه ، وكلمه منه إليه : قد كنت مشاهداً لك وأنت في دار فرعون ، وأنت تحت كنفى وحفظي ولطفي ، ثم أخرجتك من أرض مصر إلى أرض مدين بمشيتي وقدرتي وتديري ، فلبثت فيها سنين ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ﴾ أي مني لذلك ، فوافق ذلك تقديري وتسييري ﴿وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ أي اصطفتك لنفسي برسالتني وبكلامي .

﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَالْخَوَكُ يَا يُثَيِّبُ وَلَا نَبِيَّ فِي ذِكْرِي﴾ يعني : ولا تفترا في ذكري إذا قدمتما عليه ووفدتما إليه ، فإنه ذلك عون لكما على مخاطبته ومجاوبته ، وأداء النصيحة إليه وإقامة الحججة عليه . ثم قال تعالى : ﴿أَذْهَبَ إِلَيَّ فِرْعَوْنُ إِنَّهُ كَفَرٌ ﴿١٤﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَنَا لَعَلَّهُ يُتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ وهذا من حلمه تعالى وكرمه ورأفته ورحمته بخلقه ، مع علمه بكفر فرعون وعتوه وتجبره ، وهو إذ ذاك أردى خلقه ، وقد بعث إليه صفوته من خلقه في ذلك الزمان ، ومع هذا يقول لهما وبأمرهما أن يدعوا إليه بالتي هي أحسن برفق ولين ، ويعاملاه بالطف معاملته من يرجو أن يتذكر أو يخشى .

كما قال لرسوله : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّثْ لَهُم بِآيَاتِهِ أَحْسَنَ﴾ ، =

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ ﴿١٠﴾ قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْعَنَ ﴿١١﴾ وذلك أن فرعون كان جباراً عنيداً وشيطاناً مريداً ، له سلطان في بلاد مصر طويل عريض ، وجاه وجنود ، وعساكر وسطوة ، فهاباه من حيث البشرية ، وخاف أن يسطو عليهما في بادئ الأمر ، فثبتهما تعالى وهو العلي الأعلى فقال: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ ﴿١٢﴾ كما قال في الآية الأخرى ﴿... إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ . فَأَنبَأَهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِثَابِتٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أَسْبَحَ الْهَدْيِ ﴿١٣﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٤﴾ يذكر تعالى أنه أمرهما أن يذهبا إلى فرعون فيدعوا إلى الله تعالى أن يعبد وحده لا شريك له وأن يرسل معهما بني إسرائيل ويطلقهم من أسرهم وقهره ولا يعذبهم . ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِثَابِتٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ وهو البرهان العظيم في العصا واليد ، ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أَسْبَحَ الْهَدْيِ﴾ تقييد مفيد ببلغ عظيم ، ثم تهدده وتوعده على التكذيب فقالا: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ أي كذب بالحق بقلبه ، وتولى عن العمل بقلبه .

* * *

[اتصال موسى بفرعون]

وقال الله مخبراً عن فرعون: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى ﴿١٥﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿١٦﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿١٧﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَصِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿١٨﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴿١٩﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَانِ ﴿٢٠﴾ مِنْهَا خَلَقْنَاهُمْ وَمِنْهَا نُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا نَخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٤٩-٥٥] .

يقول تعالى مخبراً عن فرعون: إنه أنكر إثبات الصانع تعالى قائلاً: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى ﴿١٥﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿١٦﴾ أي هو الذي خلق الخلق وقدر لهم أعمالاً وأرزاقاً وأجالات ، وكتب ذلك عنده في كتابه اللوح المحفوظ ، ثم هدى كل مخلوق إلى ما قدره له ، فطابق عمله فيهم على الوجه الذي قدره وعلمه ، وقدرته وقدره لكمال علمه ، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ أي قدر قادراً وهدى الخلائق إليه .

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ يقول فرعون لموسى: فإذا كان ربك هو الخالق المقدر الهادي الخلائق لما قدره ، وهو بهذه المثابة من أنه لا يستحق العبادة سواء ، فلم عبد الأولون غيره؟ وأشركوا به من الكواكب والأنداد ما قد علمت؟ فهلا اهتدى إلى ما ذكرته القرون الأولى؟ ﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَصِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ أي هم وإن عبدوا غيره فليس ذلك بحجة لك ، ولا يدل على خلاف ما أقول لأنهم جهلة مثلك ، وكل شيء فعلوه مُسْطَرَّ عليهم في الزبر ، من صغير وكبير ، وسيجزئهم على ذلك ربي عز وجل ، ولا يظلم أحداً مثقال ذرة ، =

لأن جميع أفعال العباد مكتوبة عنده في كتاب لا يضل عنه شيء ولا ينسى ربي شيئاً .
ثم ذكر له عظمة الرب وقدرته على خلق الأشياء ، وجعله الأرض مهاداً والسماء سقفاً محفوظاً ، وتسخيره السحاب والأمطار لرزق العباد ودوابهم وأنعامهم ، كما قال : ﴿ كَلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴾ أي لذوي العقول الصحيحة المستقيمة ، والفطر القويمة غير السقيمة ، فهو تعالى الخالق الرزاق ، كما قال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ عَبْدًا عِبَادًا رَبُّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [٢٦] الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١ - ٢٢] .

ولما ذكر إحياء الأرض بالمطر ، واهتزازها بإخراج نباتها فيه نبه به على المعاد فقال : ﴿ مِنْهَا ﴾ أي من الأرض ﴿ خَلَقْنَكُمْ فِيهَا نَعِيذُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ كما قال تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الروم : ٢٧] .
ثم قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴾ [٢٨] قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْوَسَى ﴿٢٩﴾ فَلَنَأْمِنَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوَى ﴿٣٠﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَإِنَّ تُخَشَّرُ النَّاسُ ضَحَى ﴿٣١﴾ . يخبر تعالى عن شقاء فرعون وكثرة جهله وقلة عقله ، في تكذيبه بآيات الله واستكباره عن اتباعها ، وقوله لموسى : إن هذا الذي جئت به سحر ، ونحن نعارضك بمثله ، ثم طلب من موسى أن يوعده إلى وقت معلوم ومكان معلوم .

وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام : أن يظهر آيات الله وحججه وبراهينه جهره بحضرة الناس . ولهذا ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ ﴾ وكان يوم عيد من أعيادهم ومجتمع لهم ﴿ وَأَنْ يُخَشَّرَ النَّاسُ ضَحَى ﴾ أي من أول النهار في وقت اشتداد ضياء الشمس ، فيكون الحق أظهر وأجلى ، ولم يطلب أن يكون ذلك ليلاً في ظلام ، كما يروج عليهم محالاً وباطلاً ، بل طلب أن يكون نهاراً جهره ، لأنه على بصيرة من ربه ، ويقين بأن الله سيظهر كلمته ودينه ، وإن رغمت أنوف القبط ! .

* * *

[موسى والسحرة] :

قال الله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴾ [٣٢] قَالَ لَهُمُ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى ﴿٣٣﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُمُ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴿٣٤﴾ قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرَانِ بُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْنَى ﴿٣٥﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴿٣٦﴾ [سورة طه : ٦٠ - ٦٤] .

يخبر تعالى عن فرعون أنه ذهب فجمع من كان ببلاده من السحرة ، وكانت بلاد مصر في ذلك =

الزمان مملوءة سحرة فضلاء ، في فنههم غاية ، فجمعوا له من كل بلد ومن كل مكان ، فاجتمع منهم خلق كثير وجم غفير ، وحضر فرعون وأمراؤه وأهل دولته وأهل بلده عن بكرة أبيهم . وذلك أن فرعون نادى فيهم أن يحضروا هذا الموقف العظيم ، فخرجوا وهم يقولون : ﴿لَمَّا نَبَّحَ السَّحَرَةُ إِنَّ كَانُوا هُمُ الْفَاقِلِينَ﴾ .

وتقدم موسى عليه السلام إلى السحرة فوعظهم ، وزجرهم عن تعاطي السحر الباطل ، الذي فيه معارضة لآيات الله وحججه فقال : ﴿وَلَيْكُمُ لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْجَنَ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ ١٦ فَنَزَعُوا أَمْرَهُمُ بَيْنَهُمْ .

قليل معناه : أنهم اختلفوا فيما بينهم ، فقاتل يقول : هذا كلام نبي وليس بساحر ، وقاتل منهم يقول : بل هو ساحر . . فالله أعلم . أسروا التناجي بهذا وغيره . ﴿قَالُوا إِن هَذَا لَسَاحِرٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا﴾ يقولون : إن هذا وأخاه هارون ، ساحران عليمان مطبقان متقنان لهذه الصناعة ، ومراهما أن يجتمع الناس عليهما ويصولا على الملك وحاشيته ، ويستأصلاكم عن آخركم ويستأمرهما عليكم بهذه الصناعة .

﴿فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوُا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعَلَى﴾ وإنما قالوا الكلام الأول ليتدبروا ويتواصوا ، ويأتوا ، بجميع ما عندهم من المكيدة والمكر والخديعة والبهتان .

وهيهات ! كذبت والله الظنون ، وأخطأت الآراء ، أنى يعارض البهتان ، والسحر والهذيان خوارق العادات التي أجزاها الديان على يدي عبده الكلیم ، ورسوله الكريم المؤيد بالبرهان ، الذي يهر الأبصار وتحار فيه العقول والأذهان .

وقولهم : ﴿فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ﴾ أي جميع ما عندكم ﴿ثُمَّ أَتَوُا صَفًّا﴾ أي جملة واحدة ، ثم حضوا بعضهم بعضاً على التقدم في هذا المقام ، لأن فرعون كان قد وعدهم ومناهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً .

﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ ١٧ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِجَابُهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ نَسَعَى ١٨ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ١٩ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ٢٠ وَالْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٌ وَلَا يَقْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقَى ٢١ [سورة طه : ٦٥ - ٦٩] .

لما اصطف السحرة ووقف موسى وهارون عليهما السلام تجاههم قالوا له : إما أن تلقي قبلنا ، وإما أن نلقي قبلك ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ أنتم ، وكانوا قد عمدوا إلى حبال وعصي ، فأودعوها الزئبق وغيره ، من الآلات التي تضطرب بسببها تلك الحبال والعصي اضطراباً يخيل للرائي أنها تسعى باختيارها ، وإنما تتحرك بسبب ذلك ، فعند ذلك سحروا أعين الناس واسترهبوهم ، وألقوا حبالهم وعصيتهم ، وهم يقولون : ﴿يَعْرِزُوْا فَرَعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْفَاقِلُونَ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ ، وقال تعالى : ﴿فَإِذَا حِجَابُهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ نَسَعَى ١٨ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ أي خاف =

على الناس أن يفتنوا بسحرهم ومحالهم ، قبل أن يلقي ما في يده ، فإنه لا يصنع شيئاً قبل أن يؤمر ، فأوحى الله إليه في الساعة الراهنة : ﴿ لَا تَحْفَ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ ٧٦ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَفَّ ٧٧ ﴾ فعند ذلك ألقى موسى عصاه وقال : ﴿ مَا جِئْتُ بِهَ السِّحْرِ إِنْ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ إِنْ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلُ الْمُفْسِدِينَ ٧٨ ﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ .

وقال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ٧٩ تَوَقَّعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٨٠ فَفُلِّبُوا هَٰذَاكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ٨١ وَأَلْقَى السَّحْرَ سَجْدِينَ ٨٢ قَالُوا أَمْ آتَانَا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ٨٣ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ .

وذلك أن موسى عليه السلام لما ألقاها ، صارت حية عظيمة بحيث إن الناس انحازوا منها وهربوا سراعاً وتأخروا عن مكانها وأقبلت هي على ما ألقوه من الحبال والعصي ، فجعلت تلتفقه واحداً واحداً في أسرع ما يكون من الحركة ، والناس ينظرون إليها ويتعجبون منها ، وأما السحرة فإنهم رأوا ما هالهم وحيرهم في أمرهم ، واطلعوا على أمر لم يكن في خلداهم ولا بالهم ولا يدخل تحت صناعاتهم وأشغالهم ، فعند ذلك وهنالك تحققوا بما عندهم من العلم أن هذا ليس بسحر ولا شعوذة ، ولا محال ولا خيال ، ولا زور ولا بهتان ولا ضلال ، بل حق لا يقدر عليه إلا الحق ، الذي بعث هذا المؤيد به بالحق ، كشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة ، وأنارها بما خلق فيها من الهدى وأزاح عنها القسوة ، وأنابوا إلى ربهم وخروا له ساجدين ، وقالوا جبهة للحاضرين ولم يخشوا عقوبة ولا بلوى ﴿ أَمْ آتَانَا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ كما قال تعالى : ﴿ فَأَلْقَى السَّحْرَ سَجْدًا قَالُوا أَمْ آتَانَا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ٧٩ ﴾ قَالَ أَمْنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّكُمْ لَكَايِرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا قِطْعَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأَصْلَبْنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّمَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ٨٠ ﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ٨١ ﴾ إِنَّا أَمْثَلْنَا رَبَّنَا لِيُغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى ٨٢ ﴾ إِنَّهُمْ مِنْ بَأْسِ رَبِّهِمْ يَحْزَمُونَ فَإِنْ لَمْ يَهْتَمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ٨٣ ﴾ وَمَنْ يَأْتِيهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ٨٤ ﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ٨٥ ﴾ [سورة طه : ٧٠-٧٦] .

وذلك لأن فرعون لما رأى هؤلاء السحرة قد أسلموا وأشبهوا ذكر موسى وهارون في الناس على هذه الصفة الجميلة ، أفرعه ذلك ورأى أمراً بهره ، وأعمى بصيرته وبصره ، وكان فيه كيد ومكر وخداع وصنعة بليغة في الصد عن سبيل الله ، فقال مخاطباً السحرة بحضرة الناس : ﴿ أَمْنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ أي هلا شاورتموني فيما صنعتم من الأمر الفظيع بحضرة ريعتي؟! ثم تهدد وتوعد وأبرق وأرعد ، وكذب فأبعد قائلاً : ﴿ إِنَّكُمْ لَكَايِرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ ، وقال في الآية الأخرى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَكْرْتُمُوهُ فِي الدِّينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٢٣] .

وهذا الذي قاله من البهتان الذي يعلم كل فرد عاقل ما فيه من الكفر والكذب والبهذيان ، بل يروج مثله على الصبيان ، فإن الناس كلهم من أهل دولته وغيرهم يعلمون أن موسى لم يره هؤلاء يوماً من الدهر ، فكيف يكون كبيرهم الذي علمهم السحر؟ ثم هو لم يجمعهم ولا علم باجتماعهم ، حتى كان فرعون هو الذي استدعاهم ، واجتباهم من كل فج عميق ، وواد سحيق ، من حواضر بلاد مصر والأطراف ، ومن المدن والأرياف .

* * *

قال الله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظَرْنَاهُ كَيْفَ كَذَبَ عَصِيَّةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٥٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يُفْرَعُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥٧﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٥٨﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْخَالِينَ ﴿١٥٩﴾ فَأُلْقِيَ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١٦٠﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِ ﴿١٦١﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٦٢﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأَيُّ الْفَعْلِ تَأْمُرُونَ ﴿١٦٣﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ خَبِيرِينَ ﴿١٦٤﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١٦٥﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١٦٦﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُفْرِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالُوا يَمْوَسَّىٰ إِمَّا أَنْ تُتْلَىٰ وَإِمَّا أَنْ تُكُونَ تَحْنُ الْمُتْلِينَ ﴿١٦٨﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءَهُ بِسَاحِرٍ عَظِيمٍ ﴿١٦٩﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١٧٠﴾ تَوَقَّعَ الْحَقُّ وَيَظَلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧١﴾ فَغُلِبُوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٧٣﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٧٤﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أَمْنُكُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ مَآذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُ فِي الْيَدَيْنِ لِيُخْرِجَا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٧٥﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأُسْلِفَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٦﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَهُ رَبِّنَا مُقْبِلُونَ ﴿١٧٧﴾ وَمَا نَنبِئُكُمْ بِمَا إِلَّا آتٍ ءَامِنًا يَأْتِي رَبَّنَا لَمَّا جَاءَتْهُ رَبَّنَا أُنْفِخْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّعًا مُسْتَلِيمِينَ ﴿١٧٨﴾ [سورة الأعراف : ١٥٣ - ١٦٦] .

وقال تعالى في سورة يونس : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ ﴿١٠٢﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَ كُمْ أَسْحَرٌ هَذَا وَلَا يُلْقِي السَّحَرُونَ ﴿١٠٣﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبَرِيَّةُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَقْتَوْنِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١٠٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿١٠٦﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَبْطَلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٧﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٠٨﴾ [يونس : ٧٥ - ٨٢] .

وقال تعالى في سورة الشعراء : ﴿ قَالَ لِيْنِ اتَّخَذَتْ إِلَٰهًا غَيْرِي لَئِنْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ السَّحَابُ مِنْ السَّمَاءِ لَأَكُونَنَّ مِنْ جِثَّتِكَ ذَبْذَبًا مُبِينٌ ﴿٢٠٢﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٠٣﴾ فَأُلْقِيَ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٢٠٤﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِ ﴿٢٠٥﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوَافُهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٦﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسَاحِرِهِ فَأَيُّ الْفَعْلِ تَأْمُرُونَ ﴿٢٠٧﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ خَبِيرِينَ ﴿٢٠٨﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٢٠٩﴾ فَجَمَعَ السَّحَرَةُ لِيَبْقَتْ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿٢١٠﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٢١١﴾ لَعَلَّنَا نَبْغِ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٢١٢﴾

فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَأْجُرُكَ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَئِنَ الْمُفْرِينَ ﴿١٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَقْرَأُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿١٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿١٤﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْكُفُونَ ﴿١٥﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُمْ سَاجِدِينَ ﴿١٦﴾ قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْغَالِبِينَ ﴿١٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٨﴾ قَالَ ءَأَمْسُرُ لَهُ قَبْلُ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُمْ لَكَاِبِرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا تُطِيعُنَّ آيَاتِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صِلَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٩﴾ قَالُوا لَا ضَرَرَ لَنَا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٢٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿الشعراء: ٢٩-٥١﴾ .

والمقصود أن فرعون كذب وافتري وكفر غاية الكفر في قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَكَاِبِرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ وأتى بيهتان يعلمه العالمون في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْمَكْرَ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ، وقوله: ﴿لَا تُطِيعُنَّ آيَاتِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ يعني يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى وعكسه ، ﴿وَلَا صِلَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي ليجعلهم مثلة ونكالا لثلاث يقتدي بهم أحد من رعيته وأهل ملته . ولهذا قال: ﴿وَلَا صِلَيْتُكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ أي على جذوع النخل لأنها أعلى وأشهر ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَنَّى﴾ يعني في الدنيا .

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أي لن نطيعك وترك ما وقع في قلوبنا من البينات والدلائل القاطعات ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ قيل: معطوف ، وقيل: قسم ﴿فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ أي فافعل ما قدرت عليه ﴿إِنَّمَا نَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي إنما حكمك علينا في هذه الحياة الدنيا ، فإذا انتقلنا منها إلى الدار الآخرة صرنا إلى حكم الذي أسلمنا له واتبعنا رسله: ﴿إِنَّا ءَأَمَّا رَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَنَّى﴾ أي ثوابه خير مما وعدتنا به من التقريب والترغيب ﴿وَأَنَّى﴾ أي أودم من هذه الدار الفانية . وفي الآية الأخرى: ﴿قَالُوا لَا ضَرَرَ لَنَا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا﴾ أي ما اجترأنا من المأثم والمحارم ﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي من القبط ، بموسى وهارون عليهما السلام .

وقالوا له أيضاً: ﴿وَمَا نُنْفِقُ مِمَّا إِلَّا أَنْتَ ءَأَمَّا إِنَّا بَرَأْنَا لِمَا جَاءَنَا﴾ أي ليس لنا عندك ذنب إلا إيماننا بما جاءنا به رسولنا ، واتباعنا آيات ربنا لما جاءتنا ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي ثبتنا على ما ابتلينا به من عقوبة هذا الجبار العنيد ، والسلطان الشديد ، بل الشيطان المريد ، ﴿وَوَفَّاءُ مُسْلِمِينَ﴾ .

وقالوا أيضاً يعظونه ويخوفونه بأس ربه العظيم: ﴿إِنَّهُمْ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُمْ جَحِيمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ يقولون له: فإياك أن تكون منهم ، فكان منهم ﴿وَمَنْ يَأْتِيهِمْ مَوْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ أي المنازل العالية ، ﴿جَنَّاتٌ عِدْنُ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ فاحرص أن تكون منهم ، فحالت بينه وبين ذلك الأقدار التي لا تغالب ولا تمنع ، وحكم العلي العظيم بأن فرعون - لعنه الله - من أهل الجحيم ، لياشر العذاب الأليم ، يصب من فوق رأسه الحميم . ويقال له على وجه التقرير والتوبيخ ، وهو المقبوح المنبوح والذميم اللثيم: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ .

والظاهر من هذه السياقات أن فرعون - لعنه الله - صلبهم وعذبهم رضي الله عنهم ، قال عبد الله بن عباس وعبيد بن عمير : كانوا من أول النهار سحرة ، فصاروا من آخره شهداء بررة ! ويؤيد هذا قولهم : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ .
[كبار قوم فرعون يحرضونه على إيذاء موسى] :

ولما وقع ما وقع من الأمر العظيم ، وهو الغلب الذي غلبته القبط في ذلك الموقف الهائل وأسلم السحرة الذين استنصروا بهم ، لم يزداهم ذلك إلا كفرًا وعنادًا وبعداً عن الحق . قال الله تعالى بعد أن قص ما تقدم في سورة الأعراف : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْتُمْ مَوْسَى وَقَوْمُهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرُكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقْبِلُ أَبْنَاءَهُمْ فَتَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ (١٢٧) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٢٨) قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٧ - ١٢٩] .

يخبر تعالى عن الملاء من قوم فرعون ، وهم الأمراء والكبراء ، أنهم حضوا ملكهم فرعون على أذية نبي الله موسى عليه السلام ، ومقابلته بدل التصديق بما جاء به ، والكفر والرد والأذى .

قالوا : ﴿ أَنْتُمْ مَوْسَى وَقَوْمُهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرُكَ وَآلِهَتَكَ ﴾ يعنون - قبحه الله - أن دعوته إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والنهي عن عبادة ما سواه ، فساد بالنسبة إلى اعتقاد القبط ، لعنهم الله . وقرأ بعضهم : ﴿ وَيَذَرُكَ وَآلِهَتَكَ ﴾ أي وعبادتك . ويحتمل شيئين أحدهما : ويذر دينك ، وتقوية القراءة الأخرى . والثاني : ويذر أن يعبدك ، فإنه كان يزعم أنه إله ، لعنه الله . ﴿ قَالَ سَنُقْبِلُ أَبْنَاءَهُمْ فَتَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ أي لثلا يكثر مقاتلتهم ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ أي غالبون . ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ﴾ أي إذا هم هموا بأذيتكم والفتك بكم فاستعينوا أنتم بربكم واصبروا على بليتكم ﴿ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي فكونوا أنتم المتقين تكون لكم العاقبة ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامِنُ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ (١٢٩) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٣٠) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .

وقولهم : ﴿ قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ أي قد كانت الأبناء تقتل قبل مجيئك وبعد مجيئك إلينا ﴿ قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ . وقال الله تعالى في سورة غافر : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ (١٣١) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمْنًا وَقُرُونًا فَقَالُوا سَجَرٌ كَذَابٌ ﴾ .

وكان فرعون الملك ، وهامان الوزير ، وكان قارون إسرائيليًا من قوم موسى ، إلا أنه كان في دين فرعون ومملته ، وكان ذا مال جزيل جداً ، كما ستأتي قصته فيما بعد إن شاء الله تعالى . ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُكُمْ ﴾

الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٠﴾ وهذا القتل للغلمان من بعد بعثة موسى إنما كان على وجه الإهانة والإذلال ، والتقليل لمأبى بني إسرائيل لئلا يكون لهم شوكة يمتنعون بها ، ويصولون على القبط بسببها وكانت القبط منهم يحذرون ، فلم ينفعهم ذلك ، ولم يرد عنهم قدر الذي يقول لكل شيء : كن فيكون .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ ولهذا يقول الناس على سبيل التهكم : « صار فرعون مذكراً » وهذا منه ، وفرعون في زعمه خاف على الناس أن يضلهم موسى عليه السلام ! .

﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بَيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ أي عذت له ولجأت إليه واستجرت بجنابه ، من أن يسطو فرعون وغيره عليّ بسوء . وقوله : ﴿ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ أي جبار عنيد لا يرعوي ولا ينتهي ، ولا يخاف عذاب الله وعقابه ، لأنه لا يعتقد معاداً ولا جزاء ، ولهذا قال : ﴿ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بَيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ .

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿١١﴾ يَقُولُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَبْصُرْنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [غافر : ٢٨ - ٢٩] .

وهذا الرجل من آل فرعون ، وكان يكتُم إيمانه من قومه خوفاً منهم على نفسه ، وزعم بعض الناس أنه كان إسرائيلياً ، وهو بعيد ومخالف لسياق الكلام لفظاً ومعنى . . والله أعلم . قال ابن جريج : قال ابن عباس : لم يؤمن من القبط بموسى إلا هذا ، والذي جاء من أقصى المدينة وامرأة فرعون . رواه ابن أبي حاتم .

والمقصود أن هذا الرجل كان يكتُم إيمانه ، فلما همَّ فرعون - لعنه الله - بقتل موسى عليه السلام ، وعزم على ذلك وشاور ملأه فيه خاف هذا المؤمن على موسى ، فتلطف في رد فرعون بكلام جمع فيه الترغيب والترهيب ، فقال على وجه المشورة والرأي .

قال : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ أي من أجل أنه قال : ربي الله فمثل هذا لا يقابل بهذا بل بالإكرام والاحترام أو المودعة وترك الانتقام ، يعني لأنه : ﴿ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أي بالخوارق التي دلت على صدقه فيما جاء به عن أرسله ، فهذا إن وادعتموه كتم في سلامة ، لأنه : ﴿ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ﴾ ولا يضركم ذلك ﴿ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا ﴾ وقد تعرضتم له ﴿ يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ أي وأنتم تشفقون أن ينالكم أيسر جزاء مما يتوعدكم به ، فكيف بكم إن حل جميعه عليكم ؟ وهذا الكلام في هذا المقام ، من أعلى مقامات التلطف والاحترام والعقل النام .

وقوله : ﴿ يَقُولُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ يحذرهم أن يسلبوا هذا الملك العزيز ، فإنه ما تعرضت الدول للدين إلا سلبوا ملكهم ودلوا بعد عزهم ! .

وكذا وقع آل فرعون ، ما زالوا في شك وريب ، ومخالفة ومعاندة لما جاءهم موسى به حتى أخرجهم الله ممّا كانوا فيه من الملك والأموال والدور والقصور ، والنعمة والحبور ، ثم حولوا إلى البحر مهانين ، ونقلت أرواحهم بعد العلو والرفعة إلى أسفل السافلين .

ولهذا قال هذا الرجل المؤمن الصادق ، البار الراشد ، التابع للحق ، الناصح لقومه ، الكامل العقل : ﴿ يَقَوْمُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : عالين على الناس حاكمين عليهم ، ﴿ فَمَنْ يَضُرُّنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ﴾ ؟ أي لو كنتم أضعاف ما أنتم فيه من العدد والعدة ، والقوة والشدة لما نفعنا ذلك ، ولا رد عنا بأس مالك الممالك .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ أي في جوابه هذا كله : ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ﴾ أي ما أقول لكم إلا ما عندي ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ . وكذب في كل من هذين القولين وهاتين المقدمتين ، فإنه قد كان يتحقق في باطنه وفي نفسه أن هذا الذي جاء به موسى من عند الله لا محالة ، وإنما كان يظهر خلافه بغياً وعدواناً ، وعتواً وكفراناً .

قال الله تعالى إخباراً عن موسى : ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنٍ مُنْجَباً ﴾ ﴿ ١٧ ﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً ﴿ ١٨ ﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً ﴿ ١٩ ﴾ [الإسراء : ١٠٢ - ١٠٤] .

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بَأْسُنَا مَبْصُرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ ﴿ ٢٠ ﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلوً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿ ٢١ ﴾ [النمل : ١٣ - ١٤] .

وأما قوله : ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ فقد كذب أيضاً ، فإنه لم يكن على رشاد من الأمر ، بل كان على سفه وضلال وخبل وخيال ، فكان أولاً ممن يعبد الأصنام والأوثان ، ثم دعا قومه الجهلة الضالين إلى أن اتبعوه وطاوعوه وصدقوه فيما زعم من الكفر والمحال في دعواه أنه رب ، تعالى الله ذو الجلال !

قال الله تعالى : ﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْقَوْمُ آلِيَّ إِلَى مُلْكِ مِصْرَ وَهَؤُلَاءِ الْأَنْهَارُ تُجْرَى مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ﴿ ٢٢ ﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿ ٢٣ ﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأُ بِكُمْ مُقَرَّرِينَ ﴿ ٢٤ ﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿ ٢٥ ﴾ فَلَمَّا عَاسَفُونَا أُنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿ ٢٦ ﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿ ٢٧ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ﴾ ﴿ ٢٨ ﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿ ٢٩ ﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ يَتَوَّيَّ ﴿ ٣٠ ﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿ ٣١ ﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿ ٣٢ ﴾ فَأَعَزَّهُ اللَّهُ تَكَالَ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴿ ٣٣ ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَنْ يَتَخَفُ ﴿ ٣٤ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿ ٣٥ ﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوهُ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿ ٣٦ ﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَتَسَّ الْأَوْرَدُ الْمَوْرُودُ ﴿ ٣٧ ﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَؤُلَاءِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَسَّ الْأَوْرَدُ الْمَوْرُودُ ﴿ ٣٨ ﴾ . والمقصود بيان كذبه في قوله : ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ﴾ وفي قوله : ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ .

﴿ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ بِقَوْمِهِ إِنَّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾ ﴿ ٣٩ ﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ ءَ=

بَعْدَهُمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣٦﴾ وَيَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٧﴾ يَوْمَ تُؤَلَوْنَ مُدِيرِينَ مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٨﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْيَاسِنِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ وَمَا جَاءَكُمْ بِهِ حَقٌّ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَغْيِرُ سُلْطَانُ أَنتَهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ .

يحذرهم ولي الله إن كذبوا برسول الله موسى أن يحل بهم ما حل بالأمم من قبلهم ، من النقمات والمثالات ، مما تواتر عندهم وعند غيرهم ، مما حل بقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم إلى زمانهم ذلك ، مما أقام به الحجج على أهل الأرض قاطبة ، في صدق ما جاء به الأنبياء ، لما أنزل من النعمة بمكذبيهم من الأعداء ، وما أنجى الله من اتباعهم من الأولياء وخوفهم يوم القيامة ، وهو يوم التنادي ، أي حين ينادي الناس بعضهم بعضاً ، حين يولون إن قدروا على ذلك ، ولا إلى ذلك سبيلاً : ﴿ يَقُولُ الْإِنْسَنُ يَوْمَئِذٍ إِنَّ الْآلَ لَا وَرَدَ ﴿١١﴾ إِلَيْكَ يَوْمَئِذٍ التَّنْفَرُ ۖ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يَتَمَشَّرَ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطٰنٍ ﴿١٢﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنَحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴿١٤﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : ٣٣ - ٣٦] .

وقرأ بعضهم : ﴿ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ بتشديد الدال ، أي يوم الفرار ، ويحتمل أن يكون يوم القيامة ، ويحتمل أن يكون يوم يُحَلُّ الله بهم البأس ، فيودون الفرار ولات حين مناص ﴿ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَآءِ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٥﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٢ - ١٣] .

ثم أخبرهم عن نبوة يوسف في بلاد مصر ، وما كان منه من الإحسان إلى الخلق في دنياهم وأخراهم . وهذا من سلالة وذريته ، ويدعو الناس إلى توحيد الله وعبادته ، وألا يشركوا به أحداً من بريته ، وأخبر عن أهل الديار المصرية في ذلك الزمان ، وأن من سجنيتهم التكذيب بالحق ومخالفة الرسل . ولهذا قال : ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ وَمَا جَاءَكُمْ بِهِ حَقٌّ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾ أي وكذبتم في هذا . ولهذا قال : ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَغْيِرُ سُلْطٰنُ أَنتَهُمْ ﴾ أي يردون حجج الله وبراهينه ودلائل توحيد بلا حجة ولا دليل عندهم من الله ، فإن هذا أمر يحقته الله غاية المقته ، أي يبغض من تلبس به من الناس ، ومن اتصف به من الخلق ، ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ قرئ بالإضافة وبالنعت ، وكلاهما متلازم : أي هكذا إذا خالفت القلوب الحق - ولا تخالفة إلا بلا برهان - فإن الله يطبع عليها ، أي يختم عليها بما فيها .

وعند ذلك قال موسى : ﴿ يَقُولُ إِن كُنتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿١٧﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا جَعَلَآ فِتْنَةً لِّلْقَوْرِ ءَظْمِلِينَ ﴿١٨﴾ وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْرِ ءَكْفَرِينَ ﴾ فأمرهم بالتوكل على =

الله والاستعانة به ، والالتجاء إليه ، فاثتمروا بذلك فجعل الله لهم مما كانوا فيه فرجاً ومخرجاً .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ يُوتَا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

أوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه هارون عليهما السلام أن يتخذوا لقومهما بيوتاً متميزة فيما بينهم عن بيوت القبط ، ليكونوا على أهبة الرحيل إذا أمروا به ، ليعرف بعضهم بيوت بعض . وقوله : ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ قيل : مساجد ، وقيل معناه : كثرة الصلاة فيها . قاله مجاهد وأبو مالك وإبراهيم النخعي والربيع والضحاك وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن وغيرهم . ومعناه على هذا : الاستعانة على ما هم فيه من الضر والشدة والضيقة بكثرة الصلاة ، كما قال تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى . وقيل معناه : أنهم لم يكونوا حينئذ يقدرون على إظهار عبادتهم في مجتمعاتهم ومعابدهم ، فأمروا أن يصلوا في بيوتهم ، عوضاً عما فاتهم من إظهار شعائر الدين الحق في ذلك الزمان ، الذي اقتضى حالهم إخفاء خوفاً من فرعون وملئه ، والمعنى الأول أقوى لقوله : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وإن كان لا ينافي الثاني أيضاً . . . والله أعلم . وقال سعيد بن جبير : ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ أي متقابلة .

[غرق فرعون وجنوده] :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوَا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَٰى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ [يونس : ٨٨ - ٨٩] .

هذه دعوة عظيمة دعا بها كليم الله موسى على عدو الله فرعون ، غضباً لله عليه ، لتكبره عن اتباع الحق ، وصدّه عن سبيل الله ومعاندته وعتوه وتمرده ، واستمراره على الباطل ، ومكابرته الحق الواضح الجلي الحسي والمعنوي ، والبرهان القطعي ، فقال : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ ﴾ يعني قومه من القبط ، ومن كان على ملته ودان بدينه ﴿ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوَا عَنْ سَبِيلِكَ ﴾ أي وهذا يغتر به من يعظم أمر الدنيا ، فيحسب الجاهل أنهم على شيء ، ولكن هذه الأموال وهذه الزينة ، من اللباس والمراكب الحسنة الهنية ، والدور الأنيقة والقصور المبنية ، والمآكل الشهية والمناظر البهية ، والملك العزيز والتمكين ، والجاه العريض في الدنيا لا الدين .

﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَٰى أَمْوَالِهِمْ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : أي أهلكها .

وقوله : ﴿ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ قال ابن عباس : أي اطبع عليها ، وهذه دعوة غضب الله تعالى ولدينه ولبراهيمه . فاستجاب الله تعالى لها ، وحققها وتقيلها ، كما استجاب لنوح في قومه حيث قال : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (٦٦) إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ

يُضِلُّوْا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوْا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٥٤﴾ ولهذا قال تعالى مخاطباً لموسى حين دعا على فرعون وملته ، وأمن أخوه هارون على دعائه فنزل ذلك منزلة الداعي أيضاً : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ فَأَسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَوَسَّلَ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَنِيضِينَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ هَؤُلَاءَ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَايَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٩﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ حَتْبٍ وَعُيُونٍ ﴿٦٠﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٦١﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٦٢﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِفِينَ ﴿٦٣﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٥﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٦﴾ وَارْتَفَعْنَا نَحْمَ الْآخَرِينَ ﴿٦٧﴾ وَأَجْبَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٧٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِظٌ لِّلرَّجِيمِ ﴿٧١﴾ [الشعراء : ٥٢ - ٦٨] .

قال علماء التفسير : لما ركب فرعون في جنوده طالباً بني إسرائيل يقفوا أثرهم كان في جيش كثيف عرمرم .

والمقصود أن فرعون لحقهم بالجنود ، فأدركهم وتراءى الجمعان ، ولم يبق ثم ريب ولا لبس ، وعان كل من الفريقين صاحبه وتحققه وراه ، ولم يبق إلا المقاتلة والمجادلة والمحاماة . فعندها قال أصحاب موسى وهم خائفون : ﴿ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ وذلك لأنهم اضطروا في طريقهم إلى البحر فليس لهم طريق ولا محيد إلا سلوكه وخوضه ، وهذا ما لا يستطيعه أحد ولا يقدر عليه ، وفرعون قد غالقهم وواجههم ، وعانيوه في جنوده وجيوشه وعُدّه وعُدّه ، وهم منه في غاية الخوف والذعر ، لما قاسوا في سلطانه من الإهانة والمكر .

فشكوا إلى نبي الله ما هم فيه مما قد شاهدوه وعانيوه ، فقال لهم الرسول الصادق المصدوق : ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ وكان في الساقفة فتقدم إلى المقدمة ، ونظر إلى البحر وهو يتلاطم بأمواجه ، ويتزايد زبد أجاجه ، وهو يقول : ها هنا أمرت . ومعه أخوه هارون ، ويوشع بن نون ، وهو يومئذ من سادات بني إسرائيل وعلمائهم وعبادهم الكبار ، وقد أوحى الله إليه وجعله نبياً بعد موسى وهارون عليهما السلام ، كما سنذكره فيما بعد إن شاء الله ، ومعهم أيضاً مؤمنو آل فرعون ، وهم وقوف ، وبنو إسرائيل بكما لهم عليهم عكوف .

فلما تفاقم الأمر وضاق الحال واشتد الأمر ، واقترب فرعون و جنوده في جدهم وحدهم وحديدهم ، وغضبهم وحنقهم ، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، عند ذلك أوحى الحليم العظيم القدير ، رب العرش الكريم ، إلى موسى الكليم : ﴿ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ فلما ضربه ، انفلق بإذن الله .

قال الله تعالى : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ ويقال : إنه انفلق اثني عشر طريقاً ، لكل سبط طريق يسيرون فيه ، وهكذا كان ماء البحر قائماً مثل الجبال ، مكفوفاً بالقدرة العظيمة الصادرة من الذي يقول للشيء كن فيكون .

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ۚ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ۚ فَغَشَّيَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ مَا غَشَّيَهُمْ ۖ﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ۖ ﴿٧٧﴾ والمقصود أنه لما أُلِّمَ البحر إلى هذه الحال ، فبإذن الرب العظيم الشديد المحال ، أمر موسى عليه السلام أن يجوزه ببني إسرائيل ، فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين مبادرين ، وقد شاهدوا من الأمر العظيم ما يحير الناظرين ، ويهدي قلوب المؤمنين . فلما جاوزه وجاوزوه وخرج اخرهم منه ، وانفصلوا عنه ، وكان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون إليه ، ووفودهم عليه . فأراد موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان عليه . لئلا يكون لفرعون وجنوده وصول إليه ، ولا سبيل عليه ، فأمره القدير ذو الجلال أن يترك البحر على هذه الحال ، كما قال وهو الصادق في المقال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا فَبَلَّهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولُ كَرِيمٍ ﴿٧٨﴾ أَنْ أَذُوا إِلَٰهٍ عِبَادَ اللَّهِ إِلَىٰ لَكَ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٧٩﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَنِ ثَمِينٍ ﴿٨٠﴾ وَإِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٨١﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزُّ لَوْ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ تُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَسْرِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٨٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٨٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٨٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٨٦﴾ وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فَكَهَنَ ﴿٨٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٨٨﴾ فَمَا يَكْتُمُ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ أَلْمُهِينَ ﴿٩٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مَنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ أَخْرَجْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَی الْعَالَمِينَ ﴿٩٢﴾ وَأَيَّبْنَاهُمْ مِّنَ اللَّيْلِ مَا فِيهِ بَلَكُوا مُبِيتٌ ۖ﴾ [الدخان: ١٧ - ٣٣] .

فقوله تعالى: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ أي ساكنًا على هيئته ، لا يُغيِّره عن هذه الصفة . قاله عبد الله بن عباس ومجاهد وعكرمة والربيع والضحاك وقتادة وكعب الأحبار وسماك بن حرب وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهم .

فلما تركه على هيئته وحالته وانتهى فرعون ، فرأى ما رأى ، وعاین ما عاین ، هاله هذا المنظر العظيم ، وتحقق ما كان يتحققه قبل ذلك من أن هذا من فعل رب العرش الكريم ، فأحجم ولم يتقدم ، وندم في نفسه على خروجه في طلبهم والحالة هذه حيث لا ينفعه الندم ، لكنه أظهر لجنوده تجلداً وعاملهم معاملة العدا ، وحملته النفس الكافرة والسجية الفاجرة على أن قال لمن استخفهم فأطاعوه ، وعلى باطله تابعوه: انظروا كيف انحسر البحر لي لأدرك عبيدي الآبقين من يدي ، الخارجين على طاعتي وبلدي؟ وجعل يوري في نفسه أن يذهب خلفهم ، ويرجو أن ينجو وهيئات ويقدم تارة ويحجم تارات! ..

فبادر هذا وفرعون لا يملك من نفسه ضرراً ولا نفعاً ، فلما رآته الجنود قد سلك البحر اقتحموا وراءه مسرعين ، فحصلوا في البحر أجمعين أكتعين أبصعين ، فعند ذلك أمر الله تعالى كليمه فيما أوحاه إليه أن يضرب بعصاه البحر .

فضربه فارتطم عليهم البحر كما كان ، فلم ينج منهم إنسان .

قال تعالى: ﴿وَأَجْبَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ ۖ﴾

مُؤْمِنِينَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٧٧﴾ أي في إنجائه أوليائه فلم يغرق منهم أحد ، وإغراقه أعداءه فلم يخلص منهم أحد آية عظيمة ، وبرهان قاطع على قدرته تعالى العظيمة ، وصدق رسوله فيما جاء به عن ربه من الشريعة الكريمة ، والمناهج المستقيمة .
وقال تعالى : ﴿ ٧٨ ﴾ وَجَوَّزْنَا بِسَبِيٍّ إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ ءَأَمْسَتْ أَنْتُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمْسَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٩﴾ ءَأَلْقَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٠﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدْنِكَ لَنُكَوِّنَ لِمَنْ خَلَقْنَا آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٨١﴾ [يونس : ٩٠ - ٩٢] .

يخبر تعالى عن كيفية غرق فرعون زعيم كفره القبط ، وأنه لما جعلت الأمواج تخفضه تارة وترفعه أخرى ، وبنو إسرائيل ينظرون إليه وإلى جنوده ، ماذا أحل الله به وبهم من البأس العظيم والخطب الجسيم ، ليكون أقر لأعين بني إسرائيل ، وأشفى لنفوسهم . فلما عاين فرعون الهلكة وأحيط به ، وباشر سكرات الموت وأتاب حينئذ وتاب ، وامن حين لا ينفع نفساً إيمانها ، كما قال تعالى : ﴿ ٨٢ ﴾ إِنَّ الَّذِي حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٣﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٤﴾ . وقال تعالى : ﴿ ٨٥ ﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُمُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَلَّتْ آلُهَا الْقِيَّامَ فَخَلَّتْ فِي عِبَادَتِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ [غافر : ٨٤ - ٨٥] .

وهكذا دعا موسى على فرعون ومَلَكْتُهُ أَنْ يَطْمَسَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ ، ويشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم ، أي حين لا ينفعهم ذلك ، ويكون حسرة عليهم . وقد قال تعالى لهما - أي لموسى وهارون - حين دعوا بهذا : ﴿ ٨٨ ﴾ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَبُذِلَ لَكُمَا الْيَمُّ مَوْتًا وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

إجابة الله تعالى دعوة كلمه وأخيه هارون عليهما السلام .
وقوله تعالى : ﴿ ٨٩ ﴾ ءَأَلْقَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩٠﴾ استفهام إنكاري ، ونص على عدم قبوله تعالى منه ذلك . لأنه - والله أعلم - لورد إلى الدنيا كما كان لعاد إلى ما كان عليه ، كما أخبر تعالى عن الكفار إذا عاينوا النار وشاهدوها أنهم يقولون : ﴿ ٩١ ﴾ يَلَيْلَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِكَ رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٢﴾ ، قال الله : ﴿ ٩٣ ﴾ بَلْ بَدَأْتُمْ مَّا كَانُوا يَحْفَتُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُوَ عَنْهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٤﴾ ، وقوله : ﴿ ٩٥ ﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدْنِكَ لَنُكَوِّنَ لِمَنْ خَلَقْنَا آيَةً ﴿٩٦﴾ .

قال : ﴿ ٩٧ ﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدْنِكَ ﴿٩٨﴾ أي مصاحباً درعك المعروفة بك : ﴿ ٩٩ ﴾ لَنُكَوِّنَ ﴿١٠٠﴾ أي أنت آية ﴿ ١٠١ ﴾ لِمَنْ خَلَقْنَا ﴿١٠٢﴾ أي من بني إسرائيل ، ودليلاً على قدرة الله الذي أهلكك ، ولهذا قرأ بعض السلف : «لتكون لمن خلقك آية» ويحتمل أن يكون المراد : ننجيك بجسدك لتكون علامة لمن وراءك من بني إسرائيل على معرفتك وأنت هلكت . . والله أعلم ، وقد كان هلاكه وجنوده في يوم عاشوراء .

كما قال الإمام البخاري في صحيحه : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا غندر ، حدثنا شعبة بن أبي بشر ، عن سعيد بن جبیر ، عن ابن عباس قال : قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم =

عاشوراء ، قال : « ما هذا اليوم الذي تصومونه؟ » ، فقالوا : هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون . قال النبي ﷺ لأصحابه : « أنتم أحق بموسى منهم فصوموا » . وأصل هذا الحديث في الصحيحين وغيرهما . . والله أعلم [صحيح البخاري/ ح ٤٦٨٠] ومسلم (١٣/١٩/١٢٧) .

وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز المهيمن على ما عداه من الكتب : ﴿ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا فِيهِ وَيَطِلُ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ ﴾ . قالوا : هذا الجهل والضلال ، وقد عاينوا من آيات الله وقدرته ما دلهم على صدق ما جاءهم به رسول ذي الجلال والإكرام ، وذلك أنهم مروا على قوم يعبدون أصناما ، قيل : كانت على صور البقرة ، فكانهم سألوه : لِمَ يعبدونها؟ فرغموا لهم أنها تفعلهم وتضرهم ويسترزقون بها عند الضرورات ، فكان بعض الجهال منهم صدقهم في ذلك ، فسألوا نبيهم الكليم الكريم العظيم ، أن يجعل لهم الهة كما لأولئك الهة ، فقال لهم مبيئا : إنهم لا يعقلون ولا يهتدون : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَيَطِلُ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ ﴾ .

ثم ذكروهم نعمة الله عليهم ، في تفضيله إياهم على عالمي زمانهم بالعلم والشرع ، والرسول الذي بين أظهرهم ، وما أحسن به إليهم ، وما امتن به عليهم من إنجائهم من قبضة فرعون الجبار العنيد ، وإهلاكه إياه وهم ينظرون ، وتوريثه إياهم ما كان فرعون وملؤه يجمعونه من الأموال والسعادة ، وما كانوا يعرشون ، وبين لهم أنه لا تصلح العبادة إلا لله وحده لا شريك له ، لأنه الخالق الرازق القهار ، وليس كل بني إسرائيل سأل هذا السؤال ، بل هذا الضمير عائد على الجنس في قوله : ﴿ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ أي قال بعضهم كما في قوله : ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ ١٢٧ وَعَرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتَ أَنَّ تَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴾ فالذين زعموا هذا بعض الناس لا كلهم .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهري ، عن سنان بن أبي سنان الديلي ، عن أبي واقد الليثي ، قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين ، فمررنا بسدرة فقلنا : يا رسول الله . . اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط ، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة يعكفون حولها ، فقال النبي ﷺ : « الله أكبر . . هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ » إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم » . ورواه النسائي عن محمد بن رافع ، عن عبد الرزاق به . ورواه الترمذي عن سعيد بن عبد الرحمن المخزومي ، عن سفيان بن عيينة ، عن الزهري به ، ثم قال : حسن صحيح [أحمد/ ٢١٩٥٩] والترمذي [٢١٨٠] .

وقد روى ابن جرير من حديث محمد بن إسحاق ومعمر وعقيل عن الزهري ، عن سنان بن أبي سنان ، عن أبي واقد الليثي ، أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين ، قال : =

وكان للكفار سدره يعكفون عندها ، ويلقون بها أسلحتهم ، يقال لها : «ذات أنواط» قال : فمررنا بسدره خضراء عظيمة ، قال : فقلنا : يا رسول الله . . اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط قال : «قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى : ﴿ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مِثْرُ مَا هُمْ فِيهِ وَيَحِلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [جامع البيان/ ٩/ ٤٥] .

* * *

والمقصود أن موسى عليه السلام ، لما انفصل من بلاد مصر وواجه بلاد بيت المقدس وجد فيها قوماً من الجبارين ، من الحيثانيين والفزاريين والكنعانيين ، وغيرهم . فأمرهم موسى عليه السلام بالدخول عليهم ومقاتلتهم ، وإجلائهم إياهم عن بيت المقدس ، فإن الله كتبه لهم ، ووعدهم إياه على لسان إبراهيم الخليل وموسى الكليم الجليل ، فأبوا ونكلوا عن الجهاد ، فسلط الله عليهم الخوف ، وألقاهم في التيه يسرون ويحلون ويرتحلون ويذهبون ويحيثون ، في مدة من السنين طويلة هي من العدد أربعون ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمِرْ أَدْكُرُوا يَوْمَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٥﴾ يَقَوْمِرْ أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمَقْدَسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٦﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدَحُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنَنْدَحُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَدِيتَ إِنَّا هَاهُنَا قَتِيعُونَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافَرَّقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [سورة المائدة: ٢٠ - ٢٦] .

يذكرهم نبي الله نعمة الله عليهم وإحسانه إليهم بالنعم الدينية والدنيوية ، ويأمرهم بالجهاد في سبيل الله ومقاتلة أعدائه فقال : ﴿ يَقَوْمِرْ أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمَقْدَسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ ﴾ أي تنكصوا على أعقابكم ، وتنكصوا بعد الربح ، وتنقصوا بعد الكمال .

﴿ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ أي عتاة كفره متمردين ﴿ وَإِنَّا لَنَنْدَحُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾ خافوا من هؤلاء الجبارين وقد عاينوا هلاك فرعون ، وهو أجبر من هؤلاء وأشد بأساً ، وأكثر جمعا وأعظم جنداً . وهذا يدل على أنهم ملومون في هذه المقالة ، ومذمومون على هذه الحالة ، من الذلة عن مصالوة الأعداء ، ومقاومة المردة الأشقياء .

وقد ذكر كثير من المفسرين هاهنا آثاراً فيها مجازفات كثيرة باطلة ، يدل العقل والنقل على خلافها من أنهم كانوا أشكالاً هائلة ضخماً جداً ، حتى إنهم ذكروا أن رسل بني إسرائيل لما قدموا عليهم تلقاهم رجل من رسل الجبارين ، فجعل يأخذهم واحداً واحداً ، ويلقيهم في =

أكمامه وحجزة سراويله ، وهم اثنا عشر رجلاً ، فجاء بهم فنثرهم بين يدي ملك الجبارين ، فقال: ما هؤلاء؟ ولم يعرف أنهم من بني آدم حتى عرفوه. وكل هذه هذيانات وخرافات لا حقيقة لها.

وأن الملك بعث معهم عنياً كل عنبة تكفي الرجل ، وشيئاً من ثمارهم ليعلموا ضخامة أشكالهم ، وهذا ليس بصحيح.

وذكروا هاهنا أن عوج بن عنق خرج من عند الجبارين إلى بني إسرائيل ليهلكهم ، وكان طوله ثلاثة آلاف وثلاثمئة وثلاثة وثلاثين ذراعاً وثلاث ذراع. هكذا ذكره البيهقي وغيره ، وليس بصحيح ، كما قدمنا بيانه عند قوله ﷺ : «إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعاً ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن». قالوا: فعمد عوج إلى قمة جبل فاقتلعها ثم أخذ بيديه ليلقيها ، فجاء طائر فنقر تلك الصخرة فخرقها فصارت طوقاً في عنق عوج بن عنق. ثم عمد موسى إليه ، فوثب في الهواء عشرة أذرع ، وبيده عصاه وطولها عشرة أذرع ، فوصل إلى كعب قدمه فقتله.

يُروى هذا عن نوف البكالي ، ونقله ابن جرير عن ابن عباس وفي إسناده إليه نظر ، ثم هو مع هذا كله من الإسرائيليات ، وكل هذه من وضع جهال بني إسرائيل ، فإن الأخبار الكاذبة قد كثرت عندهم ولا تمييز لهم بين صحيحها وباطلها ، ثم لو كان هذا صحيحاً لكان بنو إسرائيل معذورين في النكول عن قتالهم ، وقد ذمهم الله على نكولهم ، وعاقبهم بالتية على ترك جهادهم ومخالفتهم رسولهم ، وقد أشار عليهم رجлан صالحان منهم بالإقدام ، ونهياهم عن الإحجام ، ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ أي: يخافون الله ، وقرأ بعضهم: ﴿ يَخَافُونَ ﴾ أي: يهابون ﴿ أَتَمَّ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ أي: بالإسلام والإيمان والطاعة والشجاعة ﴿ أَدْخَلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي: إذا توكلتم على الله ، واستعنتم به ولجأتم إليه ، نصركم على عدوكم وأيدكم عليهم وأنظركم بهم.

﴿ قَالُوا يَمْؤُومِينَ إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَتَلُودُ ﴾ فصمم ملؤهم على النكول عن الجهاد ، ووقع أمر عظيم ووهن كبير ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ قال ابن عباس: اقض بيني وبينهم ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ عوقبوا على نكالهم بالتيهان في الأرض ، يسIRON إلى غير مقصد ، ليلاً ونهاراً وصباحاً ومساءً.

لكن أصحاب محمد ﷺ يوم بدر لم يقولوا له كما قال قوم موسى لموسى ، بل لما استشارهم في الذهاب إلى النضير تكلم الصديق فأحسن وتكلم غيره من المهاجرين. ثم جعل يقول: «أشيروا عليّ» ، حتى قال سعد بن معاذ: كأنك تعرض بنا يا رسول الله؟ فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إِنَّا لصَبْرٌ في الحرب ، صُدِّقَ في اللقاء ، لعل الله أن يرريك منا ما تقر به =

ذكر يوشع بن نون عليه السلام

فقال بعضهم: لم يسر يوشع إلى أريحا ، ولا أمر بالمسير إليها إلا بعد موت موسى ، وبعد هلاك جميع من كان أبي المسير إليها مع موسى بن عمران ، حين أمرهم الله تعالى بقتال مَنْ فيها من الجبارين ، وقالوا: مات موسى وهارون جميعاً في التيه قبل خروجهما منه^(١). (١ : ٤٣٥) .

= عيناك ، فسر بنا على بركة الله . فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك . وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن مخارق بن عبد الله الأحمسي ، عن طارق - هو ابن شهاب - أن المقداد قال لرسول الله ﷺ يوم بدر: يا رسول الله . . إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا فإنا معكما مقاتلون . وهذا إسناد جيد من هذا الوجه ، وله طرق أخرى . [مسند أحمد/ ح ١١٨٤٩] .

قال أحمد: حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا إسرائيل ، عن مخارق ، عن طارق بن شهاب ، قال: قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، لقد شهدت من المقداد مشهداً ، لأن أكون أنا صاحبه ، أحب إليّ مما عدل به ، أتى رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: والله يا رسول الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ولكننا نقاتل عن يمينك ، وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك ، فرأيت وجه رسول الله ﷺ يشرق لذلك وسر بذلك . رواه البخاري في التفسير ، والمغازي من طرق عن مخارق به . [مسند أحمد/ ٣٦٩٨] وصحيح البخاري [كتاب المغازي/ ح ٣٩٥٢] .

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا علي بن الحسين بن علي ، حدثنا أبو حاتم الرازي ، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري ، حدثنا حميد ، عن أنس ، أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر استشار المسلمين ، فأشار عليه عمر ، ثم استشارهم فقالت الأنصار: يا معشر الأنصار . . إياكم يريد رسول الله ﷺ قالوا: إذا لا نقول له كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ والذي بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعناك .

رواه الإمام أحمد عن عبيدة بن حميد ، عن حميد الطويل ، عن أنس به ، ورواه النسائي ، عن محمد بن المثنى ، عن خالد بن الحارث ، عن حميد ، عن أنس به نحوه . وأخرجه ابن حبان في صحيحه عن أبي يعلى ، عن عبد الأعلى ، عن معتمر ، عن حميد ، عن أنس به نحوه .

ذكر من قال ذلك :

حدثني عبد الكريم بن الهيثم ، قال : حدثنا إبراهيم بن بشار ، قال : حدثنا سفیان ، قال : قال أبو سعيد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : قال الله تعالى : لما دعا موسى يعني بدعائه قوله : ﴿ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴿ . قال : فدخلوا التيه ، فكلَّ من دخل التيه ممن جاوز العشرين سنة مات في التيه ، قال : فمات موسى في التيه ، ومات هارون قبله . قال : فلبثوا في تيههم أربعين سنة ، وناهضَ يوشعُ بمن بقي معه مدينة الجبارين فافتتح يوشع المدينة (١) . (١ : ٤٣٥) .

(١) صحيح .

لقد ذكر الطبري روايات عدة في ذكر يوشع بن نون فتى موسى عليه السلام وجلَّها مأخوذ من الإسرائيليات ونحن ذاكرون هنا ما صحَّ سنده في خبر يوشع هذا علماً أننا لم نجد نصاً نبوياً صريحاً ينص على نبوته إلا أن ابن كثير ذكر أنه نبي وقال : اتفق أهل الكتاب على ذلك كما في قصص الأنبياء لابن كثير ، ولم نجد كما ذكرنا نصاً نبوياً يؤكد ذلك إلا أن مفهوم حديثين نبويين يحتملان ذلك :

الأول : ما أخرجه أحمد في مسنده من حديث أبي هريرة مرفوعاً (ح ٨٣١٥) إن الشمس لم تحبس على بشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس ، وقال الحافظ ابن كثير : انفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط البخاري (قصص الأنبياء/ ٣٣١) . وأخرجه الطحاوي كذلك (شرح مشكل الآثار ح ١٠٦٩) .

الثاني : ما أخرجه البخاري (كتاب فرض الخمس/ ح ٣١٢٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : «غزا نبي من الأنبياء فقال لقومه : لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبيني بها ولما بين بها ، ولا أحد بنى بيوتاً ولم يرفع سقوفها ، ولا أحد اشترى غنماً أو خلفات وهو ينتظر ولادها ، فغزا ، فدنا من القرية صلاة العصر أو قريباً من ذلك فقال للشمس : إنك مأمورة وأنا مأمور ، اللهم احبسها علينا ، فحبست حتى فتح الله عليهم فجمع الغنائم . . . الحديث وفي آخره : ثم أحلَّ الله لنا الغنائم رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا» .

والحديث أخرجه مسلم (ح ١٧٤٧) وأحمد (ح ٨٢٣٨) وغير واحد ، والله أعلم . قلنا : فإذا كانت الشمس لم تحبس إلا ليوشع بن نون كما في الحديث الأول وأن نبياً من الأنبياء خرج غازياً فدعا فحبس الله الشمس له ولجيشه حتى فتحوا المصر ، فالجمع بين الحديثين يشير إلى أن يوشع بن نون نبي ، وهو الذي خرج غازياً فحدث للشمس ما قدر الله لها من الحبس .

وهذا استنباط وفهم للنصوص ولعله لا يكون كذلك والله أعلم . =

قال أبو جعفر: فلما نزلت نعمة الله بقارون حمد الله على ما أنعم به عليهم المؤمنون الذين وعظوه وأنذروه بأمر الله ، ونصحوا له من المعرفة بحقه والعمل بطاعته ، ونديم الذين كانوا يتمنون ما هو فيه من كثرة المال ، والسعة في العيش على أمنيته ، وعرفوا خطأ أنفسهم في أمنيته ، فقالوا ما أخبر الله عز وجل عنهم في كتابه: ﴿وَيَكَاثُ اللَّهُ بِسُطْرِ الرِّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ ، فصرف عنا ما ابتلى به قارون وأصحابه مما كنا نتمناه بالأمس لخسف بنا كما خسف به وبهم. فنجى الله تعالى من كل هول وبلاء نبيه موسى والمؤمنين به المتمسكين بعهد من بني إسرائيل ، وفتاه يوشع بن نون المتبعين له بطاعتهم ربهم ، وأهلك أعداءه وأعداءهم: فرعون وهامان وقارون والكنعانيين بكفرهم وتمردهم عليه وعتوهم ، بالغرق بعضاً ، وبالخسف بعضاً ، وبالسيف بعضاً ، وجعلهم عبراً لمن اعتبر بهم ، وعظة لمن اتعظ بهم ، مع كثرة أموالهم وكثرة عدد جنودهم ، وشدة بطشهم ، وعظم خلقهم وأجسامهم ، فلم تغن عنهم أموالهم ولا أجسامهم ولا قواهم ولا جنودهم وأنصارهم عنهم من الله شيئاً؛ إذ كانوا يجحدون بآيات الله ، ويسعون في الأرض فساداً ، ويتخذون عباد الله لأنفسهم خولاً ، وحق بهم ما كانوا منه آمنين؛ نعوذ بالله من عمل يقرب من سخطه ، ونرغب إليه في التوفيق لما يدني من محبته ، ويزلف إلى رحمته^(١)! فلما ملك

وأما الحافظ ابن حجر فقد قال رحمه الله أثناء شرحه للحديث: قوله (غزاني من الأنبياء) أي أراد الغزو ، وهذا النبي هو يوشع بن نون كما رواه الحاكم من طريق كعب الأحبار وبين تسمية القرية كما سيأتي ، وقد ورد أصله من طريق مرفوعة صحيحة أخرجها أحمد من طريق هشام عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع بن نون ليالي سار إلى بيت المقدس» (فتح الباري ٦/٣٤٦ ط الفكر). قلنا: وقال القاضي عياض رحمه الله في شرح مسلم (ح ١٧٤٧ - غزاني من الأنبياء... الحديث) وقال: إن الذي حبست عليه الشمس هو يوشع بن نون (إكمال المعلم ٦/٥٣) والله تعالى أعلم بالصواب.

(١) صحيح.

ذكر خبر داود عليه السلام

لقد أخرج الطبري روايات عدة في أخبار داود عليه السلام من (١/٤٧٦ - ١/٤٨٥) وجميعها بأسانيد ضعيفة جداً أو ضعيفة على الأقل ولم يصح في تفاصيل متونها بل أغلبها مستقاة من=

سليمان بناءه وشرّفه ، وكان عمر داود - فيما وردت به الأخبار عن رسول الله ﷺ -
مئة سنة . (١ : ٤٨١) .

الإسرائيليات وحتى تفسير الآيات خلطها رحمه الله ببعض الإسرائيليات .

فأثرنا أن نذكر الآيات القرآنية مع تفسيرها اللغوي عند الحافظ ابن كثير بعد حذف ما في التفسير من الإسرائيليات ، ولكننا لا نرى بأساً أن نذكر ما صحّ سنده من حديث روي في قصة داود عليه السلام قبل أن نذكر الآيات القرآنية مع تفسيرها :

١ - أخرج البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ولم يجاوز معه إلا بضعة عشر وثلاثمئة مؤمن (صحيح البخاري/ كتاب المغازي/ ح ٣٩٥٨) . قلنا : والملاحظ أن الروايات الصحيحة لا تبلغ في ذكر الأعداد والأرقام ، بينما الروايات الضعيفة المتأثرة أو المستقاة من الإسرائيليات تذكر أرقاماً خيالية .

٢ - أخرج البخاري في صحيحه قال رسول الله ﷺ : « أحب الصلاة إلى الله صلاة داود وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ولا يفتر إذا لاقى » صحيح البخاري/ كتاب الأنبياء (ح ٣٤١٩) ومسلم (١١٥٩/١٨٩) .

قلنا : وهذه صورة داود العابد الناسك المجاهد وهي صورة في الأعالى كالثريا ، بينما صورته الإسرائيليات كما يشتهي اليهود من تشويه صورة الأنبياء بما لا يليق بعصمتهم عليهم الصلاة والسلام .

٣ - لقد رزق الله سبحانه داود صوتاً جميلاً يتلو به كلام الله سبحانه ، وعندما سمع رسول الله ﷺ صوت أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن قال عليه الصلاة والسلام : « لقد أعطي أبو موسى زمماراً من زمامر داود » مسند أحمد/ ح ٨٦٥٤ من حديث أبي هريرة/ وقال ابن كثير : على شرط مسلم .

٤ - وأخرج البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة مرفوعاً : « خفف الله على داود القرآن فكان يأمر بدوابه فتسرج ، فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه ، ولا يأكل إلا من عمل يده » صحيح البخاري/ كتاب الأنبياء (ح ٣٤١٧) .

وسنذكر الآن بعض الآيات القرآنية الكريمة الواردة في ذكر نبي الله داود عليه السلام مع شيء يسير من التفسير اللغوي :

١ - قال الله تعالى : ﴿ فَهَزَمُوهُمْ يَازِدُ اللَّهِ ۖ قَالَ الطَّبْرِيُّ : قتلوهم بقضاء الله وقدره وقال الشوكاني : أي بأمره وإرادته .

﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ۚ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۚ ﴾ المعنى : الملك السلطان والحكمة النبوة . ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ۚ ۖ

ذكر خبر سليمان بن داود عليهما السلام

ثم ملك سليمان بن داود بعد أبيه داود أمر بني إسرائيل ، وسخر الله له الجن والإنس والطير والريح ، وآتاه مع ذلك النبوة ، وسأل ربّه أن يؤتیه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، فاستجاب الله له فأعطاه ذلك^(١) . (١ : ٤٨٦) .

وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمَكْمُومِينَ ﴿١﴾ قال الطبري: يعني الله تعالى ذكره بذلك: ولولا

دفع الله أي أن يدفع الله الناس بعضهم ببعض وهم أهل الطاعة له والإيمان به .

٢ - وقال تعالى في سورة سبأ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجْعَالُ آوِينَ مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿٣﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَفِينًا وَفَدَّرَ فِي السَّيْرِ وَعَمِلُوا صَدِيقًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ .

٣ - وقال تعالى: ﴿٥﴾ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٦﴾ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُ بِالْعِشِيِّ وَالْإِنشِرَاقِ ﴿٧﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿٨﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَيَّدْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴿٩﴾ يعني ذا قوة

في العبادة والعمل الصالح .

٤ - وقال سبحانه وتعالى في سورة (ص): ﴿١٠﴾ وَهَلْ أُنْتَكَبَ نِزْوًا الْحَصَمُ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿١١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَيْنَ بَعْضِنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿١٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَمْ يَسْعَ وَنَسْعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةً وَحِدَةً فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿١٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَى نَجْمِهِ وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ الْخَالِطَاءِ لَبَنِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿١٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِن لَّمْ عِنْدَنَا لُزْفٌ وَحُسْنٌ مَّتَابٍ ﴿١٥﴾ .

قلنا: والآية القرآنية بينت أنه عليه السلام أيقن أن الله ابتلاه فاستغفر لذنبه وسجد لله سبحانه ، فما هو هذا الابتلاء ومن أي ذنب استغفر وتاب وسجد؟

ظاهر الآيات القرآنية وهي ﴿يَلْسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ تشير إلى أن داود عليه السلام حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر .

(١) صحيح .

نَبِيُّ اللَّهِ سُلَيْمَانُ
عَلَيْهِ السَّلَامُ

[وراثه النبوة]:

قال الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَىٰئَهَا النَّاسُ عُلْمًا مِّنَ طَيْرٍ وَأَوْتِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْأَكْبَرُ﴾ أي: ورثه في النبوة والملك ، وليس المراد ورثه في المال ، لأنه قد كان له بنون غيره ، فما كان ليخص بالمال دونهم ، ولأنه قد ثبت في الصحاح من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث ما تركنا فهو صدقة» وفي لفظه: «نحن=

معاشر الأنبياء لا نورث» فأخبر الصادق المصدوق أن الأنبياء لا تورث أموالهم عنهم كما يورث غيرهم ، بل تكون أموالهم صدقة من بعدهم على الفقراء والمحاويج لا يخصون بها أقرباءهم ، لأن الدنيا كانت أهون عليهم وأحقر عندهم من ذلك كما هي عند الذي أرسلهم واصطفاهم وفضلهم ، وقال : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ عِلْمًا مَطْقَ الطَّيْرِ وَأُوتِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يعني : أنه عليه السلام كان يعرف ما تتخاطب به الطيور بلغاتها وتعبر للناس عن مقاصدها وإرادتها ﴿ وَأُوتِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي : من كل ما يحتاج الملك إليه من العدد والآلات والجنود والجيش والجماعات من الجن والإنس والطيور والوحوش والشياطين السارحات والعلوم والفهوم والتعبير عن ضمائر المخلوقات من الناطقات والصامتات ، ثم قال : ﴿ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ أي : من باری البريات وخالق الأرض والسموات كما قال تعالى : ﴿ وَحِشْرَ لِسَانَيْنِ جُودُ مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأْتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿ فَنَبَسَّ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيْ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ونبيه وابن نبيه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام أنه ركب يوماً في جيشه جميعه من الجن والإنس والطير ، فالجن والإنس يسرون معه والطير سائرة معه تظله بأجنحتها من الحر وغيره ، وعلى كل من هذه الجيوش الثلاثة وزعة - أي نقيب - يردون أوله على آخره . فلا يتقدم أحد عن موضعه الذي يسير فيه ولا يتأخر عنه ، قال الله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأْتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ فأمرت وحذرت واعتذرت عن سليمان وجنوده بعدم الشعور .

والمقصود أن سليمان عليه السلام فهم ما خاطبت به تلك النملة لأمتها من الرأي السديد والأمر الحميد ، وتبسم من ذلك على وجه الاستبشار ، والفرح والسرور بما أطلعه الله عليه دون غيره ، وليس كما يقوله بعض الجهلة من أن الدواب كانت تنطق قبل سليمان ، وتخاطب الناس حتى أخذ عليهم سليمان بن داود العهد وألجمها فلم تتكلم مع الناس بعد ذلك ، فإن هذا لا يقوله إلا الذين لا يعلمون ، ولو كان هذا هكذا لم يكن لسليمان في فهم مقالها مزية على غيره ، إذ قد كان الناس كلهم يفهمون ذلك ، ولو كان قد أخذ عليها العهد ألا تتكلم مع غيره وكان هو يفهمها ، لم يكن هذا أيضاً فائدة يعول عليها ولهذا قال : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي ﴾ أي : ألهمني وأرشدني ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيْ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ فطلب من الله أن يقيضه للشكر على ما أنعم به عليه وعلى ما خصه به من المزية على غيره ، وأن ييسر عليه العمل الصالح ، وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين ، وقد استجاب الله تعالى له .

وقال الله تعالى : ﴿ وَتَقَعْدَ الطَّيْرِ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَىٰ الْهَيْدُ هَذَا مَ كَانَ مِنَ الْفَاسِقِينَ ﴾ ﴿ لَأَعَذِّبَنَّهُ ﴾

عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَاذْبَحْتَهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٦﴾ فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَاءٍ فَيِّنٍ ﴿٣٧﴾ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٣٨﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٣٩﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٤٠﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٤١﴾ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ أَذْهَبَ يَكْتُمِي هَذَا قَالِقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٤٤﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُؤِ إِنِّي أَنفَى إِلَيَّ كَيْدٌ كَرِيمٌ ﴿٤٥﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمٍ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٤٦﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ أَنِّي وَأُتُوِي مُسْلِمِينَ ﴿٤٧﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُؤِ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أُنْزَحَتْ تَهْتَدُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا نَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٤٩﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَافَهَا آذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥١﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنُ قَالَ أُمِئْتُوَنِي بِمَا لِي فَمَا آتَنِى اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٥٢﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٥٣﴾ [النمل :

٢٠ - ٣٧]

يذكر تعالى ما كان من أمر سليمان والهدهد ، وذلك أن الطيور كان على كل صنف منها مقدمون يقدمون بما يطلب منهم ، ويحضرون عنده بالنوبة ، كما هي عادة الجنود مع الملوك ، فلما تطلبه سليمان عليه السلام ذات يوم فقدته ولم يجده في موضعه من محل خدمته ﴿ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْفَاكِينِ ﴾ أي : ما له مفقود من هاهنا ، أو قد غاب عن بصري فلا أراه بحضرتي ﴿ لِأَعَذَّبْتُمُ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ توعده بنوع من العذاب يختلف المفسرون فيه ، والمقصود حاصل على تقدير ﴿ أَوْ لَاذْبَحْتَهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : بحجة تنجيه من هذه الورطة .

قال الله تعالى : ﴿ فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أي : فغاب الهدهد غيبة ليست بطويلة ثم قدم منها ﴿ فَقَالَ ﴾ لسليمان : ﴿ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ أي : اطلعت على ما لم تطلع عليه ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَاءٍ فَيِّنٍ ﴾ أي : بخبر صادق ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ يذكر ما كان عليه ملوك سبأ في بلاد اليمن من المملكة العظيمة والتبابعة المتوجحين ، وكان الملك قد آل في ذلك الزمان إلى امرأة منهم ابنة ملكهم لم يخلف غيرها فملكوها عليهم .

وقال الثعلبي : أخبرني أبو عبد الله بن قبحونة ، حدثنا أبو بكر بن حرجة ، حدثنا ابن أبي الليث ، حدثنا أبو كريب ، حدثنا أبو معاوية ، عن إسماعيل بن مسلم ، عن الحسن ، عن أبي بكرة ، قال : ذكرت بلقيس عند رسول الله ﷺ فقال : « لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » إسماعيل بن مسلم هذا هو المكي الضعيف .

وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث عوف ، عن الحسن ، عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ لما بلغه أن أهل فارس ملكوا عليهم ابنة كسرى قال : « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » .

ورواه الترمذي والنسائي من حديث حميد ، عن الحسن ، عن أبي بكرة ، عن النبي ﷺ بمثله وقال الترمذي: حسن صحيح. وقوله: ﴿وَأُوتِيتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: مما من شأنه أن تؤتاه الملوك ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ يعني: سرير مملكتها كان مزخرفاً بأنواع الجواهر واللآلئ والذهب والحلي الباهر.

ثم ذكر كفرهم بالله ، وعبادتهم الشمس من دون الله ، وإضلال الشيطان لهم ، وصدّه إياهم عن عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما يخفون وما يعلنون ، أي يعلم السرائر والظواهر من المحسوسات والمعنويات: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أي: له العرش العظيم الذي لا أعظم منه في المخلوقات.

فعند ذلك بعث سليمان عليه السلام كتاباً يتضمن دعوته لهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله والإنابة والإذعان إلى الدخول في الخضوع لمملكه وسلطانه ؛ ولهذا قال لهم: ﴿أَلَا تَقُولُوا عَلَىٰ أَيِّ شَيْءٍ لَا تَسْتَكْبِرُوا عَنْ طَاعَتِي وَامْتِثَالِ أَمْرِي﴾ وَأُوتِيتُ مُسْلِمِينَ أَي: وأقدموا عليّ سامعين مطيعين بلا معاودة ولا مراودة ، فلما جاءها الكتاب مع الطير - ومن ثم اتخذ الناس البطائق - ولكن أين الثريا من الثرى ، تلك البطاقة كانت مع سائر سامع مطيع فاهم عالم بما يقول ويقال له ، فذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم أن الهدهد حمل الكتاب وجاء إلى قصرها فألقاه إليها وهي في خلوة لها ثم وقف ناحية ينتظر ما يكون من جوابها عن كتابها ، فجمعت أمراءها ووزراءها وأكابر دولتها إلى مشورتها ﴿قَالَتْ يَأَيُّهَا الْمَلِكُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ ثم قرأت عليهم عنوانه أولاً ﴿إِنَّكُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾ ثم قرأته: ﴿وَإِنَّكُمْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أَلَا تَقُولُوا عَلَىٰ أَيِّ شَيْءٍ مُسْلِمِينَ ثم شاروهم في أمرها وما قد حل بها وتأديت معهم وخاطبتهم وهم يسمعون: ﴿قَالَتْ يَأَيُّهَا الْمَلِكُ أَفْتَوِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ يعني: ما كنت لأبثّ أمراً إلا وأنتم حاضرون ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلَا قَوْلًا وَأَوْلُوا بِأَيِّ شَيْءٍ﴾ يعنون لنا قوة وقدرة على الجلال والقتال ومقاومة الأبطال ، فإن أردت منا ذلك فإننا عليه من القدارين ﴿و﴾ مع هذا ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ فبدلوا لها السمع والطاعة ، وأخبروها بما عندهم من الاستطاعة ، وفوضوا إليها في ذلك الأمر لترى فيه ما هو الأرشد لها ولهم.

فكان رأيها أتم وأشد من رأيهم ، وعلمت أن صاحب هذا الكتاب لا يغالب ولا يمانع ولا يخالف ولا يخادع ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَاجَهَا آدِلَةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ تقول برأيها السيد: إن هذا الملك لو قد غلب على هذه المملكة لم يخلص الأمر من بينكم إلا إليّ ، ولم تكن الحدة والشدة والسطوة البليغة إلا عليّ ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاطِرَةٌ بِمَنْ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ أرادت أن تصانع عن نفسها ، وأهل مملكتها بهدية ترسلها وتحف تبعثها. ولم تعلم أن سليمان عليه السلام لا يقبل منهم والحالة هذه صرفاً ولا عدلاً ، لأنهم كافرون ، وهو وجنوده عليهم قادرون.

ولهذا: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَتَيْتُكُمْ بِإِمَالٍ فَمَا أَتَيْنِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا أَتَيْتُكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ هذا

وقد كانت تلك الهدايا مشتملة على أمور عظيمة ، ذكره المفسرون .

ثم قال لرسولها إليه ووافدها الذي قدم عليه والناس حاضرون يسمعون : ﴿ اَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُودٍ لَا قَبْلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ يقول : ارجع بهديتك التي قدمت بها إلى من قد من بها ، فإن عندي مما قد أنعم الله عليّ وأسداه إليّ من الأموال والتحف والرجال ما هو أضعاف هذا ، وخير من هذا الذي أنتم تفرحون به وتفخرون على أبناء جنسكم بسببه ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُودٍ لَا قَبْلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ أي : فلأبعثن إليهم بجنود لا يستطيعون دفاعهم ولا نزالهم ولا ممانعتهم ولا قتالهم ، ولأخرجنهم من بلادهم وحوزتهم ومعاملتهم ودولتهم أذلة ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ عليهم الصغار والعار والدمار .

فلما بلغهم ذلك عن نبي الله لم يكن لهم بد من السمع والطاعة ، فبادروا إلى إجابته في تلك الساعة وأقبلوا صحبة الملكة أجمعين سامعين مطيعين خاضعين . فلما سمع بقدمهم عليه ووفودهم إليه قال لمن بين يديه ممن هو مسخر له من الجان ما قصه الله عنه في القرآن : ﴿ قَالَ يَأْتِيَنَّ الْمَلُوكُ أَتَيْتُ بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتَوْا بِمُتْلَبٍ ﴾ ﴿ ٣٨ ﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَايِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيَّ أَمِينٌ ﴿ ٣٩ ﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَايِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنَ أَشْكُرْ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ عَزِيزٌ كَرِيمٌ ﴿ ٤٠ ﴾ قَالَ نَكُرُوا هَآءَا عَرْشَهَا نَنظُرُ أَتَنبِذُنَّ أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿ ٤١ ﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿ ٤٢ ﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿ ٤٣ ﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقِهَا قَالِ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [النمل : ٣٨ - ٤٤] .

لما طلب سليمان من الجان أن يحضروا له عرش بلقيس ، وهو سرير مملكتها التي تجلس عليه وقت حكمها ، قبل قدموها عليه ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَايِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ ﴾ يعني : قبل أن ينقضي مجلس حكمك ، وكان فيما يقال من أول النهار إلى قريب الزوال يتصدى لمهمات بني إسرائيل وما لهم من الأشغال ﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيَّ أَمِينٌ ﴾ أي : وإنني ل ذو قدرة على إحضاره إليه وأمانة على ما فيه من الجواهر النفيسة لديك ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ وقيل : هو رجل من مؤمني الجان ، أو جبريل : ﴿ أَنَا ءَايِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ قيل : معناه قبل أن تبعث رسولا إلى أقصى ما ينتهي إليه طرفك من الأرض ثم يعود إليك . وقيل : قبل أن يصل إليك أبعد من تراه الناس . وقيل : قبل أن يكلّ طرفك إذا أدمت النظر به ، قبل أن تطبق جفئك . وقيل : قبل أن يرجع إليك طرفك إذا نظرت به إلى أبعد غاية منك ثم أغمضته . وهذا أقرب ما قيل .

﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ ﴾ أي : فلما رأى عرش بلقيس مستقرا عنده في هذه المدة القرنية من بلاد اليمن إلى بيت المقدس في طرفه عين ﴿ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنَ أَشْكُرْ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ أي : هذا من فضل الله عليّ ، وفضله على عبده ، ليختبرهم على الشكر أو خلافه ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا =

يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴿١﴾ أي: إنما يعود نفع ذلك عليه ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَيْبَ غَفَىٰ كَرِيمٍ﴾ ﴿٢﴾ أي: غني عن شكر الشاكرين ، ولا يتضرر بكفر الكافرين .

ثم أمر سليمان عليه السلام أن يغير حلي هذا العرش ، وينكر لها ليختبر فهمها وعقلها ، ولهذا قال :

﴿نَظَرْتُ أَنفِذِي أَمْرَ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ﴿١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴿٢﴾ وهذا من فطنتها وغزارة فهمها ، لأنها استبعدت أن يكون عرشها لأنها خلفته وراءها بأرض اليمن ، ولم تكن تعلم أن أحداً يقدر على هذا الصنع العجيب الغريب ، قال الله تعالى إخباراً عن سليمان وقومه : ﴿وَأَوْرَثْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ ﴿٣﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤﴾ أي: ومنعها عبادة الشمس التي كانت تسجد لها هي وقومها من دون الله اتباعاً لدين آبائهم وأسلافهم ، لا لدليل قادم إلى ذلك ولا جادلهم على ذلك .

وكان سليمان قد أمر ببناء صرح من زجاج وعمل في ممره ماء ، وجعل عليه سقفاً من زجاج ، وجعل فيه السمك وغيرها من دواب الماء ، وأمرت بدخول الصرح وسليمان جالس على سريره فيه ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَبِطَتْ لُجَّةٌ وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ فَوَازِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

وقال تعالى في سورة ص : ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ﴿١﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَنِيِّ الصَّفِيفَتِ الْجِيَادِ ﴿٢﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطْفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا لَهَ الْفِتْنَةِ مِرْيَاسًا ثُمَّ جِئْنَاهُ بِجِسْمٍ بَهِيمٍ ﴿٥﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٦﴾ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَتَّى أَصَابَ ﴿٧﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ ﴿٨﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٩﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ وَإِنْ لَمْ عِنْدَنَا لُزْزَةٌ وَحُسْنُ مَثَابٍ ﴿[ص: ٣٠ - ٤٠]﴾ .

يذكر تعالى أنه وهب لداود سليمان عليهما السلام ، ثم أننى الله تعالى عليه فقال : ﴿نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ﴿١﴾ أي: رجاع مطيع لله ، ثم ذكر تعالى ما كان من أمره في الخيل ﴿الصَّفِيفَتِ﴾ وهي التي تقف على ثلاثة وطرف حافر الرابعة ، ﴿الْجِيَادِ﴾ وهي المضمرة السراع .

﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ يعني: الشمس . وقيل: الخيل على ما سنذكره من القولين ﴿رُدُّوَهَا عَلَيَّ فَطْفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ قيل: مسح عراقيها وأعناقها بالسيوف . وقيل: مسح عنها العرق لما أجراها وسابق بينها بين يديه على القول الآخر .

والذي عليه أكثر السلف الأول ، فقالوا: اشتغل بعرض تلك الخيول حتى خرج وقت العصر وغربت الشمس . وروي هذا عن علي بن أبي طالب وغيره . والذي يقطع به أنه لم يترك الصلاة عمداً من غير عذر ، اللهم إلا أن يقال إنه كان سائغاً في شريعتهم ، فأخر الصلاة لأجل أسباب الجهاد وعرض الخيل من ذلك .

وأما من قال: الضمير في قوله: ﴿حَقَّ تَوَارَتْ بِالْحَبَابِ﴾ عائد على الخيل ، وأنه لم ينته وقت الصلاة وأن المراد بقوله: ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطُفِقَ مَسْكًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ يعني: مسح العرق عن عراقيبها وأعناقها ، فهذا القول اختاره ابن جرير ، ورواه الوالبي عن ابن عباس في مسح العرق. ووجه هذا القول ابن جرير بأنه ما كان ليعذب الحيوان بالعرقبة ، ويهلك مالا بلا سبب ولا ذنب لها ، وهذا الذي قاله فيه نظر لأنه قد يكون هذا سائغا في ملتهم ، وقد ذهب بعض علمائنا إلى أنه إذا خاف المسلمون أن يظفر الكفار على شيء من الحيوانات من أغنام ونحوها جاز ذبحها وإهلاكها لئلا يتقووا بها ، وعليه حمل صنيع جعفر بن أبي طالب يوم عقر فرسه بموثة. وقد قيل: إنها كانت خيلا عظيمة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾. ذكر ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما من المفسرين هاهنا اثارا كثيرة عن جماعة من السلف ، وأكثرها أو كلها متلقاة من الإسرائيليات ، وفي كثير منها نكارة شديدة ، وقد نبهنا على ذلك في كتابنا التفسير واقتصرنا هاهنا على مجرد التلاوة.

ومضمون ما ذكره أن سليمان عليه السلام غاب عن سريره أربعين يوماً ثم عاد إليه ، ولما عاد أمر ببناء بيت المقدس فبناه بناءً محكماً ، وقد قدمنا أنه جده ، وأن أول من جعله مسجداً إسرائيل عليه السلام ، كما ذكرنا ذلك عند قول أبي ذر ، قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع أولاً؟ قال: «المسجد الحرام» قلت: ثم أي؟ قال: «مسجد بيت المقدس» ، قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة».

وأما الحكم الذي يوافق حكم الله تعالى فقد أثنى الله تعالى عليه وعلى أبيه في قوله: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ ﴿٧٦﴾ فَهَمَّهَا سُلَيْمَانُ وَكُلَّاءُ أَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وقد ذكر شريح القاضي وغير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كان لهم كرم فنفست فيه غنم قوم آخرين ، أي: رعته بالليل فأكلت شجره بالكلية ، فتحاكموا إلى داود عليه السلام فحكم لأصحاب الكرم بقيمته ، فلما خرجوا على سليمان قال: بم حكم لك نبي الله؟ فقالوا: بكذا وكذا ، فقال: أما لو كنت أنا لما حكمت إلا بتسليم الغنم إلى أصحاب الكرم فيستغلونها نتاجاً ودرأً حتى يصلح أصحاب الغنم كرم أولئك ويردوه إلى ما كان عليه ، ثم يتسلموا غنمهم ، فبلغ داود عليه السلام ذلك فحكم به.

وقريب من هذا ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما امرأتان معهما ابناهما إذ عدا الذئب فأخذ ابن إحداهما فتنازعتا في الآخر فقالت الكبرى: إنما ذهب بابنك. وقالت الصغرى: بل إنما ذهب بابنك. فتحاكما إلى داود فحكم به للكبرى ، فخرجتا على سليمان فقال: اتوني بالسكين أشقه نصفين لكل واحدة منكما نصفه. فقالت الصغرى: يرحمك الله هو ابنها. ففضى به لها» (البخاري/ح ٣٤٢٧).

ولعل كل من الحكمين كان سائغاً في شريعتهم ، ولكن ما قاله سليمان أرجح ، ولهذا أثنى الله عليه بما ألهمه إياه بعد ذلك فقال : ﴿ وَكَلَّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعَلَّمْنَا سَحَرَنَا مَعَ دَاوُدَ الْجَبَالِ يُسَيِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُخِصِّنَكُمْ مِّنْ بَاسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ .

ثم قال : ﴿ وَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾ أي : وسخرنا لسليمان الريح عاصفة ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَنَرُكُنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴾ (٨٠) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغْوُصُونَ لَمْ يَعْمَلُوا عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ وقال في سورة ص : ﴿ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ (٨١) وَالشَّيَاطِينِ كُلِّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴾ (٨٢) وَأَخْرَجْنَا مَقْرِنَيْنِ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ (٨٣) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٨٤) وَإِنَّ لَكُمْ عِندَنَا لَآلِفًا وَحُصْنَ مَغَافٍ .

لما ترك الخيل ابتغاء وجه الله عوضه الله منها الريح التي هي أسرع سيراً وأقوى وأعظم ولا كلفة عليه لها ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أي : حيث أراد من أي البلاد .

قال تعالى : ﴿ وَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوهاً شَرْ وِرَاحُها شَرْ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ يُادِنُ رَبَّيْهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِّنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٨٥) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْدَرٍ وَتَمْثِيلٍ وَحِفَافٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ [سبأ : ١٢ - ١٣] .

وقوله : ﴿ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ يُادِنُ رَبَّيْهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِّنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ أي : وسخر الله له من الجن عمالاً يعملون له ما يشاء لا يفترون ولا يخرجون عن طاعته ومن خرج منهم عن الأمر عذبه ونكل به ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْدَرٍ ﴾ وهي الأماكن الحسنة وصدور المجالس ﴿ وَتَمْثِيلٍ ﴾ وهي الصور في الجدران ، وكان هذا سائغاً في شريعتهم وملتهم ﴿ وَحِفَافٍ كَالْجَوَابِ ﴾ قال ابن عباس : الجنة كالجوبة من الأرض ، وعنه كالحياض . وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم . وعلى هذه الرواية يكون الجواب جمع جابية وهي الحوض الذي يجبي فيه الماء .

وأما القدور الراسيات فقال عكرمة : أثافيتها منها ، يعني : أنهم ثوابت لا يزلن عن أماكنهن ، وهكذا قال مجاهد وغير واحد . ولما كان هذا بصدد إطعام الطعام والإحسان إلى الخلق من إنسان وحيوان قال تعالى : ﴿ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَالشَّيَاطِينِ كُلِّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴾ (٧٧) وَأَخْرَجْنَا مَقْرِنَيْنِ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ أي : قد عصوا فقيدوا مقرنين اثنين اثنين في الأصفاد وهي القيود ، وهذا كله من جملة ما هياه الله وسخر له من الأشياء التي هي من تمام الملك ؛ الذي لا ينبغي لأحد من بعده ، ولم يكن أيضاً لمن كان قبله .

وقد قال البخاري : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن محمد بن زياد ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « إن عفريتاً من الجن تفلت عليّ البارحة ليقطع عليّ صلاتي فأمكنني الله منه فأخذته فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد =

حتى تنظروا إليه كلكم فذكرت دعوة أخي سليمان: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغِيَ لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ فرددته خاسئاً وكذا رواه مسلم والنسائي من حديث شعبة [انظر صحيح البخاري/٣٤٢٣].

وقال مسلم: حدثنا محمد بن سلمة المرادي، حدثنا عبد الله بن وهب، عن معاوية بن صالح، حدثني ربيعة بن يزيد، عن أبي إدريس الخولاني عن أبي الدرداء قال: قام رسول الله ﷺ يصلي فسمعناه يقول: «أعوذ بالله منك ألعنك بلعنة الله» ثلاثاً، وبسط يده كأنه يتناول شيئاً، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله قد سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك قال: «إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعل في وجهي فقلت: أعوذ بالله منك ثلاث مرات، ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة، فلم يستأخر ثلاث مرات، ثم أردت أخذه، والله لولا دعوة أخي سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان أهل المدينة» [انظر صحيح مسلم/ كتاب المساجد ومواضع الصلاة/ ٢/٤٠].

وقال أحمد: حدثنا أبو أحمد، حدثنا مرة بن معبد، حدثنا أبو عبيد حاجب سليمان، قال: رأيت عطاء بن يزيد الليثي قائماً يصلي، فذهبت أمر بين يديه فردني ثم قال: حدثني أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قام فصلى صلاة الصبح وهو خلفه فقراً فالتبست عليه القراءة. فلما فرغ من صلاته قال: «لو رأيتموني وإبليس فأهويت بيدي فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين أصبعي هاتين الإبهام والتي تليها، ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة، فمن استطاع منكم ألا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل». روى أبو داود منه: «فمن استطاع» إلى آخره عن أحمد بن سريج، عن أحمد الزبيري به [مسند أحمد/ ١١٧٨٠] وسنن أبي داود/ ٦٩٩.

نبي الله زكريا عليه السلام

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى:

[قصة زكريا ويحيى عليهما السلام]:

قال الله تعالى في كتابه العزيز: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: ﴿كَهَيْصَ ۝ ذِكْرَ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُ زَكِرِيَّا ۝ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ يَدَّأْهُ خَوِّفَ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝ يَرْنِي وَيُرْثِي مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝ يَنْزَكِرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۝ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَئِنٍ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۝ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ۝ قَالَ ءَابِتُكَ إِلَّا نُكَلِّمُ النَّاسَ تِلْكَ لَيْلٍ سَوِيًّا ۝ فَجَرَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ

الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَبْحِثُ خُذِ الصِّكْرَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَهُ الْحَكْمَ صَبِيحًا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَلَدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ [مريم: ١ - ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٢٨﴾ فَنَادَاهُ الْمَلَكُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ لِمَن يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٣٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَذَكَرَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَتَسْمِعُ بِالْغَيْبِ وَالْإِنْبَاءِ ﴿٣١﴾ آل عمران: ٣٧ - ٤١].

وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٩٥﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْأَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رِعَبًا وَرِهَبًا وَكَانُوا خَاشِعِينَ ﴿٩٦﴾ [الأنبياء: ٨٩ - ٩٠].

وقال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَنَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ [الأنعام: ٨٥].

والمقصود أن الله تعالى أمر رسوله ﷺ أن يقص على الناس خبر زكريا عليه السلام وما كان من أمره حين وهبه الله ولداً على الكبر ، وكانت امرأته مع ذلك عاقراً في حال شبيبته قد أسنت أيضاً ؛ حتى لا ييأس أحد من فضل الله ورحمته ولا يقنط من فضله تعالى: ﴿ذَكَرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاءُ خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ فَتَادَ عِنْدَ تَفْسِيرِهَا: إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ الْقَلْبَ النَّقِيَّ وَيَسْمَعُ الصَّوْتِ الْخَفِيَّ ، وقال بعض السلف: قام من الليل فنادى ربه مناداة أسرها عمن كان حاضراً عنده مخافة فقال: يا رب يا رب يا رب. فقال الله: لبيك لبيك ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ أي: ضعف وخار من الكبر ﴿وَأَسْتَعَلَّ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ استعارة من اشتعال النار في الحطب ، أي: غلب على سواد الشعر شيبه ، وقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أي: ما عودتني فيما أسألك إلا الإجابة وكان الباعث له على هذه المسألة أنه لما كفل مريم بنت عمران وكان كلما دخل عليها محرابها وجد عندها فاكهة في غير إبانها ولا في أوانها وهذه من كرامات الأولياء ، فعلم أن الرزاق للشيء في غير أوانه قادر على أن يرزقه ولداً وإن كان قد طعن في سنه ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ وقوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْتِ مِن وَّرَآءِي وَكَانَتْ أَمْرًا يُعَاقِرُ﴾ قيل: المراد بالموالي العصبية ، وكأنه خاف من تصرفهم بعده في بني إسرائيل بما لا يوافق شرع الله وطاعته فسأل وجود ولد من صلبه يكون برّاً تقيّاً مرضياً ولهذا قال: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ﴾ أي: من عندك بحولك وقوتك ﴿وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرْثُنِي﴾ أي: في النبوة والحكم في بني إسرائيل ﴿وَرِثْتُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ يعني: كما كان أباه وأسلافه من ذرية يعقوب أنبياء فاجعله مثلهم في الكرامة التي أكرمتهم بها من النبوة والوحي ، وليس المراد =

هاهنا وراثه المال كما زعم ذلك من زعمه من الشيعة ووافقهم ابن جرير هاهنا وحكاه عن أبي صالح من السلف ، لوجوه :

أحدها : ما قدمناه عند قوله تعالى : ﴿ وَرِثْ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ ﴾ أي : في النبوة والملك لما ذكرنا في الحديث المتفق عليه بين علماء الموارث في الصحاح والمسانيد والسنن وغيرها من طرق عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال : « لا نورث ما تركنا فهو صدقة » [صحيح البخاري/ ٦٧٢١] نص على أن رسول الله ﷺ لا يورث ، ولهذا منع الصديق أن يصرف ما كان يختص به في حياته إلى أحد من ورثته الذين لولا هذا النص لصرف إليهم ، وهم ابنته فاطمة وأزواجه التسع وعمه العباس رضي الله عنهم ، واحتج عليهم الصديق في منعه إياهم بهذا الحديث ، وقد وافقه على روايته عن رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وأبو هريرة وآخرون رضي الله عنهم .

والثاني : أن الترمذي رواه بلفظ يعم سائر الأنبياء : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » وصححه . الثالث : أن الدنيا كانت أحقر عند الأنبياء من أن يكتزوا لها أو يلتفتوا إليها أو يهتمهم أمرها حتى يسألوا الأولاد ليحوزوها بعدهم ، فإن من لا يصل إلى قريب من منازلهم في الزهاده لا يهتم بهذا المقدار أن يسأل ولداً يكون وارثاً له فيها .

الرابع : أن زكريا عليه السلام كان نجاراً يعمل بيده ويأكل من كسبها ، كما كان داود عليه السلام يأكل من كسب يده ، والغالب ولا سيما من مثل حال الأنبياء أنه لا يجهد نفسه في العمل إجهاداً يستفضل منه مالا يكون ذخيرة له ولمن يخلفه من بعده . وهذا أمر بين واضح لكل من تأمله وتدبره وتفهمه إن شاء الله .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، يعني : ابن هارون ، أنبأنا حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أبي رافع ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كان زكريا نجاراً » وهكذا رواه مسلم وابن ماجه من غير وجه ، عن حماد بن سلمة به [مسلم/ ح ٢٣٧٩] و[أحمد/ ح ١٧٩٥٢] .

وقوله : ﴿ يَنْزَكِرُنَا إِنَّا بُشِّرُكَ بِقُلْتِمْ أَسْمُؤُ بَحْيٍ لَمْ يَجْعَلْ لَكُم مِّن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ وهذا مفسر بقوله : ﴿ فَتَدَاتَهُ الْمَلَكُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [آل عمران : ٣٩] .

فلما بشر بالولد وتحقق البشارة شرع يستعلم على وجه التعجب وجود الولد له والحالة هذه ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ أي : كيف يوجد ولد من شيخ كبير ، ﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا ﴾ يعني : وقد كانت امرأتي في حال شببيتها عاقراً لا تلد ، والله أعلم .

كما قال الخليل : ﴿ أَبَشِّرْهُمُونِي إِذْ أَنَسَى الْكِبَرُ فِيمَ يُبَشِّرُونِ ﴾ وقالت سارة : ﴿ يَتَوَلَّيْنِي أَلَدًا وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ ﴿ ٧٦ ﴾ قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ

أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرَىٰ يُجْهِدُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٧﴾ [هود:]

٧٢ - ٧٤]

وهكذا أجيب زكريا عليه السلام ، قال له الملك الذي يوحى إليه بأمر ربه : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَٰئِنٍ ﴾ أي : هذا سهل يسير عليه ﴿ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ أي : قدرته أوجدتك بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً ، أفلا يوجد منك ولد وإن كنت شيئاً ؟ !
وقال تعالى : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُمُ وَوَهَبْنَا لَهُمُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُمُ زَوْجَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ ومعنى إصلاح زوجته أنها كانت لا تحيض فحاضت . وقيل : كان في لسانها شيء ، أي : بذاءة .

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً ﴾ أي : علامة على وقت تعلق مني المرأة بهذا الولد المبشر به ﴿ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ يقول علامة ذلك أن يعتريك سكوت لا تنطق معه ثلاثة أيام إلا رمزاً ، وأنت في ذلك سوي الخلق صحيح المزاج معتدل البنية ، وأمر بكثرة الذكر في هذه الحال بالقلب ، واستحضار ذلك بفؤاده بالعشي والإبكار ، فلما بشر بهذه البشارة خرج مسروراً بها على قومه من محرابه ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ والوحي هاهنا هو الأمر الخفي إما بكتابة ، كما قاله مجاهد والسدي ، أو إشارة كما قاله مجاهد أيضاً ووهب وقتادة ، قال مجاهد وعكرمة ووهب والسدي وقتادة : اعتقل لسانه من غير مرض . وقال ابن زيد : كان يقرأ ويسبح ولكن لا يستطيع كلام أحد .

وقوله تعالى : ﴿ يَبْيِخِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآيَاتُنَا لَكُم صَبِيًّا ﴾ يخبر تعالى عن وجود الولد ، وفق البشارة الإلهية لأبيه زكريا عليه السلام ، وأن الله علمه الكتاب والحكمة وهو صغير في حال صباه .

وأما قوله : ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ وعن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك : ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ أي : رحمة من عندنا ، رحمنا بها زكريا فوهبنا له هذا الولد ، وعن عكرمة : ﴿ وَحَنَانًا ﴾ أي : محبة عليه ، ويحتمل أن يكون ذلك صفة لتحنن يحيى على الناس ولا سيما على أبويه ، وهو محبتهم والشفقة عليهما وبره بهما .

وأما الزكاة فهي طهارة الخلق وسلامته من النقائص والردائل . والتقوى طاعة الله بامتثال أوامره وترك زواجه . ثم ذكر بره بوالديه وطاعته لهما أمراً ونهيّاً وترك عقوقهما قولاً وفعلّاً فقال : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ ثم قال : ﴿ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ هذه الأوقات الثلاثة أشد ما تكون على الإنسان ، فإنه ينتقل في كل منها من عالم إلى عالم آخر ، فيفقد الأول بعدما كان ألفه وعرفه ، ويصير إلى الآخر ولا يدرى ما بين يديه ، ولهذا يستهل صارخاً إذا خرج من بين الأحشاء وفارق لينها وضمها ، وينتقل إلى هذه الدار ليكابدها همومها وغمها ! .

وكذلك إذا فارق هذه الدار وانتقل إلى عالم البرزخ بينها وبين دار القرار ، وصار بعد الدور =

والقصور إلى عرصة الأموات سكان القبور ، وانتظر هناك النفخة في الصور ليوم البعث والنشور ، فمن مسرور ومحبور ومن محزون ومثبور ، وما بين جبير وكسير وفريق في الجنة وفريق في السعير .

ولما كانت هذه المواطن الثلاثة أشق ما تكون على ابن آدم سلم الله على يحيى في كل موطن منها فقال : ﴿ وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ .

وأما قوله في الآية الأخرى : ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ فقيل : المراد بالحضور الذي لا يأتي النساء ، وقيل غير ذلك ، وهو أشبه لقوله : ﴿ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، أنبأنا أبو خلف موسى بن خلف ، وكان يعد من البدلاء حدثنا يحيى بن أبي كثير ، عن زيد بن سلام ، عن جده ممطور ، عن الحارث الأشعري أن النبي ﷺ قال : « إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن ، فإما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن . فقال : يا أخي إني أخشى إن سبقتني أن أعذب أو يخسف بي ، قال : فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعده على الشرف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله عز وجل أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وأمركن أن تعملوا بهن . وأولهن أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً ، فإن مثل ذلك مثل من اشترى عبداً من خالص ماله بورق أو ذهب فجعل يعمل ويؤدي غلته إلى غير سيده ، فأياكم يسره أن يكون عبده كذلك ، وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً .

أمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجهه قبل عبده ما لم يلتفت فإذا صليتم فلا تلتفتوا . وأمركم بالصيام فإن الله مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك ، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

أمركم بالصدقة ، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال : هل لكم أن أفندي نفسي منكم فجعل يفندي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه .

أمركم بذكر الله عز وجل كثيراً ، فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً في إثره فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه ، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عز وجل .

قال : وقال رسول الله ﷺ : « وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن : بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد في سبيل الله ، فإن من خرج عن الجماعة قيد شبر فقد خلع ربة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع ، ومن دعا بدوى الجاهلية فهو من جثا جهنم ، قال : يا رسول الله وإن صام وصلى ؟ قال : وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم ، ادعوا المسلمين بأسمائهم بما سماهم الله عز وجل المسلمين المؤمنين عباد الله عز وجل » (أحمد/ ح ١٧١٧٠) .

وهكذا رواه أبو يعلى عن هذبة بن خالد ، عن أبان بن زيد ، عن يحيى بن أبي كثير به . =

وكذلك رواه الترمذي من حديث أبي داود الطيالسي وموسى بن إسماعيل ، وكلاهما عن أبان بن يزيد العطار به ، ورواه ابن ماجه عن هشام بن عمار ، عن محمد بن شعيب بن سابور ، عن معاوية بن سلام ، عن أخيه زيد بن سلام ، عن أبي سلام ، عن الحارث الأشعري به ، ورواه الحاكم من طريق مروان بن محمد الطاطري ، عن معاوية بن سلام ، عن أخيه به . ثم قال : تفرد به مروان الطاطري ، عن معاوية بن سلام . [انظر «أبو يعلى» ١٥٧١ والطبراني/٣/٣٤٣٠].

قلت : وليس كما قال . ورواه الطبراني عن محمد بن عبدة ، عن أبي توبة الربيع بن نافع ، عن معاوية بن سلام ، عن أبي سلام ، عن الحارث الأشعري . فذكر نحوه فسقط ذكر زيد بن سلام ، عن أبي سلام ، عن الحارث الأشعري فذكر نحوه هذه الرواية ، قلنا الحديث أخرجه أحمد (١/٦٠٥) .

نبي الله عيسى عليه السلام

قال تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ مِنْ بَيْنِ عَمَلِهِمْ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُمُ الْمَلَكُ الْمُبَارَكُ خُذُوا زِينَتَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥ ﴾ إِذْ قَالَتْ أَمْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٢٦ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَكِنَّ آلَكَرَّ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٢٧ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِؤُكَ أَنَّىٰ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٢٨ ﴾ [آل عمران : ٣٣ - ٣٧] .

يذكر تعالى أنه اصطفى آدم عليه السلام والخلص من ذريته المتبعين شرعه الملازمين طاعته ، ثم خصص فقال : ﴿ وَآلَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ فدخل فيهم بنو إسماعيل ، ثم ذكر فضل هذا البيت الطاهر الطيب وهم آل عمران ، والمراد بعمران هذا والد مريم عليها السلام . ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ وقرئ بضم التاء ﴿ وَلَكِنَّ آلَكَرَّ كَالْأُنْثَىٰ ﴾ أي : في خدمة بيت المقدس ، وكانوا في ذلك الزمان يندرون لبيت المقدس خداماً من أولادهم .

وقولها : ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ استدل به على تسمية المولود يوم يولد ، وكما ثبت في الصحيحين عن أنس في ذهابه بأخيه إلى رسول الله ﷺ فحنك أخاه وسماه عبد الله . وجاء في حديث الحسن عن سمرة مرفوعاً : « كل غلام رهينة بعقيقته تذبح عنه يوم سابعه ويسمى ويحلق رأسه » رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي . [أحمد/٢٠١/٤ ، والترمذي/ح١٥٢٢] .

وقولها : ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ قد استجيب لها في هذا كما تقبل منها نذرهما ، فقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهري ، عن ابن =

يُؤْتِيَكُمْ إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ وَمَصْرَفًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْبَةِ وَلِأَجْلِ لَكُمْ
بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٥٢﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ
فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥٣﴾ [ال عمران: ٤٢ - ٥١]

يذكر تعالى أن الملائكة بشرت مريم باصطفاء الله لها من بين سائر نساء عالم زمانها ، بأن
اختارها لإيجاد ولد منها من غير أب ، وبشرت بأن يكون نبياً شريفاً ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾
أي: في صغره يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وكذلك في حال كهولته ، فدل
على أنه يبلغ الكهولة ويدعو إلى الله فيها ، وأمرت بكثرة العبادة والقنوت والسجود والركوع
لتكون أهلاً لهذه الكرامة ، ولتقوم بشكر هذه النعمة .

فقول الملائكة: ﴿يَكْرِمُكَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ أي: اختارك واجتباك ﴿وَطَهَّرَكَ﴾ أي: من
الأخلاق الرذيلة ، وأعطاك الصفات الجميلة ﴿وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ يحتمل أن يكون
المراد عالمي زمانها كقوله لموسى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ وكقوله عن بني إسرائيل:
﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمِي عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام أفضل من موسى ، وأن
محمدًا ﷺ أفضل منهما ، وكذلك هذه الأمة أفضل من سائر الأمم قبلها وأكثر عدداً وأفضل
علماً وأزكى عملاً من بني إسرائيل وغيرهم .

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ محفوظ العموم فتكون أفضل نساء
الدنيا ممن كان قبلها أو وُجد بعدها لأنها إن كانت نبية على قول من يقول بنبوته ونبوة سارة
أم إسحاق ونبوة أم موسى محتجاً بكلام الملائكة والوحي إلى أم موسى ، كما يزعم ذلك ابن
حزم وغيره ، فلا يمتنع على هذا أن تكون مريم أفضل من سارة وأم موسى لعموم قوله:
﴿وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ إذ لم يعارضه غيره . . . والله أعلم .

وأما قول الجمهور كما قد حكاه أبو الحسن الأشعري وغيره عن أهل السنة والجماعة من أن
النبوة مختصة بالرجال ، وليس في النساء نبية فيكون أعلى مقامات مريم ، كما قال الله
تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ فعلى هذا
لا يمتنع أن تكون أفضل الصديقات المشهورات ممن كان قبلها وممن يكون بعدها . . . والله
أعلم . وقد جاء ذكرها مقروناً مع آسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد
ﷺ ورضي الله عنهم وأرضاهن .

وقد روى الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق عديدة ، عن هشام بن
عروة ، عن أبيه ، عن عبد الله بن جعفر ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال
رسول الله ﷺ: «خير نساؤها مريم بنت عمران ، وخير نساها خديجة بنت خويلد»
[البخاري/ح ٣٤٣٢] و[أحمد ٦٤٠] و[مسلم ٢٤٣٠] .

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر ، عن قتادة ، عن أنس ، قال: قال
رسول الله ﷺ: «حسبك من نساء العالمين بأربع: مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، =

= وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد» [أحمد/ح ١٢٣٩٤].

ورواه الترمذي عن أبي بكر بن زنجويه ، عن عبد الرزاق به وصححه ، ورواه ابن مردويه من طريق عبد الله بن أبي جعفر الرازي وابن عساكر من طريق تميم بن زياد ، كلاهما عن أبي جعفر الرازي ، عن ثابت ، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «خير نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران ، واسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد رسول الله».

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهري ، عن ابن المسيب ، قال: كان أبو هريرة يحدث أن النبي ﷺ قال: «خير نساء ركن الإبل صالح نساء قريش أحناه على ولد في صغره وأرعاه لزوج في ذات يده» قال أبو هريرة: لم تركب مريم بعيراً قط. [مسند أحمد/٧٦٥٤].

وقد رواه مسلم في صحيحه عن محمد بن رافع وعبد بن حميد ، كلاهما عن عبد الرزاق به. [صحيح مسلم/٢٠١/٢٥٢٧].

وقال أحمد: حدثنا زيد بن الحباب ، حدثني موسى بن علي ، سمعت أبي يقول: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «خير نساء ركن الإبل نساء قريش أحناه على ولد في صغره وأرافه بزواج على قلة ذات يده» ، قال أبو هريرة: وقد علم رسول الله ﷺ أن ابنة عمران لم تركب الإبل. تفرد به وهو على شرط الصحيح. ولهذا الحديث طرق أخرى عن أبي هريرة.

وقال أبو يعلى الموصلي: حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا داود بن أبي الفرات ، عن علباء بن أحمر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال: خط رسول الله ﷺ في الأرض أربع خطوط فقال: «أتدرون ما هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم ، فقال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران واسية بنت مزاحم امرأة فرعون» ورواه النسائي من طرق عن داود بن أبي هند.

وقد رواه ابن عساكر من طريق أبي بكر عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث ، حدثنا يحيى بن حاتم العسكري: أنبأنا بشر بن مهرا بن حمدان ، حدثنا محمد بن دينار ، عن داود بن أبي هند ، عن الشعبي ، عن جابر بن عبد الله ، قال: قال رسول الله ﷺ: «حسبك منهن أربع سيدات نساء العالمين: فاطمة بنت محمد ، وخديجة بنت خويلد ، واسية بنت مزاحم ، ومريم بنت عمران».

وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا وهب بن بقية ، حدثنا خالد بن عبد الله الواسطي ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن عائشة ، أنها قالت لفاطمة: «أرايت حين أكببت على رسول الله ﷺ فكبكت ثم ضحكت؟» قالت: أخبرني أنه ميت من وجعه هذا فكبكت ، ثم أكببت عليه فأخبرني أنني أسرع أهله لحوقاً به وأني سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران =

فضحكت». وأصل هذا الحديث في الصحيح . وهذا إسناد على شرط مسلم وفيه أنهما أفضل الأربع المذكورات .

وهكذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد : حدثنا عثمان بن محمد ، حدثنا جرير ، عن يزيد - هو ابن أبي زياد - عن عبد الرحمن بن أبي نعيم ، عن أبي سعيد ، قال : قال رسول الله ﷺ : «فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا ما كان من مريم بنت عمران» إسناد حسن وصححه الترمذي ولم يخرجوه ، وقد روي نحوه من حديث علي بن أبي طالب ولكن في إسناده ضعف .

والمقصود أن هذا يدل على أن مريم وفاطمة أفضل هذه الأربع . ثم يحتمل الاستثناء أن تكون مريم أفضل من فاطمة ويحتمل أن يكونا على السواء في الفضيلة .

ولكن ورد حديث إن صح عين الاحتمال الأول فقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر : أنبأنا أبو الحسين بن الفراء وأبو غالب وأبو عبد الله ابنا البنا ، قالوا : أنبأنا أبو جعفر بن المسلمة ، أنبأنا أبو طاهر المخلص ، حدثنا أحمد بن سليمان ، حدثنا الزبير هو ابن بكار ، حدثنا محمد بن الحسن ، عن عبد العزيز بن محمد ، عن موسى بن عقبة ، عن كريب ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «سيدة نساء أهل الجنة مريم بنت عمران ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية امرأة فرعون» . فإن كان هذا اللفظ محفوظاً بشم التي للترتيب فهو مبين لأحد الاحتمالين اللذين دل عليهما الاستثناء ، وتقدم على ما تقدم من الألفاظ التي وردت بواو العطف التي لا تقتضي الترتيب ولا تنفيه ، والله أعلم .

وقد روى هذا الحديث أبو حاتم الرازي عن داود الجعفري ، عن عبد العزيز بن محمد وهو الدراوردي ، عن إبراهيم ، عن عقبة ، عن كريب ، عن ابن عباس مرفوعاً ، فذكره بواو العطف لا بشم الترتيبية ، فخالفه إسناداً ومتناً فإله أعلم .

فأما الحديث الذي رواه ابن مردويه من حديث شعبة ، عن معاوية بن قرة ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : «كامل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاث : مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» وهكذا الحديث الذي رواه الجماعة إلا أبا داود من طرق ، عن شعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن مرة الهمداني ، عن أبي موسى الأشعري ، قال : قال رسول الله ﷺ : «كامل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» .

فإنه حديث صحيح كما ترى اتفق الشيخان على إخراجه ، ولفظه يقتضي حصر الكمال في النساء في مريم وآسية ، ولعل المراد بذلك في زمانهما فإن كلاً منهما كفلت نبياً في حال صغره ، فآسية كفلت موسى الكليم ، ومريم كفلت ولدها عبد الله ورسوله ، فلا ينفي كمال غيرهما في هذه الأمة كخديجة وفاطمة .

فخديجة خدمت رسول الله ﷺ قبل البعثة خمسة عشر سنة وبعدها أزيد من عشر سنين ، وكانت له وزير صدق بنفسها ومالها ، رضي الله عنها وأرضاها . وأما فاطمة بنت رسول الله ﷺ فإنها خصت بمزيد فضيلة على أخواتها لأنها أصيبت برسول الله ﷺ وبقيت أخواتها متن في حياة النبي ﷺ .

وأما عائشة فإنها كانت أحب أزواج رسول الله ﷺ إليه ولم يتزوج بكراً غيرها ، ولا يعرف في سائر النساء في هذه الأمة - بل ولا في غيرها - أعلم منها ولا أفهم ، وقد غار الله لها حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فأنزله الله براءتها من فوق سبع سموات ، وقد عمرت بعد رسول الله ﷺ قريباً من خمسين سنة تبلغ عنه القرآن والسنة وتفتي المسلمين وتصلح بين المختلفين وهي أشرف أمهات المؤمنين حتى خديجة بنت خويلد أم البنات والبنين في قول طائفة من العلماء السابقين واللاحقين ، والأحسن الوقف فيهما رضي الله عنهما ، وما ذاك إلا لأن قوله ﷺ : «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» يحتمل أن يكون عاماً بالنسبة إلى المذكورات وغيرهن ، ويحتمل أن يكون عاماً بالنسبة إلى ما عدا المذكورات والله أعلم .

والمقصود هاهنا ذكر ما يتعلق بمريم بنت عمران عليها السلام ، فإن الله طهرها واصطفاهها على نساء عالم زمانها ، ويجوز أن يكون تفضيلها على النساء مطلقاً كما قدمنا .

[ميلاد عيسى ابن مريم] : **﴿ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۖ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۖ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ ۖ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ۖ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۖ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۖ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً ۖ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۖ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ۖ فَلَمَّا هِيَ الْمَخَاضُ إِلَى جَنَعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ۖ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۖ وَهَزَيْتَ إِلَيْكَ بِجَنَعِ النَّخْلَةِ فَسَاقُطٌ عَلَيْكَ رَطْبٌ جَابٍ ۖ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَفَرِي عَيْتًا فِيمَا تَرْضَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَلِذَا فَعُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ۖ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا فَحَمَلَهُ فَالَوْا بِمَرْيَمَ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ۖ يَتَّخِذُ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوَاءً وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ۖ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأُمْتَرِ صَبِيًّا ۖ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ وَبَرًّا بِوَالِدِيَّ وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَارًا شَقِيًّا ۖ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أُمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۖ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۖ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا فَعِضَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۖ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۖ فَاتَّخَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۖ ﴾ [مريم : ١٦ - ٣٧] .**

ذكر تعالى هذه القصة بعد قصة زكريا التي هي كالمقدمة لها والتوطئة قبلها ، كما ذكر في =

سورة آل عمران ، وقرن بينهما في سياق واحد ، وكما قال في سورة الأنبياء : ﴿ وَزَكَرْنَا إِذْ نَادَى رَبُّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْأَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيدْعُونَكَ رَعْبًا وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٩٠﴾ وَالَّتِي أَحْصَيْنْتَ فَزْجَهَا فَفَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ [الأنبياء : ٨٩ - ٩١].

وقد تقدم أن مريم لما جعلتها أمها محررة تخدم بيت المقدس ، وأنه كفلهما زوج أختها أو خالتها نبي ذلك الزمان زكريا عليه السلام ، وأنه اتخذ لها محراباً وهو المكان الشريف من المسجد ، لا يدخله أحد عليها سواه ، وأنها لما بلغت اجتهدت في العبادة ، فلم يكن في ذلك الزمان نظيرها في فنون العبادات ، وظهر عليها من الأحوال ما غبطها به زكريا عليه السلام ، وأنها خاطبتها الملائكة بالبشارة لها باصطفاء الله لها وبأنه سيهب لها ولداً زكياً يكون نبياً كريماً طاهراً مكرماً مؤيداً بالمعجزات ، فتعجبت من وجود ولد من غير والد ، لأنها لا زوج لها ، ولا هي ممن تتزوج ، فأخبرتها الملائكة بأن الله قادر على ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن فيكون ، فاستكانت لذلك وأنابت وسلمت لأمر الله ، وعلمت أن هذا فيه محنة عظيمة لها ، فإن الناس يتكلمون فيها بسببه ، لأنهم لا يعلمون حقيقة الأمر ، وإنما ينظرون إلى ظاهر الحال من غير تدبر ولا تعقل .

وكانت إنما تخرج من المسجد في زمن حيضها أو لحاجة ضرورية لا بد منها من استقاء ماء أو تحصيل غذاء ، فبينما هي يوماً قد خرجت لبعض شؤونها و﴿ أَنْبَذَتْ ﴾ أي : انفردت وحدها شرقي المسجد الأقصى إذ بعث الله إليها الروح الأمين جبريل عليه السلام ﴿ فَمَثَلْ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ فلما رآته ﴿ قَالَتْ إِنَّهُ عَوْدٌ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا ﴾ قال أبو العالية : علمت أن التقى ذو نهية . وهذا يرد قول من زعم أنه كان في بني إسرائيل رجل فاسق مشهور بالفسق اسمه «تقي» فإن هذا قول باطل بلا دليل ، وهو من أسخف الأقوال .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ أي : خاطبها الملك ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ أي : لست ببشر ولكني ملك بعثني الله إليك ﴿ لِأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ أي : ولداً زكياً . ﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ ﴾ أي : كيف يكون لي غلام أو يوجد لي ولد ﴿ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ أي : ولست ذات زوج وما أنا ممن يفعل الفاحشة ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْئٍ ﴾ أي : فأجابها الملك عن تعجبها من وجود ولد منها والحالة هذه قائلاً : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ ﴾ أي : وعد أنه سيخلق منك غلاماً ولست بذات بعل ، ولا تكونين ممن تبغين ﴿ هُوَ عَلَى هَيْئٍ ﴾ أي : وهذا سهل عليه ويسير لديه ، فإنه على ما يشاء قدير .

وقوله : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ أي : ولنجعل خلقه والحالة هذه دليلاً على كمال قدرتنا على أنواع الخلق ، فإنه تعالى خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى . وقوله : ﴿ وَرَحْمَةً -

مَنَّاً أَي: نرحم به العباد بأن يدعوهم إلى الله في صغره وكبره في طفولته وكهولته ، بأن يفردوا الله بالعبادة وحده لا شريك له ، وينزهوه عن اتخاذ صاحبة الأولاد والشركاء والنظراء والأضداد والأنداد.

وقوله: ﴿وَكَاثَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ يحتمل أن يكون هذا من تمام كلام جبريل معها ، يعني: أن هذا أمر قضاء الله وحتمه وقدره وقرره ، وهذا معنى قول محمد بن إسحاق واختيار ابن جرير ، ولم يحك سواه . . . والله أعلم. ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَكَاثَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ كناية عن نفخ جبريل فيها كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾.

والصحيح أن تعقيب كل شيء بحسبه ، كقوله: ﴿فَنُصِخَ الْأَرْضَ مُخَصَّرَةً﴾ وكقوله: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النَّفْثَةَ عِلْقَةً فَخَلَقْنَا الْعِلْقَةَ مِضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمِضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ ومعلوم أن بين كل حالين أربعين يوماً كما ثبت في الحديث المتفق عليه . قال محمد بن إسحاق: شاع واشتهر في بني إسرائيل أنها حامل ، فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل بيت زكريا.

وقوله: ﴿فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جَنْعِ النَّخْلَةِ﴾ أي: فآلجأها واضطرها الطلق إلى جذع النخلة ، وهو بنص الحديث الذي رواه النسائي بإسناد لا بأس به عن أنس مرفوعاً والبيهقي بإسناد وصححه عن شداد بن أوس مرفوعاً أيضاً بيت لحم الذي بنى عليه بعض ملوك الروم فيما بعد على ما سنذكره هذا البناء المشاهد الهائل.

﴿قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ فيه دليل على جواز تمنى الموت عند الفتن ، وذلك أنها علمت أن الناس يتهمونها ولا يصدقونها بل يكذبونها حين تأتيمهم بغلام على يدها ، مع أنها قد كانت عندهم من العابدات الناسكات المجاورات في المسجد المنقطعات إليه المعتكفات فيه ، ومن بيت النبوة والديانة فحملت بسبب ذلك من الهم ما تمت أن لو كانت ماتت قبل هذا الحال أو كانت ﴿نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ أي: لم تخلق بالكلية. وقوله: ﴿فَادْنِهَا مِنْ نَحْوِهَا﴾ وقرئ (مَنْ تَحْتَهَا).

وفي المضمهر قولان ، أحدهما أنه جبريل ، قاله العوفي عن ابن عباس قال: ولم يتكلم عيسى إلا بحضرة القوم. وبهذا قال سعيد بن جبير وعمرو بن ميمون والضحاك والسدي وقتادة. وقال مجاهد والحسن وابن زيد وسعيد بن جبير في رواية: هو ابنها عيسى ، واختاره ابن جرير.

وقوله: ﴿أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ قيل: النهر ، وإليه ذهب الجمهور. وجاء فيه حديث رواه الطبراني لكنه ضعيف واختاره ابن جرير وهو الصحيح. وعن الحسن والربيع بن أنس وابن أسلم وغيرهم أنه ابنها. والصحيح الأول لقوله: ﴿وَهَرَى إِلَيْكَ جَنْعُ النَّخْلَةِ سَقِطَ عَلَيْكَ رُطْبًا حَيًّا﴾ فذكر الطعام والشراب ، ولهذا قال: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَفَرِّي عَيْنًا﴾.

قوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ وهذا من تمام كلام الذي ناداها من تحتها قال: ﴿فَكُلِّي وَأَشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أي: فإن رأيت أحداً من الناس ﴿فَقُولِي﴾ له أي بلسان الحال والإشارة ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ أي: صمتاً ، وكان من صومهم في شريعتهم ترك الكلام والطعام. قاله قتادة والسدي وابن أسلم. ويدل على ذلك قوله: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ فأما في شريعتنا فيكره للصائم صمت يوم إلى الليل.

وقوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرَيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ ﴿يَتَّخَذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوهُ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعِيًّا﴾ ﴿يَمْرَيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ أي: أمراً عظيماً منكراً. ظاهر سياق القرآن العظيم يدل على أنها حملته بنفسها وأنت به قومه وهي تحمله. والمقصود أنهم لما رأوها تحمل معها ولدها ﴿قَالُوا يَمْرَيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ والفرية هي الفعل المنكرة العظيمة من الفعال والمقال.

ثم قالوا لها: ﴿يَتَّخَذَ هَرُونَ﴾ قيل: شبهوها بعباد من عباد زمانهم كانت تساميه في العبادة ، وكان اسمه هارون. قاله سعيد بن جبير. وقيل: أرادوا بهارون أخا موسى شبهوها به في العبادة ، وأخطأ محمد بن كعب القرظي في زعمه أنها أخت موسى وهارون نسباً فإن بينهما من الدهور الطويلة ما لا يخفى على أدنى من عنده من العلم ما يرده عن هذا القول الفظيع ، وكأنه غره أن في التوراة أن مريم أخت موسى وهارون ضربت بالدف يوم نجى الله موسى وقومه وأغرق فرعون وملأه ، فاعتقد أن هذه هي هذه.

وهذا في غاية البطلان والمخالفة للحديث الصحيح مع نص القرآن كما قرناه في التفسير مطولاً والله الحمد والمنة. وقد ورد في الحديث الصحيح الدال على أنه قد كان لها أخ اسمه هارون، وفي ذكر قصة ولادتها وتحرير أمها لها ما يدل على أنها ليس لها أخ سواها، والله أعلم.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن إدريس، سمعت أبي يذكره، عن سماك، عن علقمة بن وائل، عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران فقالوا: أ رأيت ما تقرؤون: ﴿يَتَّخَذَ هَرُونَ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال: فرحت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم» [مسند أحمد/ح ١٨٢٢٦].

وكذا رواه مسلم والنسائي والترمذي من حديث عبد الله بن إدريس ، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديثه ، وفي رواية: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بأسماء صالحهم وأنبيائهم» [مسلم/٩/٢١٣٥] والترمذي [ح/٣١٥٥].

والمقصود أنهم قالوا: ﴿يَتَّخَذَ هَرُونَ﴾ ودل الحديث على أنها قد كان لها أخ نسبي اسمه هارون ، وكان مشهوراً بالدين والصلاة والخير ، ولهذا قالوا: ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ

أَمْكَ بَيْتًا أَي: لست من بيت هذه شيمتهم ولا سجيتهم ، لا أخوك ولا أملك ولا أبوك ، فاتهموها بالفاحشة العظمى ، ورموها بالداهية الدهياء .

فلما ضاق الحال وانحصر المجال وامتنع المقال ، عَظُمَ التوكل على ذي الجلال ، ولم يبقَ إلا الإخلاص والاتكال ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ أي : خاطبوه وكلموه فإن جوابكم عليه وما تبغون من الكلام لديه ، فعندها ﴿ قَالُوا ﴾ من كان منهم جباراً شقياً : ﴿ كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً ﴾ أي : كيف تحيلينا في الجواب على صبي صغير لا يعقل الخطاب ، وهو مع ذلك رضيع في مهده ولا يميز بين مخيض وزبدة ، وما هذا منك إلا على سبيل التهكم بنا والاستهزاء والنقص لنا والازدراء ، إذ لا ترددين علينا قولاً نطقياً ، بل تحلين في الجواب على من كان في المهد صبياً فعندها : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالْصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً ۖ وَبَرّاً بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً ۖ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ [مريم : ٣٠ - ٣٣] .

هذا أول كلام نقوه به عيسى ابن مريم ، فكان أول ما تكلم به أن ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ اعترف لربه تعالى بالعبودية ، وأن الله ربه ، فنزه جناب الله عن قول الظالمين في زعمهم أنه ابن الله ، بل هو عبده ورسوله وابن أمته ، ثم برأ أمه مما نسبها إليه الجاهلون وقذفوها به ورموها بسببه بقوله : ﴿ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ﴾ فإن الله لا يعطي النبوة من هو كما زعموا لعنهم الله وقبحهم ، وكما قال تعالى : ﴿ وَيَكْفُرْهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ هُنَّ عَظِيمَا ﴾ وذلك أن طائفة من اليهود في ذلك الزمان قالوا : إنها حملت به من زنى في زمن الحيض ، لعنهم الله فبرأها الله من ذلك ، وأخبر عنها أنها صديقة واتخذ ولدها نبياً مرسلأ أحد أولي العزم الخمسة الكبار ، ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ ﴾ وذلك أنه حيث كان دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونزه جنابه عن النقص والعيب من اتخاذ الولد والصاحبة تعالى وتقدس ﴿ وَأَوْصَانِي بِالْصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً ﴾ وهذه وظيفة العبيد في القيام بحق العزيز الحميد بالصلاة ، والإحسان إلى الخليفة بالزكاة ، وهي تشتمل على طهارة النفوس من الأخلاق الرذيلة وتطهير الأموال الجزيلة بالعطية للمحاييج على اختلاف الأصناف وقرى الأضياف والنفقات على الزوجات والأرقاء والقربات وسائر وجوه الطاعات وأنواع القربات .

ثم قال : ﴿ وَبَرّاً بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً ﴾ أي : وجعلني برأ بوالدتي ، وذلك أنه تأكد حقها عليه لتمحض جهتها إذ لا والد له سواها ، فسبحان من خلق الخليفة وبرأها وأعطى كل نفس هداها . ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً ﴾ أي : لست بفظ ولا غليظ ، ولا يصدر مني قول ولا فعل ينافي أمر الله وطاعته . ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ وهذه المواطن الثلاثة التي تقدم الكلام عليها في قصة يحيى بن زكريا عليهما السلام .

ثم لما ذكر تعالى قصته على الجلية وبيّن أمره ووضحه وشرحه قال : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ =

فَيَكُونُ ﴿٥٨﴾ ، كما قال تعالى بعد ذكر قصته وما كان من أمره في آل عمران: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٩﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٠﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦١﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦٢﴾ إِنَّ هَذَا لَهُو الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٣﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٨-٦٣].

ولهذا لما قدم وفد نجران وكانوا ستين راجباً يرجع أمرهم إلى أربعة عشر منهم ، ويؤول أمر الجميع إلى ثلاثة هم أشرفهم وساداتهم وهم العاقب والسيد وأبو حارثة بن علقمة ، فجعلوا يناظرون في أمر المسيح فأنزل الله صدر سورة آل عمران في ذلك ، وبين أمر المسيح وابتداء خلقه وخلق أمه من قبله . وأمر رسوله بأن يباهلهم إن لم يستجيبوا له ويتبعوه ، رأوا ثم نكصوا وامتنعوا عن المباهلة ، وعدلوا إلى المسالمة والموادعة ، وقال قائلهم وهو العاقب عبد المسيح: يا معشر النصارى . لقد علمتم أن محمداً لنبي مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم أنه ما لآعن قوم نبياً قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، وإنها للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلي بلادكم ، فطلبوا ذلك من رسول الله ﷺ وسألوه أن يضرب عليهم جزية وأن يبعث معهم رجلاً أميناً ، فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح وقد بينا ذلك في تفسير آل عمران وقد بسطنا هذه القصة في السيرة النبوية .

والمقصود أن الله تعالى بين أمر المسيح فقال لرسوله: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ يعني من أنه عبد مخلوق من امرأة من عباد الله ، ولهذا قال: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي: لا يعجزه شيء ولا يكرهه ولا يؤوده بل هو القدير الفعال لما يشاء ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاقْبُدُّوه هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ هو من تمام كلام عيسى لهم في المهد ، أخبرهم أن الله ربه وربهم وإلههم ، وأن هذا هو الصراط المستقيم .

قال الله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: فاختلف أهل الزمان ومن بعدهم فيه . فمن قاتل من اليهود: إنه ولد زنية ، واستمروا على كفرهم وعنادهم . وقابلهم آخرون في الكفر فقالوا: هو الله ، وقال آخرون: هو ابن الله .

وقال المؤمنون: هو عبد الله ورسوله ، وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وهؤلاء هم الناجون المثابون والمؤيدون المنصرون ، ومن خالفهم في شيء من هذه القيود فهم الكافرون الضالون الجاهلون ، وقد توعدهم العلي العظيم الحكيم العليم بقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ .

قال البخاري: حدثنا صدقة بن الفضل ، أنبأنا الوليد ، حدثنا الأوزاعي ، حدثني عمير بن =

هانيء ، حدثني جنادة بن أبي أمية ، عن عبادة بن الصامت ، عن النبي ﷺ قال : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ، ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » .

قال الوليد : فحدثني عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، عن عمير ، عن جنادة وزاد : « من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء » . وقد رواه مسلم عن داود بن رشيد ، عن الوليد ، عن جابر به ومن طريق أخرى عن الأوزاعي به [البخاري / ح ٣٤٣٥ ومسلم كتاب الإيمان / ٤٦ / ٢٨] .

[تنزيه الله عن الولد] :

وقال تعالى في آخر سورة مريم : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝١٨ ﴾ شيئا عظيماً من القول وزوراً ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ۝١٩ ﴾ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝٢٠ ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٢١ ﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۝٢٢ ﴿ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٢٣ ﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ۝٢٤ ﴾ .

فبين أنه تعالى لا ينبغي له الولد لأنه خالق كل شيء ومالكة ، وكل شيء فقير إليه ، خاضع ذليل لديه وجميع سكان السموات والأرض عبيده ، هو ربهم لا إله إلا هو لا رب سواه كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ۝٢٥ ﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٢٦ ﴾ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝٢٧ ﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ .

فبين أنه خالق كل شيء فكيف يكون له ولد؟ والولد لا يكون إلا بين شيئين متناسبين ، والله تعالى لا نظير له ولا شبهه ولا عدیل له ، فلا صاحبة له ، فلا يكون له ولد كما قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ ﴾ لَمْ يَكُنْ لَهُ يَدٌ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ ﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤ ﴾ يقرر أنه الأحد الذي لا نظير له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ﴿ الصَّمَدُ ﴾ وهو السيد الذي كمل علمه وحكمته ورحمته وبلغ جميع صفاته ﴿ لَمْ يَكُنْ لَهُ يَدٌ ﴾ أي : لم يوجد منه ولد ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ أي : ولم يتولد عن شيء قبله ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ أي : وليس له عدل ولا مكافئ ولا مساو ، فقطع النظر المداني والأعلى والمساوي ، فانتفى أن يكون له ولد ، إذ لا يكون الولد إلا متولداً بين شيئين متعادلين أو متقاربين ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وقال تبارك وتعالى وتقدس : ﴿ يَا هَلْ أَكْتَبَ لَا تَقْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝٧٦ ﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۝٧٧ ﴾

وَمَنْ يَسْتَنْكِفَ عَنْ عِبَادَتِي، وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيَّ جَمِيعًا ﴿١٧١﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَزَيَّدْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٢﴾ [النساء: ١٧١ - ١٧٣] .

وقال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكَرٌ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَيْكَ إِذْ أُيِّنْتُ لَكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جَعَلْتَهُمُ الْبَنِينَ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرُ تُبِيتُ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِرِسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ [المائدة: ١١٠ - ١١١] .

بذكره تعالى بنعمته عليه وإحسانه إليه في خلقه إياه من غير أب ، بل من أم بلا ذكر ، وجعله له آية للناس ودلالة على كمال قدرته تعالى ثم إرساله بعد هذا كله ﴿وَعَلَىٰ وَلَدَيْكَ﴾ في اصطفاؤها واختيارها لهذه النعمة العظيمة وإقامة البرهان على براءتها مما نسب إليها الجاهلون ولهذا قال: ﴿إِذْ أُيِّنْتُ لَكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وهو جبريل بالقاء روحه إلى أمه وقرنه معه في حال رسالته ومدافعتة عنه لمن كفر به ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي: تدعو الناس إلى الله في حال صغرك في مهدك وفي كهولتك ﴿وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: الخط والفهم ، نص عليه بعض السلف ﴿وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ وقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ أي: تصوره وتشكله من الطين على هيئة الطير على أمر الله له بذلك ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ أي: بأمرى ، يؤكد تعالى بذكر الإذن له في ذلك لرفع التوهم .

وقوله: ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ﴾ وقال بعض السلف: وهو الذي يولد أعمى ولا سبيل لأحد من الحكماء إلى مداواته ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾ هو الذي لا طب فيه بل قد مرض بالبرص وصار دأوه عضالاً ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ﴾ أي: من قبورهم أحياء ﴿بِإِذْنِي﴾ وقد تقدم ما فيه دلالة على وقوع ذلك مراراً متعددة بما فيها كفاية .

وقوله: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جَعَلْتَهُمُ الْبَنِينَ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرُ تُبِيتُ﴾ وذلك حين أرادوا صلبه فرفعه الله إليه وأنقذه من بين أظهرهم صيانة لجنابه الكريم عن الأذى ، وسلامة له من الردى .

وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِرِسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ قيل: المراد بهذا الوحي وحي إلهام أي أرشدهم الله إليه ودلهم عليه كما قال: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّفْلِ﴾ ، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَرْسُولَنَا أَنْ تُضَعِّبَهُ فَإِذَا خَفِيَ عَلَيْهِ كَأَلْفَيْهِ فِي الْبَيْتِ﴾ وقيل: المراد وحي بواسطة الرسول وتوفيق في قلوبهم لقبول الحق ، ولهذا استجابوا قائلين: ﴿ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ .

وهذا من جملة نعم الله على عبده ورسوله عيسى ابن مريم أن جعل له أنصاراً وأعواناً ينصرونه =

ويدعون معه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى لعبده محمد ﷺ ﴿ هُوَ الَّذِي آتَاكَ يَتْرُوه. وَيَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَالْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ الْآلِفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ ﴿٥٨﴾ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ طَيْرًا فَانْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخَيِّ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَجَلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٦٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ ﴿٦٢﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٦٣﴾ وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهُ خَيْرٌ مِنَ الْكَرِهَاتِ ﴾ [آل عمران : ٤٨ - ٥٤] .

كانت معجزة كل نبي في زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان ، فذكروا أَنَّ موسى عليه السلام كانت معجزته مما يناسب أهل زمانه وكانوا سحرة أذكيا ، فبعث بايات بهرت الأبصار وخضعت لها الرقاب ، ولما كان السحرة خبيرين بفنون السحر وما ينتهي إليه وعابوا ما عابوا من الأمر الباهر الهائل الذي لا يمكن صدوره إلا عمن أيده الله وأجرى الخارق على يديه تصديقا له ، أسلموا سراعا ولم يتلعثموا .

وهكذا عيسى ابن مريم بعث في زمن الطبايعية الحكماء ، فأرسل بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها ، وأنى لحكيم إبراء الأكمه الذي هو أسوأ حالا من الأعمى ، والأبرص والمجذوم ومن به مرض مزمن ، وكيف يتوصل أحد من الخلق إلى أن يقيم الميت من قبره؟ هذا - مما يعلم كل أحد - معجزة دالة على صدق من قامت به وعلى قدرة من أرسله .

وهكذا محمد ﷺ وعليهم أجمعين بعث في زمن الفصحاء البلغاء ، فأنزل الله عليه القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، فلفظه معجز تحدى به الإنس والجن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة ، وقطع عليهم بأنهم لا يقدرُونَ لا في الحال ولا في الاستقبال ، فإن لم يفعلوا ولن يفعلوا وما ذاك إلا لأنه كلام الخالق عز وجل ، والله تعالى لا يشبهه شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله .

والمقصود أن عيسى عليه السلام لما أقام عليهم الحجج والبراهين استمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم وطغيانهم ، فانتدب من بينهم طائفة صالحة فكانوا له أنصارا وأعوانا قاموا بمتابعتهم ونصرتهم ومناصحتهم ، وذلك حين هم به بنو إسرائيل ووشوا به إلى بعض ملوك ذلك الزمان ، فعزموا على قتله وصلبه فأنقذه الله منهم ورفعاه إليه من بين أظهرهم ، وألقى شبهه على أحد أصحابه فأخذوه فقتلوه وصلبوه وهم يعتقدونه عيسى ، وهم في ذلك غالطون ، وللحق مكابرون ، وسلم لهم كثير من النصارى ما ادعوه ، وكلا الفريقين في ذلك مخطئون .-

قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكِرِينَ﴾ ، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣﴾﴾ إلى أن قال بعد ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَكَانَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ .

فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل ، وقد قام فيهم خطيبا فبشرهم بخاتم الأنبياء الآتي بعده ونوه باسمه وذكر لهم صفته ليعرفوه ويتابعوه إذا شاهدوه ، إقامة للحجة عليهم وإحسانا من الله إليهم كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .

وقال محمد بن إسحاق: حدثني ثور بن يزيد ، عن خالد بن معدان ، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله ، أخبرنا عن نفسك . قال: «دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام» .

وقد روي عن العرباض بن سارية وأبي أمامة عن النبي ﷺ نحو هذا وفيه: «دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى» وذلك أن إبراهيم لما بنى الكعبة قال: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ الآية . ولما انتهت النبوة في بني إسرائيل إلى عيسى قام فيهم خطيبا فأخبرهم أن النبوة قد انقطعت عنهم ، وأنها بعده في النبي العربي الأمي خاتم الأنبياء على الإطلاق أحمد ، وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم الذي هو من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام ، وفيه قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ . يحتمل عود الضمير إلى عيسى عليه السلام ويحتمل عوده إلى محمد ﷺ .

ثم حرص تعالى عباده المؤمنين على نصرته الإسلام وأهله ونصرة نبيه ومؤازرته ومعاونته على إقامة الدين ونشر الدعوة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ أَي: من يساعديني في الدعوة إلى الله﴾ ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ ، قال الله تعالى: ﴿فَكَانَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ يعني: لما دعا عيسى ابن مريم بني إسرائيل وغيرهم إلى الله تعالى ، منهم من آمن ومنهم من كفر ، وكان ممن آمن به أهل أنطاكية بكاملها فيما ذكره غير واحد من أهل السير والتواريخ والتفسير وكفر آخرون من بني إسرائيل وهم جمهور اليهود ، فأيد الله من آمن به على من كفر فيما بعد وأصبحوا ظاهرين عليهم قاهرين لهم كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اذْهَبْكَ إِلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ

وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴿٥٣﴾ الآية فكل من كان إليه أقرب كان غالباً لمن دونه ، ولما كان قول المسلمين فيه هو الحق الذي لا شك فيه - من أنه عبد الله ورسوله - كانوا ظاهرين على النصارى ؛ الذين غلوا فيه ، وأطروه ، وأنزلوه فوق ما أنزل الله به .
[رفع عيسى والكذب في دعوى الصلب]:

قال الله تعالى : ﴿ وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾ [٥٤ - ٥٥] . إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَسَىٰ إِلَىٰ مَوْفِقِكَ وَرَأَيْكَ إِلَىٰ وَمُطَهِّرِكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُم بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٤﴾ [آل عمران : ٥٤ - ٥٥] .
وقال تعالى : ﴿ فِيمَا نَقُضُهُمْ مِنْهُمْ وَيَتَابَتِ اللَّهُ وَقَلْبُهُمُ الْآيَاتِ اللَّهُ وَقَلْبُهُمْ الْآيَاتِ يَغِيْرُ حَقِّ وَقَوْلُهُمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [٥٦] وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلُهُمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بَهْتًا عَظِيمًا ﴿٥٧﴾ وَقَوْلُهُمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الْقُلُوبِ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿٥٨﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٩﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿٦٠﴾ [النساء : ١٥٥ - ١٥٩] .

فأخبر تعالى أنه رفعه إلى السماء بعدما توفاه بالنوم على الصحيح المقطوع به ، وخلصه وأخبر تعالى بقوله : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ أي : بعد نزوله إلى الأرض في آخر الزمان قبل قيام الساعة ، فإنه ينزل ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام ، كما بينا ذلك بما ورد فيه من الأحاديث عند تفسير هذه الآية الكريمة من سورة النساء ، كما أوردنا ذلك مستقصى في كتاب «الفتن والملاحم» عند أخبار المسيح الدجال ، فذكرنا ما ورد في نزول المسيح المهدي عليه السلام من ذي الجلال لقتل المسيح الدجال الكذاب الداعي إلى الضلال ، وهذا ذكر ما ورد في الآثار في صفة رفعه إلى السماء :
قال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا أبو معاوية ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلاً منهم من الحواريين ، يعني فخرج عليهم من عين في البيت ورأسه يقطر ماء ، فقال : إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي ، ثم قال : أيكم يلقي عليه شبهي فيقتل مكاني فيكون معي في درجتي ؟ فقام شاب من أحدثهم سناً فقال له : اجلس . ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال : أنا . فقال : أنت هو ذاك . فألقي عليه شبه عيسى ، ورفع عيسى من روضة في البيت إلى السماء .

قال : وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه فكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به واقتروا ثلاث فرق ، فقالت طائفة : كان الله فينا ما شاء ، ثم صعد إلى السماء ، وهؤلاء اليعقوبية ، وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء النسطورية ، وقالت فرقة : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء =

المسلمون ، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوهما ، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ .

قال ابن عباس : وذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَيُّدَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عُدُوِّهِمْ فَاصْبِرُوا لَهَا ﴾ . وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس على شرط مسلم . ورواه النسائي عن أبي كريب ، عن أبي معاوية به نحوه ، ورواه ابن جرير عن مسلم بن جنادة ، عن أبي معاوية . وهكذا ذكر غير واحد من السلف ، ومن ذكر ذلك مطولاً محمد بن إسحاق بن يسار [جامع البيان/ ٢٨] .

نَبِيُّ اللَّهِ يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى :
[يونس في القرآن] :

قال الله تعالى في سورة يونس : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخَرْيِ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس : ٩٨] .
وقال تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْتَضِبًا فَظَنَّ أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنُكَدِّي فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧ - ٨٨] .

وقال تعالى في سورة الصافات : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [١٢٣] إِذْ أَتَىٰ إِلَىٰ الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٢٤﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٢٥﴾ فَالْقَمْعَ الْخَوفُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٢٦﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسْتَجِيبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَكُنْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٢٨﴾ فَبَدَّدَهُ بِالْعُرَّىٰ وَهُوَ سَاقِطٌ ﴿١٢٩﴾ وَأَبْتَنَاهُ عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿١٣٠﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٣١﴾ فَتَأَمَّنُوا فَمَرَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الصافات : ١٣٩ - ١٤٨] .

وقال تعالى في سورة القلم : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْخُوْبِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿١٨﴾ طَوْلَا أَن نَّدْرُكَ نِعْمَةً مِّنْ رَبِّهِ لَئِن دُلِّيَ الْعُرَّىٰ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿١٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [القلم : ٤٨ - ٥٠] .
[موقف أهل نينوى] :

قال أهل التفسير : بعث الله يونس عليه السلام إلى أهل «نينوى» من أرض الموصل ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، فكذبوه وتمردوا على كفرهم وعنادهم ، فلما طال ذلك عليه من أمرهم خرج من بين أظهرهم ، ووعدهم حلول العذاب بهم .

قال ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة ، وغير واحد من السلف والخلف : فلما خرج من بين ظهرانيهم ، وتحققوا نزول العذاب بهم قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة ، وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم ، ثم عجزوا إلى الله عز وجل ، وتضرعوا إليه ، وتمسكوا
لديه ، وكانت ساعة عظيمة هائلة .

= فكشف الله العظيم - بحوله وقوته ورأفته ورحمته - عنهم العذاب الذي كان قد اتصل بهم سببه .

ولهذا قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا ﴾ أي هلا وجدت فيما سلف من القرون قرية آمنت بكاملها ، فدل على أنه لم يقع ذلك ، بل كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ ، وقوله: ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أي آمنوا بكاملهم .

وقد كانوا مئة ألف لا محالة ، واختلفوا في الزيادة: فعن مكحول عشرة آلاف ، وروى الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم من حديث زهير عن سمع أبا العالية: حدثني أبي بن كعب ، أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ زَيْدُونَ ﴾ قال: «يزيدون عشرين ألفاً» فلولاً هذا الرجل المبهم لكان هذا الحديث فاصلاً في هذا الباب .

[ابتلاع الحوت يونس]:

والمقصود أنه عليه السلام لما ذهب مغاضباً بسبب قومه ، ركب سفينة في البحر فلجت بهم ، واضطربت وساجت بهم وثقلت بما فيها ، وكادوا يغرقون على ما ذكره المفسرون . قالوا: فاشتوروا فيما بينهم على أن يقتربوا ، فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة ليتخففوا منه . فلما اقترعوا وقعت القرعة على نبي الله يونس لما يريد الله به من الأمر العظيم .

قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ١٣٦ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٣٧﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٣٨﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ . وذلك أنه لما وقعت عليه القرعة ألقى في البحر . وبعث الله عز وجل حوتاً عظيماً من البحر ، فعند ذلك وهنالك ، قال ما قال بلسان الحال والمقال ، كما أخبر عنه ذو العزة والجلال ؛ الذي يعلم السر والنجوى ، ويكشف الضر والبلوى ، يسمع الأصوات وإن ضعفت ، وعالم الخفيات وإن دقت ، ومجيب الدعوات وإن عظمت ، حيث قال في كتابه المبين ، المنزل على رسوله الأمين ، وهو أصدق القائلين ورب العالمين وإله المرسلين: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ ﴾ أي إلى أهله ﴿ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ١٣٨ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّضُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ، ﴿ فَظَنَّ أَنْ لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أن نصيِّق عليه ، وقيل معناه: نقدر من التقدير وهي لغة مشهورة ، قَدِرَ وَقَدَّرَ كما قال الشاعر:

فلا عائد ذاك الزمان الذي مضى تباركت ، ما تقدر يكن لك الأمر ﴿ فَكَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس وعمرو بن ميمون وسعيد بن جبيرة ومحمد بن كعب والحسن وقتادة والضحاك: ظلمة الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل . وقوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ ١٤٠ لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِذْ يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿١٤١﴾ قيل: معناه فلولاً أنه =

سبح الله هنالك ، وقال ما قال من التهليل والتسبيح ، والاعتراف لله بالخضوع ، والتوبة إليه والرجوع إليه للبت هنالك إلى يوم القيامة .

وقيل معناه : ﴿ فَلَوْلَا أَنْتُمْ كَانَتْ ﴾ من قبل أخذ الحوت له ﴿ مِنَ الْمُتَسَبِّحِينَ ﴾ أي المطيعين المصلين الذاكرين الله كثيراً ، قاله الضحاك بن قيس وابن عباس وأبو العالية ووهب بن منبه وسعيد بن جبير والضحاك والسدي وعطاء بن السائب والحسن البصري وقتادة وغير واحد ، واختاره ابن جرير .

ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنن عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال له : « يا غلام .. إني معلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة » [مسند أحمد/ ح ٢٦٦٩ / سنن الترمذي/ ح ٢٥١٦] .

قال ابن جرير : حدثني عمران بن بكار الكلاعي ، حدثنا يحيى بن صالح ، حدثنا أبو يحيى بن عبد الرحمن ، حدثني بشر بن منصور ، عن علي بن زيد ، عن سعيد بن المسيب قال : سمعت سعد بن مالك - وهو ابن أبي وقاص - يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اسم الله الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى : دعوة يونس بن متى » ، قال : فقلت : يا رسول الله ... هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين ؟ قال : هي ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها ، ألم تسمع قول الله تعالى : ﴿ فَكَادَتْ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [٥١] فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَعَلْنَاهُ مِنْ الْغُرِّ وَكَذَلِكَ نُنْشِئُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ فهو شرط من الله لمن دعاه به . [جامع البيان ج ١٧ / ٨٢] .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد الأحمر ، عن كثير بن زيد ، عن المطلب بن حنطب قال أبو خالد : أحسبه عن مصعب - يعني ابن سعد - عن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « من دعا بدعاء يونس استجيب له » قال أبو سعيد الأشج ، يريد به : ﴿ وَكَذَلِكَ نُشِئُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وهذا طريقان عن سعد [وانظر أبو يعلى ٧٠٧ / ٢] .

وثالث أحسن منهما : وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل بن عمير ، حدثنا يونس بن أبي إسحاق الهمداني ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سعد ، حدثني والدي محمد ، عن أبيه سعد - وهو ابن أبي وقاص رضي الله عنه - قال : مررت بعثمان بن عفان في المسجد فسلمت عليه ، فملاً عينيه مني ثم لم يرد عليّ السلام ، فأيتت عمر بن الخطاب فقلت : يا أمير المؤمنين ... هل حدث في الإسلام شيء ؟ قال : لا ، وما ذاك ؟ قلت : لا ، إلا أنني مررت بعثمان انفاً في المسجد فسلمت عليه فملاً عينيه مني ثم لم يرد عليّ السلام قال : فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه ، فقال : ما منعك ألا تكون رددت على أخيك السلام ؟ قال : ما فعلت ، قال سعد : قلت : بلى ، حتى حلف وحلفت ، قال : ثم إن عثمان ذكر فقال : بلى ، وأستغفر الله وأتوب إليه ، إنك مررت بي أنفاً ، وأنا أحدث نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ لا والله ما ذكرتها قط إلا تغشى بصري وقلبي غشاوة ، قال سعد : فأنا أنبتك بها ، إن =

رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة ، ثم جاء أعرابي فشغله حتى قام رسول الله ﷺ فاتبعته ، فلما أشفقت أن يسبقني إلى منزله ضربت بقدمي الأرض ، فالتفت إلي رسول الله ﷺ فقال : « من هذا ؟ أبو إسحاق ؟ » ، قال : قلت : نعم يا رسول الله ، قال : « مه ؟ » قلت : لا والله ، إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة ، ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك ، قال : « نعم . . دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء إلا استجاب له . » ورواه الترمذي والنسائي من حديث إبراهيم بن محمد بن سعد به [أحمد/ح ١٤٦٢ ، والترمذي/ح ٣٥٠٠] .

[فضل يونس عليه السلام] :

قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ يُؤْسَرْ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ وذكره تعالى في جملة الأنبياء الكرام في سورتي النساء والأنعام ، عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن أبي وائل ، عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » ورواه البخاري من حديث سفيان الثوري به . [مسند أحمد/٣٧٠٣] .

وقال البخاري أيضاً : حدثنا حفص بن عمر ، حدثنا شعبة ، عن قتادة ، عن أبي العالية ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : « ما ينبغي لعبد أن يقول إني خير من يونس بن متى ، ونسبه إلى أبيه . » رواه أحمد ومسلم وأبو داود من حديث شعبة به ، قال شعبة فيما حكاه أبو داود عنه : لم يسمع قتادة من أبي العالية سوى أربعة أحاديث ، وهذا أحدها [صحيح البخاري/ح ٣٤١٣] .

[قوم يس] :

وهم أصحاب القرية أصحاب « يس » قال الله تعالى : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿٢﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكِيدُونَ ﴿٣﴾ قَالُوا رَبَّنَا عَلِّمُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿٤﴾ وَمَا عَلَّمْنَا إِلَّا الْبَلْعَ الْمُبِيتَ ﴿٥﴾ قَالُوا إِنَّا نَطَّيِّرُكُمْ بِكُمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦﴾ قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ ﴿٧﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْفِرُكُمْ أَنَّيُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٨﴾ أَنْيِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٩﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٠﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُفِيدُونِ ﴿١١﴾ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ إِنْ تَأْمِنُوا بربِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿١٣﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتُ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ بِمَا عَصَوْا رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمَكْرُمِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿١٦﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ [يس : ١٣ - ٢٩] اشتهر عن كثير من السلف والخلف أن هذه القرية « أنطاكية » رواه ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه ، وكذا روي عن بريدة بن الخصيب وعكرمة وقاتدة والزهري وغيرهم . قال ابن =

إسحاق: فيما بلغه عن ابن عباس وكعب وهب، أنهم قالوا: وكان له ملك اسمه أنطيوخس بن أنطيوخس وكان يعبد الأصنام. فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل وهم: صادق ومصديق وشلوم، فكذبهم.

وهذا ظاهر أنهم رسل من الله عز وجل، وزعم قتادة أنهم كانوا رسلاً من المسيح، وكذا قال ابن جرير، عن وهب، عن ابن سليمان، عن شعيب الجبائي: كان اسم المرسلين الأولين. شمعون، ويوحنا، واسم الثالث: بولس، والقرية أنطاكية.

وهذا القول ضعيف جداً، لأن أهل أنطاكية لما بعث إليهم المسيح ثلاثة من الحواريين كانوا أول مدينة آمنت بالمسيح في ذلك الوقت، ولهذا كانت إحدى المدن الأربع التي تكون فيها بطارقة النصارى. وهن: أنطاكية، والقدس، والإسكندرية، ورومية، ثم بعدها القسطنطينية ولم يهلكوا، وأهل هذه القرية المذكورة في القرآن أهلكوا، كما قال في آخر قصتها بعد قتلهم صديق المرسلين: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَبِيدُونَ﴾ ولكن إن كانت الرسل الثلاثة المذكورون في القرآن. بعثوا إلى أهل أنطاكية قديماً فكذبوهم وأهلكهم الله، ثم عمرت بعد ذلك، فلما كان في زمن المسيح آمنوا برسله إليهم، فلا يمنع هذا... والله أعلم.

فأما القول بأن هذه القصة المذكورة في القرآن هي قصة أصحاب المسيح ضعيف لما تقدم، ولأن ظاهر سياق القرآن يقتضي أن هؤلاء الرسل من عند الله.

قال الله تعالى: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا﴾ يعني لقومك يا محمد ﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ يعني المدينة ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي أيدناهما بثالث في الرسالة، ﴿فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾ فردوا عليهم بأنهم بشر مثلهم، كما قالت الأمم الكافرة لرسلمهم، يستبعدون أن يبعث الله نبياً بشرياً، فأجابوا بأن الله يعلم أنا رسله إليكم، ولو كنا كذبا عليه لعاقبنا وانتقم منا أشد الانتقام. ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي إنما علينا أن نبليكم ما أرسلنا به إليكم، والله هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَاقُكُمُ﴾ أي تشاء منا بما جئتمونا به. ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ قيل: بالمقال، وقيل: بالفعال، ويؤيد الأول قوله: ﴿وَلَيْمَسَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ توعدهم بالقتل والإهانة. ﴿قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ﴾ أي مردود عليكم ﴿أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ﴾ أي بسبب أنا ذكرنا بالهدى ودعوناكم إليه، توعدتمونا بالقتل والإهانة ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِقُونَ﴾ أي لا تقبلون الحق ولا تردونه.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ يعني لنصرة الرسل وإظهار الإيمان بهم ﴿قَالَ يَنْفِقُونَ أَنْتُمْ يَا مُرْسَلِينَ﴾ ﴿أَتَدْعُونَ مَنْ لَا يَسْتَلِكُ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ أي يدعونكم إلى الحق المحض بلا أجر ولا جعالة. ثم دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن عبادة ما سواه مما لا ينفع شيئاً لا في الدنيا ولا في الآخرة. ﴿إِنِّي إِذًا لَمِنَ ضَالِّينَ﴾ أي إن تركت عبادة الله وعبدت معه سواه.

ذكر الخبر عن أصحاب الكهف

وكان أصحاب الكهف فتية آمنوا بربهم؛ كما وصفهم الله عز وجل به من

ثم قال مخاطباً للرسل: ﴿إِذْ ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ﴾ قيل: فاستمعوا مقالتي واشهدوا لي بها عند ربكم، وقيل معناه: فاستمعوا يا قومي إيماني برسول الله جهرة، فعند ذلك قتلوه، قال تعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ يعني لما قتله قومه أدخله الله الجنة، فلما رأى فيها من النضرة والسرور ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ ﴿بِمَا عَفَّرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ﴾ يعني: ليؤمنوا بما آمنت به فيحصل لهم ما حصل لي.

قال ابن عباس: نصح قومه في حياته بقوله: ﴿يَقْوَمُوا اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ وبعد مماته في قوله: ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ ﴿بِمَا عَفَّرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ﴾ رواه ابن أبي حاتم. وكذلك قال قتادة: لا يلقى المؤمن إلا ناصحاً، لا يلقى غاشياً، لما عاين ما عاين من كرامة الله. ﴿يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ ﴿بِمَا عَفَّرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ﴾ تمنى والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله وما هو عليه!

قال قتادة: فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ أي وما احتجنا في الانتقام منهم إلى إنزال جند من السماء عليهم.

هذا معنى ما رواه ابن إسحاق عن بعض أصحابه، عن ابن مسعود، قال مجاهد وقتادة: وما أنزل عليهم جنداً، أي رسالة أخرى. قال ابن جرير: والأول أولى.

قلت: وأقوى، ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ أي وما كنا نحتاج في الانتقام إلى هذا حين كذبوا رسلنا وقتلوا ولينا ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾.

أي قد أخدمت أصواتهم، وسكنت حركاتهم، ولم يبق منهم عين تطرف. وهذا كله مما يدل على أن القرية ليست أنطاكية، لأن هؤلاء أهلكتهم بتكذيبهم رسل الله إليهم، وأهل أنطاكية آمنوا واتبعوا رسل المسيح من الحواريين إليهم، فلهذا قيل: إن أنطاكية أول مدينة آمنت بالمسيح.

فأما الحديث الذي رواه الطبراني من حديث حسين الأشقر، عن سفيان بن عيينة، عن ابن أبي نجیح، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «السبق ثلاثة: فالسابق إلى موسى: يوشع بن نون، والسابق إلى عيسى: صاحب يس، والسابق إلى محمد: علي بن أبي طالب»، فإنه حديث لا يثبت، لأن حسيناً هذا متروك شيعي من الغلاة، وتفرد به هذا مما يدل على ضعفه بالكلية. . والله أعلم. [الحديث أخرجه الطبراني ١١/١١١٥٢].

صفتهم في القرآن المجيد؛ فقال لنبيه محمد ﷺ: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾.

والرقيم هو الكتاب الذي كان القوم الذين منهم كان الفتية كتبوه في لوح بذكر خبرهم وقصصهم ، ثم جعلوه على باب الكهف الذي أووا إليه ، أو نقروه في الجبل الذي أووا إليه ، أو كتبوه في لوح وجعلوه في صندوق خلفوه عندهم ، «إذ أوى الفتية إلى الكهف».

وكان عدد الفتية - فيما ذكر ابن عباس - سبعة ، وثامنهم كلبهم^(١). (٢ : ٥)

حدثنا ابن بشار ، قال : حدثنا عبد الرحمن ، قال : حدثنا إسرائيل ، عن سيماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : ﴿ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ ، قال : أنا من القليل ، كانوا سبعة^(٢). (٢ : ٥) .

حدثنا بشر ، قال : حدثنا يزيد ، قال : حدثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : ذكر لنا أن ابن عباس كان يقول : أنا من أولئك القليل الذين استثنى الله تعالى ؛ كانوا سبعة وثامنهم كلبهم^(٣). (٢ : ٥) .

يونس بن متى

فكان - فيما ذكر - من أهل قرية من قرى الموصل يقال لها: نينوى ، وكان قومه يعبدون الأصنام ، فبعث الله إليهم يونس بالنهي عن عبادتها ، والأمر بالتوبة إلى الله من كفرهم ، والأمر بالتوحيد ، فكان من أمره وأمر الذين بُعث إليهم ما قصه الله في كتابه ، فقال عز وجل : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَذَابَ الْآخِرَةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ وقال : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ

(١) صحيح .

(٢) إسناده حسن وانظر ما بعده .

(٣) صحيح .

قلنا : ذكر ابن كثير طرق هذا الأثر عن ابن عباس ثم قال : فهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس انهم كانوا سبعة وهو موافق لما قدما (تفسير القرآن العظيم / ٢١٥٤) .

سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَيْنَاهُ مِنَ الْعَذْمِ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ . (١١ : ٢) .

حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة عن ابن إسحاق ، عن يزيد بن زياد ،
عن عبد الله بن أبي سلمة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : خرج به -
يعني الحوت - حتى لفظه في ساحل البحر ، فطرحه مثل الصبي المنفوس ، لم
ينقص من خلقه شيء ^(٢) . (١٦ : ٢) .

إرسال الله رسله الثلاثة

الذين ذكرهم في تنزيهه ، فقال : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا
الْمُرْسَلُونَ ﴿١٢﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴾ .
الآيات التي ذكر تعالى ذكره في خبرهم ^(٣) . (١٨ : ٢) .

ذكر بقية خبر تبع أيام قباد وزمن أنوشروان

حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن أبي مالك بن
ثعلبة بن أبي مالك القرظي ، قال : سمعت إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد
الله يحدث أن تبعاً لما دنا من اليمن ليدخلها ، حالت حمير بينه وبين ذلك ،
وقالوا : لا تدخلها علينا وقد فارقت ديننا ، فدعاهم إلى دينه ، وقال : إنه دين خير
من دينكم ، قالوا : فحاكمنا إلى النار ، قال : نعم - قال : وكانت باليمن فيما يزعم
أهل اليمن نارٌ تحكم بينهم فيما يختلفون فيه ، تأكل الظالم ولا تضر المظلوم -
فلما قالوا ذلك لتبع قال : أنصفتم ، فخرج قومه بأوثانهم وما يتقربون به في
دينهم ، وخرج الخبران بمصاحفهما في أعناقهما متقلديها حتى قعدوا للنار عند
مخرجها الذي تخرج النار منه ، فخرجت النار إليهم ، فلما أقبلت نحوهم حادوا
عنها وهابوها ، فذمرهم من حضرهم من الناس ، وأمروهم بالصبر فصبروا ،

(١) صحيح .

(٢) صحيح .

(٣) صحيح .

حتى غشيتهم وأكلت الأوثان وما قربوا معها ، ومن حمل ذلك من رجال حمير ، وخرج الخبران بمصاحفهما في أعناقهما تعرق جباههما ، لم تضرهما ، فأصفت حمير عند ذلك على دينه ؛ فمن هناك وعن ذلك كان أصل اليهودية باليمن ^(١) . (٢ : ١٠٨ / ١٠٩) .

ذكر مولد رسول الله ﷺ

حدثنا ابن المثنى ، قال : حدثنا وهب بن جرير ، قال : حدثنا أبي ، قال : سمعت محمد بن إسحاق يحدث عن المطلب بن عبد الله بن قيس بن محرمه ، عن أبيه ، عن جده ، قال : ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل ^(٢) . (٢ : ١٥٥) .

وحدثت عن يحيى بن معين ، قال : حدثنا حجاج بن محمد ، قال : حدثنا يونس بن أبي إسحاق ، عن أبي إسحاق ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : ولد رسول الله ﷺ عام الفيل ^(٣) . (٢ : ١٥٥) .

حدثت عن إبراهيم بن المنذر ، قال : حدثنا عبد العزيز بن أبي ثابت ، قال : حدثنا الزبير بن موسى ، عن أبي الخوير ، قال : سمعت عبد الملك بن مروان يقول لقباث بن أشيم الكنانى الليثي : يا قباث ، أنت أكبر أم رسول الله ﷺ ؟ قال : رسول الله ﷺ أكبر مني وأنا أسن منه ، ولد رسول الله ﷺ عام الفيل ، ووقفت بي أمي على روث الفيل محيلاً أعقله ^(٤) . (٢ : ١٥٦) .

(١) والخبر أخرجه ابن هشام (٢٧/١) وأبو مالك هذا مقبول عن ابن جرير وانظر البداية والنهاية ٩٥/٢ .

(٢) الحديث أخرجه أحمد (٣٦٢٨) والحاكم في المستدرک (٦٠٢/٢) وأحمد (١٧٨٩١) وابن سعد في طبقاته (١٠١/١) ورجاله بين الثقة والصدوق والحديث حسن والله تعالى أعلم .

(٣) بين الطبري وابن معين انقطاع إلا أن الحديث صحيح أخرجه الحافظ (٦٠٢/٢) وصححه على شرط الشيخين وأخرجه الطبراني (١٢٤٣٢) .

وقال الهيثمي : رجاله موثقون (مجمع الزوائد ١٩٦/١) والبيهقي (٧٥/١) .

(٤) قال الحافظ ابن كثير : نص عليه ابن إسحاق ورواه ابن أبي شيبه في مصنفه عن عفان عن سعيد بن مينا عن جابر وابن عباس أنهما قالوا : ولد رسول الله ﷺ عام الفيل يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول وفيه بعث وفيه عرج به إلى السماء وفيه هاجر وفيه مات ، وهو المشهور عند الجمهور والله أعلم .

حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، عن ثور بن يزيد ، عن خالد بن معدان الكلاعي ، أن نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : يا رسول الله ، أخبرنا عن نفسك ، قال : نعم ، أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشري عيسى ، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور بصرى من أرض الشام ، واسترضعت في بني سعد بن بكر ، فبينما أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بهماً لنا ، أتاني رجلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب مملوءة ثلجاً ، فأخذاني ، فشقا بطني ، ثم استخرجا منه قلبي ، فشقا فاستخرجا منه علقه سوداء ، فطرحاها ، ثم غسلوا بطني وقلبي بذلك الثلج حتى أنقياه ، ثم قال أحدهما لصاحبه : زنه بعشرة من أمته ، فوزنني بهم فوزنتهم ، ثم قال : زنه بمئة من أمته ، فوزنني بهم فوزنتهم ، ثم قال : زنه بألف من أمته ، فوزنني بهم فوزنتهم ، ثم قال : دعه عنك ، فلو وزنته بألف من أمته لوزنها^(١) . (٢ : ١٦٥) .

ذكر من قال ذلك :

حدثني القاسم بن الحسن ، قال : حدثني الحسين ، قال : حدثني حجاج ، عن أبي بكر بن عبد الله ، عن عكرمة : أن الروم وفارس اقتتلوا في أدنى الأرض . قال : وأدنى الأرض يومئذ أدراعات ، بها التقوا فهزمت الروم ، فبلغ ذلك

(١) قلنا : الحديث في سيرة ابن هشام هكذا كما عند الطبري (١/١٤٦) وأما شق صدره عليه السلام وغسله (وهو صغير) فصحيح كما أخرج مسلم (الإيمان/ ٢٦١) عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج منه علقه فقال هذا حظ الشيطان منك ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده في مكانه وجاء الغلمان يسعون إلى أمه فقالوا إن محمداً قد قتل فاستقبلوه وهو منتقع اللون ، قال : إني كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره . والحديث أخرجه أحمد (ح/ ١٢٢٢١) .

وأورده البوصيري عن أبي يعلى بسنده إلى عتبة بن عبد أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ كيف كان أول شأنك يا رسول الله ؟ قال : كانت حاضتي من بني سعد بن بكر فانطلقت أنا وابن لها في بهم لنا ولم تأخذ معنا زاداً فقلت : يا أخي اذهب فائتنا بزاد من عند أمنا فانطلق أخي ومكثت عند البهم فأقبل إليّ طيران أبيضان كأنهما نسران فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو ؟ قال : نعم فأقبلا يبتدراني فأخذاني فبطحاني للفقفا فشقا بطني . . . إلخ الحديث وفي آخره : قالت : إني رأيت خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام .

النبي ﷺ وأصحابه وهم بمكة؛ فشق ذلك عليهم - وكان النبي ﷺ يكره أن يظهر الأميون من المجوس على أهل الكتاب من الروم - وفرح الكفار بمكة وشمتوا ، فلقوا أصحاب النبي ﷺ ، فقالوا: إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أميون ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب ، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم؛ فأنزل الله: ﴿الْمَغْلَبَةُ الرُّومُ﴾ - إلى - ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفِلُونَ﴾ ، فخرج أبو بكر الصديق إلى الكفار فقال: أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا! فلا تفرحوا ولا يقرن الله أعينكم ، فوالله ليظهرن الروم على فارس ، أخبرنا بذلك نبينا ، فقام إليه أبي بن خلف الجمحي ، فقال: كذبت يا أبا فصيل! فقال له أبو بكر: أنت أكذب يا عدو الله! فقال: أناحبك! عشر قلائص مني ، وعشر قلائص منك ، فإن ظهرت الروم على فارس غرمت ، وإن ظهرت فارس غرمت إلى ثلاث سنين ، ثم جاء أبو بكر إلى النبي ﷺ ، فأخبره ، فقال: ما هكذا ذكرت ، إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع ، فزايده في الخطر وماده في الأجل . فخرج أبو بكر فلقني أبيتاً فقال: لعلك ندمت ، قال: لا ، تعال أزايدك في الخطر وأمادك في الأجل ، فاجعلها مئة قلوصل إلى تسع سنين ، قال: قد فعلت^(١) . (٢: ١٨٤/١٨٥) .

حدثني إبراهيم بن سعيد الجوهري ، قال: حدثنا يحيى بن صالح ، عن الحسن بن أيوب الحضرمي ، قال: حدثنا عبد الله بن بسر ، قال: قال لي رسول الله ﷺ : «لتدركن قرناً» ، فعاش مئة سنة^(٢) . (٢: ٢٣٦) .

ذكر رسول الله ﷺ

فتوفي عبد المطلب بعد الفيل بثمانين سنين؛ كذلك حدثنا ابن حميد ، قال: حدثنا سلمة ، قال: حدثني محمد بن إسحاق ، عن عبد الله بن أبي بكر: وكان عبد المطلب يوصي برسول الله ﷺ عمه أبا طالب ، وذلك أن أبا طالب ، وعبد الله أبا رسول الله ﷺ كانا لأم ، فكان أبو طالب هو الذي يلي أمر

(١) هذا الخبر أخرجه الطبري هنا عن عكرمة مرسلًا ، وصححه على شرط الشيخين ووافقه

الذهبي .

(٢) صحيح .

رسول الله ﷺ بعد جدّه ، وكان يكون معه . ثم إن أبا طالب خرج في ركب من قريش إلى الشام تاجراً ، فلما تهيأ للرحيل وأجمع السير ضَبَّ به رسول الله ﷺ - فيما يزعمون - فرقّ له أبو طالب ، فقال : والله لأُخرجنّ به معي ، ولا يفارقني ولا أفارقه أبداً ، أو كما قال : فخرج به معه ، فلما نزل الركب بُصِرَى من أرض الشام ، وبها راهب يقال له بَحِيرَى في صومعة له ، وكان ذا علم من أهل النصرانية ، ولم يزل في تلك الصومعة مذقّ راهب ، إليه يصير علمهم عن كتاب - فيما يزعمون - يتوارثونه كابراً عن كابر ، فلما نزلوا ذلك العام ببَحِيرَى ، صنع لهم طعاماً كثيراً ، وذلك أنه رأى رسول الله ﷺ وهو في صومعته ، عليه غمامة تُظِلُّه من بين القوم ، ثم أقبلوا حتى نزلوا في ظلّ شجرة قريباً منه ، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة ، وتهصّرت أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ ، حتى استظلّ تحتها ، فلما رأى ذلك بحيرى ، نزل من صومعته ، ثم أرسل إليهم فدعاهم جميعاً ، فلما رأى بحيرى رسول الله ﷺ جعل يلحظه لحظاً شديداً ، وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته . فلما فرغ القوم من الطعام وتفرّقوا ، سأل رسول الله ﷺ عن أشياء في حاله ؛ في يَقْطِئِهِ وفي نومه ، فجعل رسول الله ﷺ يُخْبِرُهُ فيجدها بِحِيرَى موافقة لما عنده من صفته ، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كَتِفَيْهِ ، ثم قال بِحِيرَى لعمّه أبي طالب : ما هذا الغلام منك؟ قال : ابني ، فقال له بِحِيرَى : ما هو بابنك ، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيّاً . قال : فإنه ابنُ أخي ، قال : فما فعل أبوه؟ قال : مات وأمه حُبْلَى به ، قال : صدقت ، ارجع به إلى بلدك ، واحذِرْ عليه يَهُودٍ ؛ فوالله لئنُ رأوه وعرفوا منه ما عرفْتُ ، ليبغُنَّهُ شراً ، فإنه كائن له شأن عظيم ، فأسرع به إلى بلده ، فخرج به عمّه سريعاً حتى أقدمه مكّة .

وقال هشام بن محمّد : خرج أبو طالب برسول الله ﷺ إلى بُصْرَى من أرض الشام ؛ وهو ابنُ تسع سنين^(١) . (٢ : ٢٧٧) .

حدّثني العباس بن محمّد ، قال : حدّثنا أبو نوح ، قال : حدّثنا يونس بن أبي إسحاق ، عن أبي بكر بن أبي موسى ، عن أبي موسى ، قال : خرج

أبو طالب إلى الشام ، وخرج معه رسول الله ﷺ في أشياخ من قُريش ، فلما أشرَفُوا على الرَّاهِبِ هَبَطُوا فحلُّوا رحالَهُمْ ، فخرج إليهم الرَّاهِبُ - وكانوا قبل ذلك يَمُرُّون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت . قال : فهم يحلُّون رحالَهُمْ ؛ فجعل يتخلَّلُهُمْ حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ ، فقال : هذا سيِّدُ العالمين ، هذا رسولُ ربِّ العالمين ؛ هذا يبعثه الله رحمةً للعالمين . فقال له أشياخ قُريش : ما علِّمَكَ ؟ قال : إنكم حين أشرفتُم من العَقَبَةِ لم تبق شَجَرَةٌ ولا حَجَرٌ إلَّا خرَّ ساجداً ؛ ولا يسجدون إلَّا لِنبيِّ ، وإني أعرفه بخاتم النبوة ، أسفلَ من عُضْرَوفِ كتفه مثل التِّفَاحَةِ .

ثم رجع فصنَّعَ لهم طعاماً ، فلما أتاهاهم به كان هو في رِغْيَةِ الإبل . قال : أرسلوا إليه ، فأقبل وعليه غَمَامَةٌ ، فقال : انظروا إليه ؛ عليه غمامة تُظِلُّهُ ! فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة فلما جلس مال فيء الشجرة عليه فقال : انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه ؛ قال : فبينما هو قائم عليهم ؛ وهو يناشدُهُم إلَّا يذهبوا به إلى الرُّوم ؛ فإنَّ الرُّومَ إن رأوه عرفوه بالصفة فقتلوه ؛ فالتفت فإذا هو بسبعة نفرٍ قد أقبلوا من الرُّوم ؛ فاستقبلهم ، فقال : ما جاء بكم ؟ قالوا : جئنا أن هذا النبيَّ خارج في هذا الشهر ، فلم يبقَ طريق إلَّا بُعِثَ إليها ناس ، وإنا اخترنا خيرةً بعثنا إلى طريقك هذا ؛ قال لهم : هل خلَّفتُم خَلْفَكُمْ أحداً هو خَيْرٌ منكم ؟ قالوا : لا ؛ إنما اخترنا خيرة لطريقك هذا ، قال : أفرايتُم أمراً أراد الله أن يقضيه ، هل يستطيع أحد من الناس ردَّه ! قالوا : لا ؛ فتابعوه وأقاموا معه ، قال : فاتاهم ، فقال : أنشدكم الله ، أيكم وليُّه ؟ قالوا : أبو طالب ، فلم يزل يناشده حتى ردَّه ، وبعث معه أبو بكر رضي الله تعالى عنه بلائاً ، وزوَّده الراهب من الكَعْكِ والزَّيْتِ ^(١) . (٢ : ٢٧٨ / ٢٧٩) .

(١) قلنا : الحديث أخرجه الترمذي من طريق أبي نوح هنا وقال هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وقال الجزري : إسناده صحيح ورجاله رجال الصحيح أو أحدهما وذكر أبو بكر وبلال فيه غير محفوظ وعدَّه أئمتنا وهماً فإن سن النبي ﷺ إذ ذاك اثنا عشر سنة وأبو بكر أصغر منه بسنين وبلال لعله لم يكن ولد في ذلك الوقت .

قلنا : والحديث أخرجه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يوافقه الذهبي وقال : أظنه موضوعاً وبعضه باطل ، وقال ابن كثير : وهكذا رواه غير واحد من الحفاظ من حديث أبي نوح عبد الرحمن بن غزوان الخزاعي ويقال الضبي ويعرف بقراد سكن بغداد ، وهو من =

حدَّثنا ابن حميد ، قال : حدَّثنا سلمة ، قال : حدَّثني محمد بن إسحاق عن محمد بن عبد الله بن قيس بن مخزومة ، عن الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب ، عن أبيه محمد بن علي ، عن جدّه علي بن أبي طالب ، قال : سمعتُ رسول الله ﷺ ، يقول : ما هممتُ بشيءٍ ممّا كان أهلُ الجاهليّةِ يعملون به غيرَ مرّتين ، كلّ ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك . ثمّ ما هممتُ بسوءٍ حتّى أكرمني الله عزّ وجلّ برسالته ؛ فإنّي قد قلت ليلةً لغلامٍ من قريش كان يرعى معي بأعلى مكة : لو أبصرت لي غنمي حتّى أدخل مكة ، فأسمّر بها كما يسمّر الشباب ! فقال : أفعل ؛ فخرجتُ أريد ذلك ؛ حتّى إذا جئتُ أولَ دارٍ من دُور مكة ، سمعتُ عزّفاً بالدّفوف والمزامير ، فقلت : ما هذا؟ قالوا : فلان بن فلان تزوّج بفلانة بنت فلان . فجلستُ أنظر إليهم ، فضرب الله على أذني فنمتُ فما أيقظني إلّا مَسُّ الشمس ؛ قال : فجئتُ صاحبي ، فقال : ما فعلت ؟ قلت : ما صنعت شيئاً ، ثم أخبرته الخبر . قال : ثم قلتُ له ليلةً أخرى مثلاً ذلك ، فقال : أفعل ، فخرجتُ فسمعتُ حين جئتُ مكة مثلاً ما سمعت حين دخلتُ مكة تلك اللَّيلة ، فجلستُ أنظر ، فضرب الله على أذني ؛ فوالله ما أيقظني إلّا مَسُّ الشمس ؛ فرجعت إلى صاحبي فأخبرته الخبر . ثم ما هممتُ بعدها بسوءٍ حتّى أكرمني الله عزّ وجلّ برسالته ^(١) . (٢ : ٢٧٩) .

= الثقات الذين أخرج لهم البخاري ، ووثقه جماعة من الأئمة الحفاظ ، ولم أر أحداً جرحه مع هذا ، وفي حديثه هذا غرابة . وقال ابن حجر : رجاله ثقات وليس فيه سوى هذه اللفظة فيحتمل أنها مدرجة فيه منقطعة من حديث آخر وهما من أحد رواته . قلنا : ولقد ذكر ابن كثير ما في هذه الرواية من الغرائب في البداية والنهاية ، وحكم الذهبي على بطلان هذا الحديث في ميزان الاعتدال .

(١) إسناده ضعيف والحديث حسن صحيح أخرجه الحاكم في المستدرک (٤/٢٤٥) وصححه على شرط مسلم وقال الهيثمي رواه البزار ورجاله ثقات (المجمع ٨/٢٦٦) . قلنا : والحديث ذكره ابن كثير برواية البيهقي من طريق محمد بن إسحاق عن محمد بن عبد الله بن قيس به . . .

ثم قال ابن كثير : وهذا حديث غريب جداً (البداية والنهاية ٢/٢٤٨ . ط . دار الفكر) . قلنا : والحديث ضعفه المحدث الألباني وعقب على تصحيح الحاكم له على شرط مسلم ووافقه الذهبي لهذا التصحيح قائلاً (أي الألباني) : وهو وهم منه لأمرين :

واختلف السلف في سن رسول الله ﷺ حين نبيء كم كانت؟ فقال بعضهم: نبيء رسول الله ﷺ بعدما بنت قريش الكعبة بخمس سنين؛ وبعدها تمت له من مولده أربعون سنة.

ذكر من قال ذلك:

حدثني محمد بن خلف العسقلاني، قال: حدثنا آدم، قال: حدثنا حماد بن سلمة، قال: حدثنا أبو جمرة الضبيعي، عن ابن عباس، قال: بُعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة^(١). (٢: ٢٩٠).

حدثنا عمرو بن علي وابن المثنى، قالوا: حدثنا يحيى بن محمد بن قيس قال: سمعت ربيعة بن أبي عبد الرحمن يذكر عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ بُعث على رأس أربعين^(٢). (٢: ٢٩١).

حدثنا العباس بن الوليد، قال: أخبرني أبي، قال: حدثنا الأوزاعي، قال: حدثني ربيعة بن أبي عبد الرحمن، قال: حدثني أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ بُعث على رأس أربعين^(٣). (٢: ٢٩١).

حدثني ابن عبد الرحيم البرقي، قال: حدثنا عمرو بن أبي سلمة، عن الأوزاعي، قال: حدثني ربيعة بن أبي عبد الرحمن، قال: حدثني أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ بُعث على رأس أربعين^(٤). (٢: ٢٩١).

= - الأول: أن ابن إسحاق إنما يروي له مسلم مقروناً بغيره كما ذكر الذهبي نفسه في الميزان والحاكم لم يروه عنه مقروناً بغيره كما ترى فليس هو على شرط مسلم.

- الثاني: أن محمداً بن عبد الله بن قيس ليس بمشهور العدالة فلم يوثقه غير ابن حبان، وتوثيقه عندما ينفرد به لا يوثق به لأن من قاعدته أن يوثق المجهولين كما أفاده المحققون كالحافظ ابن حجر في اللسان.

(١) قلنا: في إسناده حماد بن سلمة لما كبر ساء حفظه وبقيّة رجاله ثقات وآدم وأبو جمرة من رجال الصحيح والحديث صحيح كما سيأتي بعد قليل.

(٢) حديث أنس حديث صحيح وهو جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس (ح ٣٥٤٧) وفيه (أنزل عليه وهو ابن أربعين) وكذلك (ح ٣٥٤٨).

(٣) حديث صحيح.

(٤) ضعيف.

حدثني أبو شُرْحَبِيلَ الحِمْصِيُّ ، قال : حَدَّثَنِي أَبُو الْيَمَانِ ، قال : حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عِيَّاشَ ، عن يحيى بن سعيد ، عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن ، عن أنس بن مالك ، قال : أنزل على النبي ﷺ وهو ابن أربعين^(١) (٢ : ٢٩١) .

حدثنا ابن المثنى ، قال : حَدَّثَنَا الْحَجَّاجُ بْنُ الْمُنْهَالِ ، قال : حَدَّثَنَا حَمَّادٌ ، قال : حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ ، عن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ ، قال : بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وهو ابن أربعين^(٢) . (٢ : ٢٩١) .

حدثنا ابن المثنى ، قال : حَدَّثَنَا الْحَجَّاجُ ، عن حَمَّادٍ ، قال : أَخْبَرَنَا عَمْرُو ، عن يحيى بن جَعْدَةَ ، أن رسول الله ﷺ قال لفاطمة : إِنَّهُ كَانَ يُعْرِضُ عَلَيَّ الْقُرْآنَ كُلَّ عَامٍ مَرَّةً ؛ وَإِنَّهُ قَدْ عُرِضَ عَلَيَّ الْعَامَ مَرَّتَيْنِ ؛ وَإِنَّهُ قَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنْ أَجْلِيَ قَدْ حَضَرَ ؛ وَأَنْ أَوَّلَ أَهْلِي لِحَاقًا بِي أَنْتِ ؛ وَإِنَّهُ لَمْ يُبْعَثْ نَبِيٌّ إِلَّا بُعِثَ الَّذِي بَعْدَهُ بِنَصْفٍ مِنْ عَمْرِهِ ، وَبُعِثَ عِيسَى لِأَرْبَعِينَ ، وَبُعِثْتُ لْعَشْرِينَ^(٣) . (٢ : ٢٩١) .

حدثني عبيد الله بن محمد الوراق ، قال : حَدَّثَنَا رَوْحُ بْنُ عِبَادَةَ ، قال : حَدَّثَنَا هِشَامٌ ، قال : حَدَّثَنَا عِكْرَمَةُ ، عن ابن عباس ، قال : بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَرْبَعِينَ سَنَةً ، فَمَكَثَ بِمَكَّةَ ثَلَاثَ عَشْرَةِ سَنَةً^(٤) . (٢ : ٢٩٢) .

حدثنا أبو كُرَيْبٍ ، قال : حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ وَمُحَمَّدُ بْنُ مَيْمُونُ الزَّعْفَرَانِيُّ ، عن هِشَامِ بْنِ حَسَّانٍ ، عن عِكْرَمَةَ ، عن ابن عباس ، قال : بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، فَمَكَثَ بِمَكَّةَ ثَلَاثَ عَشْرَةِ سَنَةً^(٥) . (٢ : ٢٩٢) .

* * *

(١) صحيح .

(٢) صحيح .

(٣) صحيح .

(٤) صحيح .

(٥) صحيح .

فهرس الموضوعات

٥	المقدمة
	أولاً
٥	١ - تعريف التاريخ
٦	أسباب اهتمام الأمة المسلمة بكتابة التاريخ
٩	نشأة التاريخ عند المسلمين رواية ثم تدويناً وتبويباً أو تصنيفاً
١١	أ - مدرسة المدينة
١٢	ب - مدرسة الشام
١٢	ج - مدرسة مصر في التاريخ
١٣	د - مدرسة العراق
١٣	هـ - مدرسة اليمن
١٤	الأخباريون الثقاة وغير الثقاة
٢٠	النصف الثاني من القرن الهجري الثالث وظهور المؤرخين الكبار أو العمالقة
٢٣	الإمام المؤرخ المحدث المفسر محمد بن جرير الطبري
٢٣	عصره
٢٤	نشأته وطلبه للعلم ورحلاته
٢٥	أقوال العلماء فيه وترجمتهم له
٢٦	وفاته
٢٧	شيوخه في التاريخ
٣١	الطبري مؤرخاً ومنهجه في التأريخ ماله وما عليه
٣٢	ميزات منهج الطبري في تأريخه
٣٥	النقد الموجّه لتأريخ الطبري

٣٨ الطبري والتفسير الإسلامي للتأريخ
٣٨ نقد الرواية التاريخية ومسألة إعادة كتابة التأريخ الإسلامي
٤٣ الشروط والضوابط المنهجية لكتابة التأريخ الإسلامي
٤٧ فصل من كتاب إسلامية المعرفة ، مخطط مقترح لإسلامية علم التأريخ
	ثانياً
٦١ كتاب تاريخ الطبري
	ثالثاً
٧٣ الإمام الطبري مؤرخاً
٧٣ المبحث الأول : علم التأريخ والطبري
٧٣ أولاً : تعريف علم التاريخ
٧٤ ثانياً : أهمية علم التاريخ ومشروعيته
٧٦ ثالثاً : تدوين علم التاريخ
٧٧ رابعاً : الطبري يدرس التاريخ
٧٩ المبحث الثاني : كتب الطبري في التاريخ
٧٩ أولاً : ذيل المذيل للطبري
٨١ ثانياً : تاريخ الأمم والملوك
٨٢ ثالثاً : محتويات تاريخ الأمم والملوك
٨٥ رابعاً : مصادر الطبري في تاريخه
٨٨ خامساً : أهمية تاريخ الطبري وقيمه العلمية
٩٠ سادساً : ثناء العلماء على تاريخ الطبري
٩٢ سابعاً : ذبول تاريخ الطبري وتكملاته
٩٤ ثامناً : مختصرات تاريخ الطبري وترجماته
٩٥ تاسعاً : تحقيق تاريخ الطبري وطبعه ونشره
٩٩ المبحث الثالث : منهج الطبري في تاريخه
٩٩ أولاً : المنهجية عند الطبري
١٠٠ ثانياً : سمات منهج الطبري في التاريخ قبل الإسلام
١٠١ ثالثاً : معالم منهج الطبري في التاريخ الإسلامي
١٠١ ١ - نظام الحوليات

- ٢- نقل الروايات ١٠٢
- ٣- الاعتماد على المصادر ١٠٤
- ٤- جمع الأخبار وضبط النصوص ١٠٥
- ٥- الاستطراد في ذكر الأسباب والتفصيلات المصاحبة ١٠٥
- ٦- وضع العناوين للأحداث ١٠٥
- ٧- التوسع في سيرة الخلفاء ١٠٦
- ٨- الإكثار من الوثائق التاريخية ١٠٦
- ٩- تسجيل النصوص الأدبية ١٠٦
- رابعاً: المآخذ على تاريخ الطبري ١٠٧
- خامساً: المآخذ على منهج الطبري ١١٠
- رابعاً
- تاريخ الطبري - قسم الصحيح ١١٥
- تراجم رواة أسانيد الطبري ١١٧
- الكنى ١٤٩
- مقدمة الطبري ١٥٥
- القول في الزمان ما هو ١٥٨
- القول في كم قدر جميع الزمان من ابتدائه إلى انتهائه وأوله إلى آخره ١٥٩
- القول في الدلالة على حدوث الأوقات والأزمان والليل والنهار ١٦٦
- القول في الإبانة عن فناء الزمان والليل والنهار وأن لا شيء يبقى ١٦٦
- غير الله تعالى ذكره ١٦٧
- القول في الدلالة على أن الله عز وجل القديم الأول قبل كل شيء وأنه ١٦٨
- هو المحدث كل شيء بقدرته تعالى ذكره ١٦٨
- القول في ابتداء الخلق ما كان أوله ١٧١
- القول في الذي ثنى خلق القلم ١٧٥
- القول فيما خلق الله في كل يوم من الأيام الستة التي ذكر الله في كتابه أنه ١٧٩
- خلق فيهن السموات والأرض وما بينهما ١٧٩
- القول في الليل والنهار أيهما خلق قبل صاحبه وفي بدء خلق الشمس ١٨١
- والقمر وصفتهما إذ كانت الأزمنة تعرف ١٨١

- ذكر السبب الذي به هلك عدو الله وسولت له نفسه من أجله الاستكبار
 على ربه عز وجل ١٨٢
- الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة الواردة في خلق إبليس وقصته مع
 آدم عليه السلام ١٨٣
- القول في قدر مكث آدم في الجنة ووقت خلق الله عز وجل إياه ووقت
 إهباطه إياه من السماء إلى الأرض ١٩٢
- ذكر الوقت الذي فيه خلق آدم عليه السلام من يوم الجمعة والوقت الذي
 أهبط إلى الأرض ١٩٤
- القول في الموضع الذي أهبط آدم وحواء إليه من الأرض حين أهبطا إليها . ١٩٥
- ذكر الأحداث التي كانت في عهد آدم عليه السلام بعد أن أهبط إلى الأرض .. ١٩٩
- ذكر وفاة آدم عليه السلام ٢٠١
- نبيُّ الله آدم عليه السلام ٢٠٧
- ذكر الأحداث التي كانت في أيام بني آدم من لدن ملك شيث بن آدم إلى
 أيام يرد ٢١٣
- نبي الله إدريس عليه السلام ٢١٤
- ذكر الأحداث التي كانت في عهد نوح عليه السلام ٢١٥
- نوح في القرآن ٢١٧
- عبادة الأصنام ٢٢١
- نوح يدعو لعبادة الله ٢٢٢
- صنع السفينة ٢٢٥
- محتويات السفينة ٢٢٦
- نهاية الطوفان ٢٢٧
- ذكر الأحداث التي كانت بين نوح وإبراهيم خليل الرحمن عليهما السلام .. ٢٢٨
- ذكر إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام وذكر من كان في عصره من
 ملوك العجم ٢٣٢
- ذكر أمر بناء البيت ٢٣٧
- ذكر ابتلاء الله إبراهيم بكلمات ٢٤٢

٢٤٣	ذكر لوط بن هاران وقومه
٢٤٤	نبيُّ الله لوط عليه السلام
٢٤٧	لوط والشواذ
٢٥٠	عقابهم
٢٥١	نبيُّ الله إبراهيم الخليل عليه السلام
٢٥١	دعوته لأبيه
٢٥٣	عبادة الكواكب
٢٥٣	البابليون وعبادة الأصنام
٢٥٥	موقفه من الأصنام
٢٥٦	حرق إبراهيم
٢٥٨	مناظرة إبراهيم مع خصمه
٢٥٩	هجرة الخليل عليه السلام
٢٦١	هجرة إبراهيم بابنه إسماعيل وأمه
٢٦٤	قصة الذبيح
٢٦٧	نبيُّ الله إسحاق عليه السلام
٢٦٧	مولده
٢٦٩	بناء البيت العتيق
٢٧٢	ثناء الله على خليله إبراهيم
٢٧٩	نبيُّ الله أيوب عليه السلام
٢٧٩	ابتلاؤه بالمرض
٢٨٠	شفأؤه
٢٨١	نبيُّ الله شعيب عليه السلام
٢٨١	قصة مدين في القرآن
٢٨٢	مدين وشعيب
٢٨٩	نبيُّ الله يوسف عليه السلام
٢٨٩	من الأمور العجيبة في حياة إسرائيل
٢٩٠	حلم يوسف عليه السلام
٢٩٣	انتقاله من الجب إلى بيت عزيز مصر

٢٩٥	وشهد شاهد من أهلها
٢٩٧	سجن يوسف عليه السلام
٢٩٨	خروج يوسف من السجن
٣٠٠	تولي يوسف وزارة المالية
٣٠٦	يوسف وأبواه
٣٠٧	ذكر يعقوب وأولاده
٣١٤	قصة الخضر وخبره وخبر موسى وفتاه يوشع عليه السلام
٣٢٢	نبيُّ الله موسى عليه السلام
٣٢٣	قتل غلمان بني إسرائيل
٣٢٣	طفولة موسى في بيت فرعون
٣٢٥	إقامة موسى في مدين
٣٣٦	موسى والسحرة
٣٤١	كبار قوم فرعون يحرضونه على إيذاء موسى
٣٥٢	ذكر يوشع بن نون عليه السلام
٣٥٤	ذكر خبر داود عليه السلام
٣٥٦	ذكر خبر سليمان بن داود عليهما السلام
٣٥٦	نبيُّ الله سُليمان عليه السلام
٣٥٦	وراثة النبوة
٣٦٤	نبيُّ الله زكريا عليه السلام
٣٦٤	قصة زكريا ويحيى عليهما السلام
٣٦٩	نبيُّ الله عيسى عليه السلام
٣٧٤	ميلاد عيسى ابن مريم
٣٨٠	تنزيه الله عن الولد
٣٨٤	رفع عيسى والكذب في دعوى الصلب
٣٨٥	نبيُّ الله يُونس عليه السلام
٣٨٥	يونس في القرآن
٣٨٥	موقف أهل نينوى
٣٨٦	ابتلاع الحوت يونس

٣٨٨ فضل يونس عليه السلام
٣٨٨ قوم يس
٣٩٠ ذكر الخبر عن أصحاب الكهف
٣٩١ يونس بن متى
٣٩٢ إرسال الله رسله الثلاثة
٣٩٢ ذكر بقية خبر تُبَع أيام قباذ وزمن أنوشروان
٣٩٣ ذكر مولد رسول الله ﷺ
٣٩٥ ذكر رسول الله ﷺ
٤٠١ فهرس الموضوعات

